مجلة «الفكر اللسانيّ»
مـجــلّة علـميّة محكّمة ومتخصّصة

مخبر «المباحث الدلاليّة
واللّسانيات الحاسوبيّة»



أسّس سنة :2018

مجلة «الفكر اللسانيّ»

مـجــلّة علـميّة محكّمة ومتخصّصة

العدد العاشر	جوان 2026

كليّة الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة 2010 تونس
الهاتف القارّ: 216.71.600.700 (المكتب 1173)
البريد الإلكتروني: alfikr.alissani@gmail.com

إدارة المجلة

المدير المؤسّس :

أ. د. عبدالسلام عيساوي

إدارة التّحرير

رئيس التّحرير:

أ. د. خالد ميلاد

نائبا الرئيس :

- أ.د. فرح زعيّم
- أ.د. لبنى بن سالم

نظرة في كتاب :

- **في العربيّة** : أ.د. المنصف عاشور ـ أ. د. شمس الدين الرحالي، أ. د. وسام العريبي
- **في الأنجليزيّة** : أ.د فتحي هلال. أ.د نادية بوشهيوة
- **في الفـرنسيّة** : أ.د ثرياء بن عمر، أ.د إيناس بن رجب، أ.د هند السوداني

هيئة التحرير

- أ.د. خالد ميلاد
- أ.د. مليكة الولباني
- أ.د.عبد السلام عيساوي
- أ.د. إبراهيم بن مراد
- أ.د. شكري مبخوت
- أ.د. العادل خضر
- أ.د.نور الهدى باديس
- أ.د.توفيق قريرة
- أ.د. شكري السعديّ
- أ.د. سامية قصاب الشرفي
- أ.د. فرح زعيّم
- أ.د لبنى بن سالم
- أ.د شمس الدين الرحالي
- أ.د. وسام العريبيّ
- أ.د. هند السوداني
- أ.د. صابر الحباشة

تمّ طبع هذه المجلّة في

الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم

SOTEPA GRAPHIC

12, نهج الخيرية- 1002 تونس, البلفدير

الهاتف : 933 901 71 / 380 904 71

البريد الالكتروني Sotepagraphic@yahoo.fr

الهيئة العلميّة الموسّعة

• **من المغرب**: أ.د محمد غاليم، أ.د أحمد المتوكّل، أ.د. محمد الخطابي، أ.د. محمد الرحالي، أ.د. عبدالسلام اسماعيلي علوي، أ.د. حافظ إسماعيلي علوي.
• **من الجزائر**: أ.د. صالح بلعيد، أ.د. مسعود الصحراوي، أ.د. عايدة حوشيّ.
• **من السعوديّة**: أ.د. نوال الحلوة، أ.د. عبدالرحمان فهد، أ.د. علي بن موسى بن محمد شبير .
• **من قطر**: أ.د. علي الكبيسي، أ.د. رشيد بوزيان، أ.د. أحمد صفر.
• **من عمان**: أ.د. خليفة بن أحمد القصابي، أ.د. حمود النوفلي، أ.د. زاهر الداودي.
• **من الإمارات**: أ.د. لعبيدي بوعبد الله، أ.د. عماد بن أحمد الزبن.
• **من مصر**: أ.د. عمرو مدكور.
• **من سوريا**: أ.د. سامر رضوان.
• **من فرنسا**: أ.د. فرانسوا راستيي، أ.د. جاك لوفي.
• **من أستراليا**: أ.د. جوزيف لوبيانكو (جامعة ملبورن).

التعريف بالمجلة

هي مجلّة علميّة محكّمة متخصّصة في نشر الدراسات التي تتنزّل في المباحث اللّسانيّة والعلوم اللّغويّة والمعجميّة تشرف عليها هيئة علميّة دوليّة تتألّف من كبار الأساتذة والباحثين والأكاديميين. تهدف هذه المجلّة إلى نشر المعرفة اللّسانيّة وتعميمها وإيصال التفكير اللغويّ وفلسفته إلى المتقبلين المتخصّصين في علم اللسانيات والتعريف بالمحاولات العلميّة القيّمة، التي ينشط لها الباحثون استثمارا لطاقاتهم ورؤاهم في التجديد والإضافة المعرفيّة وتطوير أساليب التفكير ومناهج التحليل وطرائق المعالجة ومواكبة جديد النظريات.

هي مجلّة فصليّة وتصدر بثلاثة ألسن (عربيّة، فرنسيّة وانجليزية) تعتمد الهيئة العلميّة في تحريرها على معايير علميّة صارمة وشروط منهجيّة دقيقة وملزمة تساير حركة البحث العلميّ العالميّ وتساير مستجداته.

وستدور أعمال المجلّة في كلّ عدد على محور من محاور البحث اللسانيّ في مختلف اتّجاهاته وأطواره وآلياته ممّا تقترحه الهيئة العلميّة وممّا يواكب نبض القضايا وجديد النظريات، وممّا يؤصّل أيضا لتاريخ التفكير اللسانيّ من المرحلة الكلاسيكيّة إلى المرحلة الحديثة.

ولا تقتصر أعمال المجلّة على المقالات اللسانيّة فحسب إنّما تنفتح على كلّ المباحث التي تستثمر اللّسانيات نتائجها وتتّخذ منها خلفيّة نظريّة وأساسا مرجعيّا شأن علم النفس وفلسفة اللّغة والعلوم العصبيّة وعلوم الإعلاميّة والبيولوجيا والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة... وذلك تعزيزا وتوسيعا لآفاقها وتكثيفا لمادتها وتنمية لصلات الوصل بين اللّغة ومختلف العلوم.

وستعمل المجلّة على إشهار البحوث والباحثين وتضمن جميع حقوقهم الفكريّة والأدبيّة.

دليل الباحث: مجلة الفكر اللّساني

يقدم الباحث مخطوط بحثه بما يتوافق مع تعليمات النشر في مجلة الفكر اللساني الواردة أدناه:

المرسلات للمجلة: عناوين التراسل-

ترسل البحوث بصيغة word مرفقة بخطاب طلب نشر إلى إدارة هيئة التحرير موجهة لرئيس هيئة التحرير على البريد الالكتروني الخاص بالمجلة ويشترط أن تكون المشاركات مصححة ومراجعة ومتوافقة مع معايير النشر وقواعده في المجلة الموضحة في هذا الدليل:

- البريد الالكتروني: alfikr.alissani@gmail.com
- مقر المجلّة: كليّة الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، 2010 تونس.

رقم الهاتف القارّ: 216.71.600.700 (المكتب: 1173).

رقم الهاتف الجوال: 760 391 52 .216 - 547 352 98 .216

شروط النشر ومعاييره

يُرجى من الباحثين المقبلين على نشر مقالاتهم في مجلّة «**الفكر اللّسانيّ**» أن يتقيّدوا بالضّوابط والإرشادات الآتية:

أوّلًا: متطلّبات إعداد المخطوط

1) تنسيق النص

- هوامش 1.5 بوصة، وتباعد مزدوج بين السطور.
- اعتماد أسلوب شيكاغو في التوثيق (Chicago Manual of Style).

2) الملخّصات والكلمات المفاتيح

- ملخّص بالعربيّة (حتى 150 كلمة) وآخر بالإنكليزيّة أو بالفرنسيّة.
- (من 5 إلى 8) كلمات مفتاحيّة بالعربيّة والإنكليزيّة أو الفرنسيّة.

3) البنية والعناوين

- عنوان رئيس بخطّ غامق.
- عنوان مستوى ثان بخطّ غامق مائل.
- عنوان مستوى ثالث بخطّ عاديّ.
- إزاحة (Tab) لأوّل كلّ فقرة.

4) الخط والحجم

* نوع الخطّ: صقّال مجلة (Sakkal Majalla)
* حجم الخطّ: 16 للعناوين و14 للمتن و12 للهوامش.
* عدد كلمات المقال (بما في ذلك المراجع والملاحق والصّور): بين 5 و10 آلاف كلمة.
* يجب إثبات الشّدّات حيث وجدت ووضع تنوين الفتح على الحرف الأخير لا على الألف: (مثال: الصواب: كتب شيئًا، والخطأ: كتب شيئاً).
* توضع أرقام الهوامش متسلسلة آليًّا أسفل الصفحة.

5) علامات التنقيط

- علامات التنقيط خارج علامات الاقتباس.
- رقم الهامش قبل علامة التنقيط.

ثانيًا: التّوثيق العلميّ

1) الإحالات في الهوامش

أ. كتاب

تمّام حسّان، اللّغة العربيّة معناها ومبناها (القاهرة: عالم الكتب، 2006)، 115.

ب. مقال في كتاب محرَّر

عبد الله صولة، «البلاغة العربيّة في ثوب عرفانيّ: الاستعارة وعلاقتها بالمستوى القاعدي نموذجًا» في في مفترق الكلمات أعمال مهداة للأستاذ الطيب البكوش، تحرير صالح الماجري (تونس: جامعة سوسة/ جامعة باريس 13، د.ت.)، 37-55.

ج. مقال في مجلّة

وليد العناتي، «مقدّمة في اللسانيّات الجنائية: رؤية لُسَانية تطبيقية»، المجلّة العربية للعلوم الإنسانيّة 41، العدد 164 (2023): 309-346.

د. أطروحة جامعية

شكري المبخوت، «إنشاء النفي وشروطه النحوية الدلالية» (أطروحة دكتوراه، جامعة منوبة، 2006)، 42.

2) الإحالات المختصرة

- حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، 115.
- صولة، «البلاغة العربية في ثوب عرفاني»، 37.
- العناتي، «مقدمة في اللسانيات الجنائية»، 312.
- المبخوت، «إنشاء النفي»، 42.

عند الإحالة المتتابعة لمصدر واحد:

المصدر نفسه، 48.

ثالثًا: قائمة المراجع (مرتّبة ألفبائيًّا)

1) كتب

حسان، تمام. اللغة العربية معناها ومبناها. القاهرة: عالم الكتب، 2006.

المبخوت، شكري. إنشاء النفي وشروطه النحوية الدلالية. تونس: مركز النشر الجامعي، 2006.

2) مقالات في كتب محرَّرة

صولة، عبد الله، «البلاغة العربيّة في ثوب عرفانيّ: الاستعارة وعلاقتها بالمستوى القاعديّ نموذجًا» في في مفترق الكلمات أعمال مهداة للأستاذ الطيّب البكّوش، تحرير صالح الماجري (تونس: جامعة سوسة/ جامعة باريس 13، د.ت.)، 37–55.

3) مقالات مجلات

العناتي، وليد، «مقدّمة في اللّسانيّات الجنائية: رؤية لُسَانية تطبيقية»، المجلّة العربية للعلوم الإنسانيّة 41، العدد 164 (2023): 309–346.

4) أطروحات جامعية

المبخوت، شكري، «إنشاء النّفي وشروطه النّحويّة الدّلاليّة» (أطروحة دكتوراه، جامعة منّوبة، 2006).

رابعًا: تعليمات عامّة

- **يخضع البحث للتّحكيم المزدوج السّرّي.**
- **يشترط ألّا يكون البحث منشورًا أو مقدّمًا للنشر في مكان آخر.**
- **تُرفض المقالات غير المطابقة لشروط النشر.**

Les conditions et critères de publication

Les auteurs souhaitant soumettre un article à la revue « Al Fikr al Lissânî» (La pensée linguistique) sont priés de se conformer aux règles suivantes :

Exigences relatives à la préparation du manuscrit

1. Mise en page

- Marges de 1,5 pouce (tous côtés), interligne double.
- Respect du style d'écriture, de ponctuation et de mise en forme selon le *Chicago Manual of Style*, **adapté aux usages typographiques francophones**.

2. Résumés et mots-clés

- Fournir un résumé en arabe (maximum 150 mots) et un résumé en français ou en anglais (selon la langue de l'article).
- Ajouter de 5 à 8 mots-clés, en arabe et en français ou en anglais.

3. Structure et rubriquage

- Titre principal en gras.
- Sous-titre de niveau 2 en gras italique.
- Sous-titre de niveau 3 en style normal.
- Indenter (tabulation) le début de chaque paragraphe.

4. Police et taille

- Type de police : Times New Roman
- Taille de la police : 14 pour les titres, 12 pour le texte et 10 pour les marges.

5. Ponctuation citationnelle

- Les signes de ponctuation se placent à l'extérieur des guillemets, conformément aux usages typographiques français.
- Le numéro de référence de la note de bas de page se place avant le signe de ponctuation.

Référencement scientifique

1) Références en notes de bas de page

a. Livre

◪ **Exemple:**

- Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale (Paris : Éditions Minuit, 1966), 115.

b. Article dans un ouvrage collectif

◪ **Exemple :**

- Salah Mejri, « Introduction : Polysémie et polylexicalité », dans Syntaxe & Sémantique, no 5 (Caen : Presses universitaires de Caen, 2004), 13–30.

c. Article de revue

◪ **Exemple :**

- Claude Kannas, « Jean Dubois et la lexicographie », *LINX*, nos 34–35 (1996) : 21–25.

d. Thèse universitaire

◪ **Exemple :**

- Nom, Prénom, « Titre de la thèse » (thèse de doctorat, Nom de l'université, année), page(s) concernée(s).

2) Références abrégées (notes courtes)

- Benveniste, *Problèmes de linguistique générale*, 115.
- Mejri, « Introduction : Polysémie… », 15.
- Kannas, « Jean Dubois et la lexicographie », 22.
- (Nom de l'auteur), « Titre abrégé », page.

En cas de référence consécutive au même ouvrage : *Ibid.*, page.

Bibliographie (classée alphabétiquement)

Livres

- Benveniste, Émile. Problèmes de linguistique générale. Paris : Éditions Minuit, 1966.

Articles dans des ouvrages collectifs

- Mejri, Salah. « Introduction : Polysémie et polylexicalité. » Dans Syntaxe & Sémantique, no 5 (2004), 13–30. Caen : Presses universitaires de Caen.

Articles de revues

- Kannas, Claude. « Jean Dubois et la lexicographie. » LINX, nos 34–35 (1996) : 21–25.

Thèses

- Nom de l'auteur. « Titre de la thèse. » Thèse de doctorat, Nom de l'université, année.

Directives générales

- Les articles sont soumis à une évaluation en double aveugle.
- Le travail soumis ne doit pas être publié ailleurs ni en cours d'évaluation.
- Tout manuscrit ne respectant pas ces normes sera rejeté.

Publication Conditions and Criteria

Authors wishing to submit an article to the journal "Al Fikr al Lissânî" (Linguistic Thought) are requested to comply with the following rules:

Requirements for Manuscript Preparation

1. Formatting

- Margins of 1.5 inches on all sides, with double line spacing.
- The writing style, punctuation, and formatting must follow the Chicago Manual of Style, adapted to French typographical conventions.

2. Abstracts and Keywords

- Provide an Arabic abstract of no more than 150 words, as well as a French or English abstract, depending on the language of the article.
- Add 5 to 8 keywords, in Arabic, and in French or English.

3. Structure and Headings

- Main title: bold.
- Level 2 heading: bold italic.
- Level 3 heading: regular font.
- Indent the beginning of each paragraph using a tab.

4. Font and Size

- Font type : Times New Roman.
- Font size: 14 pt for titles, 12 pt for the main text, and 10 pt for margins/footnotes.

5. Citation Punctuation

- Punctuation marks should be placed outside quotation marks, in accordance with French typographical conventions.
- The footnote reference number should be placed before the punctuation mark.

Referencing

1. References in Footnotes

a. Book

◪ **Example:**

- Émile Benveniste, Problems in General Linguistics (Paris: Éditions Minuit, 1966), 115.

b. Chapter/Article in an Edited Volume

◪ **Example:**

- Salah Mejri, "Introduction: Polysemy and Polylexicality," in Syntaxe & Sémantique, no. 5 (Caen: Presses universitaires de Caen, 2004), 13–30.

c. Journal Article

◪ **Example:**

- Claude Kannas, "Jean Dubois and Lexicography," LINX, nos. 34–35 (1996): 21–25.

d. Dissertation/Thesis

◪ **Example:**

- Author's Last Name, First Name, "Title of the Thesis" (doctoral dissertation, Name of University, year), relevant page(s).

2. Shortened References (Short Notes)

- Benveniste, Problems in General Linguistics, 115.
- Mejri, "Introduction: Polysemy…," 15.
- Kannas, "Jean Dubois and Lexicography," 22.
- (Author's Last Name), "Abbreviated Title," page.
- For a subsequent reference to the same work:
- Ibid., page.

Bibliography (List of References)

- (Alphabetically arranged)

Books

- Benveniste, Émile. Problems in General Linguistics. Paris: Éditions Minuit, 1966.

Articles in Edited Volumes

- Mejri, Salah. "Introduction: Polysemy and Polylexicality." In Syntaxe & Sémantique, no. 5 (2004), 13–30. Caen: Presses universitaires de Caen.

Journal Articles

- Kannas, Claude. "Jean Dubois and Lexicography." LINX, nos. 34–35 (1996): 21–25.
- Theses/Dissertations
- Author's Last Name. "Title of the Thesis." Doctoral dissertation, Name of University, year.
- General Guidelines
- Articles are subject to double-blind peer review.
- The submitted work must not have been published elsewhere or be under review elsewhere.
- Any manuscript that does not comply with these guidelines will be rejected.

الفهرس

أي معنى لمعيار الشيوع في تعريف المتلازمة المعجميّة؟ **د. نجلاء شعير** المعهد العالي للغات، جامعة قرطاج، تونس	17
من قضايا تعليميّات اللّغات **د. وداد نور الدّين منصوري** جامعة الوصل، الإمارات العربيّة المتّحدة	49
التناص ووظائفه النصية في سورة الزمر: تأصيل المفهوم، وضوابط التّطبيق **د. محمّد حسن خلف** **د.حافظ إسماعيلي علوي** كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، جامعة الشّارقة، الإمارات العربيّة المتّحدة	87
مَا أُشْكِلَ فِي «جَحْلَنْجَعٍ» **د. جليلة يعقوب** كلّيّة الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، جامعة منوبة، تونس	137
الألوان في عرفان الأكمه **د. وليد الزيدي** كلّيّة الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، جامعة منوبة، تونس	167
نحو الغموض : الخصائص والنّتائج **د. سمير الأزهر جوّادي** كلّيّة الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، جامعة منوبة، تونس	179
الاستعارة السوسيوبيولوجية في مواجهة هندسة النُّظُم الفراكتالية: إعادة التشكيل الإبستمولوجي في دراسات الترجمة بين تشيسترمان وفيليكوفسكي **د. زهير بوحولي** كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، تونس	213

أي معنى لمعيار الشيوع في تعريف المتلازمة المعجميّة؟

د. نجلاء شعير

مخبر المباحث الدلاليّة واللّسانيّات الحاسوبيّة (LR18ES46)
المعهد العالي للغات، جامعة قرطاج، تونس

الملخّص:

يهدف هذا البحث إلى مراجعة خاصيّة من أهمّ الخاصيّات التي تعرّف بها العبارات التلازميّة في الأبحاث اللسانية الحديثة هي خاصيّة الشيوع ويميل إلى نقدها وتنسيب اعتبارها معيارا حاسما في تحديد المتلازمات.

ويميّز البحث بوضوح بين التكلّس البنيوي في تلك العبارات وبين شيوعها وتداولها وينفي أن يكون الشيوع سببا في تكلّسها المعجمي وتحوّلها إلى عبارات تلازميّة لأنّ العبارات التلازميّة ليست على نفس الدرجة من التداول والشيوع فبعض العبارات واسعة الانتشار في حين تظل عبارات أخرى محدودة التداول دون أن ينفي عنها ذلك صفتها التلازمية.

ويميل البحث إلى تأكيد أن المتلازمة المعجمية صنف من الوحدات المعجمية ذات بنية معجمية مكتملة ومستقرة وهو ما يكسبها الخاصيّة التلازمية أو الاصطلاحية عند توليدها المعجميّ ولذلك فإنّ الشيوع أمر لاحق للتكوّن المعجميّ ولا يصحّ اعتباره شرطا لازما لتعريفها أو الحكم على اصطلاحيتها.

الكلمات المفاتيح: متلازمة معجميّة – معيار الشيوع – التكلّس المعجميّ – بنية معجميّة.

Abstract:

This study aims to re-examine one of the key properties commonly used in contemporary linguistic research to define collocational expressions, namely frequency of occurrence, and to question the validity of treating it as a decisive criterion for identifying lexical collocations.

The study draws a clear distinction between the structural fixedness of these expressions and their frequency and distribution in actual usage. It challenges the assumption that frequency is the factor responsible for their lexical fixedness and their development into collocational expressions. Collocations do not all exhibit the same degree of frequency or circulation: some are widely attested and frequently used, whereas others remain relatively restricted in use, without this difference undermining their collocational status.

The study argues that lexical collocations constitute a category of lexical units endowed, from the outset of their lexical formation, with a complete and stable lexical structure that gives them their collocational or phraseological properties. Frequency of use should therefore be regarded as subsequent to lexical formation and should not be considered a necessary condition for defining a collocation or determining its phraseological status.

Keywords : lexical collocation – frequency criterion – lexical fixedness – lexical structure.

تقديم:

يُعدّ معيار الشّيوع معيارا مركزيّا في تعريف المتلازمة اللّفظيّة والمتلازمة المعجميّة على حدّ السّواء[1]. فرغم اختلاف الباحثين اللّسانيين في حدود كل

(1) نتبنّى في هذا البحث ما جاء في مشروع بحث فريق المتلازمات المعجميّة التابع لمخبر «المباحث الدلاليّة والسانيات الحاسوبيّة» بكلية الآداب بمنوبة (تونس) وقد كنّا عضوا منه، وفيه تمييز واضح بين نوعين من التلازم: تلازم لفظي يقوم على توارد عفوي لبعض المفردات في الاستعمال من قبيل «صباح الخير» و«أهلا وسهلا» و«ما شاء الله» و«إن شاء الله»... وتلازم معجمي يقوم على تكلّس تعبير ما وتحوّله إلى وحدة معجميّة من قبيل «استمسك بالعروة الوثقى» و«لقي حتفه» و«تربّص به ريب المنون»، والبحث يحاول توضيح موقف فريق المتلازمات المعجمية من معيار الشيوع الذي تمّ إسقاطه من قائمة المعايير المعتمدة في

منهما وفي مقاييس ضبطهما، فإنّ الاتّفاق بينهم يكاد يكون حاصلا في إقرار الشّيوع معيارا مميّزا لهما، وقد سار هذا الرّأي في الأبحاث الّتي عنيت بالتّلازم سيرا طبيعيّا أقرب ما يكون إلى المسلّمة البديهيّة الّتي لا تحتاج إلى مراجعة أو تعديل[2].

ولكنّنا لا نميل في هذا البحث إلى الوثوق في هذا المعيار وثوقا تامّا، وميلنا إلى إبطاله في تعريف المتلازمة المعجميّة أكثر متانة منه في تعريف المتلازمة اللّفظيّة لأن الشّيوع في التّلازم اللّفظيّ يسير الاختبار، يكفي في ذلك اعتماد مقياس توارد عناصره اللّفظيّة في الاستعمال مثلا؛ غير أنّ الأمر في المتلازمة المعجميّة مختلف تماما لأنّ بعض العبارات قد لا تكون شائعة بين الجماعة اللغويّة الواحدة ورغم ذلك تصنّف عند البعض الآخر وحتى في القواميس متلازمات معجميّة.

سنحاول في هذا البحث إذن أن نبيّن ضعف معيار الشيوع[3] في تعريف المتلازمة المعجميّة، وقد اخترنا في البداية أن نخصص النظر في متلازمات القرآن تحديدا، وهذا قد يعلل مبدئيّا قبولنا لعبارات تلازميّة نشأت مع ظهور القرآن أو تكلّست بذلك الشكل بعد تلك الفترة، غايتنا بالأساس أن نوضّح أن المتلازمات المعجميّة صنف من الوحدات المعجميّة المكتملة بنية ودلالة ولا تحتاج إلى صكّ الشيوع ضرورة لتعبُر به إلى صنف المتلازمات المعجميّة. ثم اخترنا لاحقا أن نعتمد منهجا مقارنيا انتقينا فيه مادّتنا من **المفردات والعبارات** المنتمية إلى حقل «الموت» في المعجم العربيّ، لنكشف عن «التكافؤ المعجميّ» المولّد للصّنفين من الوحدات المعجميّة ونبيّن أن درجة الشيوع ونسبيّته متماثلة في الوحدات البسيطة والعبارات على حدّ السّواء وأنّ ما يسمح بولادة الوحدات

تعريف التلازم المعجميّ، وهو موقف فرضته المدوّنة المعتمدة في المشروع وهي المتلازمات الواردة في القرآن الكريم ثم عمّمه الفريق على سائر المتلازمات المعجمية العربيّة.

(2) Lyons, J: *Semantics*, pp 318-325 ; Palmer, F: *Semantics*, p79.

(3) لسنا سبّاقين إلى هذا التصوّر فقد وُجّهت لمعيار الشيوع نقود كثيرة، واتّفق بعض اللسانيين الذين اشتغلوا على العبارات الاصطلاحيّة Idioms في المدوّنات النّصيّة على محدوديّة هذا المعيار يُنظر مثلا:

Cowie، A. P.: *Semantics and Lexicography*. **Tübingen** : **Max Niemeyer,** 1981**. ; Altenberg, B.** : « **On the phraseology of spoken English** : **The evidence of recurrent word combinations** ». **In A. P. Cowie (Ed.),** *Phraseology* : *Theory, Analysis, and Applications* (**pp**. 101–122). **Oxford** : **Oxford University Press,** 1998.

المعجميّة مهما كان نوعها هو اكتمال بنيتها المعجميّة الداخليّة لا شيوعها، وأنّ شيوع تلك الوحدات وانتشارها مرحلة لاحقة لتكوّنها المعجميّ.

وقسّمنا عملنا لذلك إلى ثلاثة محاور كبرى:

(أ) عرّفنا في العنصر الأوّل المقصود بالتلازم وعلاقته بمعيار الشيوع كما تصوّرنا حدوده في هذا البحث استنادا إلى متلازمات النصّ القرآنيّ.

(ب) بيّنا في العنصر الثاني التكافؤ المعجميّ في تقدير درجة شيوع المفردات والعبارات انطلاقا من معالجتنا لمدوّنة اخترناها في أشكال التعبير عن الموت في المعجم العربي.

(ج) وضّحنا في العنصر الأخير منزلة المتلازمات المعجميّة بين المعجم اللّسانيّ والمعجم المدوّن، وتراجع معيار الشيوع في تأصيل تلك الوحدات قاموسيا.

1 ـ التّلازم المعجميّ ومعيار الشيوع:

يُعرّف التّلازم في المعجم بكونه حالة الوحدة المعجميّة عندما ترد عبارة تجمّعت مفرداتها تجّمعا حرّا وتكلّست بعد شيوع استعمالها بين أفراد الجماعة اللغويّة حتّى اكتسبت بتكلّسها الخصائص التمييزيّة التي تجعل منها فردا معجميّا. ونتيجة بنيتها التأليفيّة المعبّرة عن تجربة الجماعة اللغويّة تلحق تلك الوحدات بصنف الوحدات العباريّة المعجميّة أو المتلازمات المعجميّة[4].

ويكون الاختلاف بينها وبين الوحدات البسيطة والوحدات المركّبة والمعقّدة اختلافا شكليا دلاليّا. أمّا المستوى الشكليّ فيُظهر الوحدات البسيطة وحداتٍ مفردةً تكوّنت من عنصر معجميّ واحد، والوحدات المتضامة معجميّا وحداتٍ مركّبةً تكوّنت من عنصرين أو معقّدة تكوّنت من ثلاثة عناصر فأكثر تكوّنا تجميعيا

(4) إبراهيم بن مراد، «الوحدة المعجمية بين الإفراد والتّضام والتّلازم»، في كتاب الوحدة المعجمية بين المعجم والقاموس (مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، الرياض، 2016)، 48.

لا يقوم على الإسناد، في حين يُظهر المتلازمات وحداتٍ ذات بنى إسناديّة فهي في الأغلب جمل تامّة[5].

وأمّا المستوى الدلاليّ فيظهر في نوع المعنى المعبّر عنه بالوحدات المعجميّة وهو معنى مفرد تعييني إحالي في الوحدات البسيطة والمركبّة والمعقّدة، ولكنّه معنى تأليفيّ مبنيّ على المجاز في المتلازمات، ثم هو لا يحيل إلى عناصر مفردة في الكون بل يعبّر عن تجربة إنسانيّة معقّدة ولذلك يحتاج إلى مراتب مختلفة في الفهم والتأويل.

على أنّ المجاز لا يقتصر على توليد المتلازمات المعجميّة، فبقية الأصناف أيضا يمكن أن تخضع لعمليات تحويل دلاليّ تنتهي بتوليد وحدات جديدة بفضل المجاز، ولكنّ هذا المجاز ينتهي بإدراج تلك الوحدات ضمن علاقة اشتراك دلاليّ، وهو ما لا يحقّقه المجاز المولّد للمتلازمات. ثمّ إنّ المجاز لا يولّد ضرورة المتلازمة المعجميّة، فبعض العبارات يظل المجاز فيها سياقيا ولا ترتقي به إلى مرحلة التعجيم La léxicalisation[6]، فإنّ ما يحقق ذلك التعجيم، أي تحوّل عبارة ما إلى وحدة معجميّة، هو كثرة استعمالها وتداولها إلى درجة تجذّرها في المعجم اللّسانيّ[7]، ومن هنا، على ما يبدو، كان اعتبار تعميم الاستعمال وانتشاره أي شيوعه حاسما في توليد العبارة المعجميّة. وهو تصوّر لا ننكر وجاهته إلى درجة ما ولكنّنا ننكر نزوعه إلى التعميم دون الدّقة، فنحن لا نكاد نعثر في مقترحات أصحابه مَنْ ضبط خصائص معيار الشيوع من قبيل درجاته ومداه وحدوده واستمراره، بل نحن لا نكاد نعثر على مقياس واضح يمكن أن نعتمده لمجرّد التثبّت من صحّة المتلازمة ومن وجودها في المعجم اللّسانيّ للجماعة اللغويّة الواحدة في عصر مّا، ولذلك سنذهب في هذا العمل مذهب جاكندوف في تحليله الدّلالي للعبارات الاصطلاحيّة وللمعنى بصفة عامة[8]، وسنقرّ مثله

(5) زكيّة السائح دحماني، القاموس الاسمائي للأعلام الممعجمة في مدوّنة الأمثال العربيّة، (سلسلة مدارات الكلام، خطوة للنشر، تونس، 2024)، 13_35.

(6) Dickins, James: "Two Models for Metaphor Translation", Target 17(2), 227-273, 2005.

(7) Le Guern, Michel: *sémantique de la métaphore et de la métonymie*. Paris, Larousse, 1973.

(8) Jackendoff, Ray: *Foundations of Language*, pp 147-160.

أن المعاني المولّدة بالتلازم لا تخضع في تكوّنها إلى شروط التداول الاجتماعي ولا يُشتقّ معناها بما تفرضه الجماعة اللغويّة نتيجة كثرة استعمالها، بل سنذهب إلى الإقرار بأنّ «التكلّس» ليس خاصيّة تدريجيّة تتحقق بكثرة الاستعمال، لأنّ التعبير الاصطلاحيّ في نظرنا – وهو صنف من المتلازمات– ذو تمثيلية معجميّة تصوّريّة منعقد مباشرة على البنية المفهوميّة في الذهن.

ولعلّنا نأمل في البحث في القاموس من جهة وفي الاختبار المدوّنيّ[9] من جهة أخرى حلّا لتجاوز هذا الإشكال، فالقواميس، نظريا، يمكنها أن تمدّنا بتعريف شاف لمعاني هذا الصّنف من الوحدات المعجميّة طالما أنّها توثّق للمستعمل من الوحدات لا للمهمل منها، ويمكننا بالرجوع إلى المداخل القاموسيّة أن نتثبّت من دلالتها وبالرجوع إلى المدوّنة التي اخترناها أن نتثبّت من مدى شيوعها، وإن كانت القواميس في أغلبها قواميس لا تعترف بهذا الصنف من الوحدات كمداخل معجميّة وتكتفي بتقديمها في ركن التعريف. وهو ما يجعل بحثنا في القواميس بحثا يحتكم إلى التقدير والحدس، هذا فضلا عمّا يتميّز به منهج وضع القواميس العربيّة ذاته، والقديمة على وجه الخصوص، من انغلاق ناتج عن اعتمادها المنهج الزماني في جمع المادة لا المنهج الآنيّ. ورغم ذلك فإنّنا لا نجد أفضل من هذا المنحى لاختبار درجة الشيوع في المتلازمة، إذ يمكن للقواميس ألاّ توثّق لبعض المتلازمات المتداولة تاريخيا ولكنّه من غير المنطقيّ أن توثّق لمتلازمات غير متداولة فالمادّة القاموسيّة ليست سوى جزء صغير من المادة المعجميّة ككلّ.

وإذا تعلّق الأمر بمتلازمات النصّ القرآني، فإنّه من الممكن أن نختبر درجة شيوعها بالبحث في المدوّنات العربيّة المتاحة، وبتتبّع ما ينقلُ عن أخبار تولّدها بما أنّها صنف تولّده التجربة، سواء كان ذلك قبل نزول القرآن أو بعده، وبحثنا بهذا المنهج جعلنا ننتبه إلى أربع حالات من الشّيوع تكون عليها المتلازمات المعجميّة القرآنيّة، هي:

(أ) صنف تواتر استعماله قبل ظهور النصّ القرآني ثم تجذّر في مصدرنا المعتمد، وهذا الصنف يصحّ القول بشيوعه وانتشاره، وقد نصّت على ذلك مصادر كثيرة، من ذلك مثلا ما جاء في كتاب «غريب القرآن في شعر العرب»

(9) استندنا خاصّة إلى مدوّنة الشاملة وإلى موقع تراث وموقع الموسوعة الشعريّة.

منسوبا إلى ابن عباس من تأكيد لشيوع عبارة «قضى نحبه»، الواردة في سورة الأحزاب الآية 23 في قوله تعالى:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾

وكان نافع بن الأزرق قد سأله عن معناها وعن مدى تداول العرب لها فاستشهد ببيت لبيد بن ربيعة (ت 41 هـ) [10] ونصّه:

ألا تسألان المرء ماذا يحاول ❋ أنخب فيقضى أم ضلال وباطل

ولكنّنا نعثر في نفس السّياق على شاهد أقدم لطرفة بن العبد (ت60 ق هـ)[11] يقول فيه:

قضى نَحْبَهُ، وَجداً عليها مُرَقِّشٌ ❋ وعُلّقْتُ مِنْ سَلمى خَبالاً أُماطله

ثم نعثر أيضا على شاهد لتأبّط شرّا [12] يقول فيه:

قضى نحبه، مستكثرا من جميله ❋ مُقلّا من الفحشاء، والعرضُ وافرُ

والشواهد الثلاثة تُضاف إلى ما جاء في المدوّنة العربيّة منذ نزول النصّ القرآنيّ إلى يومنا هذا من استعمالات متواترة لتأكيد شيوع العبارة وانتشارها.

(ب) صنف تواتر استعماله في النصّ القرآني وبعده مع شح المصادر المخبرة عنه في الجاهليّة، نحو عبارة «تربّص به ريب المنون»، وهي عبارة تمدّنا المدوّنة الجاهليّة باستعمال يتيم لها منسوب إلى الشاعر فراص بن عتبة الأزدي[13]، وكان قد خطب ابنة عم له فرُد عنها وزُوّجت غيره، فقال يُصبّر نفسه:

تربصْ بهَا ريب الْمنون لَعَلَّهَا ❋ تطلق يَوْمًا أَو يَمُوت حَلِيلهَا

(10) عبد الله بن عبّاس، مسائل نافع بن الأزرق (منشورات الشاملة، 1421 ه.)، 1/ 100. وإن كانت العبارة منقولة بشيء من التصحيف على ما يبدو قلبت فيه حاء «نحب» خاء،

(11) طرفة بن العبد، الديوان، (تح مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلميّة، ط 3، بيروت، 2002)، 65.

(12) تأبّط شرا، الديوان (تح علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، 1984)، 84.

(13) ابن هشام الأنصاريّ، مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب (تح: مازن مبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، (جزءان)، دت)، 1/ 320.

وقد نجتهد أكثر في تأويل شيوع العبارة حين ننتبه إلى أنّ سياقها في الآية الكريمة يمكنه أن يثبت شيوعها، فالعبارة وردت على لسان كفّار قريش وهذا يعني فعلا إمكانيّة تداولها.

(ج) صنف تفرّد به النصّ القرآنيّ وأقرّته القواميس القديمة والحديثة، دون أن نعثر له على أيّ شاهد استعماليّ يثبت شيوعه في عصر من العصور، من قبيل عبارة «سُقط في أيديهم» بمعنى ندموا، و«أشربوا في قلوبهم الشيء» بمعنى فتنوا.

(د) صنف جاء في النصّ القرآني على الحقيقة ثم تكلّس وتحوّل إلى متلازمة معجميّة بعد أن اقتبس في استعمالات أدبيّة مختلفة واستقرّ تداوله للتعبير عن تجارب حياتيّة مماثلة، من قبيل عبارتيْ «أتى البيت من ظهره» و«أتى البيت من بابه» الواردتين في سورة البقرة الآية 189:

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

ففي الآية الكريمة حثٌّ على الكفّ عن إتيان البيوت من ظهورها على الحقيقة، ذلك أن العرب قبل الإسلام كانوا إذا «أَحْرَمُوا بِالحَجِّ أَوِ العُمْرَةِ مِن بِلادِهِمْ جَعَلُوا مِن أَحْكامِ الإِحْرامِ أَلّا يَدْخُلَ المُحْرِمُ بَيْتَهُ مِن بابِهِ أَوْ لا يَدْخُلَ تَحْتَ سَقْفٍ يَحُولُ بَيْنَهُ وبَيْنَ السَّماءِ، وكانَ المُحْرِمُونَ إذا أرادُوا أَخْذَ شَيْءٍ مِن بُيُوتِهِمْ تَسَنَّمُوا عَلى ظُهُورِ البُيُوتِ أَوِ اتَّخَذُوا نَقْبًا في ظُهُورِ البُيُوتِ إنْ كانُوا مَن أَهْلِ المَدَرِ، وإنْ كانُوا مِن أَهْلِ الخِيامِ دَخَلُوا خَلْفَ الخَيْمَةِ»[14]، ولكنّ العبارة اتّسعت لغير فضائها وصار من الشائع التعبير بها عن معنى «قضاء الأمر بحسب العرف والشرع ودون تلاعب».

والأصناف الأربعة من المتلازمات كما نرى مختلفة قي درجة شيوعها وبداية ظهورها وانتشارها، فمنها ما كانت درجة الشيوع فيها مرتفعة ومنها ما كانت درجة الشيوع متواضعة ومنها ما كانت باهتة، ورغم ذلك فإن الإقرار بمنزلتها في قائمة المتلازمات أمر لا اختلاف فيه[15]. وقد اختبرنا ذلك بتتبع توارد المتلازمات

(14) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (الدار التونسية للنشر، تونس، 1984)، 2/ 197.

(15) والتصوّر ذاته تبّته بعض الأبحاث الحديثة التي أكّدت في تحليلها لبعض المدوّنات أن

القرآنيّة التي استخرجناها في القواميس القديمة والحديثة على حدّ السواء كما تتبعنا تواردها في السّياق الاستعماليّ المكتوب ووثقنا لتلك الخصوصيّات في المدوّنة العربيّة المكتوبة في بعض أهمّ المواقع المتاحة وهذا يعني أن ما يخلق المتلازمات في المعجم ليس معيار الشيوع مطلقا لأنّ الشيوع يكتفي بالكشف عمّا هو نمطيّ في الاستعمال ولا يمكنه أن يوضّح البنية الدلالية المقيّدة في المتلازمة وهو ما نريد تأكيده بتطبيق بحثنا على مدوّنة حقل الموت في المعجم العربيّ.

2 ـ التعبير عن الموت في المعجم العربي بين الحدثيّة والتجربة:

يخصّص المعجم العربيّ، للتعبير عن «الموت»، مدوّنة لا بأس بها من الوحدات المعجميّة البسيطة من مقولة الفعل نحو «مات» و«غادر» وترجّل» .... ومن العبارات نحو «قضى نحبه» و«ذهبت ريحه» و«أخنى عليه الذي أخنى على لبد» إلخ... ولا نجد في الوحدات المتضامة معجميا سواء كانت مركّبة أو معقّدة ما به نعبّر عن الموت، وهذا أمر بديهيّ لأنّ هذا الصّنف الأخير شبيه بالأسماء في إحالتها إلى موجودات في عالم الفرد الواقعي وفي عالمه الذّهنيّ. فهذه الوحدات قد تعبّر عن الموت مفهوما ولكنّها لا يمكن أن تعبّر عنه حدثا وتجربة.

وتُفهم الحدثيّة في هذا السياق في بعد دلاليّ إخباريّ تُسند فيه الأفعال إلى وقائع خارجية متحققة في العالم، فتحيل على معطى موضوعي محدّد زمانا ومكانا، وتخضع لمعايير التحقّق والإنجاز والصدق والكذب، فتعمل على تمثيل

التلازم لا يقاس بالتكرار وأن المقاربات التي تستند إلى معيار الشيوع frequency-based approaches لا يمكن الوثوق بها ويرجحون في المقابل معيار «الخصائص الدلاليّة التركيبيّة»، فالمدوّنات التي اعتمدت قد أظهرت ضعفا في تواتر بعض العبارات ورغم ذلك عدّت تلك العبارات عبارات اصطلاحية كما أظهرت تواترا لعبارات أخرى لا تعدّ مطلقا اصطلاحية، يُنظر مثلا:

Rosamund, M: *Fixed Expressions and Idioms in English*: *A Corpus-Based Approach***. Oxford:** Oxford University Press, 1998 ; **Nunberg, Geoffrey, Sag, Ivan**. **& Wasow, Thomas**.: **"Idioms".** *Linguistic Inquiry***,** 25(1)**,** 1–63. **;** Mel'čuk, Igor : "On Phrasemes in Language and Phraseology in Linguistics." *Yearbook of Phraseology*, 3, 2012, pp 31–64 ; Simpson, Rita: "*A CorpusBased Study of Idioms in Academic Speech"*. Journal of English Linguistics, 31(2), 2003, pp115–136.

الحدث باعتباره وحدةً إجرائية مستقلّة عن الذات المُدرِكة، طالما أنّ العلاقة بين اللغة والواقع علاقة إحالة مباشرة. أمّا **التجربة**، فتتجاوز الوظيفة الإحالة الحدثية لتنقل تمثّل الذات للواقعة وتأويلها، حيث يُعاد تشكيل الحدث لغويًا بوصفه تجربة معيشة ذات أبعاد شعورية ومعرفية، فيُستغني بالعبارات عن الدلالة الإنجازية للفعل وتصبح أداةً تصورية تُسهم في بناء المعنى عبر المجاز أو الاصطلاح، فتُنتَج الدلالة من داخل النسق الثقافي والتصوري لا من مطابقته للواقع الخارجي. وبذلك، تقوم الحدثية على موضوعية الفعل وارتباطه بالعالم، في حين تنهض التجربة على ذاكرة دلاليّة مشتركة وترتبط بآليات الإدراك والتأويل[16].

والموت حدث من حيث هو «نشاط» يمارسه فاعل ما لا يختلف في مستوى تحققه عن بقيّة الأنشطة التي يمارسها، فالفرد منا يولد وينمو ويتغذّى ويتنقّل... ويموت، فـ»مات فلان» تعني ببساطة مغادرته عالم الأحياء والتحاقه بالرفيق الأعلى. والأفعال المعبّرة عن حدث الموت في المدوّنة العربيّة تكتفي برصد الحدث في أبعاده العامّة التي تظهر المتوفّى مستسلما لمصيره دون أن تضفي على الحدث توصيفا ذاتيا ينقله من مجرّد الحدثيّة ليصبح تجربة تُعاش. ذلك أن الموت أيضا تجربة يعيشها المرء يتفاصيلها وتعقيداتها، بآلامها وأوجاعها، ولكنّها تجربة خاصّة جدا لا يمكنه نقلها ولا يمكن لغيره أن يعيشها كما عاشها، ولأنّها تجربة مجهولة تميل الجماعة اللغويّة إلى التعبير عنها استنادا إلى ما يمليه عليها عرفانها الاجتماعي من صور تمثيليّة تكشف خصوصيات ثقافيّة مشتركة تظهرها العبارات المعجميّة أو المتلازمات المعجميّة، من قبيل عبارة «صفرت وطابه»، والوطابُ هو سقاء اللّبن والمقصود بالعبارة فراغ جسده من الروح أو الدم كفراغ الوطاب من اللّبن، والصّورة كما هو ملاحظ مستمدّة من بيئة صحراويّة لها خصوصياتها في العيش والبقاء، أو عبارة «علق فلان أصبعه»، وهي حركة يُعبّر بها عادة عن انتهاء الشخص من الأكل.

---

(16) يذهب بول ريكور هذا المذهب عندما يميّز بين اللغة التي تكتفي بتسمية الحدث وتثبيت وقوعه، واللغة التي تعيد تشكيل الحدث بوصفه تجربة إنسانية ذات أبعاد رمزية ثقافيّة، ونرى أن المتلازمات المعجميّة هي من ذلك الصنف الذي يعيد تشكيل الأحداث استنادا إلى البنى المفهوميّة الثقافيّة المشتركة. يُنظر كتاب بول ريكور «الاستعارة الحيّة» الفصلين السابع والثامن:
Ricoeur, Paul: La métaphore vive. Editions du Seuil, Paris, 1975.

فالأفعال إذن تعبّر عن الموت باعتباره حدثا يعيشه الميّت، والمتلازمات تعبّر عنه باعتباره تجربة تعيشها الذات الواصفة للحدث المُدركة له، وبحسب التمثيلات الاجتماعيّة الممكنة يقع تمثّل تلك التجربة والتعبير عنها. وقد حاولنا، بالعودة إلى القواميس العربيّة قديمها وحديثها، استخراج أهم الأفعال والعبارات المعبّر بها عن الموت، وانتهينا إلى أكثر من سبعين (70) فعلا سجّلناه في الجدول (أ) وحوالي خمسين عبارة سجّلناها في الجدول (ب)، ثم حاولنا بعمليّة مسح شامل النظر في تلك المادة من حيث دلالتها ومن حيث أشكال تعالقها داخل حقلها المعجمي، وهو حقل الموت، غايتنا بالأساس تقدير درجة شيوعها وانتشارها لنبيّن هل للشيوع فعلا دور في تعجيم تلك الوحدات.

قفز	أراح	هوى	استوبق	درج	زأم	وتغ	طفا	ارتقى	هوّز
خفت	زهق	أحنط	تقصّد	اقمهدّ	نفر	قشم	توفّى	خرّ	تنبّل
ترز	هروز	وطن	وبق	زأم	ثوى	نفر	هرز	هرِئ	برد
شاعب	فطس	ندر	أدبر	تيمّن	اعرنفز	فاق	تقلزم	طفن	فرغ
وجب	فطز	جنّص	عبر	عكّى	اعرنقز	انشعب	أساف	طنّ	هيرز
فاظ	دابر	قفن	انقعص	عصد	قحز	صعق	سافر	مضى	
فاد	رمّ	بيقر	انقعف	انغرف	خمد	فاز	نام	نقز	
هزأ	فوّز	أبز	هبز	قحز	حبض	فقس	قبض	اعتبط	

الجدول(أ): الأفعال المعبّرة عن حدث الموت في المعجم العربيّ.

قرض فلان رباطه	لقي فلان هند الأحامس	قاء نفسه	جاد فلان بنفسه	طُعن فلان في نيطه	ورد فلان حياض غُتيم	فلان خبنته خبون	تمخّضت له المنون	شرق بدم الوتين	خصّه الدّهر
استوفى أكله	عطست به اللجم	لفظ نفسه	لفظ فلان عصْبَهُ	فلان رين به	طواه الدّهر	فلان شعبته شَعوب	طارت عقاب المنايا في سقائفه	ذوى عوده	نقّبت عنه المنيّة
قضى نحبه	مات حتف أنفه	خلّى مكانه	كفت الله فلانا	فلان هبلته أمّه	دارت عليه صروف اللّيالي	فلان كُفئت جبنته	أصبح فلان هامة	اصفرّت أنامله	أخنى عليه الذي أخنى على لبد
ذهبت ريحه	ضحى ظلّه	خرمته الخوارم	لعق فلان أصبعه	صُمّ صدى فلان	خبنته خبون	فلان قد عبلته عبول	شرق بدم الوتين	جَرِضَ بريقه	سالت مقامته
انقطع أكله	انقطع كلامه	ركب رَدعه	لطع إصبعه	فلان ألمأت عليه الأرض	فلان صفرت وطابه	هُريق رفده	رُمي فلان في طيئه	نضب عمره	رُمي فلان في جنازته

الجدول (ب): المتلازمات المعبّرة عن تجربة الموت في القواميس العربيّة

2 – 1 التعبير عن الموت حدثا:

إنّ أهمّ ما يمكن أن نستخلصه من المادّة الموثّقة في الجدول (أ) هو اتّساع حقل التعبير عن الموت في المعجم العربيّ، فالموت حدث قادح يخشاه الفرد ويتوخّى للتعبير عنه مسالك لغويّة متنوّعة تخفّف وطأة دلالته، والملاحظ أيضا أن نسبة مهمّة من تلك المادة الفعليّة غير متداولة اليوم ولا هي معروفة أصلا، من قبيل الفعل «اعرنقز» الذي يتفرّد الأزهري في توثيقه في تهذيب اللغة (3/ 239)، أو الفعل «استوبق» الذي لا نعثر عليه إلا في المخصص (2/ 76) وفي الوسيط (1/ 1008)، والفعل قفن في المحيط في اللغة (1/ 484)، و«هيزر» في كتاب الأفعال (3/ 372)، ثم إنّ نسبة كبيرة أيضا من تلك الأفعال توثّقها القواميس

القديمة والحديثة على السواء لكنّنا لا نكاد نعثر لها على سياقات استعماليّة في المدوّنة الضخمة التي اعتمدنا، نحو الفعل «اقمهدّ» و«تأز» و«دابر».... وغيرها من الأفعال التي ندر استعمالها اليوم بل انعدم تماما، كالفعل «ترز» الذي وثّقته كل القواميس تقريبا (ويبدو أن عبارة «ترزا في عُمْرُو» بمعنى مات في العاميّة التونسيّة متولّدة من الفعل الفصيح «ترز»)، فإذا ما أقررنا تأثير المنهج الزماني في اختيار المصادر عند وضع القواميس يكون حكمنا على مدى انتشار هذه الأفعال ضعيفا جدا، فنحن لا يمكن أن نثق الوثوق كلّه في عمليّة الجمع كما لا يمكن أن نشكّك في عدم استعمال مثل هذه الأفعال في عصر من العصور. ولكنّنا سنذهب في تأكيد استعمال هذه الأفعال مذهبا لسانيا داخليا يعتمد أساسا أوجه الترابط الدلاليّ التي يمكنها أن تعلّل التوليد المعجمي لبعض الأفعال، فقائمة الأفعال المسجلة في الجدول (أ) هي وحدات من مقولة الفعل مرادفة لدلالة الفعل «مات»، بعضها يمثّل ما يعرف بعلاقة التّرادف التامّ، والترادف التامّ هو أن تتطابق معينمات المعنم (أ) ومعينمات المعنم (ب) مطابقة تامّة، فلا يحدث بين معينمات المعانم اختلاف يذكر، من ذلك الترادف التام بين المعنم / مات/ والمعنم (1) / فطس/ و(2) / فطز/ و(3) / فقس/ و(4)/ وتغ/ و(5)/ هوّز/ ... فالقواميس تقدّم المعانم 1 و2 و3 و4 و5 باعتبارها مرادفات المعنم / مات/ ، وما يضمن ترادفها التّام أنها معانم أحاديّة الدلالة ولا تتكوّن معينماتها من معينم خصوصيّ يمكنه أن يوضّح نوع الموت أو كيفيّة وقوعه أو زمن وقوعه... وهو ما تتكفّل بكشفه مترادفات أخرى فتمّثل بذلك ما يعرف بعلاقة الترادف النسبيّ، من قبيل المعنم / ترز/ ومعينمه الخصوصيّ / الفجئيّة/ ، والمعنم / اعتبط/ ومعينمه الخصوصيّ / دون علّة/ ومنه جاءت دلالة «الاعتباطيّة» لاحقا، والمعنم / جنّص/ ومعينمه الخصوصي / فتح عينيه فزعا»، ويبدو أنه معينم قد تحققت به حالة مشابهة فالميّت قبل أن تغمض عينيه يكون شبيها بالفَزِع، والمعنم / نفق/ ومعينمه الخصوصيّ / الحيوان/ ... وفي / خفت/ انقطاع للكلام ومنه للحياة، وفي / قفز/ و/ مضى/ و/ سافر/ و/ غادر/ و/ عبر/ معنى الارتحال من عالم الحياة الدنيا إلى عالم آخر، و/ تيمّن/ «والأصل فيه أن يُوسّد الميّت يمينه إذا مات في قبره (تهذيب اللغة، 15/ 379)، وفي / قفن/ موت بقطع القفا...

وبتتبّعنا للأفعال المرادفة لفعل «مات» لاحظنا غلبة الترادف النّسبيّ على الترادف التامّ وقد وضحنا الأمر في الجدول اعتمادا على الدرجة اللونيّة فالأخضر للترادف التام والأزرق الفيروزي للترادف النّسبيّ. ويعنينا الترادف النّسبيّ في هذا المستوى لأنّه نوع يعلّل التطوّر الدلاليّ الطارئ على المفردات ويوّضح حالة الاشتراك الدلاليّ فيها، فأفعال هذا الصنف توّلدت دلاليّا بفضل علاقة الاستعارة في الأغلب، أو بفضل علاقتيْ التعميم والتضييق في الدلالة أو بفضل اتّساع الأصل الاشتقاقي، أو بفضل علاقة المجاز المرسل. ومن أمثلة الاستعارة المولّدة للمشترك ما نجده في دلالة «خفت» و«برد» و«خرّ» و«قفز» و«مضى»، ومن أمثلة المرسل المولّد للمشترك ما نجده في دلالة «اقمهدّ» والأصل فيها معنى «أقام في المكان ولم يبرحه» (تاج العروس، 9/ 73) وكثرة البقاء سبب في الموت، ومن أمثلة التوسع في الدلالة «قفن» والأصل فيها «ذبح الشاة من القفا» ثم عُمم معنى الموت دون تقيد بالضحيّة ولا بالنّوع، و«اعتبط» والأصل كما ذكرنا سابقا «ذبح البهيمة دون علّة»، ثم جاء الاستعمال المعاصر بإطلاق المعنى من غير تقييد بذبيحة أو بذبح أصْلاً ليكون معنى المصدر «اعتباط»: دون علة أو سبب ظاهر» (معجم الصواب اللغزي، 1/ 122)، ومن أمثلة الاتساع الاشتقاقي «تيمّن» من اليمين...

والحقيقة أن تتبع حلقات الاشتراك في مرادفات الفعل «مات» يمكنها أن تكشف عن شبكة معقّدة من التعالق الدلالي كما يمكنها أن توضّح انتظام حركة التطوّر الدلاليّ فيها وأن توجد له تعليلات معجميّة دقيقة، وهذا مؤكّد أنّ هذه الأفعال مظهر من مظاهر التطوّر العفويّ للدلالة دون أن نكون قادرين بالضرورة على ضبط فترة ظهورها واستقرارها ثم اندثارها، فبعض الدلالات تظهر في قواميس وتسقط عن أخرى، ولكنّ البنية الدلاليّة لهذه الأفعال كفيلة بتأكيد قابليّة شيوع استعمالها دون الحاجة إلى قياس درجة ذلك الشيوع لأنّ المقبوليّة الدلاليّة في الوحدات المعجميّة تتأتّى من البنية المعجميّة ذاتها لا من خارجها، ولذلك نعثر اليوم على فعل آخر مرادف لمعنى «مات» ترادفا نسبيا ولّده سياق الحروب والشهادة دون أن نجده موثّقا في القواميس القديمة والحديثة خاصة وهو فعل «ارتقى» ومعناه المعجميّ الأصلي «ارتفع درجة ومنزلة»، وفي تحوّله الدّلاليّ مجاز يصف خروج الروح وصعودها إلى الله بفعل الارتقاء والعلوّ، وهذا قد ينتهي

بنا إلى اقتراح معيار «مقبوليّة الشيوع» على معيار «الشيوع» والفرق بين الاثنين يكمن في درجة تحقق الشيوع لا في درجة التحقق المعجميّ.

إنّ أهمّ ما يمكن أن نصل إليه بتحليلنا السابق هو أن مرادفات فعل «مات» التي توّلدت بأشكال معجميّة مختلفة، وحدات يمكن قيس درجة تعجيمها، أي درجة استقرارها في المعجم استنادا إلى مكوّناتها المعجميّة وإلى خصائصها التّمييزيّة ومبرّرات تحوّلها الدّلاليّ لا استنادا إلى حالة شيوعها، فتلك الأفعال وحدات تكوّنت بفضل اكتمال بنيتها المعجميّة أي بفضل اجتماع مكوّنها الصوتيّ ومكوّنها الصّرفيّ ومكوّنها الدلاليّ، وباكتمال هذه المكوّنات تحقّقت لها كغيرها من الوحدات المعجميّة خصيصتا التفرّد والتولّد[17] وجاز لها أن تنتظم في شكل من العلاقات الشكليّة والدلاليّة وهو ما يسمح بقبولها أفرادا معجميّة سواء كثر تداولها أو قلّ وسواء تواصل استعمالها أو اندثرت، ولذلك حرصت القواميس القديمة والحديثة على توثيق مداخل قديمة غير مستعملة بل منها ما يتفرّد بمداخل لا توثّقها سائر القواميس، والحالتان تؤكّدان أنّ الشّيوع ليس معيارا يقاس به تعجيم الوحدات البسيطة ومنها الأفعال، فكيف سيكون الأمر مع المتلازمات المعجميّة؟ وهل تختصّ المتلازمة، كالفعل تماما، ببنية معجميّة تخوّل لها أن تصبح كيانا معجميا مستقلا راسخا في معجم الجماعة اللّسانيّ بغضّ النظر عن إمكانيّة شيوعها من عدمه؟

2-2 التعبير عن الموت تجربة:

يُقدّم الجدول (ب) مجموعة من المتلازمات العربيّة يُعبّر بها عن تجربة الموت، والمتلازمات كما رأينا سابقا، صنف من الوحدات المعجميّة تبنى بناء مجازيا مركّبا يختلف عن المجاز الذي يولّد بعض الوحدات المعجميّة البسيطة على غرار الأفعال التي قدمّها الجدول (أ)، فالمجاز في تلك الأفعال «مجاز مفرد» أو «مجاز بسيط» يكتفي بتحقيق علاقة مشابهة (أو علاقة من صنف آخر) بين حدثين أو بين عنصرين، نحو تشبيه فعل الموت بالسفر في «مضى» و«غادر» و«ارتحل» و«فرّ»... أو تشبيهه بالسقوط في «هوى» و«خرّ» ...، وهذا النوع من

(17) إبراهيم بن مراد، مقدمة لنظرية المعجم (دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997)، الفصلان الرابع والخامس.

المجاز أقرّت الأبحاث اللسانيّة التي انشغلت بمدى فهم الطفل للبنية الاستعاريّة في اللغة أنّه مجاز تبنيه استعارات «وصفيّة» بسيطة يسهل على الطفل تفكيك بنيتها في سنّ مبكّرة[18]، ولكنّ المجاز في المتلازمات ليس كذلك لأنّ بنيته الاستعاريّة أكثر تعقيدا، ويظهر تعقّدها في مستويين: (1) مستوى داخلي تظهره البنية الداخليّة للعبارة وهي بنية لا يمكن تفكيك مضمونها بالوقوف عند معناها الحرفي، فما معنى أن «يقرض المرء رباطه» أو أن «تذهب ريحه» أو أن «يلطع أصبعه» ؛ و(2) مستوى خارجي مرجع إلى العرفان الاجتماعي الّذي يقدر لوحده تأويل المعنى المقصود. ولذلك يصعب على منتم للثقافة الغربيّة مثلا فهم عبارة «صفرت وطابه» كما يصعب على منتم لغير الثقافة الغربيّة فهم عبارة casser sa pipe، فالمناويل الثقافيّة المشتركة توجد للتعبير عن خصوصيات وجوديّة نماذج تصويريّة موحّدة يخزّنها المعجم اللّسانيّ في شكل بنى خطاطيّة تعلّل بها أبنية تلك العبارات، وهذا يعني مبدئيّا أن تلك المتلازمات تولّدها المجموعة في سياق تفاعلها الطبيعي داخل بيئتها وهو ما يشرّع لانتشارها وتداولها بشكل طبيعيّ.

ولكنّ السؤال المشغل في هذا السياق هو التالي: ما المقصود بالجماعة اللغويّة الواحدة؟ وهل نصنّف الجماعات اللغويّة باعتماد مقياس اللغة الأمّ أم بمقياس اللهجات؟ هل نصّف المتلازمات بحسب شيوعها الخاص (داخل القطر الواحد في المجتمع العربي مثلا) أم بحسب شيوعها العام (العربية الفصحى)؟ ثم تبعا لذلك ما هي حدود المناويل الثقافيّة المشتركة وما هو مداها؟ وهل يمكن أن تكون عبارة ما متداولة في بادية الشام مثلا على نفس الدرجة من الشيوع مقارنة بمتلازمة متداولة في منطقة المغرب الإسلاميّ مثلا؟ وهل ننتهي إذا أقررنا بنسبيّة الشيوع إلى أنّ ما يكسب المتلازمات المعجميّة البعد المعجميّ هو بنيتها الداخليّة أساسا سواء شاعت وانتشرت أم ظلّت حكرا على مجموعة دون سواها؟

عندما ننظر في المتلازمات المعجميّة الموثّقة في الجدول (ب) سنلاحظ بيسر أنّها متلازمات متفاوتة من حيث تعبيرها عن خصوصيّة التجربة الجماعيّة، فبعضها مرجعيّة التصوير المجازيّ فيها قابلة للتعميم لأنّ منطلقها صورة مستمدّة من أسس الخلفيّة الأنطولوجيّة المشتركة بين العرب، من قبيل صورة الوطاب

(18) Gentner, Dedre & Clement, Catherine: “Evidence for Relational Selectivity in The Interpretation of Analogy and Metaphor », in G.H. Bower (Edit), The psychology of Learning and Motivation, New York, Academic Press, pp307358, 1988.

وهو السقاء الذي يملأ فيه اللبن، فإنّ صورة الجسد وقد أفرغ من دمائه أو من روحه شبيهة بصورة كثيرة التداول في البيئة الصحراويّة وهي صورة الوطاب يُفرّغ من لبنه، والأمر نفسه بالنسبة إلى صورة «لعق الأصبع» تعبيرا عن الموت وهي صورة خاصّة بالثقافة العربيّة لأنّ المراد بها في الأصل الإشارة إلى الانتهاء من الأكل، ومنه جاء الحديث الشريف يحضّ على لعق الأصابع عند الانتهاء من الطعام في قوله صلّى الله عليه وسلّم « «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَمْسَحْ أَصَابِعَهُ حَتَّى يَلْعَقَهَا، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ كَانَتِ الْبَرَكَةُ»[19]، ولذلك تقريبا لا نجد لنفس العبارة إذا ترجمت إلى الفرنسية مثلا نفس المعنى، فعبارة Il s'est lécher le doigt يراد بها التعبير عن لذّة الطعام المأكول، وهو نفس المعنى الذي صارت تعبّر عنه المتلازمة في العربيّة اليوم. في حين تبدو متلازمات من قبيل «ورد فلان حياض غُتيم» و«طعن في نيطه» و«عطست به اللجم»، وهي التي نعتبرها من صنف المتلازمات الاصطلاحيّة[20]، مغرقة في الخصوصيّة لأنّ المجاز فيها مجاز تركيبيّ أي واقع في المستوى الإسناديّ داخل بنية الجملة ولا يحتاج لتفكيكه البحث فقط في الخلفيّة الأنطروبولوجيّة التي ولّدته. وإذا كان المجاز في النوع الأول قابلا للقياس بتحليلنا للتجربة الثقافيّة التي أنتجته، فإنّه في النوع الثاني ذو بنية لغويّة داخليّة متكلّسة يصعب التنبّؤ بها. ولذلك نريد ونحن نعالج متلازمات حقل الموت أن نميّز بين صنفيْ المتلازمات بحسب طبيعة المجاز الذي يبنيها إلى: المتلازمات التحليليّة والمتلازمات الاصطلاحيّة، لنختبر بنيتها المعجميّة من جهة ودرجة شيوعها من جهة أخرى، مستندين في ذلك إلى ما قد نجده في المادّة القاموسيّة أو في المدوّنة المعتمدة ما يمكنه أن يوضّح مقصدنا في البحث.

وننبّه في هذا السياق أن تمييزنا للمتلازمات بحسب الخاصيّة التحليليّة أو بحسب الخاصيّة الاصطلاحيّة مردّه إمكانيّة تعايش المعنى الحقيقي والمعنى المجازيّ، فالمتلازمة التي تجمع بين المعنيين تقبل التحليل الدلالي والتأويل

(19) أحمد بن حنبل، مسند أحمد (تح شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط الرسالة، 2001)، 3/ 401.

(20) نميّز في هذا السياق بين المتلازمات الاصطلاحية وهي المتلازمات التي لا يمكن للمعنى المجاز فيها أن يعايش المعنى الحقيقيّ والمتلازمات التحليليّة وهي تلك التي يمكن تأويل معناها مجازيا وحقيقيا. وهذا التصنيف من اقتراح فريق البحث في المتلازمات المعجميّة المنتمي إلى مخبر مباحث دلاليّة ولسانيات حاسوبيّة بكلّية الآداب بمنوبة (2023-2025).

التداوليّ وهي لذلك ممّا يعرف بالعبارات الشفافة، والمتلازمة التي تكتفي بالمعنى المجازيّ تكون بنيتها أكثر تحجّرا لأنّ دلالتها المباشرة دلالة لاحنة على درجة كبيرة من الغموض، ولكنّنا سنضيف إلى هذا الصنف نوعا من المتلازمات غموضها لا يرجع إلى بنية المجاز بل إلى غموض الدلالة المعجميّة في أحد مكوّناتها من قبيل دلالة «هند الأحامس» في متلازمة «لقي فلان هند الأحامس»، أو دلالة «الخبون» في متلازمة «خبنته خبون» وقد قاسها القاموسيون على «شعبته شَعوب» والشّعوب» اسم من أسماء المنيّة وليس «الخبون» كذلك. وقد قسّمنا تلك المتلازمات بحسب نوعيها في الجدول (ج):

المتلازمات التحليليّة	المتلازمات الاصطلاحيّة
قرض فلان رباطه	**لقي فلان هند الأحامس**
جاد فلان بنفسه	قاء بنفسه
قطع منه الوتين	طعن فلان في نيطه
استوفى فلان أكله	فلان خبنته خبون
لفظ نفسه	تمخّضت له المنون
رين به	خصّه الدّهر
طارت عقاب المنايا في سقائفه	**عطست به اللجم**
ذوى عوده	طواه الدهر
قضى نحبه	فلان شعبته شعوب
خلّى مكانه	نقّبت عنه المنيّة
كفت الله فلانا	مات حتف أنفه
أصبح فلان هامّة	فلان هبلته أمّه
اصفرّت أنامله	دارت عليه صروف الدّهر
ذهبت ريحه	**أخنى عليه الدهر**
ضحى ظلّه	خرمته الخوارم
لعق فلان إصبعه	صُمّ صدى فلان
جرض بِريقه	خبنته خبون
انقطع أكَله	عبلته عبول
انقطع كلامه	**ركب ردعه**
توأّدت عليه الأرض	هريق رفده
فلان صفرت وطابه	**رُمي في طيئه**
كُفئت جفنته	**رمي في جنازته**
نضب عمره	

(ج) المتلازمات التحليليّة والاصطلاحيّة

يقتضي منّا هذا التصنيف أمرين: الأوّل أن نوضّح البنية المجازيّة في المتلازمات بما أن التلازم مشروط بتحقق الصيغة المجازيّة في التعبير، والثاني أن نوضّح علاقة المجاز بالبنية التركيبيّة في المتلازمة لنختبر علاقتهما معا بمعيار الشيوع. وكنا قد ميّزنا في ثنايا هذا البحث بين صنفيْ المجاز المولّد للوحدات المعجميّة وتحدّثنا عن المجاز المفرد الذي تتولّد به الوحدات البسيطة والمجاز المركّب الذي تتولّد به المتلازمات. فإذا ما التفتنا إلى المجاز المولّد لمتلازمات الجدول (ج) سنجده بدوره صنفين من المجاز المركّب: (1) أمّا الصنف الأول فهو صنف يكون تركّبه خارجيّا، أي هو مجاز لا يتحقق بتعالق العناصر المعجميّة تركيبيا، ولكنّه مجاز يتحقق في عمليّة التأويل الدلالي لمضمون المتلفّظ، فالبنية التركيبيّة لتلك المتلازمات حافظت فيها عناصرها على قيود التعالق الشكليّ الدلاليّ الذي يسمح بإنتاج جمل سليمة ذات مقبوليّة نحويّة ودلاليّة، وهذا واضح في «قرض رباطه» مثلا و«في استوفى أكله» وفي «ضحى ظلّه» وفي «كفئت جفنته»..، فكلّ ما يُربط قابل للقرض، وكل ما يؤكل قابل للاستيفاء، وكل «ظلّ» قابل للاندثار وكل جفن قابل للإغماض.... ولكنّ الاكتفاء بهذا المستوى من التأويل المباشر لا يجعل من «قرض رباطه» و«استوفى أكله» و«ضحى ظلّه» و«كُفئت جفنته».. متلازمات معجميّة، فما يخرجها من صنف الجمل التامة المنتمية إلى النحو إلى صنف الوحدات المعجميّة المنتمية إلى المعجم هو التأويل المجازيّ الذي ينقل الجملة برمّتها من الدلالة المباشرة (فك الرباط مثلا) إلى الدلالة غير المباشرة أي الموت، فالمجاز لا يتحقق في مستوى اللغة بل في مستوى التأويل، ولتحقق العمليّة التأويليّة يستأنس الذهن بآليات المقايسة والمقارنة والربط بين ما هو منطوق وما هو مقصود، ولأنّ المجاز يبنى في مستوى التأويل اعتبرناه مجازا خارجيا وعلّلناه عرفانيا في عمل لنا سابق[21] استنادا إلى ما أطلقنا عليه مبدأ المسح العرفانيّ، فصورة المنتقل من الحياة الدنيا إلى الآخرة كصورة من يفكّ رباطا يحرّره، وكصورة المرء يُتمُّ أكله وكصورة الظلّ يمّحي.... ويمكن أن تولد في التمثيلات الذهنيّة للأفراد صور أخرى تعبّر عن هذا المعنى بحسب تطوّر علاقة المجتمع

(21) نجلاء شعير، «المتلازمات المعجميّة بين المقْولة المعجميّة والمقولة العرفانيّة»، ضمن أعمال مشروع المتلازمات المعجميّة في القرآن الكريم، بصدد النشر.

بتجربة الموت كأن نعبّر عن ذلك بانقطاع نشاطه على مواقع التواصل الافتراضي مثلا(il n'est plus connecté والعبارة غير مستعملة في الفرنسية ولكنّ البنية التصوريّة لا تمنع تكوّنها) وهو تصوّر قد يفرضه نسق وجوديّ مقيّد بما يمارسه الفرد منا من أنشطة افتراضيّة تسيطر على حياته، بل إنّه من الممكن أن يبني صورة تخييليّة غير متحقّقة أصلا يمارس عليها وجها من وجوه المناسبة المجازيّة، نحو «أكْل لحم الأخ الميّت في متلازمة «يأكل لحم أخيه ميتا» الواردة في النصّ القرآني تعبيرا عن معنى الاغتياب. والمهمّ في نظرنا أن التأويل المجازيّ الخارجيّ هو الذي يتكفّل بعمليّة تعجيم تلك البنى التركيبيّة تامّة الدلالة وبتحقيق تلازمها، وهو الذي يخوّل شيوعها وانتشارها لاحقا سواء اتّسع مدى ذاك الشّيوع أو ضاق أو انعدم تماما، ولذلك تقريبا نلاحظ تفاوتا غريبا بين القواميس في التوثيق لبعض المتلازمات، فمتلازمة «قرض رباطه» مثلا نجدها متواترة في قواميس العصور المختلفة، في حين يتأخّر التوثيق لعبارة «ضحى ظلّه» إلى القرن السادس تقريبا في قلائد العقيان لابن خاقان (ص 288) وتتوقف القواميس الحديثة عن تدوينها بشكل نهائيّ، وتكتفي متلازمة «استوفى أكله» بتاج العروس دون سائر القواميس، ويوثّق أساس البلاغة دون غيره لمتلازمة «ذوى عوده».

والحقيقة أنّ اختبار شيوع المتلازمات عموما، كاختبار شيوع سائر الوحدات المعجميّة، لا يحتكم بشكل قطعي إلى تفاوت درجات تواترها في القواميس أمام ما قد تثيره قضايا النقل والتصحيف فيها، هذا فضلا عن غياب تصوّر معجميّ واضح في معالجة المتلازمات المعجميّة فيها، ولكن رغم ذلك لنا أن نتكهّن بحركتها تولّدا وانتشارا واندثارا ولا نراها في ذلك مختلفة عن حركيّة سائر الوحدات المعجميّة.

و(2) أمّا الصّنف الثاني من المجاز المركّب الذي تبنى به المتلازمات فهو المجاز الدّاخلي، أي المتحقّق بعمليّة إسناد غير حقيقيّة لمكوّنات المتلازمة التركيبيّة، وهذا الصنف يمثّله ما يعرف في البلاغة العربيّة المجاز العقليّ في علاقاته المختلفة كما ضبطها الجرجاني[22] أو الاستعارة المكنيّة من صنف التبعيّة

(22) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز (تح محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، دت)، 293-303.

لا الأصليّة أي الواقعة في مستوى المشتقات كما ضبطها السكّاكيّ المنكر للمجاز العقلي تماما[23]، وسواء كانت الظاهرة مجازا عقليا أو استعارة مكنيّة، فإنّ الذي يعنينا فيها علاقة الإسناد التي تجعل المجاز قائما داخل البنية لا خارجها، ويكون تفكيك تلك البنية مرجعا إلى قدرات عقليّة في فهم ما يبرر عمليّة الإسناد تلك، ولذلك فإنّ التأويل الحرفيّ لتلك العبارة غير جائز وترجماتها إلى لغات أخرى متعثّرة، ومن هنا عرفت بكونها عبارات اصطلاحيّة أي عبارات تواضعت عليها الجماعة اللغويّة بحسب ما يرتضيه الإسناد العقليّ في كلّ لغة وليس بحسب ما ترتضيه التجربة الثقافيّة للجماعة اللغويّة، ومن أمثلتها الواردة في الجدول (ج) «عطست به اللجم» و«أخنى عليه الدهر» و«طواه الدهر» ....، وهذا النوع من الإسناد يحتاج إذن إلى مسالك تأويليّة داخليّة غير المسالك التي رأيناها في بناء المتلازمات التحليليّة، من قبيل إدراك علل الإسناد وعلاقاته ووجوه تحجّره.

ولكنّ الإشكال الذي يُطرح بعد هذا هو كيف تتحقق المتلازمة الاصطلاحيّة معجميا؟ وكيف ننتقل بها من المستوى البلاغي إلى المستوى المعجميّ؟ أي كيف تتمّ عمليّة تعجيمها؟ وهل يقتصر تكوّنها المعجميّ على اكتمال بنيتها المجازيّة دون قيد الشيوع كما هو الحال مع المتلازمات التّحليليّة؟

وليست الإجابة عن هذا الإشكال بهيّنة، ودليلنا على ذلك اختلاف المصنّفين للمتلازمات الاصطلاحيّة في قبول بعض الأبنية دون سواها، من ذلك أنّ أبحاثا كثيرة بلغات غير العربيّة[24] اعترضتنا في مسار بحثنا هذا تكتفي بقيام البنية المجازيّة في العبارة وبالخاصيّة التأليفيّة فيها لتعتبرها متلازمة اصطلاحيّة، إذ لا معنى لأن «يركب الإنسان الرّدع»، والرّدع هو الدمّ، ولا لأن «تعطس به اللجم» أو لأن يكون الموت «حتف الأنف» والمقصود بها دون ضرب أو اعتداء.

فإذا ما تعلّق الأمر بمتلازمات النصّ القرآنيّ تكون المسألة أكثر تعقيدا، لأنّ الإعجاز في هذا النصّ مرتبط بمستوى النظم المعنوي فيه، وهذا المنحى العامّ

(23) الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة (تح محمد خفاجة، دار الجيل بيروت، ط 3، دت)،1/ 98.

(24) وهي عبارات كثيرة يصعب حصرها من قبيل «يهضم الأفكار» و«ينغمس في التفكير» و«يسبح في أحلامه»... وهذه في نظرنا ليست متلازمات معجميّة لأنّ المجاز فيها ذو وظيفة جماليّة وليس ذا وظيفة توليديّة.

جعلنا نقبل متلازمات كثيرة نشأت مع النصّ القرآني نحو متلازمة «اشتعل الرأس شيبا» التي شاعت في الخطاب لاحقا، كما جعلتنا نقبل متلازمات أخرى بنفس البنية المجازيّة ولكنّها اختصّت بالنصّ القرآني ولم تشع شيوع غيرها، من قبيل «أتى بالشهادة على وجهها» و«أراد وجه الله» و«أزاغ الله قلبه» و«اشترى بآيات الله ثمنا»، وغير هذه المتلازمات كثير ولا يمكن في نظرنا أن نتجاهلها لارتباطها بالنصّ القرآني فقط، ولا يمكن أن نقبل بعضها دون البعض الآخر بحسب إمكانيات تداولها لاحقا طالما أنّها تمتلك نفس البنية المجازيّة المعجميّة التي تخوّل إدراجها ضمن صنف المتلازمات.

والمهمّ بعد هذا التحليل أن نقرّ بأنّ معيار الشيوع ليس معيارا حاسما في ضبط المتلازمة وأن البنية المعجميّة- الذهنيّة التي تنهض عليها المتلازمات هي اللبنة الأولى والأساسيّة التي تحقق بها وجودها اللّغويّ سواء تداولتها الألسن تداولا موسّعا أو تداولا مضيّقا، وأنّ المتلازمات المعجميّة صنف من الوحدات المعجميّة تخضع في مستوى تكوّنها لنفس مراحل تكوّن سائر الوحدات ويحدث أن تنتشر فيكثر تداولها وألا تنتشر فيضيق استعمالها وتندثر ويُكتفى لذلك بالتوثيق لها في القواميس باعتبارها كيانات انتمت إلى معجم الجماعة اللّسانيّ في مرحلة من مراحل وجودها، وهذا التوثيق وإن كان لا يحتكم إلى منهج واضح في الجمع والوضع في القواميس العربيّة فإنّه من الممكن أن يساعدنا على فهم حركة المتلازمات بين المعجم والخطاب وعلى فهم مسار تولّدها وشيوعها.

3 ـ المتلازمة المعجميّة وحدة قاموسية:

اخترنا في بحثنا أن نعود إلى القواميس لاختبار درجة شيوع المتلازمات وأن نستعين في ذلك بمدوّنة موسّعة، لأنّ القاموس لا يعدو أن يكون إلا امتدادا للمعجم، فـ«قوام كليهما الوحدات المعجميّة، وهي في المعجم وحدات معجميّة أو وحدات لسانيّة ذات مكوّنات لسانيّة وخصائص تمييزيّة، أمّا في القاموس فهي وحدات قاموسيّة تسمّى «مداخل»، تتصدّر ما يسمى بـ«النّصوص القاموسيّة»[25]، والانتقال من الوحدة المعجميّة إلى الوحدة القاموسيّة هو انتقال يضمنه الخطاب أي الاستعمال، ذلك أن اختيار القاموسيّ لـ«نصّه القاموسيّ» يستند بالأساس إلى

(25) ابن مراد، المعجم العربيّ بين اللغة والخطاب، ص 79.

أمرين: إمّا لثبوت تلك المادّة في النصوص القاموسيّة السابقة إذا كان منهج جمعه المصادر منهجا زمانيّا، وإمّا لثبوت تلك المادة في المدوّنة الآنيّة التي تقيّد بها إذا كان منهج جمعه المصادر منهجا آنيّا. وفي الحالتين لا تصبح الوحدات المعجميّة مداخل قاموسيّة إلا إذا ثبت استعمالها في الخطاب وتأكّد شيوعها فيه سواء كان ذلك الشيوع شيوعا ماضيا أو شيوعا حينيا أو شيوعا مقدّرا تقديرا.

غير أن الإشكال الّذي يعترضنا ونحن نتقصّى حالات شيوع المتلازمات في القواميس، هو أنّ القواميس لا تقدّم تلك المتلازمات باعتبارها مداخل معجميّة، بل باعتبارها جزءا من نصوصها القاموسيّة، ولذلك فإن اختبار أساس اختيار القاموسيّ للمتلازمات يكاد يكون أمرا مستحيلا وقياس درجة شيوعها أيضا أمر نسبيّ؛ إذ تأتي المتلازمات في الأغلب مذيّلة في قسم تعريف مدخل من المداخل يمثّل عنصرا من عناصر تلك المتلازمة، نحو ما جاء في مدخل «الوَطْبِ» في تهذيب اللغة (14/ 28) وقد عرّفه الأزهري بكونه «سِقاءُ اللّبن، وجمعُه وِطاب وأَوْطاب» وأردفه بتعريف الصّفة منه «وامرأَة وَطْباء إِذا كَانَت ضخمَة الثَّدْيَين، كأَنّها تَحمِل وَطْبا من اللّبن» ثم أنهى التعريف بمتلازمة شُهرت عن العرب من مكوّناتها المباشرة المفردة «وطاب»: وَيُقَال للرّجل إِذا ماتَ أَو قُتِل: صَفِرَتْ وِطابه، أَي فَرغَتْ وخَلَتْ»، ولا نكاد نجد علّة نفسّر بها إلحاق متلازمة ما بمدخل من مكوّناتها دون سواه، ويبدو أنّ الأمر موكول إلى الصدفة أو إلى تقدير القاموسيّ نفسه في عمليّة التصفيف تلك، فالأزهري مثلا يجعل عبارة «عطست به اللجم» تحت مدخل «عطس» (2/ 40) وكأنّ «عطس» هي مفتاح العبارة، وسار على نهجه الصاغاني في العباب الزاخر (1/ 148)، في حين تكررت عند غيره في مدخليْ «عطس» و«اللجم» (المحيط في اللغة 1/ -59 2/ 122، تاج العروس 16/ -265 33/ 402، معجم متن اللغة 4/ -135 5/ 153). وهذا التداخل في عمليّة الوضع ناتج عن تصوّر لغوي تقليدي في مفهوم اللفظ والجمل، يقسم الكلام تقسيما منطقيا على النحو الذي أقره أرسطو في كتاب المقولات ونقصد «ما يقال بغير تأليف» وهي الألفاظ أو الكلمات وما يقال بتأليف» وهي المركّبات النحويّة والجمل، وعن هذا التقسيم نشأت مباحث أساسية وهي: (1) مبحث ينظر في الجمل من حيث بناؤها ومكوّناتها ومظاهر التعالق بينها وهو علم النحو، و(2) مباحث تنظر في المفردات خارج التركيب من حيث بناؤها الصرفيّ أو من

حيث خصائص أصواتها أو من حيث دلالتها، و(3) مبحث يعنى بأفانين القول ووجوه الفصاحة والبلاغة. فما يقال بغير تأليف إذن هي الوحدات المعجميّة البسيطة أو المفردات. وقد أثّر هذا التقسيم الثنائيّ للعناصر اللغويّة في المباحث القاموسيّة وفي رؤية أصحابها لمفهوم المدخل القاموسيّ، فقد كانت عنايتهم بالأساس بالبحث في الوحدات المفردة دون سائر أنواع الوحدات المعجميّة المركّبة والمعقّدة والتلازميّة التي يُكتفى بالنظر إليها باعتبارها تابعة لعنصر من عناصرها التي تكوّنها في حالة التّضامّ أو في حالة التلازم، ولذلك لا يمكننا الوثوق كثيرا في عمليّة توثيق القواميس لتلك المادة لضبط درجة شيوعها، فالقواميس لا تعترف أصلا بهذا الصنف من الوحدات المعجميّة وتعتبره من الكلام الفنيّ العربيّ القديم الذي عولج في أبواب مختلفة من البلاغة، وكنّا قد نبّهنا في سياق آخر وفي ثنايا هذا البحث أيضا أنّ المتلازمات المعجميّة صنف من الوحدات المعجميّة لها مكوّناتها التي تُنتجها وخصائص تمييزيّة تحقق لها خصيصتيْ التفرّد والتولّد في المعجم وتدرجها في أشكال من التعالق الشكليّ والدلاليّ مع متلازمات أخرى، وهو ما يجعل منها كيانات معجميّة قادرة على المحافظة على بعدها المعجميّ، فهي وحدات معجمية مكتسبة لخصائص تمييزيّة تخوّل لها الانتماء إلى معجم الجماعة اللّسانيّ. ولكنّ تحوّلها إلى القاموس لم يراع فيه بعدها المعجميّ الخالص، بل رُوعي فيه بعدها الخطابيّ، أي لم تراع فيها بنيتها المعجميّة-الذهنيّة التي تحدّثنا عنها في العنصر الثاني من هذا البحث، ذلك أن الاستشهاد بتلك المتلازمات يُعتمد فيه على ما يبدو معيار انتشارها في لغة العرب دون قدرة على إثبات حقيقة انتشارها، وهي وجهة منطقيّة في التوثيق لأنّ غاية القاموسيّ ليست تأصيل ذلك المدخل قاموسيا بل غايته إثبات دلالته ووجوه استعماله دون نزوع إلى ضبط درجة الشيوع والاستعمال، ولذلك تقدّم تلك المتلازمات في الأغلب بإشارات من قبيل «قالت العرب» و«سُمع عن العرب» و«يُقال في الرّجل إذا» و«قيل» و«تقول العرب» مع تفاوت كبير بين القاموسيين في ترجيح «العبارة الشاهد» فقد يتجاهلها قاموس ويعتمدها آخر، بل يحدث أن تُؤصّل أولى الاستعمالات لتلك العبارة، نحو نسبة عبارة «مات حتف أنفه» إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم فهو أوّل من تكلّم بها[26]، وفي هذا التصدير تنبيه إلى

(26) أبو منصور الثّعالبيّ، فقه اللغة وسر العربيّة، (تح عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث

أهميّة مصدرين أساسيين في ضبط المادة العباريّة وهما: المأثور من كلام العرب والحديث النبويّ الشريف فضلا بطبيعة الحال عن النصّ القرآني الذي تفرّد بظهور بعض المتلازمات دون غيرها، نحو «استمسك بالعروة الوثقى»، و«دارت عليهم الدوائر» و«نكص على عقبيه»...، وهي مصادر تؤكّد مفهوم «التجربة الخاصّة» التي تنهض عليها ولادة هذا الصنف من الوحدات المعجميّة، وتكون الإشارة إلى تلك التجارب أكثر وضوحا في القواميس ذات المنهج المسمّياتي لا المنهج الداليّ، فهذا المنهج يرتب المادة بحسب الموضوعات لا بحسب المداخل الداليّة، وينتج عن تجميع الموضوعات تفصيل في أدق تفاصيلها المرجعة إلى تجربة الجماعة اللغويّة، على غرار ما نعثر عليه في «فصل تفصيل أحوال الموت» في فقه اللغة للثعالبي، إذ يقول: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ عَنْ عِلةٍ شَدِيدَةٍ قيل: أَرَاحَ... فإِذا مَاتَ بِعِلَّةٍ قيلَ: فاضَتْ نَفْسُهُ بالضَّادِ. فإِذا مَاتَ فَجْأَةً قيل: فاظَتْ نَفسُهُ بالظاء. وإِذَا مَاتَ مِنْ غيرِ دَاءٍ قيلَ: فَطَسَ وفَقَسَ عَنِ الخَلِيلِ. فإِذا مَاتَ في شَبَابِهِ قيل: مَاتَ عَبْطَةً واخْتُضِر. فإِذا مَاتَ مِن غيرِ قَتْلٍ قيلَ: مات حَتْفَ أَنْفِهِ. وأَوَّلُ مَن تَكلَّم بذلِكَ النبي صلى الله عليه وسلم. فإِذا مَاتَ بعدَ الهَرَم قِيلَ: قَضَى نَحْبَهُ. فإِذا مَاتَ نَزْفاً قيلَ: صَفِرَتْ وِطَابُهُ وزعم أَنَّهُ يُرادُ بذلِكَ خُرُوجُ دَمِهِ مِنْ عُرُوقِهِ»[27]، فقد خصّت العرب كلّ «حالة موت خاصّة» بعبارة أو بلفظ يوضّح تلك الخصوصيّة، وهي أشكال من التعبير تخرج بالموت من سياق التجربة الواقعة في عصور مختلفة إلى سياق التجربة الذهنيّة الموحّدة، ثم، تدريجيا، تعمّم تلك التجارب بشكل عفويّ فتتكافأ في التعبير عن الموت بغضّ النظر عن أشكاله الخاصّة.

والحقيقة أن البحث في الشيوع من حيث تواتر المتلازمات وتأصيل قائلها في القواميس يمكنه أن يقودنا إلى معالجتها قاموسيا بحسب ما يعرف بالمستويات اللغويّة، والمستويات اللغويّة تصنيف وضعه القاموسيون القدامى للتمييز بين ما كان فصيحا من كلام العرب وما كان دون ذلك، والفصيح عندهم هو الذي تكلّمت به العرب إلى حدود عصر الاحتجاج، في حين يعرف ما ولّد بعد ذلك بالمولّد وهو دون الفصيح قيمة ومنزلة، ونجد أيضا العاميّ المتأثّر بلحن العامّة في نطقها، ثم نجد الأعجميّ وهو اللفظ الأجنبيّ المذكور في القرآن وفي أشعار

العربي، 2002)، 105.

(27) الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، ص 105.

العرب. والتصنيف كما يلاحظ لا يراعي أبنية المفردات أو أحد مكوّناتها، بل هو تصنيف زمانيّ يراعي فترة ظهور تلك الوحدات واستعمالها، فإذا ما سلّمنا بأن المتلازمات المعجميّة وحدات معجميّة لا تختلف من حيث منزلتها في المعجم عن سائر أنواع الوحدات الأخرى، يكون تصنيف المتلازمات بحسب المستويات اللغويّة جائزا على النحو التالي:

أ- المتلازمات الفصيحة:

وهي التي تناقلها العرب قبل الإسلام وحتى انتهاء عصر الاحتجاج أي إلى حدود القرن الرابع للهجرة تقريبا وتواصل استعمالها بعد هذا التاريخ أو انقطع. ونجد هذه المتلازمات موثّقة في قواميس تلك الفترة وفي الشواهد الاستعماليّة التي ذكرتها القواميس أو في مصادر أخرى. وتدخل في هذا الصنف المتلازمات الواردة في النصّ القرآني وفي الأحاديث النبويّة والمأثور من كلام العرب وغيرها من المصادر المعتمدة في ضبط فصاحة الألفاظ. ومن أمثلتها «قضى نحبه» و«هبلته أمّه» و«أخنى عليه الذي أخنى على لبد»....

ب- المتلازمات المولّدة:

وهي التي لم تسمع عن العرب في عصر الاحتجاج، ولا نعثر عليها موثّقة في قواميس تلك الفترة وخاصة في كتاب العين، وهو القاموس الوحيد الذي يتفرّد منهجه ببعده الآنيّ، فبعض المتلازمات لا نعثر عليها إلا بداية من القرن السابع للهجرة، وهذه قد وثّقها أساس البلاغة للزمخشري في الأغلب وغيره من القواميس المتأخرة نحو « هُريق رفده» و« طواه الدهر» و«ذوى عوده».

ت- المتلازمات العاميّة:

وهذه تختلف بحسب اللهجات وتتصاعد بحسب نموّ تلك اللهجات، من قبيل ما نعثر عليه في العاميّة التونسيّة في التعبير عن الموت بـ«كلا راسو» (أكل رأس هـ) أو «ترزا في عمرو» (فقد عمر هـ) ....

ث- المتلازمات الأعجميّة:

وهذا الصنف تمثّله عادة عبارات منقولة من لغات أجنبيّة نقلا حرفيّا أو نقلا معنويّا. ويصعب أن نجد في المدوّنة العربيّة القديمة مثل هذا النوع ويصعب أيضا

أن ندقّق عملية نقل العبارات إن وجدت خلافا لما يمكن أن تمدّنا به استعمالات لهجيّة اليوم تترجم بعض المتلازمات ترجمة حرفيّة، نحو عبارة:

- Pass a way : في العامية التونسية «مشى على روحو».
- Rendre le dernier soupir. : لفظ نفسه
- Etre refroidi. : برد

أو ترجمة معنويّة نحو:

- Etre pris par la faucheuse : عطست به اللجم

ورغم ذلك يمكن أن نعثر في بعض المصادر على عبارات معجميّة منقولة عن لغات أجنبيّة يُنبّه إليها ناقلوها، نحو ما جاء في يتيمة الدهر[28] نقلا عن أبي الفضل السكري:

العنزُ لَا يَسْمَنُ إِلَّا بِالعَلَفِ ... لَا يَسْمَنُ العنز بقَوْلِ ذِي لطَفِ

وقد جاء في نفس المصدر أنه قد «نَقَلَ هَذَا المَعْنَى أَبُو الفَضْل المَرْزَوِيُّ السّكَّرِيُّ مِنَ الفَارِسِيَّةِ إِلَى العَرَبِيَّةِ»[29].

والملاحظ أن هذه المتلازمات تختلف درجة شيوعها دون شكّ باختلاف مستواها اللغويّ، وباختلاف العصر الذي تولّدت فيه، لأنّها وحدات شديدة الارتباط بتجربة الجماعة اللغويّة، ومن خصائص التجربة أنّها متجدّدة بتجدّد الجماعة اللغويّة، ولذلك يقلّ اليوم مثلا تداول المتلازمات الفصيحة مقارنة بالمتلازمات الأعجميّة التي غزت اللهجات العربيّة بفعل التفاعل الثقافي والتواصل الحضاريّ، ولكنّ اندثار تلك المتلازمات أو تعطّل شيوعها واقتصار ظهورها في النصوص الأدبيّة لا ينفي قيامها عناصر معجمية في المعجم الذهني[30].

(28) الثعالبيّ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر (تح قميحة، دار الكتب العلمية، بروت، دت)، 4/ 88.

(29) ويبدو أن أبا الفضل السكري قد ترجم أمثالا كثيرة من الفارسية إلى العربيّة وبترجمتها فقد بعضها أصولها التوليديّة وتحوّلت إلى عبارات شائعة أقرب ما تكون إلى ما يسمى اليوم بالمتلازمات.

(30) شعير: «في تعليمية الاستعارة» في مناويل لسانية في الاضطرابات اللغوية، (دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمّان، 2024.)

الخاتمة:

فكرة هذا البحث، في الحقيقة، كانت نتيجة أعمال فريق مشروع «المتلازمات المعجميّة في القرآن الكريم» المنتمي إلى مخبر «الأبحاث الدلاليّة واللسانيات الحاسوبيّة»، وقد حاولت فيه أن أعلل موقفا تبناه فريق البحث ينزع فيه معيار الشيوع عن مجموع المعايير الضابطة لصنف المتلازمة ويخالف بذلك الآراء التي تشترط الشيوع للحكم على عبارة ما بكونها متلازمة. وقد جاء هذا الموقف بعد استقراء المادة المعالجة في القرآن الكريم ومقارنتها بما جاء في الأبحاث العربيّة والغربيّة خاصة في سياق تأصيلها لمعايير تمييز المتلازمات المعجميّة عن أنواع الوحدات المعجميّة الأخرى. ونظرا إلى خصوصيّة المصدر المعتمد في استخراج المادة المطلوبة، ونقصد القرآن الكريم، ثم نظرا إلى كونه مصدرا من أهم المصادر المعتمدة قديما في جمع المادّة القاموسيّة وفي الاستشهاد لها، إلى جانب الشعر الجاهلي والحديث والمأثور من الكلام العربي، رأينا أنّه من البديهيّ جدا أن يتفرّد بتوليد متلازمات شاعت منذ ظهوره أو تقيّدت بخصوصيّة النصّ القرآنيّ فانغلقت في فضائه. وقد نبّهَنا ذلك إلى أنّ المتلازمات المعجميّة لم تكن كذلك بعد أن شاعت وانتشرت ولكنّها اكتسبت في تكوّنها بنيةً معجميّة داخليّة هي التي خوّلت لها الانتشار والشيوع لاحقا. وهي في ذلك لا تختلف عن بنية الوحدات المفردة والوحدات المركّبة، فقيامها في المعجم وحدات دالة ناتج عن اكتسابها خصائصها التمييزيّة الثابتة الوجود، ثم هي بعد هذا على نفس الدرجة من التكافؤ المعجميّ إذا تعلّق الأمر بالشيوع والتداول، ذلك أن نسبة كبيرة جدا من المفردات المحشوّة في القواميس غير متداولة أو مندثرة تماما، ولذلك فنحن سنتجاوز التصنيف الثنائي الذي وضعه الخليل في كتابه العين والذي ميّز فيه بين ما سمّاه المستعمل أي ما تكلمت به العرب في عصره وما سمّاه المهمل أي ما لا بناء له في العربيّة لنتحدّث عن صنف ثالث بين الصنفين نسمّيه «الممكن»، وهو صنف قائم في المعجم ولكن قد يضيق في الاستعمال أو يتعطّل لسبب أو لآخر، وليس تعطّله الاستعمالي بنافٍ عنه بعده المعجميّ.

المصادر والمراجع العربية

العربيّة:

- ابن حنبل، أحمد: مسند أحمد، تح شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط الرسالة، 2001، (ج3).
- ابن عاشور: محمد الطاهر: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، (ج2).
- ابن عباس، عبد الله: مسائل نافع بن الأزرق، منشورات الشاملة، 1421 ه.
- ابن مراد، إبراهيم: مقدمة لنظرية المعجم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.
- المعجم العربيّ بين اللغة والخطاب، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، الرياض، 2016.
- ابن العبد، طرفة: الديوان، تح مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلميّة، ط 3، بيروت، 2002.
- الأنصاريّ، ابن هشام: مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، تح: مازن مبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، (جزءان).
- تأبّط شرا: الديوان، تح علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، 1984.
- الثعالبي، أبو منصور: –فقه اللغة وسر العربيّة، تح عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، 2002.
- يتيمة الدهر، تح قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، دت.
- الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تح محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، (دت).
- السّائح دحماني، زكيّة: القاموس الأسمائي للأعلام الممعجمة في مدوّنة الأمثال العربيّة، سلسلة مدارات الكلام، خطوة للنشر، تونس، 2024، 13_35.

- شعير، نجلاء، – «في تعليمية الاستعارة» في مناويل لسانية في الاضطرابات اللغوية، تحرير محمود قدوم(دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمّان، 2024).
- «المتلازمات المعجميّة بين المقْولة المعجميّة والمقولة العرفانيّة»، ضمن أعمال مشروع المتلازمات المعجميّة في القرآن الكريم، بصدد النشر.
- القزويني، الخطيب (جلال الدين الشافعي): الإيضاح في علوم البلاغة، تح محمد خفاجة، دار الجيل بيروت، ط 3، (دت).
- العنزي، بدرية: نحو بناء معجم للمتلازمات اللفظية في المعاجم العربية المعاصرة: دراسة تحليليّة في ضوء مدوّنة لغوية، مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربيّة، الرياض 1445 ه.

الأجنبيّة:

- Dickins, James: "Two Models for Metaphor Translation", Target 17(2), 227-273, 2005.
- Gentner, Dedre & Clement, Catherine: "Evidence for Relational Selectivity in The Interpretation of Analogy and Metaphor », in G.H. Bower (Edit), The psychology of Learning and Motivation, New York, Academic Press, pp307- 358, 1988.
- Jackendoff, Rya. : *Foundations of Language*: *Brain*, *Meaning*, *Grammar*, *Evolution*. Oxford University Press, 2002.
- Lyons, John : *Semantics* (Vol. 1, pp. 318–325). Cambridge University Press, 1977.
- Le Guern, Michel : *sémantique de la métaphore et de la métonymie*. Paris, Larousse, 1973.
- Mel'čuk, Igor : "On Phrasemes in Language and Phraseology in Linguistics." Yearbook of Phraseology, 3, 31–64, 2012.
- Nunberg, Geoffrey, Sag, Ivan & Wasow, Thomas: « Idioms »**,** *Linguistic Inquiry*, 25(1), 1–63, 1994.
- Palmer, Frank. Robert : *Semantics*. Cambridge University Press, (2nd ed.), 1981.

- Simpson, Rita: *"*A CorpusBased Study of Idioms in Academic Speech", Journal of English Linguistics, 31(2), 2003.
- Ricoeur, Paul: *La métaphore vive*. Editions du Seuil, Paris, 1975.
- Rosamund, Moon : *Fixed Expressions and Idioms in English* : *A Corpus-Based Approach***.** Oxford**:** Oxford University Press, 1998.

من قضايا تعليميّات اللّغات

د. وداد نور الدّين منصوري

مخبر المباحث الدلاليّة واللّسانيّات الحاسوبيّة (LR18ES46)
جامعة الوصل، الإمارات العربيّة المتّحدة

ملخّص البحث:

تعتبر النّظريّات التّعليميّة المعتمدة في مجال التّعليم من أهم الأسس الّتي انبنى عليها مبحث تعليميّات اللّغات، وهو مبحث يندرج ضمن مبحث أعمّ وهو مبحث اللّسانيّات التّعليميّة الذي يعتبر أحد أهمّ فروع اللّسانيّات التّطبيقيّة، وقد تمكّنت اللّسانيّات التّعليميّة اليوم من بناء منهج خاصّ بها تتّصل به جلّ قضايا التّعليم، وقد وجدت تعليميّات اللّغات في النّظريّات اللّسانيّة رافدا من الرّوافد الّتي استلهمت منها مبادئها ودعائمها وذلك لعمق الصّلات الرّابطة بين حقل التّعليميّات وحقل اللّسانيّات، ولأنّ التّعليم في جوهره عمليّة نفسيّة بالأساس فقد أفادت تعليميّات اللّغات من معطيات وفّرها علم النّفس بمختلف فروعه وخاصّة علم النّفس التّربويّ وعلم النّفس السّلوكي، ممّا أثمر عن مبحث تعليميّ ذي أسس لسانيّة ونفسيّة واضحة المعالم، وهو ما حدا بنا إلى تسليط الضّوء على علاقة تعليميّات اللّغات باللّسانيّات التّطبيقيّة تمهيدا لعرض أشهر النّظريّات التّعليمية في حقل التّعليميات، دون أن نغفل النّظريّات النّفسيّة والسلوكية الّتي ساهمت في تشكيل وبناء معالم مبحث تعليميّات اللّغات، قامت مختلف النّظريّات التّعليميّة على أسس ومبادئ تتّصل في أهدافها ومضامينها بجوهر المعرفة، المعرفة الّتي ينبغي أن تخضع إلى ما يسمّى بالنّقل الدّيداكتيكيّ حتّى تصبح مادة معرفيّة قابلة للتّدريس، ويرتبط تلقّي المعرفة بأنماطها المختلفة وبوسائلها المتنوّعة على عمليّة لا تقلّ عنها أهمّيّة وهي اكتساب المهارات، حيث تعتبر المهارات عناصر داعمة للعمليّة التّعليميّة، وينبغي على كل من المعلّم والمتعلّم اليوم الحرص على

الإلمام بكلّ الجوانب التّعليميّة الّتي تتعلّق بدور كل منهما في تحقيق الأهداف المرجوّة، ولا يمكن أن يتمّ ذلك دون الانتباه إلى أهمّيّة اكتساب كلّ من المعلّم والمتعلّم للمهارات اللّغويّة والمهارات التّواصليّة.

كشف البحث عن عمق الصّلات الرّابطة بين النّظريّات التّعليميّة وبعض مظاهر تطبيقاتها التّعليميّة والتّربوية، بالإضافة إلى عرض الإشكاليّات المتعلقة بمناهج وأساليب تهيئة المعرفة لتصبح قابلة للتّدريس، وهي عمليّة دقيقة تخضع إلى قواعد صارمة تضمن تحقيق الأهداف التّعليميّة بنجاعة ولا يتسنّى ذلك إلاّ متى أدركنا أهمّيّة اكتساب المتعلّم للمهارات اللّغويّة والمهارات التّواصليّة الّتي سيتلقّى بواسطتها المعرفة وسيفعّل من خلالها ممارسته للغة الّتي يتعلّمها، وتتدعّم العمليّة التّعليميّة بحسن استثمار العوامل النّفسيّة الدّاعمة لها، وهو ما عرضناه في إطار شرحنا للصعوبات المعرفيّة والصّعوبات النّفسيّة الّتي تواجه المتعلّم والّتي يسعى مبحث التعليميّات اليوم إلى إيجاد حلول عمليّة لها لتقليص الفجوة بين المتعلّم وآليات اكتساب اللّغات.

الكلمات المفاتيح: تعليميّات اللّغات، النّظريّات التّعليميّة، المعلّم، المتعلّم، المعرفة العالمة، المعرفة التّعليميّة، المهارات اللّغويّة، السّلوك، الدّافعيّة، التّعزيز...

Abstract :

The educational theories adopted in the field of education are among the most important foundations upon which the discipline of language pedagogy is built; this discipline falls within the broader field of educational linguistics, which is regarded as one of the most important branches of applied linguistics. Today, educational linguistics has succeeded in developing its own methodology, which addresses many educational issues. It has found in linguistic theories a source from which language pedagogy has drawn its principles and foundations, owing to the depth of the connections between the fields of pedagogy and linguistics. Furthermore, as education is, at its core, fundamentally a psychological process, language teaching has benefited from the insights provided by psychology in its various

branches, particularly educational psychology and behavioral psychology. This has resulted in a field of educational study with clearly defined linguistic and psychological foundations, which has led us to highlight the relationship between language pedagogy and applied linguistics as a prelude to presenting the most educational theories from which the field of pedagogy has benefited, whilst not overlooking the psychological and behavioral theories that have contributed to shaping and constructing the parameters of the discipline of language pedagogy. Various educational theories are based on foundations and principles whose objectives and content relate to the essence of knowledge-knowledge that must undergo what is known as didactic transfer to become teachable subject matter. The acquisition of knowledge in its various forms and through its diverse means is linked to a process of no less importance: the acquisition of skills, Skills are considered to be elements that support the educational process, and both teachers and learners today must ensure they are familiar with all educational aspects relating to their respective roles in achieving the desired objectives. This cannot be achieved without paying attention to the importance of both teachers and learners acquiring language and communication skills.

Keywords : language teaching, educational theories, teacher, learner, scientific knowledge, teaching knowledge, Language skills, behaviour, motivation, reinforcement…

تمهيد:

تندرج تعليميّات اللّغات ضمن حقل اللّسانيّات التّطبيقيّة وتحديدا اللّسانيّات التّعليميّة، وذلك أنّ اللّسانيّات التّطبيقيّة تهتم بالبحث في الجوانب اللّسانيّة التّطبيقيّة المتعلقة بحياة الإنسان في مجالات كثيرة لعل أهمها مجال التعليم، وهي (أي تعليميّات اللّغات) من الحقول المعرفيّة الّتي نشأت استجابة لسعي الباحثين الدائم إلى الإحاطة بكل الجوانب المتعلّقة بالعمليّة التّعليميّة والتعلّمية الّتي تتقاطع فيها أبعاد معرفية كثيرة و متنوعة، حيث لم يعد التّعليم مجرّد عمليّة

بيداغوجيّة تقوم على إكساب المتعلّم مجموعة من العلوم والمعارف في مختلِف الميادين بل علما يرتكز على أسس ومناهج تستجيب لمتطلّبات المتعلّمين اليوم، وذلك عبر تهيئتهم لاكتساب مهارات وخبرات تعليميّة وفق أسس معرفيّة ومنهجيّات علميّة لها قواعدها وقوانينها الصّارمة والموضوعيّة.

تكاتفت جهود الباحثين في حقل تعليميّات اللّغات للبحث في كل مقوّمات العمليّة التّعليميّة قصد الكشف عن عناصرها الأساسيّة ومناهجها العلميّة وأسسها المعرفيّة الّتي تقوم أساسا وقبل كلّ شيء على جعل المتعلّم عنصرا فاعلا في بناء المعرفة وليس مجرّد متقبل لها. ومن هذا المنطلق رمنا البحث في مجموعة من القضايا المتصلة بتعليميّات اللّغات اليوم، في ظلّ تنامي حاجيات الأفراد إلى تعلّم اللّغات بنجاعة وبيسر.

ونسعى من خلال هذا البحث إلى النّظر في جملة من القضايا المتّصلة بتعليميّات اللّغات وأهّمها النظر في مدى استفادة تعليميّات اللّغات من النّظريّات المعرفيّة وخاصة اللّسانيّة منها والنّفسيّة، بالإضافة إلى البحث في علاقة هذه الجوانب النّظريّة بمجال التّطبيق والممارسة، فلئن تمكّنت تعليميّات اللّغات من النّهل من معين الحقول المعرفيّة المتنوّعة فإنّها قد حاولت أيضا إيجاد مجال لتطبيق تلك النّظريّات عمليّا لتكون هذه النّظريّات لَبِنات تؤسّس لحقل التّعليميّات وتفتح أبواب البحث المتّصلة بمجالاته نظريّا وتطبيقيّا.

تعتبر النّظريّات اللّسانيّة من أبرز النّظريّات الّتي استفاد منها حقل التّعليميّات، وذلك بفضل الصّلات والرّوابط المتينة المعقودة بين تعليميّات اللّغات واللّسانيّات التّطبيقيّة، وقد مثّلت النّظريّات اللّسانيّة في جانب كبير منها أسسا ارتكزت عليها التّعليميّات ولا عجب في ذلك فهما يشتركان في الاشتغال بالمباحث اللّغويّة والمسائل المتعلّقة بطرائق اكتساب اللّغة وتلقّيها، ومن هذا المنطلق نتناول بالدّرس في القسم الأول من البحث الإشكاليات والقضايا المتصلة بالأسس اللّسانيّة لتعليميّات اللّغات وذلك بدراسة طبيعة العلاقة بين التّعليميّات واللّسانيّات التّطبيقيّة. أما القسم الثاني فتعلق بالنّظريّات التّعليميّة الّتي مثلت مبادئ ومرتكزات انبنت عليها تعليميّات اللّغات، حيث نعرض مع كلّ نظريةٍ الجوانبَ التّطبيقيّة المتعلقةَ بمجال التّعليم بصفة عامة ومجال تعليميّات اللّغات بصفة خاصّة، ونحن إذ نعرض هذه النّظريّات نتساءل عن مدى قدرة هذه النّظريّات على ملاءمة ومواءمة متطلبات العمليّة التّعليميّة الحديثة؟

أما القسم الثالث، فنتطرق فيه إلى دور الـمهارات في التّعليم والتعلّم، نظرا إلى ما أثبتته عملية اكتساب المهارات من قدرة على تأمين عمليّة تعليم ناجحة وعمليّة تعلّم ناجعة.

ونعرض في القسم الرابع والأخير إشكاليات تتعلق بالمعوّقات الّتي قد تحول دون تحقيق تعليم ناجح وناجع للّغات، حيث نفترض أنّ هذه العوائق ترتبط أساسًا بالكفايات اللّغويّة الّتي تؤمن التّواصل اللّغوي في البيئة التّعليميّة، والجوانب النّفسيّة المتّصلة بالمتعلّم، وتمثّل هذه العوائق الّتي تعترض متعلّم اللّغات اليوم إحدى أهم المسائل الّتي يشتغل بها الدارسون في كل الحقول المعرفيّة، نظرا إلى أنّ التّعليم يمثل نقطة التقاء كل العلوم على اختلافها.

1 ـ تعليميّات اللّغات واللّسانيّات التّطبيقيّة:

يحتاج كل مجال نظري إلى مجال تطبيقي يكون الأساس الذي تتبلور في إطاره نتائج الدراسات، فالمجال التطبيقي ميدان للتجربة والاختبار، لذلك فقد عقدت اللّسانيّات النّظريّة علاقات وصلات متينة مع مجالات معرفية متعددة كعلم النفس وعلم الاجتماع، فتنوعت النّظريّات اللّسانيّة وتعددت مباحثها وقضاياها فبات من الضروري أن يكون لها جانب تطبيقي وتجريبيّ متمم لها، من هذا المنطلق استمدت اللّسانيّات التّطبيقيّة مشروعية وجودها وعقدت بدورها صلات وروابط شديدة التعالق مع حقول معرفية أخرى أهمها حقل التعليميات، فنشأ ما يعرف اليوم باللّسانيّات التّعليميّة، يقول أحمد حساني : «يمكننا القول، منذ البدء، إن الجانب التّطبيقي للعلم يبتدئ في حالتين: إحداهما: إخضاع الـمعطيات العلمية النّظريّة للتّجربة والاختبار. وإحداهما الأخرى: استعمال القوانين والنّتائج العلميّة في ميادين أخرى من أجل الإفادة منها. بناء على هذا التّصوّر، لمفهوم التّطبيق العمليّ، فإنّ اللّسانيّات التّطبيقيّة هي استثمار للمعطيات العلميّة للنّظرية اللّسانيّة واستخدامها استخداما واعيا في حقول معرفيّة مختلفة، أهمّها حقل تعليميّة اللّغات، وذلك بترقية العمليّة البيداغوجية وتطوير طرائق تعليم اللّغة للنّاطقين بها ولغير النّاطقين.».[1]

(1) أحمد حساني، دراسات في اللسانيات التطبيقية، حقل تعليمية اللغات. جامعة وهران، ص41.

تندرج تعليميّات اللّغات ضمن حقل اللّسانيّات التّطبيقيّة كما أسلفنا الذكر، إذ تلتقي اللّسانيّات التّطبيقيّة بحقل تعليميّات اللّغات في اشتراكهما معا في الاشتغال باللّغة وكل ما يتصل بها، ويؤكد الدارسون أن هذين الحقلين متداخلان منهجيا وتاريخيا بدليل استفادة التعليميّات من النّظريّات اللّسانيّة داخل إطار اللّسانيّات التّطبيقيّة.(2)

تتضح العلاقة بين تعليميّات اللّغات واللّسانيّات التّطبيقيّة جليّة إن نحن أنعمنا النظر في محاور مختلفة وإشكاليات كثيرة تتصل بكل منهما، عل غرار المباحث المتعلقة بكيفيات استفادة كل حقل منهما من الآخر، يقول علي آيت أوشان: « ورغم ذلك فإنّ طرح موضوع استفادة تعليم اللّغة من اللّسانيّات ينبغي أن يرقى إلى مستوى أعمق نستحضر فيه علاقة اللّسانيّات بالبيداغوجيا وذلك بالتفكير في:

*كيف يمكن الانتقال من الـمعرفة اللّسانيّة ذات الطابع العلمي إلى المعرفة المدرسية ذات الطابع التعليمي؟

*وكيف نكيف محتويات المعرفة اللّسانيّة مع الطرق التربوية وحاجيات المتعلّم اللغوية؟

*وكيف يمكن الاستفادة ديداكتيكيا من مختلف النّماذج اللسانيّة؟ (3)

يشترك حقل تعليميّات اللّغات واللّسانيّات التّطبيقيّة في اهتمامهما معا بكل الجوانب اللّغويّة المتعلقة بحياة الإنسان بصفة عامة والمتعلّم بصفة خاصة، بالإضافة إلى أنّ اللّسانيّات التّطبيقيّة علم يوفر لحقل التّعليم معطيات تساهم في حل مشكلاته، وتستمد اللّسانيّات التّطبيقيّة هذه المعطيات من اللّسانيّات النّظريّة وأساسا من النّظريّات اللّسانيّة الّتي واءم الباحثون بين معطياتها ومجال التعليم،

(2) Quel classement pour la didactique des langues ? Si on veut en effet faire de la didactique des langues une discipline à part entière, on ne peut éviter de préciser les rapports qu'elle entretient avec son objet, qui est la langue, abordée sous l'angle de l'enseignement et de l'apprentissage. Aussi, le cadre épistémologique le plus général où on peut la situer est la science du langage, qui se construit perpétuellement depuis que les hommes réfléchissent sur l'activité qui les définit : le langage articulé.p35.

(Cuq, J.-P. (1996). *Une introduction à la didactique de la grammaire en français langue étrangère*. Paris, France : Les Éditions Didier.)

(3) علي آيت أوشان، اللسانيات والبيداغوجيا نموذج النحو الوظيفي، ص 21

وإن نحن أنعمنا النظر في مجالات اللّسانيّات التّطبيقيّة المتنوعة نجد أنها تتواءم مع مجالات التعليم، لذلك يُعتبر حقل التّعليم مجالا وميدانا لتجربة مختلف النّظريّات اللّسانيّة وخاصة منها التّطبيقيّة لإيجاد مناهج تعليم تستجيب لحاجيات المتعلمين.

تسعى اللّسانيّات التّطبيقيّة من خلال النّظريّات اللّسانيّة الّتي تسعى إلى اختبارها في حقل تعليمية اللّغات إلى إكساب المتعلّمين مهارات تعليمية وتربوية على قدر كبير من ال أهمّيّة ومن النجاعة ومنها على سبيل الذكر لا الحصر : مهارة التواصل، مهارة الإنصات، مهارة التحدث، وقد تطرقت بعض النّظريّات اللّسانيّة إلى هذه الجوانب التّعليميّة التربوية، فبالنظر إلى المباحث الّتي اشتغل بها اللسانيّون نجد أنهم قد درسوا آليات اكتساب اللّغة ومناهج تعلمها، من خلال دراسة بنية اللّغة ومكوناتها ودورها في تأمين دورة التخاطب وكذلك علاقتها بوظائف اللّغة المتعددة، بالإضافة إلى اعتنائها بطرائق معالجة العقل البشري لها باعتبار أنّ تعلّم اللّغة هو بشكل من الأشكال تفعيل للآليات العقلية والآليات الإدراكيّة الّتي يتمثل بها الإنسان بصفة عامة والمتعلّم بصفة خاصة اللّغة الهدف.

على هذا النحو يمكن عقد الصلات بين حقل تعليميّات اللّغات والنّظريّات اللّسانيّة الّتي وجدت في اللّسانيّات التّطبيقيّة مجالا خصبا للتّجربة والاختبار، فمتى تتبّعنا مسار النّظريّات اللّسانيّة وجدنا أنّها توفّر معطيات يستفيد منها مجال التّعليم، ورغم التّعالق الواضح بين المجالين فقد برزت نظريّات تعليميّة جذُورها لسانيّة لكنّ تطبيقاتها تعليميّة وتربويّة.

2 ـ النّظريّات التّعليميّة:

تعتبر القضايا المتعلّقة بالنّظريّات التّعليميّة من أهمّ المسائل المطروحة اليوم، نظرا إلى ما تمثله من دور أساسيّ في تأطير عمليّتي التّعليم والتعلّم، وتتصل هذه القضايا بإشكاليّة رئيسية تبحث في وسائل وآليات تطبيق هذه النظريات في مجال التعليم بحيث تستجيب العمليّة التعليميّة بنجاعة وفاعليّة إلى حاجيات المتعلّمين في العصر الحديث.

أرسى حقل تعليميّات اللّغات دعائمه على نظريّات تعليميّة ذات منطلقات لسانيّة ونفسيّة بالأساس، ذلك أنّ هذه النّظريّات الّتي استمدت أسسها ومناهجها من الحقول المعرفيّة المتصلة بالتّعليم (حقل اللّسانيّات وحقل علم النفس أساسا) ضروريّةٌ لفهم آليات العمليّة التعليمية لتحقيق أهدافها من خلال توجيه سلوك المتعلّم نحو العمل على تلبية احتياجاته المعرفيّة والعلميّة والحياتيّة أيضا، فالـمتعلّم اليوم لم يعد مكتفيا بالمواد التّعليميّة الّتي تقدّم له داخل القاعة الدراسيّة أو البيئة التّعليميّة، إنّما صار يعتمد على وسائل تعلُّميّة أخرى معاضدة ومساعدة في إطار ما يُعرف بالتعلّم الذّاتي، وكذلك على مصادر تعلّم متعدّدة ينمّـي بواسطتها كفاءاته ويدعم بها قدراته و يكتسب عن طريقها مهارات تعليميّة وحياتيّة لا غنى له عنها.

أصبح للتّعليم عموما ولتعليميّات اللّغات خاصّة نظريّات تعليميّة وتعلمّية على غاية كبرى من الأهميّة، فقد صحّحت مسارها وشكّلت لِبنات بنائها الأولى. نشأت هذه النّظريّات استجابة لمتطلبات مرحلة النضج المعرفي الذي وصلت إليه التعليميات، واستجابة لضرورات فرضها واقع التّعليم في فترات زمنية متتالية من جهة واحتياجات المتعلّمين من ناحية أخرى، فقد عكف الباحثون على تفسير طرائق اكتساب اللّغات وتعلمها دون عزلها عن المجالات الّتي تتقاطع فيها التّعليميّات مع بقية الحقول المعرفيّة الأخرى، وهو ما يفسر تنوع النّظريّات التّعليميّة الّتي ارتبط بعضها بأبعاد لسانية وارتبط بعضها الآخر منها بأبعاد نفسيّة بالإضافة إلى الجوانب التربوية والاجتماعية، وقد استفادت تعليميّات اللّغات من تنوع النّظريّات اللّسانيّة الّتي تم اختبارها في حقل التّعليم استفادة مكنت من تطوير أساليب وطرائق التّعليم والتعلّم، وقد اخترنا منها النّظريّة البنائية، النّظريّة السلوكية والنّظريّة الجشطلتية، ونحن إذ نعرض أهم الـمبادئ التّعليميّة والتّطبيقات التربوية لهذه النّظريّات في مجال تعليميّات اللّغات نتساءل حول مدى إمكانية مواكبة هذه النّظريّات متطلبات المتعلّمين اليوم في عصر تغيّرت فيه الاحتياجات التعلّميّة فتغيّرت وسائل التّعليم وغاياته وأهدافه وبالتالي آليات تحصيله واكتسابه.

2-1 نظرية الجشطلت:

يعود ظهور هذه النّظريّة إلى بدايات القرن العشرين، وهي فترة بدأت فيها الدّراسات المتعلّقة بعلم النّفس التّربوي والتّعليمي تزدهر مؤكدة عمق الصّلات القائمة بين مجال علم النّفس ومجال التّعليم في إطار لسانيّ داعم لكلا المجالين، فقد برزت معالمها في ألمانيا على يد عالم النفس الألماني ماكس فرتيمير Max Wertheimer (1880ـ 1943)، و ساهم مجموعة من الباحثين في بلورة مبادئ النّظريّة وعلى رأسهم عالم النّفس و ولفانج كوهلر (1887-1967) وكورت كوفكا (1886-1941)، وتعتبر هذه النّظريّة من النّظريّات التّعليميّة الّتي أفضت إلى الكشف عن أهم المبادئ التّعليميّة الّتي ينبغي اعتمادها لتحقيق الأهداف التّعليميّة المرجوّة.

تعتمد النّظريّة الجشطلتية أساسا على الإدراك خاصة إذا ما ربطناه بمجال التّعليم حيث « يعدّ الإدراك هو الأساس في نظرية الجشتلط، والإدراك يكون بطريقة مجملة كلية، ثم ينتقل بعد ذلك إلى التفاصيل، أي أنّنا لا نفهم التفاصيل إلاّ في إطار الكل»[4].

«الجشطلت كلمة ألمانية تعني الكل أو الشكل أو الهيئة أو النمط الذي يتعالى على مجموع الأجزاء «[5]، فالكل هنا يجمع الأجزاء المترابطة والمتعالقة في نظام يحدد دور كل عنصر من العناصر ووظيفته داخل النظام، وإذا ما بحثنا في كيفية استفادة حقل التعليميّات من هذا المبدأ يمكن القول إنّ مبدأ الكلية الذي يميز نظرية الجشطلت يساهم في دعم مكونات عناصر العمليّة التّعليميّة، وذلك عبر تأمين عمليّة تعليمية تقوم على التدرج في تقديم المواد التّعليميّة في القاعة الصفية من العام إلى الخاص، ويتعلق الأمر بتعلّم اللّغة الأولى وكذلك اللغة الثانية، فالتركيز على المعطيات الكلية ثم التعمق فيها تدريجيا يضمن حسن الفهم والاستيعاب، وينبغي على المعلم أن يراعي مبدأ التدرج في التّعليم نظريا وتطبيقيا، أي في المواد التّعليميّة النّظريّة الّتي يقدمها وكذلك في كل الجوانب

(4) كفاح العسكري، نظريات التّعلّم وتطبيقاتها التربوية، كفاح العسكري، محمد الشمري، علي العبيدي، دمشق، 2012. ص 181
(5) على عماد عبد الرحيم الزغول نظريات التعلم، ص 171-187

التّطبيقيّة المتعلقة بالممارسة الفعلية للغة المُتَعلَّمَة، ويرتبط التدرج بتقديم المواد التّعليميّة بنسق متدرّج يراعي تطوّر مراحل النّمو المعرفيّ عند المتعلّمين، وذلك لضمان نجاعة التّدريس وتحقيق أهدافه المرجوّة.

يتيح مبدأ التّدرّج في التّعليم من العام إلى الخاصّ أي من الكلّ إلى الجزء للمتعلّمين الرّبط بين عناصر المعرفة المُقدّمة لهم من خلال منحهم فرصَ توظيف آليّاتهم العقليّة والإدراكيّة وتنمية مهارات التّفكير العليا لديهم مما يقوّي دافعيتهم للتعلّم من جهة ويدعم قدراتهم الاكتسابيّة من جهة أخرى، فتدريس اللّغة العربية لغير النّاطقين بها مثلا، يعتمد على الانطلاق من الكليّات أي من أنظمة و أبنية لغويّة كلّيّة إلى الجزئيّات وهي المستويات المترابطة الّتي تؤلّف تلك البنية، فلا يمكن أن يتمّ تعليم اللّغة العربيّة بتعليم مستوى واحد من المستويات الّتي تكوّن بنيتها إنّما يتمّ ذلك بتقديم المستويات كلّها لأنّها تشكّل بنيةً مترابطة ونظاما متماسكا، فمتعلّم اللّغة العربيّة من النّاطقين بها أو بغيرها يحتاج إلى معرفةٍ كلّيّةٍ بنظام اللّغة العربيّة ثمّ إلى معرفة متخصّصة تثري زاده المعرفي وتشحذ رصيده اللّغوي، فلا يمكن أن نتعلّم أصوات العربيّة دون أ، نتعلّم قواعدها النّحوية، ولا يمكن الاكتفاء بحفظ قائمات من المفردات nomenclature بمعزل عن المستويات الصرفيّة : التّصريفيّة والاشتقاقية، فالانطلاق من الكلّ إلى الجزء يصبح بهذا المعنى مبدأ تعليميًّا ضروريًّا يؤسس لنجاح العمليّة التّعليميّة والتعلُّمية.

بالإضافة إلى مبدأ الكلّيةِ، طرح روّاد النّظريّة الجشطلتيةِ مبادئ تعليميةٍ أخرى منها التعلّم بالاستبصار، فقد ربطوا التعلّم بقدرات الفرد وطاقته ومهاراته ومستوى ذكائه، فالمتعلّم قادر على إيجاد الحلول للمواقف التّعليميّة الّتي قد تعترضه أثناء مراحل التعلّم المختلفة عن طريق الملاحظة والتّفكير والتّخطيط، وعن طريق إيجاد عناصر التّشابه بين موقف تعليميّ وآخر وبالتّالي تطبيق نفس الخطوات وتحقيق النّتائج ذاتها، فالتّعليم عن طريق دفع المتعلّمين إلى ممارسة عمليّة الاستبصار يقوي قدراتهم العقلية وينمي مهارات التّفكير عندهم، حيث يكرّرون محاولات إيجاد الحلول حتى يتوصّلوا إلى الإجراءات المناسبة الّتي تصلح لأن تكون خطوات مُتّبَعة في كلّ المواقف التّعليميّة المتشابهة والمتقاربة.[6]

(6) للتعمق أكثر في مبادئ نظرية الجشطلت يرجى الاطلاع على كتاب نظريات التعلم، على عماد عبد الرحيم الزغول، ص 171–187

يقوم مبدأ الاستبصار الجشطلتيّ على مجموعة من العوامل الّتي تؤثر على الاستبصار ومنها مستوى الذّكاء والنّضج العقليّ، وكذلك مستوى الخبرة، فالمواقف المتشابهة الّتي تعوّد المتعلّم المرورَ بها تجعله أكثر قدرةً على مجابهتها وإيجاد الحلول لها دون الوقوع في الأخطاء.

يسعى المعلّم أثناء تعليمه للّغات إلى الجمع بين الأشياء المتشابهة لجعل تعلّمها أيسر و أنجع، فيختار مثلا البدء بالأصوات المتشابهة في المخارج نطقا، ويختار الحروف المتشابهة في الكتابة وذلك لتمكين المتعلّمين من الربط بينها بسهولة وبالتالي تعلّمها بشكل أكثر يسرا وأقلّ تعقيدا، وكمثال تطبيقي على ذلك نذكر تجميع المعلّم للحروف والأشكال والعناصر المتشابهة في لغة من اللغات لتعليمها لطلاّب المراحل الابتدائيّة مثلا، سواء تعلق الأمر باللّغة الأولى أو اللّغة الثانية، حيث يُكوّن هذا التّأليف بين كلّ الجزئيّات المتشابهة في الحقيقة مجموعة من الكليّات، وكلّ هيئة أو صيغة كلّيّة تتفرّع إلى عناصر، فبالنّسبة إلى تعليم اللّغة العربيّة لغة أولى ولغة ثانية يقوم المعلّمون بتجميع الحروف حسب تشابهها كتابة:

(ح خ ج) (د ذ) (ر ز) (ع غ) (س ش) (ت ث ب) (ض ص) (ط ظ) (ف ق) حيث يتمّ عرض الشّكل الكلّيّ أي الصّيغة الكلّيّة أوّلاً حرف الـ (ح) على سبيل المثال، ثم تجزئة مكوّناتها بإضافة نقطة فوق (ح) لتصبح (خ) ونقطة تحتها لتصبح (ج)، بحيث يدرك المتعلّمون تدريجيًّا الفروقات بين أشكال هذه الحروف كتابة ونطقا وبالتّالي يصبحون قادرين على استعمالها في مقاطع ثمّ في كلمات لها دلالة وصولا إلى عبارات وجمل لها معان متنوعة ومتعدّدة تتعدّد وتتنوّع باختلاف السّياقات التّواصليّة والمواقف التّعليمية التي يجد فيها المتعلّم نفسه مُطالبا بتفعيل وممارسة ما تعلّمه عبر آليات عقليّة كثيرة أهمّها الفهم والتّحليل والحفظ.

ترتبط بكلّ المبادئ التي تمّ شرحها آنفا مبادئُ أخرى اعتمدتها النّظريّة الجشطلتية ومنها مبدأ التّكرار الذي يعتمد على الاستمرار، وقد مثّل هذا المبدأ نقطة تلاق للعديد من النّظريّات التّعليميّة، حيث يساهم التّكرار في تثبيت المواد التّعليميّة المُدَرَّسَة في أذهان المتعلّمين، ومثالنا على ذلك أنّ التّرديد الصّوتي للحروف بمختلف حركاتها القصيرة والطّويلة يُمكِّن المتعلّمين من حفظها و

تمييزها من بعضها البعض بسهولة، كما أن تَكرار كتابة حروف اللّغة المراد تعلّمها يرسّخ في ذهن المتعلّم شكلها و طريقة كتابتها ممّا يؤهله لاحقا لاستعمالها ضمن مقاطع لتكوين الكلمات كتابةً.

يعتبر التَّكرار من أهمَ الآليات التّعليميّة الّتي تيسَر عمليّة الفهم والحفظ لدى المتعلَمين، فبفضله يتسنَّى للمتعلّم تثبيت المعارف الّتي تلقَّاها عن اللّغةِ الهدفِ وبالتّالي القدرة على تعلَمها بنجاعة استجابة لاحتياجات قد تكون تعلّميَّة أو حياتيَة أو مهنيَّة.

2 – 2 النّظريّة السُّلوكيَّة

تعتبر النّظريّة السُّلوكيَّة من أهم النّظريّات الّتي استفاد منها حقل التّعليميّات، ولا عجب في ذلك فالتّعليم في جوهره عمليّة تغيير في سلوك المتعلّم كما عرفه الباحثون في مجال التّعليميّات، وتقوم النّظريّة السُّلوكيّة على مراقبة وملاحظة السُّلوك الظَّاهر (دون الاهتمام بالجوانب العقليَّة الباطنيَّة والعوامل الوراثيَّة)، وإن ربطنا بين هذا المبدأ وحقل التّعليم العمليّ التّطبيقيّ نجد أن ملاحظة سلوك المتعلّم يسمح للمعلّم بتحليل سلوكه التّعليمي وبالتالي اختيار المناهج التّعليميّة المتلائمة مع قدراته واحتياجاته، مما سيقوّي دافعيّته للتّعلّم ويحفّزه على الانخراط في الممارسة التّعليميّة بنجاعة وكفاءة.

في إطار ملاحظته للسّلوك التّعليمي، يتمكن المعلّم من تحديد نقاط ضعف ونقاط قوة المتعلّم، ثم ينتقي الأساليب التّعليميّة المناسبة لتقوية نقاط الضعف وتعزيز نقاط القوة، لكي يتسنّى له تعديلها لاحقا عبر توجيه المتعلّم إلى ممارسات تعليميّة معيّنة تدعم تعلّمه وتضمن حسن استيعابه للمواد التّعليميّة وفق ما يتلاءم وقدراته.

يعتبر الرّوسيّ إيفان بافلوف من أهم روّاد النظريّة السّلوكيّة، فقد بنى مبادئه على ملاحظة سلوك ناتج عن مثيرات طبيعيّة وأخرى محايدة تؤدَي إلى استجابة معيّنة تتقوّى بالتّكرار والاستمرار إلى أن تستقرّ في الذّهن وتصبح ردّة فعل طبيعيّة.

انبنت تجربة إيفان بافلوف على عمليّة ربط منطقي بين ما سمّاه «المثير الطبيعي» (سيلان لعاب الكلب عند رؤية الطعام) بالمثير المحايد (صوت الجرس) لتكوين استجابة ما (القدوم لتناول الطعام).

هذا المثير المحايد قد لا يسبّب الاستجابة المطلوبة في البداية، لكنّه يصبح متسبّبا فيها عندما يقترن هذا الصّوت بمثير طبيعيّ يتكرّر حضوره عدّة مرّات، فلو أنعمنا النّظر في التّأثير الّذي أحدثه رنين الجرس قبل ربطه بالطّعام سنجد أنّ هذا المثير لن يكون باعثا على سيلان لعاب الكلب لأنّه لا يرتبط عنده بالطّعام، ولكن عندما تمّ تكرار رنين الجرس ثمّ تقديم الطّعام مباشرة أصبح الكلب يفرز اللعاب تلقائيا لأن الجرس أصبح مرتبطا عنده بتقديم الطّعام، لكن قبل ذلك (أي قبل ربط الجرس بالطّعام) كان الكلب إذا سمع صوت الجرس لا يفرز اللّعاب.

تكشف هذه التجربة التي أجراها إيفان بافلوف أهمّيّة الربط بين المثير والاستجابة ودور التّكرار والممارسة في تقوية حدوثهما مما يعزّز فرص نجاحها، وإن نحن طبّقنا مبادئ النّظريّة السُّلوكيّة في حقل التّعليم، سنجد أنّ على الـمعلّم أن يحرص على إحداث عمليّات استجابة عبر مثيرات ترتبط في أذهان المتعلّمين بسلوك تعليمي معيّن، ومع التّكرار والممارسة ستصبح هذه المثيرات مرتبطة باستجابات معيّنة، فعندما يدخل المعلّم مثلا إلى قاعة الدّرس ويقف قبالة المتعلّمين وينظر إليهم في صمت لمدة من الزّمن ثم يبدأ بالتّصفيق، في البداية لن ينتبه المتعلّمون إلى دلالة التّصفيق الذي تصاحبه الإيماءات وتعابير الوجه ولغة الجسد، ومع تكرار هذه الممارسة وربطها بالدّعوة إلى الجلوس والهدوء لبدء الدّرس يصبح الهدوء والجلوس استجابة سلوكيّة تصدر عن المتعلّمين بمجرّد حضور مثير لذلك السّلوك وهو دخول المعلّم والبدء بالتّصفيق والنّظر إليهم بلغة جسد معبّرة، ويتعزّز هذا السّلوك ذلك عبر تفعيل آليّتيّ التّعزيز والعقاب، فالمتعلّم الذي سيستجيب لتعليمات المعلّم سيتمّ تعزيز سلوكه بالمكافأة، أما المتعلّم الذي لن يستجيب لها فسيتم ربط سلوكه بالعقاب وبالتّالي سيجنّب بقيّة المتعلّمين تكرار سلوك المتعلّم الذي تعرّض إلى العقاب، وعلى العكس من ذلك سيسعَون إلى محاكاة سلوك المتعلّم الّذي تمّت مكافأتُهُ لأنهم على علم ودراية بنتائج وعواقب كلّ سلوك.

يخضع السّلوك في حقيقة الأمر إلى التّعزيز أو العقاب كما أسلفنا القول، فبإمكان التّعزيز أن يقوّي السّلوك الإيجابيّ للمتعلّم، فيما قد يُضعِفُ العقابُ هذا السلوك التَّعليميَّ من جهة أنّه سيسلب المتعلّم بعضا من الدّافعيّة للتعلّم رغم أنّه

قد يساعد المعلّم إلى حد ما على تطبيق إجراءات الانضباط الصفّيّ، لا يُقصد بالعقاب هنا ما من شأنه أن يؤذي المتعلّم نفسيًّا أو جسديًّا، إنّما يرتبط العقاب في الممارسات التّعليميّة الحديثة بأشكال عقابيّة تُستثمر لتحقيق فائدة تربويّة أو تعليميّة، مثل تكليف المتعلّمِ المُعاقَبِ بإنجاز تكليفات إضافيّة، أو تكليفه بإنجاز عمل تعليميّ ما لفائدة أقرانه، إلى غير ذلك من أشكال العقاب النّاجعة الّتي قد تغير سلوكه التّعليمي نحو الأفضل، وهذا ما يحرص مُعلّمو اليوم على تفعيله أثناء عمليّة التّعليم.

2 – 3 نظريّة الإشراط الإجرائيّ عند فريدريك سكنر

يُعتَبر عالم النّفس الأمريكيّ فريدريك سكنر[7] واضع نظريّة الإشراط الإجرائيّ ***Operant Conditioning*** في أواخر القرن التاسع عشر، وهي نظرية تقوم على اعتبار أنّ السلوك بشكل عام هو نشاط مُوجَّه مرتبط بالتّعزيز أو العقاب الّذين يتحكّمان في نتائج الاستجابة لاحقا، ويفترض سكنر أنّ المتعلّم يقوم بسلوك تعليمي معين بناء على شروط معيّنة و في إطار بيئة ما، وتمثل هذه السلوكيات التّعليميّة الّتي يقوم بها المتعلّم استجابة لإجراءات مرتبطة بمثيرات معينة تهدف إلى تكريس سلوك تعليمي يترسخ لاحقا بالتّكرار والممارسة، يقول دوغلاس براون :» ويقصد بالسّلوك الإجرائيّ ذلك النّوع من السّلوك الّذي يتفاعل فيه الإنسان مع البيئة(...) وطبقا لذلك يرى سكنر أنّ الأحداث أو المثيرات (المعزّزات) الّتي تتبع الاستجابة وتميل إلى تقوية السّلوك أو تزيد من احتمال التّكرار للاستجابة تشكّل عاملا مهمّا في التّحكّم في السّلوك الإنساني. فالمعزّزات بالنّسبة إلى التّعليم أمور مهمّة جدا... (...) فإن كنا نرغب في التّحكّم بالسّلوك أي نعلّم شخصا شيئا ما فيجب أن نولي عناية كبيرة للمعزّزات الّتي تؤدي إلى ذلك.»[8].

وبالتّالي: «عندما يتمّ تعزيز استجابة معيّنة تصبح عادة أو أمرا متكرّرا أو شرطيًّا. وبناء على ذلك ينشئ الطّفل الاستجابات اللّغويّة الّتي تمّ تعزيزها وهذا ينطبق على الاستجابات الّتي ينتجها وتلك الّتي تعبّر عن استيعابه وفهمه للّغة»[9].

---

(7) فريدريك بورهوس سكينر B.F. Skinner(عالم نفس سلوكي أمريكي ولد سنة 1909م)
(8) دوغلاس براون، مبادئ تعلم وتعليم اللغة، أمريكا، ص 116.
(9) دوغلاس براون مبادئ، تعلم وتعليم اللغة، أمريكا، ص36.

مثير ← استجابة ← تعزيز أو عقاب

يعتبر سكنر التّعزيز أحد أهمّ الدّوافع الّتي تدعم عمليّة اكتساب اللّغة، فهو دافع نفسيّ ناجم عن الاستجابة النّاجعة والفعّالة لمثير ما وبالتّالي تتحقّق أهداف العمليّة التّعليميّة بيسر ونجاعة.

مثال: عندما يطرح المعلّم على المتعلّم سؤالا، يجيب هذا الأخير عن السّؤال، فيعزّز المعلّم إجابته حتى إن احتوت على أخطاء بأسلوب يدفعه إلى تكرار المحاولة لاحقا دون الخوف من العقاب، وإذا تكرّر الأمر فإنّ ذلك سيعزز في المتعلّم شعورا بالدّافعيّة للتعلّم وسيختفي شعوره بالخوف من الوقوع في الخطأ بفضل التّعزيز الذي حصل عليه من المعلّم، والّذي يعتبر دفْعًا معنويًّا وإيجابيًّا طوّر في المتعلّم سلوكا تعليميّا ناجعًا.

إذا ما ربطنا مبادئ نظريّة الإشراط الإجرائيّ بحقل التّعليم والتّعلّم، سنجد أنّ نواتج هذا السّلوك في القاعة الصفّيّة أثناء ممارسة العمليّة التعليميّة إمّا أنها ستُعَزَّز إيجابيا أو أنها ستُواجَه بالعقاب، ممّا قد يؤثر على السّلوك التعليميّ والتعلّميّ المستقبليّ، فالمتعلّم الّذي يأتي سلوكا ما داخل قاعة الدّرس بمثير أو بدون مثير سيجد من المعلّم إمّا تعزيزا لسلوكه الصّحيح (مكافأة، ثناء...) وبالتّالي سيكرّر هذا السّلوك التّعلُّمي الإيجابي مرّات ومرّات، أو أنّه (أي المتعلّم المُخطِئ) سيجد من المعلّم عقابا / تأنيبا بسبب السّلوك غير السّليم وبالتالي سيمتنع عن تكراره و سينعكس هذا الإجراء على بقية المتعلّمين وسيكون موجّها لردود أفعالهم في المستقبل، فهم يعرفون جيّدا مآل كلّ سلوك سيصدر عنهم (لن يكرّر المتعلمون مثل هذا السّلوك السّلبـي كي لا يتكرر العقاب والعكس صحيح) .

يقول دوجلاس براون « ومن وجهة نظر سكنر يتحكّم عدد مرّات الإجراء أو التّكرار بالسّلوك اللّغوي كأي سلوك آخر. وعندما تكون النّتائج وردود الفعل للتَّكرار إيجابيّة فسوف يؤدّي إلى المحافظة عليه وزيادته وقد يؤدّي ذلك إلى كثرة حدوثه. وعندما تكون نتائج وردود الفعل للتَّكرار سلبيّة، أو تنطوي على شيء من

العقاب، أو لم يتوفر فيها التَّعزيز المناسب فإنَّ هذا يؤدّي إلى إضعاف السُّلوك اللّغوي بل وإنهائه تماما».[10]

تأسّست النّظريّة السّلوكيّة على مبادئ نفسيّة لكنّها أسهمت في تطوير نظريّات كثيرة في حقول معرفيّة متعددة، فقد تمكن حقل التّعليم مثلا من الاستفادة من مبادئ النّظريّة السّلوكيّة من خلال تفعيل الممارسة التّعليميّة القائمة على التحفيز أساسا وهو عامل نفسيّ وتربويّ، وعلى إتباع كلّ موقف تعليميّة بردّة فعل داعمة للسلوك السّليم أو مصحّحة للسّلوك الخاطئ، وكما أسلفنا القول يرتكز تعليم اللّغات في الحقيقة على جوانب نفسيّة تطبيقية كثيرة لعل أهمها أنّ المعلّم في حاجة إلى أن يشيع الطّمأنينة في نفوس المتعلّمين قبل بداية تعلّم لغة جديدة، فالمتعلّمون يُقبلون على تعلّم اللّغات الجديدة بخوف من عدم القدرة على استيعاب مضامينها، وبقلق من عدم التمكّن من فهم نظامها، وعلى المعلّم أن يتفهّم هذه المخاوف وأن يسعى جاهدا إلى تبديدها و إزالتها، تمهيدا لبدء عمليّة التعلّم، فالجوانب النّفسيّة هي الأساس الّذي سيبني عليه المعلّم علاقته بالمتعلّمين وهي القاعدة التي ستبنى عليها العمليّة التعليميّة برمّتها، فالمتعلّم الذي يُقبل على تعلّم لغة جديدة بثقة في النّفس و بدافعيّة قويّة و برغبة حقيقيّة في الاكتساب والتلقّي ستَقوى عنده فرص التعلّم وسُبُل حذق تلك اللغة وممارستها والتحدّث بها لاحقا.

تبدو العلاقة بين الدّافعيّة عند كلّ من المعلّم والمتعلّم علاقة تلازمية وتكامليّة فمتى انعدمت عند أحدهما أدّى انعدامها إلى فشل العملية التّعليميّة والعمليّة التعلّميّة، إنها علاقة تكشف عن عمق الصلات بين الجوانب النّفسيّة في التّعليم عند كليهما، وإن أنعمنا النّظر في مبادئ النّظريّة السّلوكيّة وجدنا أنّها قد وفّرت لمجال تعليميّات اللّغات مجالا خصبا لتجربة مبادئها المتعلّقة بالتّعزيز والدّافعيّة و حلّ المشكلات من خلال حثّ المعلّمين على تعزيز المتعلّمين وتهيئتهم لتقبّل المعارف المتّصلة باللّغة الجديدة و إكسابهم ثقة بقدراتهم وإمكانياتهم الّتي تضمن لهم عمليّة تعلّميّة ناجحة وناجعة، وقد رسم علماء النّفس السّلوكيّ

(10) دوغلاس براون مبادئ تعلم وتعليم اللغة، أمريكا، ص37

ملامح هذه الممارسة التعلّميّة والتّعليميّة من خلال التّأكيد على أهميّة مراعاة الجوانب النّفسيّة في التّعليم.

2-4النّظريّة البنائيّة

تقوم النّظريّة البنائية على اعتبار التعلّم عمليّة بناء للمعرفة من خلال التفاعل مع عناصر مساعدة على التعلّم مثل البيئة والمحيط، وأيضا من خلال التّفكير والتّجربة واستخدام الخبرات، وذلك من أجل المساهمة في إنتاج المعرفة لا الاكتفاء بمجرّد تلقّيها، مما يمنح المتعلّم فرصة التعلّم بنجاعة.

اشتهر عالم النفس واللساني السويسري جان بياجيه ببحوثه المتصلة بمجال التعليم وخاصة التطبيقات التربويّة التي اقترحا لبناء ممارسة تعليميّة قائمة على معرفة مُعدّة وفق مناهج وأساليب تعليميّة ناجعة، لذلك فقد اعتُبر رائد النّظريّة البنائيّة في علم النّفس بفضل المبادئ التي سنّها والمقترحات التي قدّمها، ومبادئ استثمرها حقل التّعليم فأسس على ضوئها ممارسة تعليمية ناجعة، وقبل النظر في مظاهر استفادة حقل التّعليم تطبيقيّا من مبادئ نظريّة بياجيه، نستعرض أهم مبادئ النّظريّة البنائية عنده[11] والمتمثلة في أنّ:

* المعرفة البشريّة هي عمليّة بنائية ابتكاريّة.

*الحواسّ عند الفرد تستقبل الواقع وتعيد بناءه.

*الفرد يتمثّل المعارف ويخزّنها على أنّها تجارب سابقة وثابتة.

*التمثّل هو عمليّة توحيد عناصر البيئة مع البناء المعرفيّ للفرد.

*المواءمة هي تعديل الفرد لأبنيته العقليّة حتى يمكّن المعلومات أو البنية العميقة للشّيء الخارجي أن تتّسق وتتكامل معها، وهو تغيير إيجابيّ.

*عندما يواجه الفرد موقفا فإنّه يقارن بينه وبين مخطّطاته الذّهنيّة السّابقة ويتّخذ ما يلزم من تواؤم للموقف أو تمثّل له حتى يستطيع أن يتصرّف إزاءه.

إنّ إنعام النظر في المبادئ الّتي أسّس عليها بياجيه نظريّته في بناء المعرفة يقودنا إلى استخلاص التّطبيقات التربويّة الّتي يمكن تجربتها في حقل التّعليم

(11) علي منصوري، النظرية البنائية لجان بياجيه، مجلة الآداب واللغات، 2021

وتطبيقها في إطاره[12]، وبالبحث في مميّزات هذه التّطبيقات النّفسيّة التّربوية في الممارسة التّعليميّة التّطبيقيّة يتّضح لنا التّعالق الكبير بين مجال علم النفس وحقل التّعليم والتماهي الواضح بين قضايا كل حقل منهما، حيث تمثّل الجوانب النّفسيّة إحدى أهم الدعائم الّتي يرتكز عليها التّعليم في كلّ مراحله وبكلّ مناهجه ووسائل تحقيقه.

يخضع بناء المعرفة إلى قواعد وأسس معرفيّة ومنهجيّة تقوم أساسا على ضرورة استقصاء عناصر بناء تلك المعرفة ونواميسها العقليّة والإدراكيّة، وقبل البدء بنقل المعرفة إلى متلقّيها ينبغي النظر في آليّات تبليغ وتلقّي تلك المعرفة، وبالتّالي الإجابة عن أسئلة من قبيل: كيف سيقدّم المعلّم المادّة التّعليميّة الّتي أعدّها وكيف سينقلها إلى المتعلّم؟ كيف سيتلقّى المتعلّمُ المعرفةَ فهمًا وإدراكًا وتمثيلاَ وحفظًا وتخزينًا أيضًا؟

تقتضي الإجابة عن هذه الأسئلة إنعام النّظر في الجوانب الإدراكيّة المتعلّقة بتلقّي المعرفة، وبالتّالي إيجاد الوسائل الّتي تضمن تيسير تلقّيها وذلك بالاعتماد على الفهم مثلا وعدم الاقتصار على الحفظ فقط، بالإضافة إلى ضرورة الإعداد الجيّد للمادّة التّعليميّة بما يضمن ملاءمة محتوياتها ومناهجها مع قدرات المتعلّمين ومراعاتها للفروق الفرديّة بينهم، فبناء المعرفة في ذهن المتعلّم يقوم على إعداد معرفة تتناسب مع قدرات المتعلّم ومهاراته وآليّاته العقليّة والإدراكيّة أساسا، كما ينبغي على الحرص على تنمية مهارات التّفكير العليا لدى المتعلّمين عبر افتراض مواقف تعليميّة تتطلّب التّفكير والتّحليل والاستجابة للتمكّن من حل المشكلات المرتبطة بتلك المواقف.

تعتبر العناية بالجوانب المعرفيّة وطرائق بنائها ونموّها من أهمّ العناصر الّتي تقوم عليها مختلف عمليّات تصميم المناهج التّعليميّة وخاصّة المتعلّقة بتعليم اللّغات، فواضعو البرامج التّعليميّة بحاجة إلى معطيات ومخطّطات تعليميّة توجّه طرائق صياغتهم وتصميمهم للموادّ التّعليميّة عند إعداد الكتب التّدريسيّة.

(12) للتعمق أكثر في ما يتعلق بالتطبيقات التربوية لنظرية بياجيه يمكن الاطلاع على: نظريات التّعلّم وتطبيقاتها التربوية، لكفاح يحيى صالح العسكري، محمد سعود صغير الشمري، علي محمد العبيدي (ص139).

يتّضح لنا من خلال ما سبق عرضه أنّ حقل التّعليم وخاصّة تعليميّات اللّغات قد استطاع استثمار النّظريّات اللّسانيّة ونظريات علم النّفس بكل فروعه لبناء أسس معرفيّة ومنهجيّة يُؤسَّسُ من خلالها لعمليّتَي التّعليم والتعلّم، وفي ضوء ما تقدّم يلوح لنا جليّا ارتباطُ حقل التّعليم عموما وتعليم اللّغات على وجه الخصوص بجلّ الحقول المعرفيّة الأخرى الّتي ينهل مجال التّعليم من معينها ويستفيد من معطياتها.

تُجمِع النّظريّات التّعليميّة على اختلاف مبادئها ومرجعياتها ومناهجها على أنّ عمليّة التعلّم تقتضي اكتساب المعلّم والمتعلّم على وجه الخصوص لمهارات لغويّة ضروريّة لا تتمّ الممارسة التعلّمية بدونها، فهذه المهارات والكفايات اللّغويّة بمثابة الدّعامة الّتي تنبني عليها عمليّة التعلّم وهي الّتي ستكون مؤشّرا على نجاحها ومقياسا لاختبار نجاعتها.

3 ـ دور المهارات في التّعليم والتعلّم

تلعب المهارات دورا محوريًّا في تأمين عمليّة تعليم ناجعة و عمليّة تعلّم ناجحة، فهي عماد العمليّة التّعليميّة وأساس انبنائها، وبفضل اكتساب المهارات يتمكن المعلّم من تقديم مادّة تعليميّة بوسائل تعليميّة حديثة ومناهج تربويّة جديدة تضمن استيفاء التّعليم الحديث لمتطلبات المتعلّمين واحتياجاتهم، كما تمكّن المهارات المتعلّم من تلقّي مادّة تعليميّة تتناسب واحتياجاته التّعلّميّة وتستجيب لتطلّعاته وأهدافه، حيث تعدّ المهارات اليوم من أهم العناصر الّتي تساهم في بناء شخصية المعلّمين والمتعلّمين على حدّ سواء، فإن كان المتعلّم اليوم مُطالَبا باكتساب المهارات و مدعُوًّا إلى تطويرها وتفعيلها في محيطه التعليمي والاجتماعي فإنّ من الضروري على المعلّم أيضا أن يسعى إلى تحيين مهاراته وجعلها مواكبة للواقع التّعليمي المستجدّ حتى يكون التّواصل مع المتعلّمين فعّالا في البيئة التّعليميّة وحتى لا تكون هناك فجوة تعليمية بينهما، ولا يتسنى ذلك إلاّ متى أحللنا المهاراتِ المنزلةَ الّتي هي بها حقيقةٌ بالنظر إلى دورها الفعّال في إنجاح التّعليم عموما وتعليم اللّغات على وجه الخصوص.

ونحن إذ نثير الإشكاليات المتعلّقة بدور المهارات في التّعليم فإنّنا لا يمكن أن نغفل عن التّطرّق إلى إشكاليّة أخرى ليست أقلّ منها أهمّيّة، وهي تلك المتعلّقة

بطبيعة الصّلة المعقودة بين المهارات اللّغويّة والمهارات التّواصليّة، هل يكتفي المتعلم باكتساب المهارات اللغويّة؟ أم عليه أن يسعى إلى اكتساب المهارات التواصليّة أيضا؟

3 – 1 الـمهارات اللّغويّة

تتمثل المهارات اللّغويّة (Language Skills) في القدرات الّتي يوظفها المتعلّم لفهم اللّغة وتعلّمها واستخدامها لاحقا في مقامات تواصليّة مختلفة ومتنوّعة بنجاعة، وهي أساس متين انبنت عليه عمليّتا التّعليم والتعلّم، ويمكن تعريف المهارات اللّغويّة على أنّها تلك القدرات الّتي يمتلكها المتعلّمون ويتمكّنون بواسطتها من فهم اللّغة واستخدامها بكلّ أشكالها التّعبيريّة سواء كانت منطوقة أو مكتوبة، فالإنسان بشكل عامّ والمتعلّم بشكل خاصّ يحتاج إلى المهارات اللّغويّة الّتي يتفاعل بواسطتها مع المجتمع ليثبت من خلالها وجوده وكينونته ويؤدّي من خلالها الوظائف الّتي تنهض بها اللّغة من تعبير وتأثير وتواصل، فمهارات الإنسان هي همزة الوصل بينه وبين الآخرين وهي الجسر الذي يعبـره المتعلّم إلى ضفاف اللّغة الجديدة، و من أهم هذه المهارات يمكن أن نذكر: مهارة الاستماع، مهارة التّحدّث، مهارة الكتابة ومهارة القراءة،ونثير في هذا الإطار القضايا المتعلقة بوسائل وآليات وطرائق اكتساب هذه المهارات أوّلا ثمّ تحيينها وتحديثها وتطويرها ثانيا.

3 ـ 1ـ 1 مهارة الاستماع

تعتبر مهارة الاستماع من أهمّ المهارات الّتي ينبغي على المتعلّم اكتسابها، فهو في حاجة إلى حسن الاستماع والإنصات لكي يتعلّم اللّغة بكفاءة عالية، إنّ الاستماع الجيّد لمكوّنات الدّرس في القاعة الصفيّة أو للوسائل التّعليميّة المختلفة خارج المؤسّسة التّعليميّة (التعلّم الذاتي) يعتبر عاملا أساسيًّا يقوّي القدرات التعلّميّة لدى المتعلّمين، فالاستماع الجيّد يعني تعلّما جيّدا، ونشير في هذا السّياق إلى أنّ من يعانون مشكلات سمعيّة يعانون كذلك من صعوبات في التّعلّم ، فالإنسان يتعلّم بالسّماع وخاصة إذا تعلّق الأمر باللّغات وطرائق نطق

الأصوات، بالإضافة إلى أنّ الاستماع يقود إلى الفهم والفهم يقود إلى استخدام اللّغة استخداما سليما في السّياقات التّواصليّة المختلفة والمتنوّعة.

ترتبط بعمليّة السّماع عمليات عقليّة وإدراكية كثيرة لعلّ أهمها الفهم و الانتباه والتّركيز والتّفكير،ولا تقتصر مهارة الاستماع على المتعلّم بل تشمل المعلّم الّذي ينبغي أن ينصت بانتباه إلى مشاغل المتعلّمين وإلى الصّعوبات الّتي تواجههم أثناء تعلّمهم للغة جديدة. يعتبر السّماع بهذا المعنى عمليّة قائمة على علاقة تفاعلية وتشاركية مُتبادَلة بين المعلّم والمتعلّم وبموجب هذه العلاقة يصبح اكتساب مهارة الاستماع والإنصات الجيّد ضرورة ملحّة وأسّا ثابتًا من أسس التّعليم النّاجع.

تواجه هذه المهارة كغيرها من المهارات تحدّيات كثيرة، فالمتعلّمون اليوم يتّخذون من وسائل الاتّصال والتّواصل الحديثة معينهم الرئيسيّ لاستقاء المعلومات وتلقّي قسط كبير من العلوم والمعارف في إطار التعلّم الذّاتي على وجه الخصوص، وذلك أنّها توفّر لهم ميزات كالسّرعة والدقّة والوضوح والشّمولية، لذا وجب على المعلّم أن ينتبه إلى هذه الجوانب وأن يراعيها وأن يجد سبلا كفيلة بجذب انتباه المتعلّم وذلك بتنويع مصادر التّعليم وجعلها تتراوح بين ما هو سمعيّ وما هو بصريّ بالإضافة إلى التنويع في مضمون المادة التّعليميّة الّتي يشرحها المعلّم ويستمع إليها المتعلّمون والتّعديل المستمرّ لأساليب التدريس، إنّ من شأن استخدام وسائل التّعليم الحديثة مثلا أن يدفع شبح الرّتابة عن العمليّة التّعليميّة خاصّة في القسم المسموع منها، حيث أثبتت التجربة أنّ المعلّم الذي يعتمد على الشرح الشّفهي دون توظيف وسائل التّعليم السمعيّة-البصريّة الحديثة سيجد صعوبة في الحفاظ على انتباه وتركيز المتعلّمين لفترة طويلة، وذلك لأنّ عمليّة السّماع تتعلق أساسا بالانتباه والتركيز وتحتاج إلى عناصر جذب وإلى آليات تحفيز على درجة كبيرة من النجاعة يبذل فيها كل من المعلّم والمتعلّم المجهودات الكفيلة بتحقيق النّجاعة التّعليميّة المطلوبة.

3 ـ 1ـ 2 مهارة التحدث

لا تقلّ مهارة التّحدّث أهمّيّة عن مهارة الاستماع، فالمستمع الجيّد هو أيضا متحدّث متمكّن من آليّات التّحاور والتّفاعل، و يعتبر التّحدّث من أهم الأشكال

اللّغويّة التّواصليّة الّتي عرفها الإنسان متمثّلة في الكلام البشري وهو مادة التّحدّث الأساسيّة والوسيلة الأكثر نجاعة الّتي يوظفها الإنسان للتّعبير والتّأثير والتّواصل والإبلاغ وغيرها من الوظائف السّامية الّتي تنهض بها اللّغة.

أمّا في مجال التّعليم فتعتبر مهارة التّحدّث من أهم المهارات الّتي ينبغي أن يكتسبها كلّ من المعلّم والمتعلّم على حد سواء، حيث يحتاج المعلّم أن يكون متحدّثا بارعا لأنه المعنيُّ بشرح المادة التّعليميّة وهو من سينقلها بحذق ومهارة وكفاءة إلى المتعلّمين، وينبغي أن تكون لغته سليمة وأن يكون خطابه واضحا خاليا من الغموض والتّعقيد، كما يجب عليه أن يكون محيطا بكافّة جوانب المحاور التّعليميّة المرتبطة بمنهج تعليميّ تربويّ محدّد سلفا، أمّا المتعلّم فينبغي أن يحسن استخدام اللّغة الّتي يتعلّمها تحدّثا و ممارسة، فالهدف الرّئيسيّ الّذي يجعلنا نتعلّم لغة جديدة يتمثّل في توقنا إلى اكتساب القدرة على التحدّث بتلك اللّغة، بالإضافة إلى أنّنا لن نتمكّن من تقييم مدى تقدّمنا في تعلّم لغة ما إلاّ إذا تمكنّا من توظيف تلك اللّغة في المحادثات، فاللّغة تقوم أساسا على الممارسة الفعليّة على مجرّد التعلّم، ولا تكتسِب اللّغةُ نجاعتها وفعاليّتها إلاّ بالتحدّث، ولن يتسنّى لنا قياس مستوى التقدّم في تحصيلها إلاّ عند ممارستها فعليًّا. لهذه الأسباب مجتمعةً ينبغي على المعلّم تهيئة المناخ الصّفّي المناسب لضمان تفعيل مهارة التّحدّث دون الخوف من الوقوع في الخطأ، وذلك عبر إشاعة الطّمأنينة الصّفّيّة التي تضاعف دافعيّة المتعلّم لممارسة اللّغة والتّحدّث بها بثقة في النّفس وبرغبة حقيقيّة في استخدام ما تعلّمه من نظام تلك اللّغة واختبار مدى التقدّم الذي أحرزه في تعلّمها.

حرصت المناهج التّعليميّة والتّربويّة الحديثة على تفعيل ممارسة التّحدّث باللّغات المكتسبة في المؤسسات التّعليميّة على اختلاف مستوياتها وكذلك في أطر اجتماعية أخرى تدعم عمليّة تجذير ممارسة اللّغة سواء كان ذلك في بيئة افتراضية يبتكرها المعلّم، أو في بيئة تضمّ النّاطقين الأصليّين بتلك اللّغة *Native speaker* [13] في إطار ما يعرف بالانغماس اللّغوي لمتعلّمي اللّغة الثانية على

(13) Native speaker: someone who has spoken a particular language since they were a baby, rather than having learned it as a child or adult. (Cambridge Dictionary).

وجه الخصوص، فقد اعتمدت بعض الأنظمة التّعليميّة على سبيل المثال الرّحلات اللّغويّة الّتي تهدف إلى تنمية قدرة المتعلّمين على ممارسة اللّغة فعليّا والمرور من حيز التعلّم النّظري إلى الممارسة الواقعيّة للّغة، يقول البعزاوي : « فقد أكّدت عديد النّظريّات على أهمّيّة الانغماس اللّغوي في تسريع الاكتساب لكونه يُعرّض المتعلّم للّغة الهدف في سياقات تواصل طبيعيّة أو سياقات افتراضيّة تساهم بشكل فعّال في تطوير مهارتَي الاستماع والتحدّث».[14]

تقوم مهارة التّحدّث على مجموعة من العناصر المترابطة في ما بينها والّتي لا تكتسب هذه المهارة بدونها وأهمّها الإعداد الجيّد للموضوع الّذي سيُتحدّث فيه، بالإضافة إلى الدّربة والمران على التّحدّث بلغة سليمة خالية من الأخطاء، وانتقاء التّراكيب الواضحة والمعبّرة، ويعتبر وضوح الصّوت وسلامة مخارج الأصوات من أهمّ الشروط الّتي تضمن اكتساب مهارة التحدث، زد على ذلك كلّ ما يتّصل بأدبيّات و أخلاقيّات التّحدّث و الحوار والّتي تتعلق بالتّحدّث كفنّ وكمهارة تعكس شخصيّة الفرد، دون أن نغفل أهمّيّة اكتساب مهارَتي الحوار والإقناع وهما مهارتان مرتبطتان بمهارة التّحدّث ارتباطا وثيقا، فغاية التّحدّث هي التّواصل وغاية التّواصل في جانب منها هي الإقناع والتّأثير.

3-1-3 مهارة الكتابة

تعتبر مهارة الكتابة من أهمّ المهارات الّتي يحتاج المتعلّمون إتقانها وتنميتها بشتّى الوسائل، فهي عمليّة ضروريّة لتثبيت المعارف والمكتسبات في الذّهن،وهي أيضا آليّة من آليّات الرّبط المنطقيّ بين الصّوت والرّمز الكتابيّ، لذلك تعتبر الكتابة معاضدة لغيرها من المهارات ومكمّلة لها وخاصّة مهارة القراءة، فلا قراءة بدون كتابة، وتعتبر الكتابة و القراءة من أهم المهارات التعلّمية والتّعليميّة ذلك أنّهما تتيحان للمعلّم قياس مستوى استيعاب الطلاّب للمادّة التّعليميّة المقدمة عند تعلّم لغة من اللّغات للتّأكّد ممّا إذا كانت هناك صعوبات في الفهم والاستيعاب أو مشكلات تعليميّة ينبغي إيجاد حلول لها لضمان عمليّة تعليميّة ناجحة وناجعة تتحقّق بها الأهداف المرجوّة.

(14) محمد الصحبي البعزاوي، من عوائق تعلّم العربية للنّاطقين بغيرها: بحث في صعوبات اكتساب اللّغة وآليات مواجهتها، دار الأمينة للنشر 2025، ص 137.

ترتبط بالكتابة -في حقل تعليميّات اللّغات- آلياتٌ كثيرة لعلّ أهمّها التّكرار، وهو ما يفسّر لجوء المعلّمين إلى إعطاء المتعلّمين تكليفات كتابيّة تعزّز اكتسابهم لحروف اللّغة الّتي يتعلّمونها، فالكتابة مهارة أساسية وضروريّة في حقل تعليميّات اللّغات، وقد لا يتسنّى تعلّم لغة من اللّغات بمعزل عن إتقان كتابة حروفها.

3-1-4 مهارة القراءة

تعتبر القراءة من المهارات الّتي يحرص المعلّمون على إكسابها للمتعلّمين، ذلك أنّها تنمّي قدراتهم على تعلّم اللّغة وتمكّنهم من مماسة جانب تعلّميّ مهمّ لا يقل أهمّيّة عن بقيّة المهارات الأخرى، وقد « وضع المختصّون ركائز لعمليّة التّربية والتّعليم بدقّة وحسن استعمال.فلا شكّ أنّ مهارة القراءة تحتوي على أهداف نذكر منها : تنمية القدرة اللّفظيّة والفكريّة والمهارات الضّروريّة لاستعمالها وذلك لتحقيق غذاء متكامل للفنون الأخرى للّغة، إتقان مهارات القراءة واستغلالها في تكوين اتمامات و أغراض جديدة، توسيع الخبرات لدى القرّاء وإغنائهم بثروة لغويّة، مع تهذيب العادات و الأذواق والميول الّتي تتكوّن منها الأنواع المختلفة للقراءة، تنمية القدرات على استخدام المصادر والمراجع والمعاجم بكفاءة واقتدار، والتّعبير عن ذلك بأسلوب جيّد ومقبول.اكتساب عادات التعرّف البصريّ على الكلمات وهذا عند المبتدئين، وبناء رصيد مناسب من المفردات الّتي تساعد على فهم القطع الّتي قد تمتد إلى عدة فقرات، سلامة النّطق في القراءة الجهريّة وهذا عند المبتدئين، تنمية الاستمتاع بالقراءة وجعلها عادة يوميّة مسلّيّة وممتعة، تدريب التّلاميذ على استخدام المراجع، والبحث عن مواد القراءة المناسبة و تدريبهم على عادة ارتياد المكتبات...».[15]

3-2 المهارات التّواصليّة

تحتلّ المهارات التّواصليّة اليوم حيّزا مهمّا في حقل تعليميّات اللّغات، فهي مجموع القدرات الّتي سيفعّل من خلالها المتعلّم ما تلقّاه من معارف تتعلّق باللّغة الّتي تعلّمها، حيث لا يمكن أن تتحقّق الأهداف التعلّميّة لمتعلّم اللّغة إلاّ إذا استطاع توظيف تلك اللّغة في سياقات تواصليّة تعليميّة وغير تعليميّة ويختلف

(15) ليلى سهل، المهارات اللغوية ودورها في العمليّة التعليمية، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 29

ذلك باختلاف الأسباب الداعية إلى تعلّم اللّغات، فقد تكون أهدافا تعليميّة أو أهدافا مهنيّة أو أهدافا نفسيّة سيكولوجيّة، ومهما تنوعت الأسباب لا بدّ للمهارات اللّغويّة من كفايات تواصليّة تتأسس عليها الممارسة الفعليّة للّغة المتعلّمة.

تبرز العلاقة بين المهارات اللّغويّة والمهارات التّواصليّة في القدرة على الاستفادة من القدرات اللغوية في تفعيل التواصل مع الآخرين بواسطة اللغة التي نتعلّمها، إنّهما يكمّلان بعضهما البعض، فاستفادة المتعلّم من اللّغة الّتي تعلّمها لا تتجلّى إلاّ عند تفعيل الجانب التّطبيقيّ والعمليّ لتلك اللّغة وذلك عبر ممارستها، ومن إجراءات تحقّق الممارسة اللّغويّة ما يسمى بالانغماس اللّغوي كما ذكرنا سابقا، حيث يرى الباحثون في حقل تعليميّات اللّغات أنّ الانغماس اللّغوي يعتبر من أهم الإجراءات المتّبعة في تعليميّات اللّغات، فهو يتيح للمتعلّم فرصة اختبار ما استطاع تعلّمه وبالتّالي اكتشاف النّقائص وحلّ المشكلات إن وُجدت.

يُجمع الباحثون على أنّ الكفايات اللّغويّة لمتعلّمي اللّغات لا تصبح ذات جدوى إلاّ إذا ارتبطت بالأداء الكلامي أي الممارسَة الفعلية للّغة في المقامات التّواصليّة المتنوعة، فمعرفة البُنـى المكونة لنظام لغة من اللّغات والإلمام بكل الجوانب المعرفيّة المتعلقة بنَحوها وصرفها وأصواتها ومعجمها لا يمكن أن تكون بمعزل عن آليات توظيفها وممارستها فعليًّا في المواقف التّواصليّة المتنوّعة، ذلك أنّ كلّ جانب معرفيّ نظريّ لا بدّ له من التّطبيق العمليّ والممارسة الفعليّة، وقد ربط الباحثون بين ضرورة اكتساب مختلف الكفايات اللّغويّة و أهمّيّة ممارستها من خلال الأداء الكلاميّ.

ينبغي أن نشير في هذا السياق إلى أن الأداء الكلاميّ لمتعلّم ما يختلف عن الأداء الكلاميّ لمتعلّم آخر، ويعود هذا الاختلاف إلى عوامل متعدّدة منها العامل المعرفيّ والعامل النفسيّ والعامل الثقافيّ وغيرها من العوامل الّتي تفسّر أسباب اختلاف وتبايُن القدرات الأدائيّة للمتعلّمين، ومهما تعدّدت هذه الاختلافات فإنّ العلاقة بين الكفايات اللّغويّة والكفايات التّواصليّة الّتي يتحقق في إطارها الأداء الكلاميّ بوصفه الممارسة الفعليّة للغة المتعلَّمة علاقة تكاملية.

تشمل المهارات التّواصليّة مهارة الحوار وهي مهارة تتحقق من خلالها أهداف تعلّم اللغة، حيث يسعى المتعلّم إلى تفعيل الممارسة اللّغويّة بالتّواصل

مع الآخرين عبر الحوار، ويؤسس الحوار لنمط تواصليّ تفاعلي يمكن المتعلّم من اختبار ما تعلّمه.

من أهم عناصر المهارات التّواصليّة نذكر لغة الجسد، فبواسطة الإيماءات والإشارات والحركات الّتي يأتيها الإنسان بمختلف أعضائه يتمكن هذا الأخير من التعبير والتّواصل والتأثير والإقناع، ويعتبر حسن توظيف لغة الجسد مهارة تواصليّة ضروريّة يحتاجها الإنسان بصفة عامة ومتعلّمو اللّغة بصفة خاصة حيث يدعمون بها تواصلهم مع الآخرين في المواقف التّعليميّة والمواقف الحياتيّة الأخرى.

تجتمع المهارات اللّغويّة والمهارات التّواصليّة لتشكل بنية تفاعليّة تتأسس عليها الممارسة الفعليّة للّغة، فالمتعلّم بحاجة إلى أدوات معرفيّة لغوية وإلى مجالات تطبيقيّة تتجلى فيها قدرته على تفعيل مهاراته التّواصليّة الّتي تمكّنه من تجاوز مستوى التّعلّم النظري إلى مستوى التطبيق الفعليّ والممارسة الحقيقيّة للّغة الّتي تعلّمها.

4 ـ تعليميّات اللّغات وآليات مواجهة الصعوبات:

تواجه تعليميّات اللّغات اليوم–سواء منها المتعلقة بتعلّم اللّغة الأولى أو تعلّم اللغة الثانية– تحديات كثيرة وصعوبات لا يمكن تجاهلها أو إنكارها، وتتعلّق هذه الصّعوبات أساسا بمناهج وطرائق ووسائل تعليم اللّغات وتعلّمها في عصر الزّخم الّذي توفّره وسائل التّواصل والاتّصال الحديثة، وفي واقع تتسارع أحداثه بشكل قد يوحي بعدم القدرة على مواكبة مستجداته في كلّ الحقول المعرفية وفي شتىّ الميادين الحياتيّة، ومما عمّق هذه الصّعوبات مواجهة اللّغاتِ اليوم لما اصطُلح عليه بحرب اللّغات، ويشير مصطلح حرب اللغات إلى ما تواجهه اللغات من تحدّيات في سبيل ضمان بقائها، و إلى استماتة كل لغة من اللّغات في الدّفاع عن وجودها من جهة وسعيها إلى فرض سيطرتها وتأثيرها على بقية اللّغات من جهة أخرى، ولا تخلو هذه المحاولات من مخاطر جمّة قد تمثّل معوّقات تحول دون بقاء اللغة على قيد الحياة والاستعمال.

لا شك في أنّ العمليّة التّعليميّة اليوم ترتكز أساسا على المتعلّم فهو محورها الأساسيّ الّذي تدور في فلكه كلّ العمليّات التّعليميّة، ويسعى الدارسون في حقل تعليميّات اللغات إلى تعهّد المناهج التعليميّة بالمراجعة والتعديل والتّحيين والتطوير من أجل تأمين عمليّة تعلّم ناجعة وناجحة، غير أن عمليّة التعلّم قد تكون محفوفة أحيانا بالصّعوبات الّتي قد يتسبب فيها المتعلّم ذاته أحيانا أوالمناهج المتبعة في تعليم اللّغات والسياسات التّعليميّة المتبعة أحيانا أخرى، وقد تكون تلك الصعوبات متعلّقة بالإجراءات المتوخاة في التّعليم أو الوسائل التّعليميّة المستخدمة.

لا تتعلق الصعوبات التعليميّة والتّعلّميّة بالجوانب المعرفيّة فقط رغم أهمّيّتها، بل تشمل الصعوبات والمعوّقات الجوانب النّفسيّة المتّصلة بأنماط التعلّم من جهة وبأشكال التّواصل اللّغوي في الموقف التّعليميّ من جهة أخرى، حيث تتحكّم الجوانب النّفسيّة عند كلّ من المعلّم والمتعلّم في مدى قدرة كلّ منهما على التّواصل مع الآخر في إطار البيئة التّعليميّة وبالتّالي التأثير على أدائهما، فالحالة النّفسيّة للمعلّم والمتعلّم تؤثر سلبا أو إيجابا على التّواصل اللّغوي بينهما وبالتالي على دافعيّة المعلّم لتأمين عمليّة التّعليم ودافعيّة المتعلّم للتعلّم، ولا غرابة في ذلك فكلّ العمليّات العقليّة والإدراكيّة المرتبطة بالتّعليم عمادها الجوانب النّفسيّة، حيث يحتاج المعلّم إلى أن يمارس عمله في بيئة تعليميّة داعمة تضمن حسن سير العمليّة التّعليميّة، وتيسر سبل تواصله مع المتعلّمين، أما المتعلّم فيحتاج بدوره إلى بيئة داعمة للتعلّم وإلى معلّم يراعي كلّ الجوانب النّفسيّة الّتي ستحفّ بعمليّة التعلّم، فالتعلّم ليس مجرد تلقّ للمعارف والعلوم إنّما هو نشاط إنسانيّ واع وناضج لكنه معقّد نوعا ما، تتداخل لتأديته عوامل كثيرة منها ما هو معرفيّ ومنها ما هو نفسيّ.

4-1 الصّعوبات المعرفيّة: عمليّة النّقل الدّيداكتيكي

La transposition didactique .

ترتبط الصّعوبات المعرفيّة في مجال تعليميّات اللّغات بإشكاليّات أساسيّة يمكن أن نختزلها في الأسئلة التّالية:

* ما هي أهم المراحل الّتي تمرّ بها المعرفة لتصبح معرفة تعليميّة منسجمة في آن مع المناهج التّعليميّة والتّربويّة المتوخّاة ومع احتياجات المتعلّمين في العصر الحديث؟

* ما هي السّبل الناجعة لتأمين عمليّة نقل المعرفة البحثيّة إلى معرفة تعليميّة قابلة للتّدريس؟

تتمثّل أولى الصّعوبات الّتي نفصّل القول فيها في هذا القسم من البحث في الصّعوبات المعرفية، وهي تلك الّتي تتصل بطبيعة المعرفة المقدّمة إلى المتعلّمين، حيث ينبغي لهذه المعرفة أن تتلاءم مع قُدرات المتعلّم وأن تتناسب مع احتياجاته وأن تكون مستجيبة لتطلّعاته وملبّية لأهدافه، فالمُقبل على تعلّم لغة من اللّغات يهدف إلى إتقان تلك اللّغة لتحقيق غايات معيّنة، وبالتّالي فإنّ انتظاراته المعرفيّة والتّعليميّة تكون مرتبطة أساسا بالأهداف الّتي دفعته إلى تعلّم لغة ما، وبالتّالي ينبغي على واضعي المناهج التّعليميّة أن يراعوا هذه الأهداف التعلُّمية عند صياغة البرامج التّعليميّة وأن يضعوا في اعتباراتهم تفاوت المتعلّمين في القدرة على الفهم والاستيعاب من جهة وتبايُن قدراتهم على الحفظ ثمّ الممارسة من جهة أخرى، وحتى تكون المعرفة المُقدَّمة إلى المتعلّم متوائمة مع احتياجاته التعلّميّة يجب أن تخضع هذه المعرفة إلى ما يعرف بـالتّحويل التّعليميّاتيّ أو النّقل الدّيداكتيكيّ، و التّحويل التّعليميّاتيّ هو عمليّة إخضاع المعرفة إلى متطلّبات العمليّة التّعليميّة والتّعلُّمية، وذلك بتهيئة تلك المعرفة وجعلها قابلة للتّعليم والتعلّم، فالمعرفة في بدايات تشكّلها وتبلورها تكون مَعرفةً علميّةً وبحثيّةً تخضع إلى شروط مُحكمة الصّياغة وتتضمن معطيات قد يعسر على المتعلّم فهمها وهي على ذلك النّحو لا تصلح أن تكون مادّة تعليميّة وتدريسيّة، وبالتّالي يجب أن تمرّ بمراحل نقل وتحويل تُصبح من خلالها معرفة قابلة للتّعليم.

يعرّف الباحث الفرنسيّ شوفلر[16] (1982) .Chevallard.Y النّقل الدّيداكتيكيّ ***La transposition didactique*** بأنّه مجموعة من التّغييرات الّتي تطرأ على المعرفة الّتي نروم تقديمها إلى المتعلّمين وهو بالنّسبة إليه مفهوم

(16) باحث ومفكر وتربوي فرنسي (1946-2026)، يعتبر من أبرز منظّري مفهوم النقل الديداكتيكي، وهو مختص في تعليميات الرياضيات أساسا.

أساسيّ في تعليميّة الموادّ خاصّة، إذ يدلّ على العمليّات الّتي يتمّ بواسطتها نقل المعارف من مستوى المعارف العلميّة إلى المعارف القابلة للتّعليم والتّعلّم. وهو بهذا الشّكل يتطلّب قدرة على النّقل والتّحويل ممّا يجعله « إبداعات تعليميّة حقيقيّة يتمّ ابتكارها لتلبية حاجات التّعليم. وتطرأ تحوّلات على محتوى معرفيّ معيّن عندما يختار كمحتوى للتّعليم تجعله متكيّفا وقابلا لأن يحتلّ موقعا ضمن موضوعات التّعليم. والعمليّة الّتي يتم بها تحويل موضوع للمعرفة إلى موضوع للتّعليم تسمّى نقلا تعليميًّا (ديداكتيكيًّا).[17]

من الـمعرفة العالِمة إلى الـمعرفة الـمُكتسَبة بالفعل.

تختلف المعرفة العلمية الّتي تنجز في إطار البحوث العلميّة عن المعرفة الّتي تُقدّم كمادة تعليميّة في مجال التّعليم، فطبيعة المعرفة العلميّة تختلف عن المعرفة التّعليميّة اختلافا تبرز من خلاله أهمّيّة النّقل الدّيداكتيكيّ أو التّحويل التّعليميّاتي كإجراء ضروريّ يهدف إلى تبسيط المعرفة وتيسيرها، فالمعرفة العلميّة أو ما يسمّى بالمعرفة العالمة ينبغي أن تخضع إلى تعديلات وتغييرات حتى تصل إلى مرحلة تصبح فيها جاهزة لتصبح مادة تعليمية يمكن تدريسها، ويخضع النّقل الدّيداكتيكيّ إلى قواعد صارمة تضمن حسن ملاءمة المعرفة المقدّمة للتّعليم لاحتياجات المتعلّمين وتضمن كذلك استجابة هذه المعرفة المنقولة أو المُتحوِّلة إلى أهداف المتعلّمين وتناسبها مع قدراتهم المختلفة.

نعرض في هذا الجدول المراحل الّتي تعبُرها المعرفةُ لتصبح معرفة مكتسبة بالفعل لدى المتعلّمين:

(17) عابد بوهـادي، تحليل الفعل الديداكتيكي (مقاربة لسانية بيداغوجية)، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية،2012، المجلد 9 العدد 2

1 –الـمعرفة العالِـمة	هي المعرفة العلميّة الّتي ينتجها الباحثون في ميادين العلم المختلفة، وذلك طبقا لمناهج علمية صارمة وبأسلوب علمي وموضوعي مجرّد ودقيق، وهي معرفة غير قابلة للتدريس بسبب طبيعة محتواها الذي أُعدّ خصيصا للبحث العلمي وليس للتدريس. وهي أولى مراحل تكون المعرفة الّتي سيتم نقلها وتحويلها لاحقا
2 –الـمعرفة التّعليميّة	هي المعرفة الّتي يجب أن يتم تقديمها وتدريسها للمتعلمين، هي تلك المعرفة الّتي صممها التربويون ضمن برامج تعليمية ووفق مناهج بيداغوجية تلائم كل مستوى معرفي وتضمنتها الكتب المدرسية، وهي تختلف عن المعرفة العالمة أو المعرفة العلمية، يمكن القول إن المعرفة التّعليميّة هي محصّلة ما توصلنا إليه بعد إجراء تعديلات على مضامين وحتويات المعرفة العالمة بحيث أصبحت متلائمة مع الأهداف التّعليميّة والتربوية للمعلمين والمتعلمين، هذا التعديل الذي حوّل المعرفة العالمة إلى المعرفة التّعليميّة هو ما اصطلحنا عليه بالنّقل الدّيداكتيكيّ أو التحويل التعليمياتي.
3 –الـمعرفة الـمُهيَّأة للتّعليم	يتمثل هذا النوع من المعرفة في ما يلقنه المعلم في الصف للمتعلمين وما يقدمه لهم، يستقي هذ النوع من المعرفة محتواه من المعرفة الواجب تدريسها (الـمعرفة التّعليميّة)، وتخضع هذه المعرفة بدورها إلى الطابع الخاص للمعلم وأحيانا إلى اجتهاده وإلى الإضافات الّتي قد يدخلها على هذه المعرفة بحسب ما يتجلى له معطيات تتعلق بالفروقات الفردية بين المتعلّمين وقدراتهم التعلمية، ويتبين له ذلك من خلال الملاءمة مع مستوى التلاميذ وال أهمّيّة الّتي يعطيها المعلم لمظهر أو مفهوم معين.[18]

(18) لمزيد التعمق في هذه الفكرة يمكن العودة إلى عابد بوهـاد، تحليل الفعل الديداكتيكي

4 –**المعرفة المُكتَسَبَة بالفعل**	هي المعرفة الّتي يكتسبها المتعلم/ التلميذ، فتلك معرفة لا تعكس بالضرورة ما درّسه الأستاذ، ذلك أن التلميذ يمارس بدوره عمليّة ذهنية على كل ما يقدمه له الأستاذ، فهو يؤول، ويُعيد تنظيم مُكتسباته السابقة وفق تصور جديد قصد دمج ما تم تحصيله. بالإضافة إلى ذلك يأخذ التلميذ بعين الاعتبار ما ينتظر الأستاذ منه بسبب وجود عقد ديداكتيكي ضمني أو صريح بينهما.[19]

ولنا أن نتساءل في هذه الإطار عن الحلول الّتي يمكن أن تُقترح لتأمين عمليّة النّقل الدّيداكتيكيّ بآليات سليمة وناجعة.

لتذليل الصّعوبات المتعلّقة بالمعرفة المقدّمة إلى المتعلّمين، ينبغي اعتماد جملة من الإجراءات الّتي قد تجعل تطويع المعرفة العلميّة لاحتياجات وقدرات المتعلّمين عمليّة تضمن نجاعة التّعليم والتّعلّم، ومن أهم هذه الحلول تعهّد المعرفة التّعليميّة بالتحديث والتّحيين والتعديل والإضافة والإثراء بما يتناسب مع البحوث العلميّة المنجزة من جهة والتطورات الطارئة في قطاع التعليم من جهة أخرى بالإضافة إلى ضرورة ملاءمة المعرفة المقدّ/ ة لحية المتعلّمين، ذلك أنّ المعرفة التّعليميّة ينبغي أن تكون مواكبة لمستجدات الواقع حتى لا تكون هناك فجوة بين ما يُقدّم إلى المتعلّم وما قد يعترضه في حياته الاجتماعيّة أو المهنيّة يوما ما، فالمعرفة الّتي لا تتلاءم مع واقع المتعلّم قد تكون غير ذات جدوى وقد يميل المتعلّمون إلى الاستغناء عنها في مرحلة تعليميّة معيّنة نظرا إلى قصور تلك المعرفة عن استيفاء متطلّباتهم.

من هذا المنطلق، يجب على المختصين في علوم التربية والتّعليم وعلى واضعي البرامج التّعليميّة أن يطوّروا المناهج التّعليميّة وأن يحيّنوا مضامينها وأن يراعوا عند صياغتها جوانب متعددة تتصل وثيق الاتصال بعمليّتَي التعلّم والتّعليم، وأهمها ملاءمة تلك المناهج لمراحل التعلّم المختلفة واحترامها لخصوصيات

(مقاربة لسانية بيداغوجية)، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 9 العدد 2 .2012م.

(19) المصدر نفسه.

كل مرحلة ومراعاة قدرات المتعلّمين في كل مستوى تعليميّ، بالإضافة إلى ضرورة احترام تدرّج مستويات اكتساب المعرفة ووجود اختلاف لا شكّ فيه في قدرات المتعلّمين وطاقاتهم الاستيعابية، دون أن نغفل عن أهمّيّة المواءمة بين المناهج القديمة التي انبنت عليها العمليّة التّعليميّة في بداياتها والمناهج الجديدة الّتي أثبتت نجاعتها، فقد ينتج عن دمج المناهج والمضامين القديمة و الجديدة ثراء منهجي ينعكس إيجابيا على عمليتَي التّعليم والتعلّم.

يعتبر حسنُ اختيار المواد التّعليميّة من الحلول الناجعة الّتي قد تقلص الفجوة بين المتعلّم وصعوبات تلقيه للمعرفة، فبعض المحاور العلميّة تكون غير قابلة للتّحويل بسبب نمط تكونها وطبيعة تشكلها من البداية، بحيث لا بقبل مضمونها النّقل أو التّحويل ولا يمكن إخضاعها إلى المنهج التّعليميّ القابل للتّدريس.[20]

بالإضافة إلى الصّعوبات المتعلّقة بعمليّات النّقل الدّيداكتيكّي، نجد أيضا الصّعوبات المتّصلة بوسائل التّدخل التّعليميّ والّتي تفرض وجودها بقوة متـى تعلق الأمر بالنّظر في وسائل التّعليم المستخدمة والّتي ينبغي أن تكون متلائمة مع التّوجه العام في اكتساب اللّغات وتعلّمها.[21]

غير أنّ الصّعوبات والمعوّقات المتّصلة بتعلّم اللّغات لا تقتصر على الجوانب الـمعرفيّة فحسب بل تمتد أثارها إلى الجوانب النّفسيّة الّتي تؤثر تأثيرا مباشر في السلوك التعليمي للمتعلّم وتنعكس على طرائق تلقيه للمعرفة، يقول محمد الصحبي البعزاوي « الـمهم في هذا أنّ الاهتمام بالعوائق اللّغويّة في تعلّم اللّغات الأجنبية، لا يحول دون التعمّق في المؤثّرات غير اللّغويّة الّتي تساهم بدورها مساهمة فعّالة في اكتساب اللّغات و تعلّمها و منها على وجه الخصوص « الدافعية» و « القابليّة» والمؤثّرات النّفسيّة والاجتماعية...».[22]

---

(20) يمكن التوسّع في الملاحظة أعلاه بالعودة إلى:
Chevallard (Yves).La Transposition Didactique : du savoir savant au savoir enseigné-Grenoble : La pensé sauvage, 1985. P126

(21) يمكن التوسّع في الملاحظة أعلاه بالعودة إلى:
محمد الصحبي البعزاوي، (2025)، من عوائق تعلم العربية للناطقين بغيرها، بحث في صعوبات اكتساب اللّغة وآليات مواجهتها، دار الأمينة للنشر. تونس.

(22) المصدر نفسه ص 153.

4-2 الصّعوبات النّفسيّة:

أهمّيّة الجوانب النّفسيّة في العمليّة التّعليميّة.

تعتبر العمليّة التّعليميّة في جوهرها عمليّة نفسيّة بالأساس فهي قائمة على محاولة تطوير سلوك المتعلّم من خلال تنمية وسائل وطرائق اكتسابه للعلوم والمعارف وخاصّة اللّغات، فالإنسان يولَد حاملا للوعي بضرورة التعلّم والاكتساب لفهم الكون و إدراك حقيقة الوجود ولبناء جسور التّواصل مع الآخرين، يقول أحمد حساني :» بناء على هذا الوعي بضرورة اكتساب المعرفة المغيّرة لسلوك الإنسان، يمكن لنا القول، حينئذ، إنّ التعلّم هو تغير دائم في سلوك الإنسان واكتساب مستمرّ لخبرات ومهارات جديدة تؤدي بالضّرورة إلى إدراك جديد ومعرفة عميقة للمحيط الطّبيعيّ والاجتماعيّ الّذي يعيشه الإنسان من حيث هو كائن مكلّف يحمل رسالة مقدّسة في هذا الكون».[23]

ترتبط بعمليّة التعلّم عملياتٌ نفسيّة كثيرة تقوم أساسا على الفهم والإدراك وترتكز على جملة من الدّعائم الّتي ربطها أصحاب علم النّفس السّلوكي بالسّلوك، والسّلوك «هو كلّ نشاط يصدر من الإنسان، ويمكن أن يُدرَك بالحسّ (...) كما أنّ السّلوك أيضا يدلّ على جميع الانفعالات والأفكار والعواطف والمشاعر والميول بأنواعها المختلفة.»[24] وكذلك بالممارسة وبالتّعزيز «وهو الدّعم المعنويّ والماديّ الّذي يرافق الاستجابة ويعمل على تقوية حدوثها واستدعائها عن طريق المكافأة أو الجزاء، وتمكّن المتعلّم من تحقيق الغاية من عمليّة التّعلّم».[25]

تتّضح لنا أهمّيّة العوامل النّفسيّة في تهيئة الدّافعيّة والاستعداد للتعلّم لدى المتعلّم، فالأسس النّفسيّة من أهم المرتكزات الّتي تنبني عليها تعليميّات اللّغات نظرا إلى العلاقة المتينة الرّابطة بين عمليّة التعلّم والجوانب النّفسيّة الّتي تتعلق بالمتعلّم، يقول أحمد حساني:» ولذلك فإنّ أقلّ الناس إلماما بالحصيلة العلميّة

(23) حساني، أحمد، دراسات في اللسانيات التطبيقية، حقل تعليمية اللغات.جامعة وهران، ص45-46

(24) المصدر نفسه ص48-49

(25) المصدر نفسه ص48-49

في التّربية والتّعليم يدرك لا محالة أنّ الأسس الّتي ترتكز عليها العمليّة التّعليميّة هي خلق حاجات للتعلّم في نفس الفرد المتعلّم، من أجل تهيئة المناخ الملائم لهذه العمليّة حتى تتحقّق الأهداف العامّة والخاصة للعمليّة البيداغوجيّة».[26]

قد تصادف المتعلّم مشكلاتٌ نفسيّة كثيرة تعرقل عمليّة التعلّم وتمنع تمامها بنجاعة ونجاح، ومن أهم هذه المشكلات نذكر:

***انعدام الدّافعيّة :**

يعتبر انعدام الدّافعيّة للتعلّم من أخطر المشكلات النّفسيّة الّتي تواجه متعلّم اللّغات وخاصة اللّغة الثانية، فالدّافعيّة هي المحرّك الأساسي لعمليّة التّعلّم، إنّها العامل النّفسيّ الّذي يجعل المتعلّم مثابرا ومجتهدا وراغبا في التعلّم وتحقيق التّواصل اللّغوي مع المعلّم ومع بقيّة المتعلّمين، ممّا يدعم قدراته التّعلّميّة ومهاراته ويزيد من قابليّته للاكتساب[27]، وقد اعتبر الباحثون الدّافعيّة دافعا على غاية كبرى من الأهمية:»...وعدّه سكيهان(38 ،1989) (Skehan)[28] المؤشّر الثّاني بعد القابليّة في تعلّم اللّغات الأجنبيّة. أمّا سوزان غاس ولاري سلينكر (S.Gass & Larry Selinker) فقد اعتبراه:» مؤشّرا على نجاح تعلّم اللّغات».[29]

*** فقدان الثّقة بالنّفس:**

تلعب الثّقة بالنّفس دورا أساسيًّا في تعلّم اللّغات، فهي العامل النّفسيّ الّذي يهيّئ المتعلّم لاستقبال كلّ المعارف المتعلّقة بتلك اللّغة دون خوف من الفشل

(26) المصدر نفسه ص50

(27) The major point to make about the study of motivation in language learning is that the emphasis has been excessively on the study of goals. There has been relatively little research into the effects of different materials and teaching techniques on the motivation of students (although all manner of generalizations in this area are conveyed during teacher training courses). Nor has there been much research into the effects of manipulating constraints and rewards. There has been some research into the effects of success on motivation: some (e.g., Burstall, 1975; Hermann, 1980) claim that success precedes and causes motivation, while others (Gardner, 1985) contend that motivation is primary. P7 (Skehan; P.) 1989(. Individual differences in Second Language Learning. London.).

(28) Skehan; P. Individual differences in Second Language Learning. London 1989; p38.

(29) البعزاوي، محمد الصحبي: (2025)، من عوائق تعلم العربية للناطقين بغيرها، بحث في صعوبات اكتساب اللّغة وآليات مواجهتها، دار الأمينة للنشر. تونس، ص154-155.

ودون قلق من الصّعوبات الّتي قد تواجهه، فثقته بقدراته عامل نفسيّ رئيسيّ لنجاح عمليّة التعلّم وعنصر مهمّ يساهم في تأدية التّواصل اللّغوي لتحقيق التعلّم النّاجع.

***القلق اللّغوي:**

يعتبر القلق اللّغوي أحد أهم عوائق تعلّم اللّغات، فهو حاجز نفسيّ يمنع المتعلّم من تلقي المعارف وتفعيل التّواصل اللّغوي في المواقف التّعليميّة، وقد وجد هذا المبحث صدى عميقا في الدّراسات المُنجزة حول صعوبات تعلّم وتعليم اللّغات حيث: « لم يهمل الباحثون في هذا السياق الاهتمام بالعلاقة بين «ضعف الدّافعية» و«انعدام قابليّة التعلّم»، فبحثوا في الأسباب المؤّدية لذلك وتحدّثوا عن الضّبابيّة الّتي تحصل للفرد أثناء تعرّضه لثقافة جديدة وعن عدم قبوله للبيئة التّعليميّة المغايرة لبيئته وانتبهوا إلى خوف المتعلّم من الفشل وإلى تردّده في اختياراته وعدم وضوح أهدافه من التعلّم...وقد بيّنوا انعكاس العوامل المذكورة على دافعيّة التعلّم، بدراسة مظاهر القلق اللّغويّ الّذي يرافق المتعلّم عند التّحدّث أو الاستماع إلى اللّغة المستهدفة».[30]

***غياب التّعزيز**

يعتبر التّعزيز من العوامل الدّاعمة لعمليتَي التّعليم والتعلّم، فهو يقوم على مكافأة وتشجيع المتعلّم بكل الوسائل والطرق البيداغوجية المناسبة المرتبطة بالعمليّة التّعليميّة، ويرتبط التّعزيز بالمعلّم أساسا، فهو العنصر المُطالب بتقديم التّعزيز للمتعلّمين، وقد يكون التّعزيز معنويّا أو ماديًّا، ويختلف باختلاف مراحل التّعلّم، والتّعزيز آليّة نفسيّة على غاية كبيرة من الأهمّيّة فهو يدفع المتعلّم إلى المشاركة بفاعليّة في العمليّة التّعليميّة ويدعم بالتالي عمليّة التّواصل اللّغويّ وذلك عبر التّعبير عن أفكاره وطرح الأسئلة وحلّ المشكلات دون خوف من الوقوع في الخطأ ودون الخوف من العقاب.

***انعدام الانتباه والتّركيز:**

يؤدّي انعدام الانتباه والتّركيز إلى تشتّت ذهن المتعلّم وبالتّالي ضعف التّحصيل المعرفيّ، فاستقبال المتعلّم للمعلومات والعلوم والمعارف قائم أساسا

(30) المصدر نفسه، ص154-155.

على الانتباه والتّركيز فهما يضمنان حسن معالجة المعلومات وطرائق تخزينها في الذّاكرة وبالتّالي حسن توظيفها في التّواصل لاحقا.

*** غياب التّكرار والممارسة**

التّكرار والـمُمارسة من المبادئ الأوّلية في التّعليم بصفة عامّة وفي تعليم اللّغات بصفة خاصّة، فبهما يُثبّت المتعلّم المعلومات الّتي تلقّاها أثناء عمليّة التّعلّم، حيث يرتبطان بكل المهارات التّعليميّة الضّرورية كمهارة الكتابة والقراءة والتّحدّث والاستماع، فاعتماد مبدأ التّكرار ييسر حفظ القواعد اللّغويّة ومفردات معجم اللّغة المُراد تعلُّمُها، ويهيّئ المتعلّمين لممارسة اللّغة تحدّثا ممّا يضمن تنمية وتطوير القدرات التّعلّميّة والتّواصليّة لديهم، وقد أكّد عالم النّفس التّربويّ الأمريكيّ ثورندايك أنّ الروابط القائمة بين المثير والاستجابة تتدعّم وتقوى بالتّكرار والممارسة وتضعف بدونهما.

تمثّل الجوانب النّفسيّة المذكورة آنفا صعوبات ومعوّقات تحول دون تحقيق الأهداف المرجوّة من تعليم وتعلّم اللّغات، ولا يخفى على المهتمين بقضايا تعليميّات اللّغات اليوم أنّ مراعاة هذه الجوانب النّفسيّة أمر بالغ الأهمّيّة وقد ثبت أنّ تهيئة المتعلّم نفسيًّا مرحلة ضرورية لا يتمّ التعلّم والتّعليم بدونهما، فهي أسس ودعائم وركائز تقوم عليها العمليّة التّعليميّة برمّتها، ولئن عرضنا بعض هذه الجوانب فإنّنا لا ندّعي الإحاطة بها كلّها في هذا البحث فثمّة جوانب نفسيّة أخرى لا تقلّ أهمّيّة عمّا تمّ عرضه.

لا تتعلّق الصّعوبات التّعليميّة بما ذكرناه من جوانب معرفيّة وجوانب نفسيّة فحسب، بل تشمل كذلك المعوّقات الاجتماعيّة، والمعوّقات الخِلقية الّتي قد تؤثر على الكفاية اللّغويّة (فقدان القدرة على النّطق بصفة عامّة أو النّطق السّليم على وجه الخصوص، فقدان القدرة على السّماع، المشكلات النّطقية المتعددة وأبرزها الفأفأة، التأتأة،ثقل اللسان... وكذلك اضطرابات في القدرات الإدراكيّة مما يؤثر على الفهم والحفظ والاستيعاب وغيرها...).

خاتمة:

انطلقنا في هذا البحث من تحديد الإطار العامّ الذي يندرج ضمنه مبحث تعليميّات اللّغات، فعقدنا الصّلاتِ بينه وبين اللّسانيّات التّطبيقيّة بوصفها إطارا حاويا لهذا المبحث الذي ما انفكّ يطرح إشكاليات وقضايا مهمّة على وثيق الصّلة بمجال التّعليم، وقد حاولنا عرض أهمّ النّظريّات الّتي استقت منها تعليميّات اللّغات مبادئها النّظريّة وتطبيقاتها العمليّة وانتهينا إلى أنّ النّظريّات اللّسانيّة والنّظريّات النّفسيّة السلوكيّة والتربوية كانت من أهمّ الدّعائم الّتي انبنت عليها التّعليميّات بصفة عامة وتعليميّات اللّغات على بصفة خاصّة، ويبدو ذلك جليًّا بمجرّد إنعام النّظر في الصّلات العميقة الرّابطة بين حقل التّعليم وحقل اللّسانيّات وكذلك وبين حقلَي علم النّفس السّلوكي وعلم النّفس التّربوي، وهو ما يؤكد أنّ المعارف والعلوم تُبنى تراكميًّا وتؤتي ثمارها من مختلف التّفاعلات القائمة بينها، وقد مثّلت هذه النّظريّات المتنوّعة معينا لا ينضب نهلت منه تعليميّات اللّغات فتشكّلت معالمها وانبنت مناهجها و تبلورت قضاياها لتصبح علما قائما بذاته له أسسه ومناهجه ومجالاته التّطبيقيّة، وقد حاولنا استقصاء هذه الجوانب التّطبيقيّة في التّعليم،حيث قدّمنا شرحا لأهم مجالات تلك التّطبيقات التعليميّة والتربويّة التي لا يمكن أن تتحقق إلا بتوفر جملة من العناصر التي تحتاجها العملية التّعليميّة ومنها اكتساب المعلّم والمتعلّم للمهارات اللّغويّة والمهارات التّواصليّة الّتي تضمن تحقيق الأهداف المرجوّة من تعليم وتعلّم اللّغات فهذه المهارات هي في حقيقة الأمر معرفة لغويّة يطوّعها المتعلّم لضمان تعلّم أفضل للغة ولكن ينبغي أن تكون هذه المعرفة المقدّمة مهيّأة للتعليم والتعلّم، بهذا المعنى ندرك ضرورة إخضاع المعرفة البحثيّة إلى جملة من التّغييرات الّتي تتم في إطار ما يُعرف بالنّقل الدّيداكتيكيّ ـ يتم من خلالها تهيئة المعرفة حتّى تكون متلائمة مع احتياجات وقدرات المتعلّمين وحتّى تصبح مراعية للفروقات الفرديّة بينهم، وكي يتمّ التغلّب على المشكلات التي قد تعترض المتعلّمين، وهو ما قادنا إلى البحث في الصّعوبات التّعليميّة والتّعلّميّة، وقد اكتفينا بالإشارة إلى نوعين أساسيّين منها وهي الصّعوبات المعرفيّة والصّعوبات النّفسيّة نظرا إلى التّرابط المتين بين هذا النّمط من الصّعوبات وعمليّتي التّعليم والتّعلّم، وقد أكّدنا أنّ تعليميّات اللّغات لا تخلو من صعوبات أخرى كثيرة يعمل الدّارسون على إيجاد الحلول الممكنة لها في إطار مبحث اللّسانيّات التّعليميّة.

المصادر والمراجع العربية

باللّسان العربي:

- براون، دوغلاس، (1980)، ترجمة إبراهيم بن حمد القعيد، عيد بن عبد الله الشمري، مكتب التربية العربي لدول الخليج (1994). الرياض.
- البعزاوي، محمد الصحبي: (2025)، من عوائق تعلّم العربية للناطقين بغيرها، بحث في صعوبات اكتساب اللّغة وآليات مواجهتها، دار الأمينة للنشر. تونس.
- بوهـادي (عابد)، تحليل الفعل الدّيداكتيكيّ (مقاربة لسانية بيداغوجية)، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 9، العدد 2، 2012.
- بوقرة، نعمان عبد الحميد، (2016)، لغة الخطاب التعليمي الجامعي بين إيديولوجيا العامية وإيديولوجيا العولمة، ضمن مجلة التخطيط والسياسة اللغوية، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز لخدمة اللّغة العربية، السنة الأولى، العدد 2.
- حساني، أحمد (1996)، دراسات في اللّسانيّات التّطبيقيّة: حقل تعليمية اللغات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- الزغلول، عماد عبد الرحيم، نظريات التعلم، (2010)، كلية العلوم التّربويّة، جامعة مؤتة، الأردن. الطبعة 2.
- العسكري (كفاح صالح)، الشمري (محمد سعود صغير)، العبيدي (علي محمد)، (2012)، نظريات التعلم، دمشق.

باللسان الأجنبي:

- **Brown, H. D. (2000).** *Principles of language learning and teaching* **(4th ed.). Longman.**
- **Cuq, J.-P. (1996).** *Une introduction à la didactique de la grammaire en français langue étrangère***. Paris, France : Les Éditions Didier.**
- Skehan; P.) 1989(. Individual differences in Second Language Learning. London: **Ealing College.**

التناص ووظائفه النصية في سورة الزمر: تأصيل المفهوم، وضوابط التّطبيق

Intertextuality and Its Textual Functions in Surah Al-Zumar

Conceptual Foundations and Guidelines for Application

د. محمّد حسن خلف
كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، جامعة الشّارقة، الإمارات العربيّة المتّحدة

د.حافظ إسماعيلي علوي
كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، جامعة الشّارقة، الإمارات العربيّة المتّحدة

الملخص:

يدرس هذا البحث التّناصّ في سورة الزُّمَر بوصفه معيارًا من معايير النّصّيّة وآليّةً من آليّات بناء المعنى وتحقيق الانسجام. ويهدف إلى تأصيل مفهوم التّناصّ في الدّراسات اللّسانيّة والنّقديّة الحديثة، من خلال عرض إسهامات ميخائيل باختين، وجوليا كريستيفا، وجيرار جينيت، وروبرت دي بوجراند وولفغانغ دريسلر، ومقابلة ذلك بنظائره في الموروث البلاغيّ والنّقديّ العربيّ، ولا سيّما السّرقات الأدبيّة، والاقتباس، والتّضمين، والتّلميح؛ كما تناولها الجاحظ، والقاضي الجرجانيّ، وعبد القاهر الجرجانيّ، وغيرهم. وقد خلص الجانب النظريّ إلى أنّ هذه المفاهيم التراثيّة تمثّل أصولًا وظيفيّة جزئيّة تتقاطع مع التّناصّ، من غير أن تطابقه في حدوده ومنطلقاته الحديثة.

وراعى البحث خصوصيّة النّصّ القرآنيّ، فرفض ما تنطوي عليه بعض تصوّرات التّناصّ من القول بالأخذ أو الامتصاص أو التّبعيّة لنصوص سابقة،

وأفاد من المفهوم بوصفه أداةً وصفيّةً لتحليل العلاقات النّصّيّة والدّلاليّة، ضمن ضوابط تحفظ مصدريّة القرآن الكريم وأصالته وإعجازه.

واعتمد البحث المنهج الوصفيّ في دراسة نماذج مختارة من سورة الزُّمَر، فكشف عن التّناصّ الدّاخليّ بين آيات السّورة نفسها وبينها وبين سائر القرآن، وعن تقاطع بعض تراكيبها وصورها مع كلام العرب، علاوة على الحواريّة القائمة على استحضار أقوال المخالفين ومحاورتها، والتّداخل مع معارف البيئة العربيّة وثقافتها. وأظهرت النتائج تنوّع التّناصّ الدّاخليّ إلى لفظيّ ودلاليّ ومشهديّ وحجاجيّ وقصصيّ، وأنّ وظائفه تتجلّى في التّفسير والتّفصيل والتّوكيد واستكمال المشاهد وإعادة بناء الحجج، وربط السّورة بشبكة القرآن الدّلاليّة الكبرى، بما يعمّق مقاصدها في تقرير التّوحيد والبعث والجزاء.

الكلمات المفاتيح: التّناصّ؛ سورة الزُّمَر؛ الخطاب القرآنيّ؛ لسانيّات النّصّ الانسجام.

Abstract

This study examines intertextuality in Surat Az-Zumar as a standard of textuality and a mechanism for meaning construction and coherence. It outlines the contributions of Mikhail Bakhtin, Julia Kristeva, Gérard Genette, Robert de Beaugrande, and Wolfgang Dressler, and compares them with related concepts in the Arabic rhetorical and critical tradition, particularly literary plagiarism, quotation, embedding, and allusion, as discussed by al-Jahiz, al-Qadi al-Jurjani, Abd al-Qahir al-Jurjani, and others. It concludes that these traditional concepts constitute partial functional antecedents of intertextuality without fully corresponding to its modern theoretical framework.

The study respects the sanctity and distinctive nature of the Qur'anic text. It rejects notions of borrowing, absorption, or dependence on earlier texts, while employing intertextuality as a descriptive tool within a framework that safeguards the Qur'an's divine origin, originality, and inimitability.

Using a descriptive-analytical approach, the study identifies internal intertextuality within Surat Az-Zumar and between its verses

and other Qur'anic passages, alongside intersections with Arabic speech, dialogic engagement with opposing voices, and interaction with the Arab cultural environment. The findings reveal lexical, semantic, scenic, argumentative, and narrative forms that contribute to interpretation, elaboration, emphasis, completion of scenes, reconstruction of arguments, and the affirmation of monotheism, resurrection, and divine recompense.

Keywords : Intertextuality; Surat Az-Zumar; Qur'anic Discourse; Text Linguistics; Coherence.

المقدمة:

برز التّناصّ في الدّراسات اللّسانيّة والنّقديّة الحديثة بوصفه مفهومًا يكشف عن العلاقات التي تصل النّصّ بغيره من النّصوص والخطابات، وما تؤدّيه هذه العلاقات من وظائف في إنتاج المعنى وتوجيه التلقّي. وتعود أصول المفهوم إلى الحواريّة عند ميخائيل باختين Mikhail Bakhtin، ثمّ تبلور مصطلحًا عند جوليا كريستيفا Julia Kristeva، واتّسعت دلالاته في أعمال رولان بارت Roland Barthes وميخائيل ريفاتير Michael Riffaterre وجيرار جينيت Gérard Genette، قبل أن يدرجه روبرت دي بوجراند Robert de Beaugrande وولفغانغ دريسلر Wolfgang Dressler ضمن معايير النّصّيّة. وقد عرف الموروث البلاغيّ والنّقديّ العربيّ ظواهر تتقاطع مع بعض جوانبه، مثل السّرقات الأدبيّة، والاقتباس، والتّضمين، والتّلميح، والمعارضة، والنّقائض، غير أنّ هذه المفاهيم لا تطابق التّناصّ في حدوده ومنطلقاته وغاياته الحديثة.

وتزداد دراسة هذا المفهوم دقّةً وحساسيّة عند تطبيقه على القرآن الكريم؛ لما ارتبط ببعض تصوّراته من القول بامتصاص النّصوص السّابقة أو تحويلها، وهو ما لا ينسجم مع قداسة القرآن، ومصدريّته الإلهيّة، وأصالته، وإعجازه.

ويهدف البحث إلى تأصيل مفهوم التّناصّ في الدّراسات الغربيّة والعربيّة، ومقارنته بالمباحث البلاغيّة والنّقديّة الموروثة، ووضع ضوابط منهجيّة للإفادة منه في دراسة القرآن الكريم، ثمّ الكشف عن أنماطه ووظائفه في سورة الزُّمَر.

مشكلة البحث:

تتمثّل مشكلة البحث في مدى إمكان الإفادة من التّناصّ أداةً لتحليل العلاقات النّصّيّة والدّلاليّة في الخطاب القرآنيّ، من غير إخضاعه للمحمولات الفلسفيّة القائمة على الأخذ أو التّبعيّة. وينبثق من ذلك البحث في صلة المفهوم بنظائره في التّراث العربيّ، والضّوابط اللازمة لتطبيقه على القرآن الكريم، وأبرز تجلّياته ووظائفه في سورة الزُّمَر.

منهج البحث:

اعتمد البحث المنهج الوصفيّ في رصد نماذج التّناصّ وتصنيفها وتحليل وظائفها في سياقاتها، واستعان بالمنهج المقارن في موازنة المفهوم الحديث بنظائره التراثيّة. واقتصر الجانب التطبيقيّ على نماذج مختارة من سورة الزُّمر؛ لأنّ استقصاء جميع العلاقات التي تصل آيات السّورة بنصوص القرآن وخطاباته يقتضي دراسةً أوسع.

الدراسات السابقة:

تناولت دراسة عمر علوي ابن شهاب، «في ظلال التّناصّ القرآنيّ»، المنشورة في مجلّة كليّات التّربية، جامعة عدن، بالجمهورية اليمينية، العدد التاسع، سنة 2008م، ص ص267-283، التّناصّ من خلال مبدأ تفسير القرآن بالقرآن. وانطلقت من أنّ الآيات القرآنيّة يفسّر بعضها بعضًا، وأنّ جمع المواضع المتناظرة يكشف عن دلالات لا يستقلّ بإظهارها الموضع الواحد. وقدّمت الدراسة نماذج تطبيقيّة من سورة الفاتحة وغيرها، مبيّنةً أثر التّناصّ الداخليّ في بيان المجمل، وتحديد المقصود، واستكمال المعنى. كما ناقشت بعض القراءات التي حاولت ردّ القرآن إلى نصوص دينيّة أو روايات سابقة، مؤكّدةً أصالة النّصّ القرآنيّ وأهميّة الانطلاق من شبكة علاقاته الداخليّة.

ودرس أحمد عرابي في بحثه الموسوم بـ: «دلالة التّناصّ في القرآن الكريم: دراسة تطبيقيّة»، المنشورة في مجلّة اللّغة العربيّة، المجلس الأعلى للّغة العربيّة، بالجزائر، العدد الثالث والعشرين، سنة 2009م، ص ص161-200، دور التّناصّ في ترجيح دلالة النّصّ القرآنيّ من خلال الاستعانة بآية أو مجموعة

من الآيات في فهم آية أخرى. وانتظم تطبيقها في ثلاثة محاور: دلالة التّناصّ والمجاز، ودلالة التّناصّ والسّياق، ودلالته في بيان الإطلاق والتّقييد. وأظهرت نماذجها أنّ جمع النّصوص المتّصلة بالمسألة الواحدة يسهم في رفع الاحتمال، وتقييد الدّلالة المطلقة، وترجيح وجه من وجوه التّأويل، وربط النّصّ بمقصده العقديّ أو التشريعيّ أو الاجتماعيّ.

وتناولت دراسة سعاد كريدي كنداوي وعلي حسين حمادي، «التّناصّ في القرآن الكريم: دراسة تطبيقيّة على السّور المدنيّة»، المنشورة في مجلّة القادسيّة في الآداب والعلوم التربويّة، بالعراق، المجلّد السابع عشر، العدد الثاني، سنة 2016م، ص ص1-32، التّناصّ بوصفه أحد معايير النّصّيّة عند روبرت دي بوجراند، وربطته بمفاهيم التّضمين والاقتباس والسّرقات الأدبيّة. وميّزت بين التّناصّ الداخليّ، المتمثّل في تكرار المفردات والعبارات والجمل والقصص داخل القرآن، والتّناصّ الخارجيّ المتّصل بالألفاظ الوافدة والكتب السّماويّة السابقة. وطبّقت هذا التصوّر على عدد من القصص القرآنيّة، ولا سيّما قصص آدم وإبراهيم وموسى عليهم السلام، وخلصت إلى أنّ توزيع عناصر القصّة على مواضع متعدّدة يحقّق تكامل الدّلالة، وأنّ علاقة القرآن بالكتب السابقة تؤدّي وظيفة تصحيحيّة لما لحق أخبار الأنبياء من تحريف.

وعرضت دراسة لمى عبد القادر خنياب «التّناصّ القرآنيّ: دراسة نصّيّة من خلال آيات الرّدّ»، المنشورة في مجلّة كلّية التّربية الأساسيّة، الجامعة المستنصريّة، بالعراق، العدد 104، سنة 2019م، ص ص1189-1234، مفهوم التّناصّ من منظور النّقد الأدبيّ وعلم لغة النّصّ، وقسّمته في الخطاب القرآنيّ إلى تناصّ ذاتيّ، يتمثّل في تعالق القرآن مع نصوص دعوات التّوحيد السابقة، وتناصّ داخليّ، يظهر في العلاقات بين الآيات داخل السّورة الواحدة أو بين سور متعدّدة. وركّزت الدراسة على آيات الرّدّ، وكشفت عن إسهام العلاقات بين النّصوص القرآنيّة في بناء الترابط الدّلاليّ وتكامل الحجّة.

وقدّم صبري فوزي عبد الله أبو حسين في دراسته «القرآن الكريم والتّناصّ: مقاربة في الضّوابط والمحاذير»، المنشورة في مجلّة كلّية الدّراسات الإسلاميّة والعربيّة للبنات بمدينة السادات، جامعة الأزهر، بجمهورية مصر العربية، العدد

الخامس، سنة 2025م، ص ص736-812، قراءةً ناقدةً للدّراسات التي طبّقت التّناصّ على القرآن الكريم. وناقش الضّوابط اللازمة للتعامل الأدبيّ مع القرآن، والمحاذير العقديّة والمنهجيّة المترتّبة على استعمال المصطلح بمحمولاته الغربيّة، وانتهى إلى رفض تطبيقه على القرآن، واقترح بدائل من الموروث العربيّ، منها الاقتصاص عند ابن فارس، والتّضمين البديعيّ عند ابن أبي الإصبع المصريّ، والإحالة، إلى جانب التّناسب في دراسة العلاقات بين الآيات والسّور.

وتفيد هذه الدّراسات البحث الحاليّ في تأصيل مفهوم التّناصّ، وبيان بعض أنماطه ووظائفه، وإبراز الخلاف المتعلّق بمشروعيّة تطبيقه على القرآن الكريم. غير أنّ البحث الحاليّ يتميّز باتّخاذ سورة الزُّمَر مجالًا للتّطبيق، وبالجمع بين تأصيل المفهوم في الدّراسات الغربيّة، وبيان مسارات تلقّيه عند الدّارسين العرب، ومقارنته تفصيلًا بمباحث السّرقات الأدبيّة والاقتباس والتّضمين والتّلميح وغيرها من مفاهيم الموروث البلاغيّ والنّقديّ.

كما يتّخذ البحث موقفًا منهجيًّا يغاير إطلاق مفهوم التّناصّ على القرآن من غير ضوابط، ويختلف في الوقت نفسه عن رفض الإفادة منه كليًّا؛ إذ يستبعد ما يتضمّنه من دلالات الأخذ والامتصاص والتّبعيّة، ويستعمله أداةً وصفيّةً للكشف عن العلاقات النّصّيّة والدّلاليّة، ضمن ضوابط تحفظ للقرآن مصدريّته الإلهيّة وأصالته وإعجازه. ويتّسع تطبيقه ليشمل التّناصّ الدّاخليّ بين آيات سورة الزُّمَر ونظائرها في القرآن، والتقاطع مع كلام العرب، والحواريّة القائمة على استحضار أقوال المخالفين ومناقشتها، والتّداخل الثقافيّ والبيئيّ، مع بيان وظائف ذلك في بناء المعنى وتحقيق الانسجام وخدمة مقاصد السّورة.

وانتظم البحث، كما يدلّ عليه عنوانه، في ثلاثة محاور كبرى: تأصيل مفهوم التّناصّ، وبيان ضوابط تطبيقه على القرآن الكريم، وتحليل تجلّياته ووظائفه النّصّيّة في سورة الزُّمَر.

1 ـ التّناص في الاصطلاح اللّسانيّ الغربيّ:

لم يستعمل ميخائيل باختين مصطلحIntertextuality بصيغته المعروفة، لكنّه وضع أساسه النظريّ في مفهوم الحواريّة Dialogism. فالكلمة عنده لا تصل

إلى المتكلِّم خالية من الاستعمالات السّابقة، بل تكون مشبعة بأصوات الآخرين ومقاصدهم وتقييماتهم؛ ولهذا رأى أن الكلمة في اللّغة (نصفها للآخر)؛ ويعني ذلك أن الخطاب الجديد يستجيب لخطابات سابقة، ويتوقع أجوبة أو اعتراضات لاحقة، فينشأ معناه داخل شبكة من الأصوات المتفاعلة[1].

ثمّ صاغت جوليا كريستيفا (1980م) مفهوم التّناصّ انطلاقًا من حوارية باختين، مؤكدة أن: «كلَّ نص يُبنى بوصفه فسيفساء من الاقتباسات؛ وكلّ نص هو امتصاصٌ لنص آخر وتحويلٌ له».[2]

ووسّع رولان بارت مجال التّناصّ، فوصف النّص بأنّه «نسيج من الاقتباسات» المنحدرة من مراكز ثقافية متعددة، ورأى أن النص يتألف من إشارات وصيغ وأصداء ثقافية لا يلزم أن تحمل علامات اقتباس ظاهرة[3]. وينقل هذا التصور مركز إنتاج الدلالة من قصد المؤلف وحده إلى القارئ القادر على جمع المسارات النصية والثقافية المتقاطعة في الخطاب.

كما منح ميخائيل ريفاتير المتلقّي دورًا أكثر تحديدًا في تحقُّق التّناصّ؛ إذ لا يكفي عنده حصول العلاقة الموضوعيّة بين نصّين، وإنّما تتجلّى فاعليّتُها حين يلتقط القارئ العلامات التي تُحيله إلى نصّ أو مجموعة نصوص غائبة، فيعيد بناء دلالة النّصّ الحاضر مُستضيئًا بتلك الإحالة. ومن ثمّ يصبح التّناصّ آليّةً للقراءة والتّأويل، وليس مجرّد تمثيل لعلاقة بين نصّ سابق وآخر لاحق؛ كما قد يكون المتفاعل النّصّيّ محدّدًا يمكن تعيينه، أو ربّما يكون بنية نصّيّة أو ثقافيّة تستدعيها ذاكرة المتلقّي[4].

(1) See: Mikhail M. Bakhtin, *The Dialogic Imagination*: *Four Essays*, ed. Michael Holquist, trans. Caryl Emerson and Michael Holquist (Austin: University of Texas Press, 1981), 293–294.

(2) See: Julia Kristeva, "Word, Dialogue and Novel", in *Desire in Language*: *A Semiotic Approach to Literature and Art*, ed. Leon S. Roudiez, trans. Thomas Gora, Alice Jardine, and Leon S. Roudiez (New York: Columbia University Press, 1980), 66.

(3) See: Roland Barthes, *Image-Music-Text*, selected and trans. Stephen Heath (London: Fontana Press, 1977), 142.

(4) See: Michael Riffaterre, "Intertextual Representation: On Mimesis as Interpretive Discourse", *Critical Inquiry* 11, no. 1 (1984): 142–143.

واستعمل جيرار جينيت مصطلح (التّعالي النّصّيّ) أو (عبر النّصّيّة) Transtextuality للدّلالة على مجموع العلاقات الظاهرة والخفية التي تصل نصًّا بنصوص أخرى. ثم جعله جنسًا عامًّا تحته خمسة أنواع، هي[5]:

1. **التّناصّ بالمعنى الضّيق**: حضور نصّ داخل نصّ آخر، ويظهر في الاقتباس والسّرقة والتلميح.

2. **النّص المُوازي أو المناصّ**: علاقة المتن بعنوانه، وعناوينه الفرعيّة، ومقدّماته، وهوامشه، وأغلفته، وما يحيط به ويوجّه قراءته.

3. **النّص الشّارح أو (الميتانص)**: تعليق نصّ على آخر وشرحه أو نقده، من غير اشتراط نقل ألفاظه.

4. **معماريّة النّص**: انتساب النّص إلى جنس أو نوع أو صنف خطابيّ، كالرواية أو الملحمة أو غيرها.

5. **النّص اللاحق أو التّشعّب النّصّيّ**: قيام نصّ لاحق على نصّ سابق عن طريق التحويل أو المحاكاة، دون أن يكون مجرد شرح له.

ويقتضي هذا التّفريق عدم تسمية الأنواع الخمسة (أنواع التّناص) بالمعنى الدقيق عند جينيت؛ فهي أنواع (التعالي النّصّي)، والتّناصّ واحد منها، غير أنّ الاستعمال العربيّ الواسع، كثيرًا ما يجعل التّناص مظلّة تشملها جميعًا.

والتناصّ عند دي بوجراند وديسلر (1981م) هو أحد معايير النّصية يتضمّن «العلاقات بين نصّ ما ونصوص أخرى مرتبطة به وقعت في حدود تجربة سابقة سواء بوساطة أم بغير وساطة»[6]، وهذا ما يضعه في صلب عمليّة إنتاج النّصّ وفهمه، لا في وجود اقتباس ظاهر فقط؛ فقد يتوقف فَهْمُ جواب عن السّؤال السّابق، أو فهم المُحاكاة السّاخرة على معرفة النّص الذي تحاكيه، أو فهم نوع نصّيّ على معرفة أعراف النّصوص المنتمية إلى ذلك النوع.

---

(5) See: Gérard Genette, *Palimpsests*: *Literature in the Second Degree*, trans. Channa Newman and Claude Doubinsky (Lincoln and London: University of Nebraska Press, 1997), 1–7.

(6) ينظر: روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسّان، ط1 (القاهرة: عالم الكتب، 1998)، 104.

2 ـ التّناص عند اللّسانيّين والنّقاد العرب:

استعمل تمّام حسّان (ت: 2011م) في ترجمته لكتاب دي بوجراند مصطلح (التّناصّ)، وعرّفه -كما أشرنا آنفا- بأنّه يتضمّن العلاقات بين نصّ ونصوص أخرى مرتبطة به، دخلت في تجربة سابقة بواسطة أو بغير واسطة، كما استعمل في مسرد المصطلحات (التكافل النّصّيّ) مقابلًا شارحًا، ووضع (التناصّ) بين قوسين.[7]

وعرّفه محمد مفتاح (ت: 2022م) بأنه «تعالق نصوص مع نصّ حدث بكيفيات مختلفة»[8]. ويتميّز هذا التعريف باحتفاظ النّصّ الجديد بفاعليته؛ فالنَّص السابق لا ينتقل إليه بحالته الأولى، بل يدخل معه في علاقة تتفاوت بين الاجترار والامتصاص والحوار والتحويل.

واختار سعيد يقطين (2001م) مصطلح (التّفاعل النّصي)؛ لأنّه أوسع في نظره من التّناص بمعناه الضّيّق؛ فالنّصُّ يتكوّنُ داخل بنية نصّيّة وثقافيّة سابقة، ثم يتفاعل معها عن طريق التّضمين والتّحويل والخرق. كما قسّم التّفاعل النّصّيّ إلى داخليّ وخارجيّ على أساس زمنيّ؛ فالدّاخلي علاقة الكاتب بنصوص معاصريه، والخارجيّ علاقته بنصوص العصور البعيدة[9].

واستعمل محمد بنيس (2001م) (النّصّ الغائب) و(التّداخل النّصّيّ) للكشف عن المتون الشعرية والثقافية الكامنة في النصّ الحاضر، واعتبر النّص الشّعري شبكة تلتقي فيها نصوص عديدة استطاع الشاعر أن يجعل منها كنزه الشّعريّ وذاكرته الشّعرية[10].

كما أصَّل للتّناصّ باحثون آخرون منهم على سبيل التمثيل لا التعيين، صبري حافظ (1984م) وعبد الملك مرتاض (ت: 2023م) وغيرُهما في دراسات

(7) ينظر: المصدر نفسه، 605.

(8) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص، ط3 (الدار البيضاء وبيروت: المركز الثقافي العربي، 1992)، 121.

(9) ينظر: سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي: النص والسياق، ط2 (الدار البيضاء وبيروت: المركز الثقافي العربي، 2001)، 100.

(10) محمد بنيس، الشعر العربي الحديث: بنياته وإبدالاتها، ط3 (الدار البيضاء: دار طوبقال للنشر، 2001)، 3: 181.

وازنت بينه وبين موروث السّرقات، وذهب كثير منهم إلى أنّ في التّراث العربيّ بذورًا صالحة لتأصيل المفهوم مع فارق المنطلقات[11].

ويكشف هذا التعدد عن مسارين في التّلقّي العربيّ؛ مسار نقديّ وسيميائيّ متأثر بكريستيفا وبارت وجينيت، يدرس تحويل النّصوص والثقافات داخل العمل الأدبي، ومسار لسانيّ إجرائيّ متأثر بدي بوجراند، يجعل التناص شرطًا من شروط فهم النّصّ واستعماله.

وما نسعى إليه في بحثنا هذا هو الجمع المنضبط بين المسارين، بالتطبيق على نماذج مختارة من سورة الزُّمر.

هذا، وممّا يفيده التّحليل الخطابيّ الحديث أنّه يزيد من ضبط هذا الاتّساع المفهوميّ بالتّمييز بين التّناص الظّاهر، حيث يحضر في الخطاب نصّ أو قول آخر حضورًا يمكن تعيينه، وبين التّداخل الخطابيّ Interdiscursivity، المتّصل بتكوين النّصّ من أعراف وأنواع وممارسات خطابيّة مختلفة. ويمنع هذا التّمييز من توسيع مفهوم التّناصّ بشكل يشمل كلّ تشابه ثقافيّ أو نوعيّ، كما يتيح الفصل بين استدعاء ملفوظ سابق واستثمار طرائق خطابيّة مستقرّة في الذّاكرة الثّقافيّة[12].

3 ـ نظائر التّناص الحديث في التراث العربي:

لم يعرف التّراث العربيّ مصطلح التّناص بحدوده اللّسانية المتداولة اليوم، لكنّه بحث عددًا كبيرًا من الظّواهر التي تدخل اليوم في مجاله، ولعل أبرز التصورات التراثية التي تلتقي مع مفهوم التناص هو ما أشار إليه ابن فارس (ت. 395 هـ) بلفظ «الاقتصاص»؛ ففي «باب من النظم الذي جاء في القرآن» يقول ابن فارس: «من نظوم كتاب الله جل ثناؤه «الاقتصاص»، وهو: أن يكون كلام في سورة مقتصًّا من كلام في سورة أخرى، أو في السورة معها»[13]؛ فقد جعل الاقتصاص هنا من

(11) ينظر: صبري حافظ، «التناص وإشاريات العمل الأدبي»، ألف: البلاغة المقارنة، العدد 4 (1984): 7–31؛ وينظر كذلك: عبد الملك مرتاض، «فكرة السرقات الأدبية ونظرية التناص»، علامات في النقد 1، الجزء 1 (مايو 1991): 77–101.

(12) See: Norman Fairclough, *Discourse and Social Change* (Cambridge: Polity Press, 1992), 101–118.

(13) أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق السيد أحمد صقر (القاهرة: عيسى البابي الحلبي، د.ت.)، 398.

النظم والربط، وجعله أيضًا شاهد العلاقة التي تجمع بين ألفاظ آية وآية أخرى قبلها أو بعدها، في سورة مختلفة عن السورة التي تتضمنها، أو في السورة ذاتها، فهو بهذا كلّه أداة نظم للمعاني التي تقوم عليها الآيات كما سنرى في الأمثلة التي جعلها ابن فارس ترجمة لهذا التصور، وأداة سبك وانسجام مفاهيمي بحيث يحيل المعنى اللاحق على معنى سابق، ويرتبط المعنى السابق بنظيره اللاحق، وبالتالي تتجلى لنا من خلاله صورة خاصة من صور التَّناص تتناسب وخصوصية القرآن الكريم، فمن يتأمل المعنى المعجمي لـ»الاقتصاص» لا يحتاج مزيد جهد في إبرام العلاقة بين التصورين؛ الاقتصاص والتناص، فمن الأمثلة التي ضربها ابن فارس على الاقتصاص ما يلي؛ يقول: «كقوله جل ثناؤه ﴿**وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ [العنكبوت: 27] والآخرة دار ثواب لا عمل، وهو مقتص عن قوله: ﴿**وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ العُلَى**﴾ [طه: 75][14]، ومن هذا المثال نلحظ أن الاقتصاص يقوم بتوضيح المعاني التي قد تخفى في آية أو تكون مدعاة للتساؤل بمعنى متصل في آية أخرى، ولا أدل على قيام تصور الاقتصاص على المعاني بأمارات الألفاظ وإشاراتها إليه من المثال الخاص بقوله تعالى: ﴿**إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ**﴾ [غافر: 32] فيقول ابن فارس: قرئت مخففة، ومشددة؛ فمن شدّد، فهو «ندَّ» إذا نفر، وهو مقتص من قوله: ﴿**يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ**﴾ [عبس: 34] إلى آخر القصة، ومن خفف فهو «تفاعل» من النداء مقتصّ من قوله جل ثناؤه: ﴿**وَنَادَى أَصْحَابُ الجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ**﴾[الأعراف: 44]، و﴿**وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الجَنَّةِ**﴾ [الأعراف: 50]» و﴿**وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ**﴾ [الأعراف: 48][15]، فقراءة التخفيف تجعل التناد من «ندّ» بمعنى «فرّ» فيكون يوم التناد بمعنى يوم الفرار؛ فيستدل من هذا المعنى بأمارة ندّ على اقتصاصها من آية عبس، ومن خفف كان التناد من الفعل «نادى»، فيكون التناد من نداءات أصحاب الجنة وأصحاب النار وأصحاب الأعراف، فيصير الاقتصاص بينها وبين آية غافر، وهكذا يقوم الاقتصاص على الربط والانسجام المعنوي بالأمارات اللفظية بين السابق واللاحق من آي القرآن في السورة نفسها، أو في أخرى مختلفة.

(14) ينظر: المصدر نفسه، 398.

(15) ينظر: المصدر السابق، ص. 399.

وقد انصبَّ اهتمام النقاد غالبًا على تحديد السّابق واللّاحق، وتمييز الأخذ المقبول من السّرقة المذمومة، وقياس مقدار التّحويل الذي أحدثه الشاعر؛ فقد تنبَّه الجاحظ (ت: 255 هـ) إلى اشتراك الشعراء في المادّة الدّلاليّة حين قرّر أنّ المعاني مطروحة في الطّريق يعرفها العجميّ والعربي، والبدويّ والقرويّ، وإنّما الشّأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللّفظ، وسهولة المخرج، وفي صحة الطّبع، وجودة الشّعر[16].

ولا يعني هذا نفي الابتكار؛ بل نُقل مركزه من امتلاك الموضوع العامّ إلى كيفية الصياغة والتّنظيم. وهذه الفكرة قريبة من القول الحديث إن النّصوص تعمل داخل مادة لغوية وثقافية مشتركة، مع بقاء اختلاف جوهري؛ فالجاحظ يقيّم صناعة البيان، بينما تنظر التّناصيّة في حركة الأقوال داخل النّص.

وازدادت القضيّة دقَّة في مبحث (السّرقات الشعرية)، الذي لم يكن حكمًا أخلاقيًّا واحدًا، بل معجمًا واسعًا لدرجات الأخذ والتحويل؛ فقد قرّر القاضي الجرجاني (ت: 392 هـ) أنّ الأخذ داء قديم في الشعر، وأن الشاعر قد يستعين بخاطر غيره ويستمدُّ من معناه. وبيّن أنّ المعنى المأخوذ قد يتحوّل بالنقل، والقلب، وتغيير المنهاج، والترتيب. وأورد في هذا الباب قول جرير (ت: 110 هـ):

(البحر الوافر)

سيعلم من يكون أبوه فينا ❋ ومن عُرفت قصائده اجتلابا

ورد الفرزدق (ت: 110 هـ):

(البحر الكامل)

إن استراقك يا جرير قصائدي مثل ادعائك سوى أبيك تنقّل

تكشف هذه النقائض عن تناصّ حواريّ صريح؛ فكل بيت لا يكتمل معناه إلا بمعرفة سياقه التّداولي لقول الخصم والسّياق الشّعري الذي يرد عليه[17].

(16) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، ط2 (القاهرة: مطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1966)، 3: 131–132.

(17) القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، د.ت.)، 214.

وذهب أبو هلال العسكري (ت: نحو 395 هـ) إلى أنّه لا غنى للكتّاب والشعراء عن تناول معاني السابقين، «والصّبّ على قوالب من سبقهم»، لكن قيمة اللّاحق تظهر في إعادة صياغتها وإكسائها ألفاظًا جديدة وزيادة حسن التأليف. وعبّر عن مشروعيّة إعادة المعنى بقوله: «لولا أنّ الكلام يُعاد لنفد»[18]، ويقترب هذا التّصوُّرُ من مفهوم الامتصاص والتّحويل؛ إذ لا تكون العلاقة بالنّصّ السّابق نقلًا حرفيًّا بالضرورة، بل إعادة إنتاج.

وقد رُوى عن خلف الأحمر (ت: 180 هـ) أنه رفض أن يأذن لأبي نواس (ت: 198 هـ) بنظم الشعر قبل أن يحفظ ألف مقطوع للعرب، ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة... وما إن حفظها حتى طلب منه أن ينسى ما حفظ وما إن نسيها حتى قال له: «الآن انظم الشعر»[19].

وأكّد ابن رشيق القيرواني (ت: 456 هـ) اتّساع باب السّرقات، وقال: «إنّه باب لا يستطيع شاعر أن يدّعي السلامة منه»[20].

وظهرت إلى جانب مصطلح (السّرقات) مصطلحات نقدية وبلاغيّة أخرى لا تحمل بالضّرورة حكمًا سلبيًّا، مثل الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، والتضمين، وحلّ المنظوم، وعقد المنثور، والإشارة، والتلميح، وغيرها؛ فقد عرّف ابن رشيق (ت: 456 هـ) التضمين بأنّه: إدخال بيت أو جزء منه في شعر الشّاعر على وجه يعرف موضعه ووظيفته[21].

وميّز عبد القاهر الجرجاني (ت: 471 هـ) بين المعنى المشترك الذي لا يختصُّ به شاعر، وبين الصّورة التي تتحوّل فيها الفكرة العامّة إلى معنى خاص بواسطة الكناية والتعريض والرّمز والتلويح؛ فالحكم بالتّداخل لا يقوم على

(18) ينظر: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البيجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، ط1 (بيروت: دار إحياء الكتب العلمية، 1952)، 196.

(19) ينظر: محمد بن مكرم (ابن منظور)، أخبار أبي نواس: تاريخه، نوادره، شعره، مجونه، تحقيق محمد عبد الرسول إبراهيم (القاهرة: مطبعة الاعتماد، 1924)، 55.

(20) أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط5 (بيروت: دار الجيل، 1981)، 2: 280.

(21) ينظر: المصدر نفسه، 2: 84.

الاشتراك في فكرة عامة مثل الشجاعة أو الكرم أو فناء الدنيا، بل على الخصائص التي أحدثها السّابق في بناء المعنى وصورته[22].

وهذا الضابط مهمّ في تطبيق التّناص؛ لأنّ مجرّد تشابه موضوعين لا يثبت علاقة نصّية بينهما، بل لا بد من قرائن لفظيّة، أو تركيبيّة، أو قصصيّة، أو وظيفيّة تدل على الاستدعاء. وعليه يمكن ترتيب قوّة القرائن التناصيّة بحسب مقدار خصوصيّتها واجتماعها؛ فمجرد الاشتراك في معنى عامّ أضعف من أن يدلّ بمفرده على وجود التّعالق، كما أنّه يقوّي الاحتمال بوجود توافق لفظيّ مخصوص، ويزداد هذا باجتماعه مع تركيب أو ترتيب دلاليّ متقارب. فكلّما أمكن ردّ التّشابه إلى المشترك اللّغويّ والثّقافيّ العامّ ضعفت دلالته على وجود التّناصّ الخاصّ، وكلّما اجتمعت عناصر مخصوصة في سياق متقارب قويت دلالة العلاقة النّصّيّة.

وعرّف الخطيب القزوينيّ (ت: 739 هـ) الاقتباس بأنّه: تضمين الكلام شيئًا من القرآن أو الحديث من غير التصريح بأنّه منه[23]. وعرّف التّضمين بأنّه: إدخال شيء من شعر الغير في الشعر، مع التّنبيه إلى قائله حين لا يكون مشهورًا[24]. وجعلوا التلميح إشارة إلى قصّة أو شعر من غير ذكره صراحة. ومن أمثلة التلميح قول الشاعر[25]:

(البحر الكامل)

الْمُسْتَغيثُ بِعَمْرٍو عِنْدَ كُرْبَتِهِ كَالْمُسْتَغيثِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنّارِ

فالبيت يستدعي قصّة كليب واستغاثته بعمرو بن الحارث، ويستدعي المثل السائر: «كالمُسْتَجيرِ مِنَ الرّمْضاءِ بِالنّارِ» من غير سرد القصة. ولا يستوفي المُتلقي دلالته إلا إذا استحضر القصّة والمثل معًا.

(22) ينظر: عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ط1 (بيروت: دار الكتب العلمية، 2001)، 240.

(23) ينظر: جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط1 (بيروت: دار الكتب العلمية، 2002)، 312، 316.

(24) ينظر: المصدر نفسه، 316.

(25) ينظر: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق نصر الله حاجي، ط1 (بيروت: دار صادر، 2004)، 173.

وقدّم ابن خلدون (ت: 808 هـ) تصوُّرًا دقيقًا لطريقة تكوّن الملكة الأدبيّة؛ إذ جعل كثرة حفظ الشّعر والنّثر أصلًا لاكتساب الأسلوب، ثمّ بيّن أنّ الألفاظ المحفوظة قد تُنسى وتبقى طرائق التّركيب في النّفْس: «كأنّها منوال يُؤخذ بالنّسج عليه»[26]. وهذا وصف مبكر لعمل الذاكرة النّصّيّة الضمنيّة؛ فقد ينتج الأديب كلامًا جديدًا من غير أن يقصد نقل نصّ بعينه، لكنّه ينسج على أنماط ترسخت بكثرة الحفظ، وهذا ما فطن إليه خلف الأحمر فيما يُروى عنه مع أبي نواس في القصة الآنفة الذكر.

ويمكن تلخيص العلاقة بين مصطلح (التّناصّ) اللّسانيّ الحديث وبين ما ورد في التّراث العربي القديم أنّهما يلتقيان في الاعتراف بأنّ النّصَّ اللّاحق يتّصل بالسابق، وأنَّ قيمة الإبداع قد تنشأ من التّحويل لا من ابتداع المعنى من عدم؛ غير أنّ بينهما فروقًا واضحة، لعلَّ أبرزها يكمن في[27]:

1. لا يهتم التناصّ بالحكم بالقيمة، أما السّرقات فتقوم على الحكم بالقيمة.
2. لا يهتم التّناصُّ بالوظيفة الجماليّة، أما السّرقات فتقوم على تتبع الوظيفة الجمالية.
3. وتأسيسا على العنصرين السابقين، انتفى عن التّناص النّظر إلى ظواهر استثنائية، أما السّرقات فتقوم على ظواهر شديدة الاستثنائية.
4. تتّسع نظريات التناص الحديثة للخطابات الاجتماعية والأنواع والأعراف الثّقافية، ولا تقتصر على النّصوص الأدبيّة المحفوظة، أما السّرقات فقد تحدّدت بشكل صارم في الشعر.
5. يتأسّس التّناصُّ على أنّ التداخل بين النّصوص السّابقة واللّاحقة حتميٌّ وغير إراديّ وغير واعٍ، فلا تتوفّر له رفاهية الاختيار والانتقاء، أما السّرقات فهي فعل إراديّ؛ إذ تقوم في الغالب على انتقائية شديدة الخصوصية.

(26) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، ط1 (دمشق: دار يعرب، 2004)، 2: 401.

(27) ينظر: عيد بلبع، أكذوبة التناص: مراجعات أسلوبية في السرقات الشعرية، ط1 (طنطا: دار النابغة للنشر والتوزيع، 2019)، 18–19.

6. يقوم التناص –بشكل ما– على إلغاء العبقريّة الفرديّة وما يتعلق بها من استثناء وابتكار، أما السّرقات فتؤسَّس على خصوصيّات العبقرية الفرديّة في ابتكار الأساليب الخاصة.

7. ارتبطت الرؤية التّراثية للسّرقات الشّعرية بالبعد الأخلاقي التي تؤكده كلمة السّرقة؛ بينما يهتم التحليل اللساني بوظيفة العلاقة في إنتاج المعنى.

8. لم تعبأ رؤية التّناصّ بخصوصية الأسلوب، فرؤيتها تمتد لتشمل استعمال اللغة بشكل عام وبلا استثناءات.

وحاصل ما يمكن أن ننتهي إليه من هذا التتبُّع أن الاقتباس والتَّضمين والتلميح والمعارضة والنقائض والسَّرقات وغيرها من الألفاظ ذات العلائق المشتركة مع (التناص)، تمثل أصولًا وظيفيّة جزئية له، ولا تمثل النّظرية الحديثة بجميع حدودها. ولا يصحُّ القول إنّ (السرقات) ترجمة قديمة (للتناص)، ولا إنّ التناص يلغي مفاهيم التّراث، فثمّة علائق واضحة بين المصطلحين، كما أنّ ثمّة فروقا لا تخطئها عين الدّارس المدقِّق.

4 ـ التناصّ والخصوصية القرآنية: إشكالات المفهوم ومنهجية التطبيق

لا يستقيم تطبيق التّناصّ على القرآن الكريم بإطلاق المصطلح على عواهنه –ناهيك عن مصطلح السرقات– لأنّ في خلفيّته الفلسفيّة ما يُصادم عقيدة المسلم في مصدريّة النّص القرآني: فالقرآن كلام الله المنزَّه عن الأخذ من نصوص البشر، وليس نتاجَ ذاكرة ثقافية تتسرّب إلى مؤلف بشريّ، ليشكل النّصُّ اللّاحق امتدادا لنصوص سابقة يتفاعل معها، إما بإعادة إنتاجها، أو بتحديثها، أو بتوظيفها في سياق جديد، وقد استقر في وعينا الجمعي أن التّناص هو: «أن يمثل النّص عملية استبدال من نصوص أخرى»[28]، وهذا لا يستقيم مع نظرة المسلم إلى قدسيّة النّص القرآني بوصفه غير مسبوق، ولا هو مقتبس من كتب سابقة كما ورد في دعاوى بعض المستشرقين[29].

(28) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1992)، 212.

(29) ذهب فريق من المستشرقين، منذ أبراهام غايغر(Abraham Geiger)، إلى تفسير أوجه

وإذا ما نظرنا إلى التّناصّ في لسانيات النّص، سنجد أنه ليس مجرد اقتباس نصِّي، بل قد يكون باتباع أعراف جنس خطابيّ أو أدبيّ[30]، وحتى في هذه الحالة فإنّ الخطاب القرآني تميّز بجدّة الهيئة الخطابية التي جاء عليها، فجاء بجنس خطابي جديد لم تعهده العرب، وهذا ما تنبّه إليه علماء إعجاز القرآن في التراث العربي. يقول الرّماني (ت: 384 هـ): «وأمّا نقض العادة، فإنّ العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة: منها الشّعر، ومنها السّجع، ومنها الخطب، ومنها الرسائل، ومنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث؛ فأتى القرآن

التشابه بين القرآن الكريم والمرويات الدينية السابقة في ضوء فرضية التأثر والاقتباس؛ فعمدوا إلى ردّ عدد من القصص والمفاهيم القرآنية إلى مصادر يهودية أو مسيحية. وقد ظهر هذا الاتجاه في دراسات هارتفيغ هيرشفلد (Hartwig Hirschfeld)، ووليم سانت كلير تيسدال (William St. Clair Tisdall)، وتور أندريه (Tor Andræ)، وريتشارد بيل(Richard Bell)، وهاينريش شباير (Heinrich Speyer)، وتشارلز كاتلر توري (Charles Cutler Torrey)، ثم اتخذ صورة أكثر جذرية لدى جون وانسبرو(John Wansbrough) . غير أن الدراسات الغربية المعاصرة، كما تتجلى في أعمال أنجيليكا نويفرت (Angelika Neuwirth) وغابرييل سعيد رينولدز (Gabriel Said Reynolds)، تجاوزت إلى حدٍّ ما لغة «الاقتباس» و«التأثير»، واتجهت إلى دراسة القرآن الكريم ضمن شبكة من العلاقات التناصية والثقافية التي عرفتها بيئة العصور القديمة المتأخرة، مع الإقرار بخصوصية الخطاب القرآني في إعادة تشكيل المرويات السابقة وبنائها وفق مقاصده العقدية والدلالية والبلاغية. ومع ذلك، فإن مجرد التشابه بين النصوص لا يُعدّ دليلًا كافيًا على الاقتباس المباشر؛ إذ قد يرجع إلى وحدة المصدر الديني، أو إلى تراث ثقافي مشترك، أو إلى التداول الشفهي للمرويات، فضلًا عن أن القرآن الكريم يصرّح بتصديقه للكتب السابقة وهيمنته عليها. للاطلاع على بعض المراجع التي ردت على تلك المزاعم انظر مثلا: سامي عامري، هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى؟، ط2 (الكويت: مركز رواسخ، 2018)؛ محمد مهر علي، مزاعم المستشرقين حول القرآن الكريم (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1421هـ/ 2000م)؛ محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم: عرض تاريخي وتحليل مقارن، ترجمة محمد عبد العظيم علي، مراجعة السيد محمد بدوي، ط5 (الكويت: دار القلم، 2003)؛ عبد الرحمن بدوي، دفاع عن القرآن ضد منتقديه (القاهرة: دار الجيل، 1997)؛ محمد السيد راضي جبريل، «مصدر القرآن الكريم في رأي المستشرقين: عرض ونقد»، في ندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1427هـ/ 2006م)؛

Muhammad Mohar Ali, *The Qur'an and the Orientalists*: *An Examination of Their Main Theories and Assumptions* (Ipswich, UK: Jam'iyat Ihyaa' Minhaaj al-Sunnah, 2004)؛ Muhammad Mustafa Al-Azami, *The History of the Qur'anic Text*: *From Revelation to Compilation*: *A Comparative Study with the Old and New Testaments* (Leicester: UK Islamic Academy, 2003).

(30) Robert-Alain de Beaugrande and Wolfgang Ulrich Dressler, *Introduction to Text Linguistics* (London: Longman Group Limited, 1981), 9–10.

بطريقة مفردة خارجة عن العادة، لها منزلة في الحسن تفوق به كلَّ طريقة»[31]، وهذا ما أكده الباقلاني (ت: 403 هـ) بقوله: «إنّ نظم القرآن على تصرّف وجوهه، وتباين مذاهبه، خارجٌ عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومُباينٌ للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختصّ به، ويتميّز في تصرّفه عن أساليب الكلام المعتاد»[32].

وما نخلص إليه أنّ رفض الخلفية الفلسفية للتناص، وإقرار الخصوصية الدِّينية للنص القرآني، لا يلزم عنه رفض الأداة الوصفية؛ فالمنهج الأمثل -الذي تستخلصه الدّراسة- هو تكييف المفهوم مع التقيّد بأربعة ضوابط:

- **أولها**: أن التعالق المدروس تعالقُ تصديقٍ وهيمنة لا تعالق أخذ واستمداد، فالقرآن جاء: ﴿**مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾ [المائدة: 48].
- **وثانيها**: أنّ أخصب ميادين الدّرس هو التناصُّ الداخلي بين آي القرآن وسوره، وله أصل قرآني هو الحديثُ عن الكتاب بكونه: ﴿**مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ**﴾ [الزمر: 23] وأصل علميّ تراثيّ هو مباحث الآيات المتشابهات وعلم توجيه المتشابه اللّفظيّ عند القدماء، مثل الخطيب الإسكافي (ت: 420 هـ) في «درة التنزيل» والكرماني (ت: بعد 531 هـ) في «البرهان في توجيه متشابه القرآن». وغيرهم.
- **وثالثها**: أن استحضار الخطاب القرآني أقوال المخالفين وإدراجها في بنيته، ثم محاورتها وتصحيحها أو تفنيدها، يتيح الإفادة من مفهوم (الحواريّة) عند باختين في وصف العلاقة الحجاجية بين الأقوال، من غير أن يقتضي ذلك تساوي الأصوات أو استقلالها داخل الخطاب القرآني؛ إذ تظل هذه الأقوال منقولة ومؤطَّرة بسلطة الخطاب الإلهيّ.
- **ورابعها**: إدخال النّصوص اللاحقة الشّارحة (السنّة، أسباب النزول، أقوال المفسرين) في شبكة التعالق بوصفها امتدادًا تأويليًّا للنّص لا مصدرًا له.

(31) أبو الحسن علي بن عيسى الرّمّاني، النكت في إعجاز القرآن، تحقيق عبد الله عباس النّدوي، ط1 (بيروت: دار الكتب العلمية، 2020)، 32.

(32) أبو بكر محمد بن الطيب الباقلّاني، إعجاز القرآن، تحقيق أحمد صقر، ط5 (القاهرة: دار المعارف، 1997)، 35.

إن دراسة التناص في الخطاب القرآني، لا يراد بها ردُّ القرآن إلى نصوص سابقة، أو المساس بقدسيته وأصالته واستقلاله، وإنّما الكشف عن الكيفية التي يستحضر بها أقوال المخاطَبين ومعتقداتهم، والنّصوص والخطابات المستقرّة في ذاكرتهم الدينية والثقافية.

تذهب باربرا جونستون Johnstone Barbara (2008م) في حديثها عن التناصّ والتداخل الخطابي؛ إلى أنَّ الخطاب يستند إلى صيغ ونصوص مألوفة، وإلى أساليب وطرائق في الفعل سبق استعمالها، وإلى حبكات معروفة(33)، ثم يعيد توجيهها وإدماجها في بنائه الدّلالي والحجاجي بما يخدم مقاصده، ومن ثم يغدو التّناص آليةً دلاليّةً وتداوليّةً تصل الخطاب بمعارف المتلقي السَّابقة، وتستثير ذاكرته النّصية، وتعينه على بناء المعنى وإدراك أبعاده.

5 ـ من تجليات التّناصّ في سورة الزُّمَر:

أولا: التّناصّ الدّاخلي بين سورة الزّمر وسور القرآن الكريم:

ينطلق هذا المبحث من أنّ القرآن الكريم وحدة نصّيّة متماسكة، صادرة من مشكاة واحدة، تتآزر سوره وآياته في بناء منظومة دلاليّة يفسّر بعضُها بعضًا، وقد ربط تمام حسّان بين مقولة السّلف: «القرآن يفسّر بعضه بعضًا» ومبدأ التّناصّ في علم النّصّ؛ لما يقوم عليه من تكافل أجزاء النّصّ الواحد، وتضافر النّصوص في إيضاح مقاصد بعضها بعضًا. وأشار إلى إفادة المفسّرين من هذا المبدأ، حين فسّروا بعض الآية ببعضها، وفسّروا الآية بما ورد في آية أخرى من إشارة أو عبارة(34).

ومن ثمّ، فإنّ المعاني والأفكار الواردة في سورة الزّمر لا تنحصر داخل حدود السورة، بل تتعالق مع نظائرها في مواضع متفرقة من القرآن الكريم، فتتكرّر بصيغ وسياقات ووظائف متنوعة، لا على سبيل التّكرار المحض، وإنما بقصد البيان والتّوكيد والتّفصيل واستكمال الدلالة.

(33) See: Barbara Johnstone, *Discourse Analysis*, 2nd ed. (Malden, MA: Blackwell Publishing, 2008), 191.

(34) ينظر: تمام حسّان، البيان في روائع القرآن: دراسة لغوية أسلوبية للنص القرآني (القاهرة: عالم الكتب، د.ت.)، 2: 323.

ومما توارثناه من أقوال السلف عبارة «القرآن يفسر بعضه بعضا»، وهي عبارة يصدقها علم اللسانيات الحديث، وبخاصة ما يسمى من فروعه علم النص (لسانيات النَّص)؛ فالباحثون المحدثون في علم النص يصرون على قيام التكافل بين أجزاء النص الواحد وعلى إمكان التضافر بين نص ونص بحيث يوضح أحدهما مقاصد الآخر، ويسمون ذلك مبدأ التناصintertextuality ؛ فالنص الواحد بهذا يفسر بعضه بعضا كما يمكن لنص أن يفسر نصا آخر بما يلقيه عليه من ضوء كاشف يحدد مقاصده بعد خفائها. ولقد انتفع مفسرو القرآن الكريم بهذا المبدأ بتطبيقه في الأغلب الأعم من المواضع، ففسروا بعض آية ببعضها الآخر كما فسروا آية بما اشتملت عليه آية أخرى من إشارة أو عبارة.

وللتناصّ في الخطاب القرآنيّ مقاصد وأغراض، لعلّ من أبرزها[35]:

1. أن تكون الآية عامّة، أو ربما يلتبس فهمها على بعض المتلقّين؛ فيأتي الموضع الثّاني لتجلية معناها، فالتّناصّ هنا يوضّح المعنى الغامض ويزيل الالتباس.
2. وجود ضمير يحتاج إلى بيان مرجعه، فيأتي دور التّناصّ ليذكّرنا بآية أخرى فيها الضّمير نفسه، أو الكلمة نفسها، حيث تتضمّن الإشارة إلى المرجع الذي يرجع إليه الضمير.
3. أن يقع في آيةٍ ما شيء من الإجمال الّذي يحتاج إلى تفصيل.
4. أن يرِد في سياقٍ ما سؤال يحتاج إلى الجواب، فيأتي التّناصّ مرشدًا إلى النّصّ الّذي يجيب عن ذلك السّؤال.

ولما كان استقصاء جميع الآيات التي تتناصّ معها آيات السّورة في النّصّ القرآنيّ كلّه يقتضي بحثًا مستقلًّا، فسوف يقتصر هذا المبحث على نماذج مختارة تكشف أبرز صور التّناصّ الدّاخليّ ووظائفه في ترابط المعاني وإحكام البناء الدّلاليّ.

(35) ينظر: يسري نوفل، المعايير النصية في السور القرآنية: دراسة تطبيقية مقارنة، ط1 (القاهرة: دار النابغة للنشر والتوزيع، 2014)، 174.

1.5. التّناصّ الدّاخليّ بين آيات سورة الزّمر نفسها:

• ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ**﴾ [الزمر: 2]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالحَقِّ**﴾ [الزمر: 41]. والفرق بين التعبيرين يكمن في:

أوّلًا: في استعمال (إلى) التي تفيد الانتهاء في الآية: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالحَقِّ**﴾، واستعمال (على) التي تفيد الاستعلاء في الآية: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالحَقِّ**﴾[36].

ثانيًا: في إضافة لفظ (للنّاس) في الآية: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالحَقِّ**﴾. فعند التأمّل في التّعبيرين يتبيّن أنّ الآية الكريمة في الموضع الأوّل قرّرت أنّ اللهَ تعالى أنزل إلى نبيّه صلى الله عليه وسلم الكتاب، وانتهى الوحي به إليه من خلال جبريل عليه السّلام، وفرّع عليه: ﴿**فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ**﴾ [الزمر: 2]، بينما تتضمّن الآية في الموضع الثّاني الإنزالَ على النّبيّ والتّبليغ للنّاس، ولا شكّ أنّ تبليغ الدعوة وأحكامها إلى النّاس كافّة صعب وشاقّ، فاستعمِلت (على) الاستعلائيّة لبيان هذه المشقّة.

فلو استُعمل حرف (إلى) في الموضع الثّاني لكان التعبير: (إنا أنزلنا إليك الكتاب للنّاس بالحقّ)، وهنا قد يقع اللّبس في ذهن المتلقّي؛ لأنّ اللّام تفيد هنا معنى الاختصاص، وقد تلتبس بـ(إلى) الّتي تفيد انتهاء الغاية. قال ابن الزبير الغرناطيّ (ت: 708 هـ): «واللّام الجارّة في قوله: (للنّاس) تفيد الاختصاص، وترادِف كثيرًا لفظة: (إلى)، تقول: الأمر لزيدٍ، والأمر إلى زيدٍ»[37].

• ومن التّناصّ الدّاخليّ بين آيات السورة الكريمة نفسها ما يستوقف القارئ في جملة: ﴿**فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**﴾ [الزمر: 71] بدون حرف الواو في سياق سَوْق الذين كفروا إلى النّار، ووجودها مع سَوْق المتّقين إلى الجنّة: ﴿**فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**﴾ [الزمر: 73]. وهذا تناصّ ولّد كثيرًا من الأقاويل الّتي لا تستند إلى قواعد علميّة، مثل: القول بواو الثّمانية، وبأنّ الواو وردت في سياق أهل الجنّة؛ لأنّ للجنّة ثمانية

(36) ينظر: طاهر بن أحمد (ابن بابشاذ)، شرح المقدمة المحسبة، تحقيق خالد عبد الكريم، ط1 (الكويت: المطبعة العصرية، 1977)، 1: 236–237.

(37) أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الثقفي (ابن الزبير الغرناطي)، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه من آي التنزيل، تحقيق عبد الغني محمد علي الفارسي (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.)، 2: 424.

أبواب[38]. وهذا الكلام لا يرتضيه المنطق اللّغويّ الذي جاء القرآن على معهوده، وإنّما التّوجيه اللّغويّ السّليم الذي يتوافق مع المنظومة اللّغويّة ومع المنظومة القرآنيّة أنْ يقال: الواو في قوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**﴾ حالية، أي: جاؤوها والحال أنّها قد فُتحت أبوابها[39]. وهذا يتوافق مع تقرير القرآن في مواضع أخرى بأنّ أبواب الجنّة مفتّحة: ﴿**جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ**﴾ [ص: 50]. أمّا حذف الواو مع سوْق الّذين كفروا إلى جهنّم، فالتّعبير جاء على الأصل، أي: أنّ الذين كفروا حين جاؤوا جهنّم، فُتحت أبوابها الموصَدة المغلقة الّتي قال عنها القرآن في سورة الهمزة: ﴿**إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ 9**﴾ [الهمزة: 8-9]. وقال عنها في سورة البلد: ﴿**عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ**﴾ [البلد: 20].

يتبيّن بوضوح من خلال ما سبق أنّ الخطاب القرآنيّ لا يكرِّر المعنى نفسه أو العبارة ذاتها لأجل التّكرار أو التوكيد فقط، وإنّما يتكرّر الكلام في سور القرآن بحيث تحمل كلّ جملة تشبه أختها معنًى إضافيًّا جديدًا لا تحمله الجملة الأولى أو المناظِرة لها، وهذا ما يجعل التّناصّ سواء داخل السّورة الواحدة أو بين السّوَر من وسائل إثراء النّصّ القرآنيّ وتوسيع دلالاته وتركيبه ونظْمه.

• ﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى**﴾ [الزمر: 5]. تعدّ هذه الآية من صور التّناصّ الدّلاليّ داخل السّورة؛ نظرًا إلى اتّصال قوله تعالى: ﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ...**﴾ [الزمر: 5] بقوله سبحانه في أواخرها: ﴿**اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾ [الزمر: 62]؛ فالموضع الأوّل يفصّل بعض مظاهر الخلْق والتّدبير في الكون، ثمّ يعيد الموضع الثّاني هذه الدّلالة في قضيّة كلّيّة جامعة: ﴿**اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾. ومن ثمّ تقوم العلاقة بين النّصّين على حركة من التفصيل إلى الإجمال؛ إذ تتكثّف الشّواهد الكونيّة المتعدّدة في حكم عقديّ جامع، حتّى صار النّصّ اللّاحق مستوعبًا لما فصّله النّصّ السّابق، بذلك يتّصل طرفٌ متقدّم من السّورة بطرف متأخّر منها في بناء دلاليّ واحد.

(38) ينظر: محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، تحقيق محمد آيدين، ط1 (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، 2001)، 3: 871.

(39) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ط1 (بيروت: دار ابن حزم، 2021)، 9: 677.

2.5. التّناصّ الدّاخليّ بين آيات سورة الزّمر وسوَر القرآن الكريم:

• ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى**﴾ [الزمر: 3]. تورد الآية قول المشركين داخل الخطاب القرآني، ثم تجيب عَنه: ﴿**إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾. وهذا تناصّ حواريّ ظاهر؛ لأنّ السورة تضمّنت صوت الخصم، ولم تكتفِ بوصف موقفه من الخارج. وترتبط مقولتهم هذه، بما أورده الله تبارك وتعالى على لسانهم في قوله: ﴿**هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ**﴾ [يونس: 18]، وكذلك بقوله على ألسنتهم: ﴿**لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ**﴾ [الزخرف: 20]. وتكشف المواضع الثلاثة شبكة الحجج الوثنية: التقريب، والشفاعة، والاحتجاج بالمشيئة. وقد أشار ابن عاشور (ت: 1393 هـ) إلى تنوّع الوسائط المعبودة بين الأصنام والملائكة والجنّ، مع اجتماعها في دعوى القرب من الله[40]. والوظيفة النّصّيّة لهذا التضمين هي بناء الحجاج على لسان الخصم نفسه؛ فالسّورة لا تنسب إليه ما لم يقله، ثم تكشف تناقض اعترافه بالله مع صرف العبادة إلى غيره.

• ﴿**خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ [الزمر: 6]. فهذه الآية من التناصّ الواقع بين سورة الزمر وغيرها من سور القرآن الكريم؛ حيث تكرّر ذكر هذا المعنى في سورة النساء، فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ [النساء: 1]. وورد كذلك في سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾ [الأعراف: 189]. صحيح أنّ هذه الآيات متشابهة في ظاهرها باستثناء بعض الألفاظ أو العبارات، لكنَّ هذا النّوع من التّناصّ بين هذه الوحدات الكلاميّة القرآنيّة يبرّره المقصد من كلّ آية أوّلًا، ثمّ يبرّره الفرق في المعنى بين الفعلين (خلقَ) و(جعلَ).

فمن معاني الفعل (خلق) في المعجمات العربية: الإيجاد والإنشاء من عدم. جاء في تاج العروس: «الخلق في كلام العرب على وجهين: الإنشاء على مثال أبدعه، والآخر: التّقدير، وكلّ شيء خلقَه الله فهو مبتدئه على غير مثال سُبق إليه»[41]. أمّا الفعل (جعل) فله معانٍ متعدّدة منها: الصّنع، والتّصيير، والشّروع،

(40) المصدر نفسه، 9: 559.

(41) ينظر: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق

والخلْق. قال الرّاغب (ت: 502 هـ): «(جعل): لفظ عام في الأفعال كلها وهو أعم من فعل وصنع وسائر أخواتها»[42].

يتبيّنُ أنَّ الفعل (جعل) في آية سورة الزّمر: ﴿**ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾، الجعل هنا مرحلة بعد الخلق غالبًا؛ فالخلْق أقدم وأسبق. قال تعالى مخاطبًا سيّدنا إبراهيم عليه السّلام: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**﴾ [البقرة: 124]؛ أي: صيّره إمامًا وليس خلقه إمامًا؛ ولذلك كلّ تعبير مثل: (جعل زوجها) يكون بعد الخلْق. وأمّا في آية سورة النّساء فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ [النساء: 1]، فالخلْق هنا هو خلْق حواء من ضلع آدم عليه السّلام كما ورد في الآثار[43]. بينما قوله: ﴿**وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾ فواضح أنه صيّر لكلّ نفْس زوجها، والمراد: قَرْن نفْس بنفْس بعملية التزاوج. جاء في بحر العلوم: «يعني: من نفس آدم وجعل منها زوجها يعني: خلق من نفس آدم من ضلع من أضلاعه اليسرى زوجته حواء ليسكن إليها يعني: ليطمئن إليها ويجامعها»[44]. والشّأن نفسه في سورة الزّمر، حيث إنّ المراد بالجعل هو الخلْق والتّصيير، قال ابن الزّبير الغرناطيّ (ت: 708 هـ): «العبارة بـ(خلقَ) واردة على ما ينبغي ومطابِقة للمعنى المقصود، وهو المراد بـ(جعلَ) إلّا أنّ (جعل) ثانية عنها لتوقّف الجعْل على ... موجود مغاير للمجعول يكون منه المجعول، أو عنه كالمادّة والسّبب، ولا يرد في الكتاب العزيز لفظ (جعل) في الأكثر مرادًا به الخلْق إلّا حيث يكون قبله ما يكون عنه الجعْل أو منه سببًا فيه ... بخلاف (خلقَ) فإنّ العبارة تقع كثيرًا به عمّا لم يتقدّم وجودَه وجودٌ مغايرٌ يكون عنه هو الثّاني، وقلَّ ما تقع واحدة من العبارتين في القرآن على خلاف ما ذكرناه»[45].

مجموعة محققين (الكويت: وزارة الإرشاد والأنباء، 1965–2001)، مادة «خلق».

(42) أبو القاسم حسين بن محمد الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان داوودي، ط4 (دمشق: دار القلم، 2022)، مادة «جعل».

(43) ينظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي وآخرين، ط1 (المدينة المنورة: دار الإمام مسلم للنشر والتوزيع، 2023)، 1: 446.

(44) ينظر: أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي، بحر العلوم، تحقيق مجموعة محققين، ط1 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1993)، 1: 328.

(45) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل، 1: 97–98.

وأمّا ورود (جعل) في آية الأعراف ... فلمّا قصد هنا من معنى السّكن، وكأنّه أريد نفي المغايرة تقريبًا وتأنيسًا لحصول الرّكون والسّكن الّذي جعله الله من آياته ونعمه؛ لتستحكم سببيّة التّناسل والتّكثير فكانت (جعلَ) أوقع في هذا الغرض ... وعبّر في سورة النّساء بـ(خلقَ) لمقصود الآية من التّعريف بالأوّليّة والابتداء، ولمناسبة ما اتّصل بها من قوله: (خلقكم)، حتّى يوافقه من اللّفظ ما قصد من المعنى»[46].

• ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: 7]. وترد هذه القاعدة الربانية القائمة على العدل والإنصاف بعد قوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر: 7]، كما أنها ترد في مواطن أخرى من القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: 164]، وفي سورة الإسراء: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: 15]، وهنا تتضح معالم العدل في القاعدة الربانية فليس الأمر متعلقا بأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، بل لا يحصل التعذيب إلا بعد إرسال الرسل للإنذار والإعذار، ويتكرر النص في القرآن في مواطن أخرى مثل الآية الثامنة عشرة من سورة فاطر: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: 18]، إلى أن يسجل هذه القاعدة في الآية الثامنة والثلاثين من سورة النجم على أنها متناصة مع ما ورد في الكتب والصحف الأخرى عند الأقوام والرسل الآخرين: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى 36 وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى 37 أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [النجم: 36-38]

• ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزمر: 38]؛ إذ تستحضر الآية إقرار المشركين بأنَّ الله خالق السماوات والأرض، مع عبادتهم من

(46) المصدر نفسه، 1: 97-98.

دونه ما لا يملك ضرًّا ولا نفعًا[47]. وتتكرّر هذه النواة الحجاجيّة في سور العنكبوت ولقمان والزخرف، من خلال صيغة الشّرط والسّؤال والجواب، غير أنّ كلّ موضع يعيد توجيهها بما يلائم سياقه؛ ففي سورة العنكبوت أُضيف إلى تسخير الشّمس والقمر، ثم أعقب الإقرارَ استفهامُ التعجيب والإنكار: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾ [العنكبوت: 61]؛ بيانًا لبُعد انصرافهم عن التوحيد. وفي سورة لقمان جاء قوله: ﴿**قُلِ الحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [لقمان: 25]؛ كاشفًا تناقضهم بين الاعتراف لله بالخلقَ وإشراك غيره في العبادة. وفي سورة الزخرف أضيف إلى الإقرار ووصف الخالق بالعزّة والعلم: ﴿**خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ**﴾ [الزخرف: 9]، في مقابلة ما عليه أصنامهم من العجز وانتفاء العلم[48]. وتبلغ الحجّة غايتها في سورة الزمر؛ إذ ينتقل الخطاب من إقرارهم بأنّ الله هو الخالق إلى سؤالهم عن قدرة معبوداتهم على كشف الضر أو إمساك الرحمة، فيغدو إقرارهم مقدّمةً لإبطال عبادتها، وهذا الانتقال «تفريع الإلزام على الإقرار، والنتيجة على الدليل»[49]. وتنتهي المحاجّة إلى قوله: ﴿**قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المُتَوَكِّلُونَ**﴾ [الزمر: 38]؛ لأنّ المتفرّد بالخلق والتصرّف هو وحده المستحقّ للعبادة والتوكّل.

• ﴿**فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ 49 قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾ [الزمر: 49-50].

تصرّح السّورة الكريمة نفسها بوجود نصّ سابق لهذه المقالة، وأقرب نماذجه قول قارون: ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي**﴾ [القصص: 78]. ولم تأت آية الزمر بلفظة (عندي)، فانتقلت العبارة من مقولة فرْد تاريخيّ إلى صيغة نفسية متكرّرة يقولها الإنسان المغرور بالنعمة. ولذلك تعدّ الآية مثالًا لاستعادة القول السّابق، ثم وضعه ضمن سنّة تاريخيّة تشمل (الّذين من قبلهم). وقد صرّح ابن عاشور (ت: 1393 هـ) بأنّ قارون داخل في أصحاب هذه المقالة، مع عدم انحصارها فيه[50].

(47) ينظر: إسماعيل القرشي الدمشقي (ابن كثير)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، ط1 (دمشق: مكتبة الفيحاء؛ الرياض: مكتبة دار السلام، 1994)، 4: 71.
(48) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 10: 135.
(49) ينظر: المصدر نفسه، 9: 636.
(50) ينظر: المصدر نفسه، 9: 651.

ولا تسرد سورة الزمر قصّة قارون كاملة، لكنها تستدعيها بعبارة: ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ**﴾. وهذا قريب من «التّلميح» في البلاغة العربيّة؛ إذ تكفي الجملة لاستحضار القصّة لمن يعرف موضعها في سورة القصص. وتُلَمّح الآية الثّالثة إلى منظومة الوساطة والشّفاعة الوثنيّة من غير سرد تاريخ كلّ صنم أو قبيلة. كما تستدعي آيات النّفخ والحشر والكتاب مشهد القيامة المعروف من مواضع كثيرة. ويسمح هذا الاقتصاد للسّورة بالتركيز على مقصدها الحجاجيّ بدل إعادة القصص بتفاصيلها.

وهكذا، يؤدّي التّناصّ هنا وظيفة تتجاوز استحضار القول السّابق إلى تعميم الأنموذج القصصيّ؛ فما صدر في سورة القصص عن شخصية معيّنة: ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي**﴾ [القصص: 78]، يُجرَّد في سورة الزمر من هذا التعيين ومن ملابسات قصّته، ليصبح مقولة إنسانيّة قابلة للتّكرار والاستحضار: ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ**﴾ [الزمر: 49]، ثمّ يؤكّد النّصّ امتداد هذا النّمط بقوله: ﴿**قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾ [الزمر: 50]. وبذلك ينتقل التّناصّ من استدعاء حادثة جزئيّة إلى الكشف عن سنّة نفسيّة وعادة سلوكيّة عامّة، تتمثّل في نسبة الإنسان النّعمة إلى عِلمه واستحقاقه، والغفلة عن كونها ابتلاء من الله تعالى.

• ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ**﴾ [الزمر: 68]. فقد جاء الحديث عن النّفخ في الصّور في سورة الزّمر مقترنًا مع الصَّعق الّذي يُصيب مَن في السّماوات ومَن في الأرض. وجاءت الآية المشابهة لها في سورة النّمل، لتقارن بين النَّفخ والفزع: ﴿**وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ**﴾ [النمل: 87]. وهنا نجد أنّ التّناصّ عمل على إكمال المشهد بين السّورتين، حيث إنّ آية سورة النّمل تحدّثت عن الفزع الّذي يصيب النّاس حين وقوع النّفخة الأولى، وفعل (فزعَ) فيها يتّسق ويتوافق مع استعمال الفزع في موضع آخر من السّورة نفسها، وهو قوله: ﴿**وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ**﴾ [النمل: 89].

بينما آية سورة الزمر تحدّثت عن الصّعق الّذي يصيب النّاس بعد الفزع، ثمّ تأتي بعد نفخة الصّعق النّفخةُ الثّانيةُ الّتي يقوم النّاس بعدها من قبورهم؛ ﴿**ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ**﴾ [الزمر: 68]، فالحديث عن النّفخ فالصّعق

في سورة الزّمر يتناسب مع الحديث عن النّفخ فالقيام بعد ذلك. وعلاوة على هذا، فإنّ لفظ (الصّعق) من معانيه: الموت والهلاك، وقد جاء منسجمًا مع ألفاظ الموت الواردة في سورة الزّمر، مثل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30]، و: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: 42]. قال الكرماني (ت: بعد 531 هـ) في سياق حديثه عن آية سورة النمل: «خُصّت هذه السّورة بقوله: ﴿فَفَزِعَ﴾ موافقة لقوله: ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾، وخُصّت سورة الزّمر بقوله: ﴿فَصَعِقَ﴾ موافقة لقوله: ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾، لأنّ معناه مات»[51].

2. **تضمّن خواتيم السّورة الكريمة حوارات تقع يوم القيامة:**

- سؤال خزنة جهنم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: 71]. جواب أهل النار: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾.

- خطاب أهل الجنة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: 73].

- قول المؤمنين: ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزمر: 74].

لا تمثل هذه الحوارات اقتباسًا من نصّ سابق، لكنها تحقق الحواريّة وتعدد الأصوات داخل السّورة، وتصل المطلع بالخاتمة؛ فدعوة الدّين الخالص في أول السّورة تنتهي إلى افتراق المخاطبين إلى زمرتين في آخرها. ويرتبط حوار أهل النار بقوله تعالى في سورة الملك: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ 8 قَالُوا بَلَى﴾ [الملك: 8-9]، ويرتبط استقبال أهل الجنة بقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: 32]. وبذلك يُستكمل المشهد الأخرويّ من خلال شبكة من الحوارات القرآنية المتجاوبة.

كما أنّ هناك تشابها حاصلا بين قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الزمر: 71]، وبين قوله سبحانه في سورة الأنعام: ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الأنعام: 130]، والذي يلحظه الباحث أنّ آية الزّمر والأنعام هي في سياق يوم القيامة، والسّؤال توجّهه خزَنة النّار إلى الّذين كفروا

(51) محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، تحقيق السيد الجميلي، ط1 (القاهرة: مركز الكتاب للنشر، د.ت.)، 137.

في سورة الزّمر، وهو موجّه إلى معشر الجنّ والإنس في سورة الأنعام، واللّافت للانتباه استعمال الفعل: (يتلون) في الزّمر، والفعل: (يقصّون) في الأنعام.

وهذا النّوع من التّناصّ يندرج **(أوّلًا)** ضمن باب التّأكيد؛ إذ إنّ تكرير الفكرة الواحدة أو الموضوع الواحد في عدد من المواضع يؤكّده ويقرّره في الأذهان.

(ثانيًا) استعمال الفعلَين: (تلا) و(قصَّ) ليس من قبيل التّنويع فقط، بل يستعمل الفعل (قصَّ) في اتّباع الأثر واقتفائه، وفي قصِّ الخبر، أي: روايته باتِّباع كلّ تفاصيله[52]. والقِصّة تكون مرويّة شفويًّا، وتكون مكتوبة، فالفعل (يقصّون) مستعمل في معناه العامّ، وهو يتناسب مع خطاب معشَر الجنّ والإنس في سورة الأنعام.

(ثالثًا) الفعل: (قصّ) ورد في سورة الأنعام مرة أخرى في قوله تعالى: ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ**﴾ [الأنعام: 57]، بينما الفعل: (تلا) يعني: الاتّباعَ، ومنه: متابعة قراءة الحروف. جاء في لسان العرب: «جاءتِ الخيلُ تَتالِيًا، أَي: مُتَتابعَة ... وتلا إذا اتَّبع، فهو تالٍ، أَي: تابع ... وتلَوْت القُرآن تلاوَةً: قرأْته»[53]. والتلاوة لا تكون إلّا مع المكتوب؛ من هنا جاء استعمال الفعل: (يتلون) الّذي هو أخصّ من حيث المعنى في سياق الحديث مع الّذين كفروا فقط أثناء سوقهم إلى جهنم: ﴿**أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ**﴾. فالتّناصّ بين هاتين السّورتين أدّى وظيفة تعميم الخطاب في سورة الأنعام، وتخصيصه في سورة الزّمر.

• تفتتح السّورة بقوله تعالى: ﴿**تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ الله العَزِيزِ الحَكِيمِ**﴾ [الزمر: 1]. وتتكرّر الصّيغة نفسُها مع اختلاف يسير في مفتَتح سورة غافر: ﴿**تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ الله العَزِيزِ العَلِيمِ**﴾ [غافر: 2]، وتتكرّر بشكل حرفيّ في مفتَتح كلّ من الجاثية، والأحقاف: ﴿**تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ الله العَزِيزِ الحَكِيمِ**﴾ [الجاثية: 2]، ﴿**تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ الله العَزِيزِ الحَكِيمِ**﴾ [الأحقاف: 2]. ويجعل هذا التكرار السّور ضمن

(52) ينظر: مجمع اللغة العربية بالشارقة واتحاد المجامع اللغوية العلمية بالقاهرة، المعجم التاريخي للغة العربية، ط1 (الشارقة: منشورات القاسمي، 2023)، مادة «قصص».
(53) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ابن منظور)، لسان العرب، تحقيق مجموعة محققين، ط17 (بيروت: دار صادر، 2017)، مادة «ت. ل. و».

عائلة نصّيّة تؤكّد المصدر الإلهيّ للكتاب، وصفات العزّة، والحكمة، والعلم. مع الإشارة إلى أنّ سورة الزمر الوحيدة من السّور الآنفة الذِّكر لم تفتتح بالحروف المقطّعة (حم)، لكنّها كانت المدخل لها، لتتوالى سور (آل حم) بعدها في تناسب المطالع بشكل يدعو إلى التأمّل والتّدبّر فيما بين هذه السور من وشائج وعلائق ليس المجال هنا مجال تفصيل فيها. وتكتسب (العزّة) وظيفة حجاجيّة في ردّ دعوى الشّرك، بينما تمنع (الحكمة) أن يُفهم التفرّد بالعبادة على أنّه أمر مجرّد من الغاية.

• ﴿**أَلَا لله الدِّينُ الخَالِصُ**﴾ [الزمر: 3]، ﴿**قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي**﴾ [الزمر: 14]. حيث تتفاعل الآيتان مع قوله تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ**﴾ [البينة: 5]، ومع تصوير المشركين عند الشدة: ﴿**دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [العنكبوت: 65]. وتكشف المقارنة مفارقة حجاجيّة؛ فالإخلاص الذي يعرفه المشرك في حالة الخوف ينبغي أن يتحوّل إلى موقف عقديّ دائم، لا أن يبقى استجابة مؤقّتة نتيجة للخطر.

• ﴿**خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ**﴾ [الزمر: 6]. حيث تتضح (الأزواج الثمانية) بالرجوع إلى آية الأنعام: ﴿**ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ المَعْزِ اثْنَيْنِ... وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ البَقَرِ اثْنَيْنِ**﴾ [الأنعام: 143-144]، وهي الذكَر والأنثى من الضأن، والمعز، والإبل، والبقر. فالموضع اللاحق لا يحتاج إلى إعادة التفصيل؛ لأن الذاكرة القرآنية تستحضره، والتناص الداخليّ بين نصوص القرآن أداة تساعد على هذا الاستحضار.

• ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الأَلْبَابِ**﴾ [الزمر: 21]. ترسم الآية صورة دورة تبدأ بإنزال الماء، ثم سلوكه ينابيع في الأرض، ثم إخراج الزرع واختلاف ألوانه، ثم هيجانه واصفراره وتحوّله إلى حطام. وتتفاعل هذه الصورة مع قوله تعالى: ﴿**كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا**﴾ [الحديد: 20]. تختلف الوظيفة في الموضعين؛ ففي الحديد تضرب الصورة مثلًا للحياة الدنيا، وفي الزّمر تدخل

في الاستدلال على القدرة والإحياء وفي الموعظة: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾. فالصورة الواحدة تتحرك بين سياقين وتكتسب وظيفة جديدة.

وقد تحدَّث ابن الزبير الغرناطي (ت: 708 هـ) عن التشابه الواقع بين ﴿**ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا**﴾ [الزّمر: 21]، وبين ﴿**ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا**﴾ [الحديد: 20]، يقول: «إنّ آية الزمر افتتحت بقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا**﴾ فنسب سبحانه كلّ حالة من تقلّبات الزّرع وتنقّلاته من لدن خروجه ونباته وما بعد ذلك إلى تخلّصه، إلى نفسه، .... فالله هو الذي أنزل من السّماء ماء، وهو الذي سلكه ينابيع في الأرض وهو الذي أخرج به الزرع، فناسب أن يقول: ﴿**ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا**﴾؛ لأنّ الذي أخرجه هو الذي يجعله حطامًا .... وأمّا آية الحديد فوردت مثالًا للدنيا وابتداء غرورها وصغو الكافر الغافل إلى ذلك، وإعراضه عن سرعة تقلُّبها وزوالها وفنائها، فلما قصد هنا المثال ناسب هذا المقصود قوله: ﴿**ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا**﴾؛ إذ لم يتقدّم في أول الآية النسبة للفاعل»[54]. «ومعنى هذا أنّه في آية الحديد لم يسند الفعل المتقدّم فيه إلى الله، فيستند إليه ما بعده، وإنما هو: ﴿**كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا**﴾. فلم يسند حدثًا إلى نفسه سبحانه، فناسب ذلك أن يقول: ﴿**ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا**﴾»[55]. وكثيرًا ما تتناصّ الآيات التي تتحدّث عن إنزال الماء من السماء مع الآيات التي تتحدّث عن الحياة الدّنيا، كما في قوله تعالى: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا**﴾ [الكهف: 45][56].

• ﴿**أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ**﴾ [الزمر: 22]. تتناص هذه الآية داخليًّا مع قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ**﴾ [الأنعام: 125]. وقد نبّه ابن كثير (ت: 774 هـ) إلى الصلة بين الآيتين، ففسّر شرح الصدر في آية الأنعام بتيسير الإنسان للإسلام وتنشيطه لقبوله، ثم أحال

(54) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل، 2: 426.
(55) ينظر: محمد فاضل صالح السامرائي، البيان القرآني في الآي المتشابهة: نماذج مختارة من كتاب ملاك التأويل، ط2 (دمشق: دار ابن كثير، 2019)، 113.
(56) ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، 4: 66.

إلى آية الزمر، وبيّن في تفسيرها أن صاحب الصدر المنشرح يقابَل بقاسي القلب البعيد عن الحق[57]. غير أنّ آية الأنعام تقابل انشراح الصدر بضيقه وحرجه، في حين تقابل سورة الزمر بين صاحب الصدر المنشرح وقاسي القلب؛ وبذلك تتّسع الدّلالة، فيغدو شرح الصدر سعةً وقبولًا للهداية من جهة، ونورًا ولينًا يقابلان القسوة من جهة أخرى.

ومن وجهة نظر أدقّ، فإنّ العلاقة بين الموضعين لا تقوم على إعادة المعنى فقط، بل على إعادة تشكيل بنية التّقابل نفسها؛ فآية الأنعام تقابل: ﴿**يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ**﴾ بـ﴿**يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا**﴾، أمّا سورة الزّمر فتستبقي على صورة شرح الصّدر، ثمّ تظهر بالطرف المقابل صورة: ﴿**وَالقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ**﴾. وهكذا لا يعيد النّصّ اللّاحق سابقَه إعادة حرفيّة، بل يحافظ على أحد طرفَي البنية ويعيد بناء الطّرف الآخر، فتتكامل الصّورتان في تصوير حالتَي الهداية والضّلال.

• ﴿**اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ**﴾ [الزمر: 23]. تمثل الآية خطابًا واصفًا للقرآن من داخله؛ فهي (خطاب فوقيّ) أو ميتالُغويّ بالمعنى العامّ، وليست (ميتانصًّا) بالمفهوم الدّقيق عند جينيت (ت: 2018م)؛ لأنّ الميتانصّ عنده تعليق نصّ مستقلّ على نصّ آخر. وتفسّر (متشابهًا) بتشابه أجزائه في الحقّ والصدق وعُلُوّ اللّغة، و(مثاني) بتثنية المعاني والقصص والوعد والوعيد وتكرارها على وجوه متجدّدة. ومن ثمّ تجعل الآية العلاقات الدّاخليّة بين المواضع القرآنيّة خاصّية بنائيّة مقصودة، لا تكرارًا عديم الوظيفة[58].

3. ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**﴾ [الزمر: 30]. يتصل هذا الخطاب بقوله: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾ [آل عمران: 144]، وقوله: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ**﴾ [آل عمران: 185]، [الأنبياء: 35]، [العنكبوت: 57]، ثم تربط السّورة الموت بالنّوم: ﴿**اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا**﴾ [الزمر: 42]، وهو معنى يتّصل بقوله: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ**﴾ [الأنعام:

(57) ينظر: المصدر نفسه، 4: 66.

(58) ينظر: محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عبد الرزاق المهدي، ط2 (بيروت: دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، 2001)، 4: 125.

60]. وبذلك تتحوّل الخبرة اليوميّة بالنّوم إلى دليل قريب على الإمساك والإرسال والبعث.

• ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الزمر: 42]. تتجاوب آية النّوم مع قوله تعالى في الأنعام: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: 60]. يضيف سياق الزّمر التفصيل بين الإمساك والإرسال، ويجعل النّوم شاهدًا على القدرة والبعث. وقد جمع المفسّرون بين الآيتين في تقرير تشبيههما للنّوّام بالأموات[59]، فكلّ آية تفسّر أختها، ولا يكتمل مذهب أهل التفسير في قبض الأرواح إلا بضمّ النّصّين. فهذا تناصّ تفسيريّ وظيفته التكامل في فهم النّصوص.

• ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾ [الزمر: 53]. ترتبط الآية بسياق التوبة في قوله بعدها: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: 54]، وتتفاعل مع الفرقان: 68–71، حيث تتحوّل السّيّئات إلى حسنات لمن تاب وآمن وعمل صالحًا. كما تفسّرها الرواية التي أوردها البخاريّ عن الرسول صلى الله عليه وسلم «أن ناسا من أهل الشرك، كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزَنَوْا وأكثروا، فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم، فقالوا: إنَّ الذي تقول وتدعو إليه لَحَسَنٌ، لو تخبرنا أنَّ لما عملنا كفّارة، فنزل ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾، ونزل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾». [60] وهذا التفاعل يمنع اقتطاع آية الرّجاء عن سياق الإنابة، ويوازنها مع آيتي النساء: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 48]، ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 116]. وكلا الآيتين متعلقتان بالموت على الشرك من غير توبة.

(59) ينظر: أبو حيان محمد بن يوسف الغرناطي الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، ط1 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1993)، 7: 414.

(60) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري (مصر: المطبعة الأميرية الكبرى، 1311 هـ)، حديث رقم 4810.

• ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: 67]. تتفاعل الصورة مع قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: 104]، بينما تتّصل عبارة ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ بآية الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 91]، وآية الحج: ﴿مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 74]. وقد روى البخاريّ (ت: 256 هـ) حديث الحَبْر الذي ذكر قبض السماوات والأرض، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قرأ آية الزّمر، والرواية تمثل تناصًّا تفسيريًّا لاحقًا يبين تلقّي الآية في السّنّة، ولا تمثل سببًا سابقًا لنزول السّورة المكّيّة(61).

• ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 29]. تعرض الآية تناصًّا للفكرة المبثوثة في نصوص قرآنيّة أخرى، لتصوّر مستوى الحالة والعلاقة النفسيّة والاجتماعيّة بين العبد ومتبوعه، وما ينشأ عنها من تشتّت وحيرة، ففي سورة الأنبياء مثلًا؛ يرتفع هذا المنطق الذّهنيّ إلى مستوى إدارة الكون والنّظام الوجوديّ؛ إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 22]، وقوله: ﴿إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: 91]. وفي السياق الوجدانيّ ذاته، يتناصّ هذا المثل المضروب في سورة الزّمر مع الموازنة العقليّة، والسّؤال التّقريريّ الذي أوردته آية سورة يوسف عليه السّلام في قوله تعالى: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ [يوسف: 39]؛ ليكتمل بذلك خيط برهانيّ متّصل داخل النّصّ القرآنيّ الكريم، ينطلق من واقع الشركة المتنازعة في المعاملات البشريّة اليوميّة، مرورًا بالتّشتّت النّفسيّ للإنسان الذي يستقبل أوامر متضاربة، وصولًا إلى البرهان الكونيّ على وحدانية الخالق جلّ في علاه.

• ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: 31]. تتناصّ هذه الآية الكريمة مع عدد من الآيات المتشابهة، والتي تدلّ على نفس المعنى، مع فوارق بسيطة بينها، منها: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

(61) ينظر: المصدر نفسه، حديث رقم 4811.

[يونس: 93]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ﴾ [النمل: 78]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: 25]، وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: 124]، لكنّه في هذه الآيات استعمل لفظ (ربك)، وفي آية الزّمر استعمل (ربكم)؛ فهو لم يضف الربّ إلى ضمير المخاطب إذا كان المخاطب مشتركًا مع غيره في الفصل والقضاء أو الاختلاف، بأن يكون واحدًا منهم، وإنما يضيفه إلى ضمير المخاطبين أو يأتي بلفظ الجلالة (الل هـ)؛ وذلك لأنّ لفظ الجلالة لا يخصّ واحدا دون آخر، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: 164]، وقوله: ﴿اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج: 69]، وذلك لأن المخاطب مشترك معهم في الاختلاف[62].

يتبيّن لنا بعد استقراء النماذج السّابقة أنّ التّناصّ الدّاخليّ في سورة الزّمر لا ينتظم في صورة واحدة؛ فمنه تناصّ لفظيّ يستعيد التّركيب أو جزءًا منه، وتناصّ دلاليّ تتّحد فيه النّواة المعنويّة مع اختلاف الصّياغة، وتناصّ مشهديّ تُستعاد فيه صورة أو واقعة قرآنيّة بعناصرها الرئيسة، وتناصّ حجاجيّ تتكرّر فيه بنية الدّليل وطريقة إلزام المخاطب، وتناصّ قصصيّ يُستدعى فيه قول أو حدث سابق ليعاد توظيفه في سياق جديد. وتتعدّد وظائف هذه الأنماط بين الإجمال والتفصيل، والتفسير والبيان، والتوكيد، واستكمال المشهد، وإعادة بناء الحجّة، وتعميم الأنموذج الخاصّ. ومن ثم لا يمثّل التّناصّ في السّورة الكريمة مجرّد تشابه بين عدّة نصوص متفرّقة، وإنّما يسهم في وصل بنيتها الخاصّة بشبكة القرآن الدّلاليّة الكبرى، مع احتفاظ كلّ موضع بخصوصيّته الّتي يفرضها سياقه ومقْصده.

6. التّناصّ الخارجيّ بين سورة الزّمر وكلام العرب:

أنزل الله تبارك وتعالى القرآن على سَنن لسان العرب، وعلى وفْق معهود كلامهم، فما خرج عمّا يعرفه العرب الفصحاء قيد أنملة؛ وليس يعني ذلك أنّه فقط جاء بألفاظ يعرفونها، بل إنّ كثيرًا من التّراكيب اللّغويّة العربيّة جاء النّظم القرآنيّ على وَفقها، وهذا يمثّل تقاطعًا بين لغة التّنزيل ومعهود أشعار العرب وخُطَبهم

(62) ينظر: فاضل صالح السامرائي، مراعاة المقام في التعبير القرآني، ط2 (دمشق: دار ابن كثير، 2019)، 53.

ومنثور كلامهم، وهو ممّا يمكن إدراجه ضمن التّناصّ الخارجيّ أو الاعتياديّ بالمعنى الواسع القائم على تقاطع النّصّ مع الرّصيد اللّغويّ والثّقافيّ السّابق عليه. ومن أمثلة ذلك من تعابير سورة الزّمر:

المثال الأوّل: المركّب الإضافيّ «صدق الوعْد»، حيث جاء في قوله تعالى: ﴿**الحَمْدُ لله الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ**﴾ [الزمر: 74]. وقد استعمل العرب أيضًا هذا التّركيب فِي أشعارهم، ومن ذلك قول حاتم الطّائيّ (ت: 46 ق. هـ)، مفتخرًا ومعدِّدًا مناقبه(63):

(البحر الرجز)

وشيمَتي البَذْلُ وصِدقُ الوَعْدِ وأشْتَري الحَمْدَ بفِعْل الحَمْدِ

وهذا من شواهد كون المركّب «صدق الوعد» مألوفًا في اللّسان العربيّ السّابق على التّنزيل.

المثال الثّاني: قال تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ**﴾ [الزمر: 5]. والعرب كانوا يعرفون تسخير الشّمس، بل كانوا يذكرون ذلك في أشعارهم، ومن هذا ما جاء في مسائل نافع بن الأزرق (ت: 65 هـ) لابن عباس (ت: 68 هـ) رضي الله عنهما: «قال: يا ابن عباس، أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿**مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ**﴾ [البقرة: 189]، قال: في عدّة نسائهم، ومحلّ دينهم، وشروط النّاس. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: أما سمعت الشّاعر يقول(64):

(البحر البسيط)

والشّمسُ تَجْري عَلى وقْتٍ مُسخَّرةً إذا قضَت سفرًا واستقبلَت سفرًا

والشّاهد في هذا أنّ ابن عبّاس رضي الله عنهما استشهَد ببيت فيه حديث عن تسخير الشّمس، وهذا يُعَدّ من التّناصّ الخارجيّ؛ ممّا يكشف عن ورود هذا المعنى في الرّصيد اللّغويّ والشِّعريّ للعرب؛ إذ يتقاطع التّعبير القرآنيّ مع

(63) ينظر: أبو يحيى بن مدرك الطائي، ديوان حاتم الطائي، تحقيق حنّا نصر، ط1 (بيروت: دار الكتاب العربي، 1994)، 102.

(64) ينظر: مسائل نافع بن الأزرق، تحقيق محمد الدالي، ط1 (د.م.: الجفّان والجابي للطباعة، 1993)، 196.

معهود لغتهم، بما يدلّ على أنّ العرب في فترة تنزّل الوحي كانوا على علم باللّغة والأساليب التي يخاطبهم بها القرآن الكريم.

المثال الثّالث: قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ [الزمر: 7]، وقال في الآية نفسها: ﴿**ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾. في هذا المثال يتقاطع المعنى مع قول زهير بن أبي سلمى (ت: 13 ق. هـ) في معلّقته[65]:

(البحر الطويل)

فلا تَكْتمَنَّ اللهَ ما في نفوسِكمُ ❊ ليَخْفى، ومَهْما يُكتمِ اللهُ يعلمِ
يؤخَّرْ فيوضَعْ في كتابٍ فيُدَّخَرْ ❊ ليومِ الحساب أو يُعجَّلْ فيُنقَمِ

والتّقاطع هنا لا يقف عند حدود لفظ مفرد أو تركيب منعزل، بل يشمل بنية دلاليّة متكاملة؛ إذ يجتمع في النّصّين إسناد العِلم إلى الله، واطلاعه على ما يستتر في باطن الإنسان، ثمّ اتّصال ذلك بالعمل وما يترتّب عليه من حساب وجزاء. فقول زهير: «ما في نفوسكم... الله يعلمِ» يلتقي دلاليًّا مع قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ**﴾، ثمّ يتّسع التّقارب في البيت التّالي بذكر الكتاب ويوم الحساب وتعجيل الجزاء أو تأخيره، في مقابل تقرير الآية الكريمة الرّجوع إلى الله والوقوف على حقيقة الأعمال: ﴿**ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾. **ومن ثمّ يمثّل الشّاهد صورة مركّبة من التّناصّ الخارجيّ، تتجاوز التّوافق المعجميّ إلى الاشتراك في شبكة من المعاني المتّصلة.**

وقد رأى ابن قتيبة في هذين البيتين دلالةً على إيمان زهير بالبعث، فقال: «وكان زهير يتألّه ويتعفّف في شعره، ويدلّ شعره على إيمانه بالبعث»[66]. كما ربط ابن كثير بين قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ [هود: 5] وبين بيتي زهير، فقال: «وما أحسن ما قال زهير بن أبي سُلمى في معلّقته المشهورة»، ثم أورد البيتين، وبيّن أنّهما يدلان على إقرار الشاعر بعلم الله بالسرائر، وبالمعاد والجزاء، وبكتابة

(65) ينظر: الأعلم الشنتمري، شعر زهير بن أبي سلمى، تحقيق فخر الدين قباوة، ط3 (بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1980)، 18.

(66) عبد الله بن مسلم (ابن قتيبة الدينوري)، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر (القاهرة: دار المعارف، 1982)، 1: 139.

الأعمال في الصحف ليوم القيامة[67]. وبعد هذا فلا غرابة من أن يمتدح عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الشاعر زهير بن أبي سلمى ويقول فيه: «كان لا يعاظل بين الكلام، ولا يتّبع وحشيَّه، ولا يمدح الرجل إلّا بما فيه»[68].

المثال الرّابع: قال تعالى: ﴿**ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ**﴾ [الزمر: 8]. فقد عرفَت العربيّة اقتران «التّخويل» بالنّعم وما يمنحه الله للإنسان، ومن ذلك قول الأفوه الأوديّ (ت: 61 ق. هـ)، في ذكر الصّديق ذي الخلّة[69]:

(البحر الكامل)

الله خوَّلَه حياةً ما لها كدرٌ وعيشًا طابَ في الأَلواذِ

فههنا تقاطعٌ بين النّصّين يقوم على مادّة «خوّل» ودلالتها على المنْح والإنعام، مع إسناد هذا التّخويل في كليْهما إلى الله تعالى؛ فالقرآن الكريم يقول: ﴿**خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ**﴾، والشّاعر يقول: «الله خوَّله حياةً». ويبيّن هذا التّقارب أنّ استعمال الفعل في معنى الإنعام لم يكن غريبًا عن المعجم العربيّ السّابق على التّنزيل، وأنّ النّظم القرآنيّ جاء به في بناء حجاجيّ يصوِّر تناقض الإنسان الذي يلجأ إلى ربّه عند الضّرّ، ثمّ ينسى مصدر النّعمة بعد أن يُخوّله الله إيّاها.

المثال الخامس: قال تعالى: ﴿**وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر: 10]. إذ إنّ عبارة: «أرض الله واسعة» وما تتضمّنه من تصوير سعَة الأرض ممّا يجري على ألسنة العرب في شِعرهم ونثرهم، ومن ذلك قول النّعمان بن المنذر(ت: 13ق. هـ)[70]:

(البحر البسيط)

(67) ينظر: أبو الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي (ابن كثير)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق علي شيري (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1995)، 4: 706.

(68) محمد بن سلّام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر (القاهرة: دار المعارف، 1952)، 52.

(69) ينظر: الأفوه الأودي، ديوان الأفوه الأودي، تحقيق محمد ألتونجي، ط1 (بيروت: دار صادر، 1998)، 69.

(70) ينظر: أبو عبد الله حسين بن أحمد الزوزني، شرح المعلقات السبع، ط1 (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2002)، 159.

فالْحَقْ بحيث رأيتَ الأرضَ واسِعةً وانْشُربهاالطَّرفَإنْعرْضًاوإنْطولًا

فالبيت يتقاطع مع التّعبير القرآنيّ في بناء صورة «الأرض الواسعة»، غير أنّ النّظم القرآنيّ قد أضاف الأرض إلى الله تعالى في قوله: ﴿**وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ**﴾، وجعل هذه السّعَة مقدّمة لمقتضى دينيّ يتّصل بالصّبر والهجرة في طَاعة الله؛ فاستثمَر صورة مألوفة في اللّسان العربيّ، وأعاد توجيهها داخل سياقه العقديّ والتّكليفيّ الخاصّ.

المثال السّادس: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ**﴾ [الزّمر: 70]، وهذا المعنى نجده حاضرا في الأبيات التي رويت عن الشاعر المخضرم لبيد بن أبي ربيعة (ت: 41 هـ)، وهي من الأبيات التي رويت له قبل إسلامه، وهو يرثي النعمان بن المنذر (**ت: 13ق. هـ**)[71]:

(البحر الطويل)

وكل أمرئ يوما سيعلم إذا كشفت عند الإله المحاصل

ولا يخفى أن الشاعر لبيد من الشعراء المخضرمين، إلا أنّ شعره كان في فترة ما قبل إسلامه (الجاهلية)، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم (**ت: 11 هـ**) أنّه قال: «أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[72]. وهي من ذات القصيدة التي أوردنا منها البيت السّابق.

هذه الأمثلة القرآنيّة وما يقابلها من أبيات شعريّة من شعر الفترة المتقدّمة على نزول القرآن الكريم، هي من التّناصّ الخارجيّ في عرف لسانيّات النّصّ، وهي من وسائل إحكام النّصّ القرآنيّ وانسجامه وتوافقه مع العقليّة العربيّة في فترة نزول الوحي، أي: أنّ سورة الزّمر ـ ومثلها جميع سوَر القرآن الكريم ـ قد لقيت قبولًا لدى المتلقّي العربيّ؛ لأنّها على وَفْق لسانهم أُنزلت، وعلى معهود عباراتهم نُسِجت، وخاطبتهم من خلال ثقافتهم ومعارفهم وظروف حياتهم.

(71) لبيد بن أبي ربيعة العامري، ديوان لبيد بن أبي ربيعة، تحقيق حمدو طمّاس، ط1 (بيروت: دار المعرفة، 2004)، 85.

(72) أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم (الرياض: بيت الأفكار الدولية، 1998)، 927، حديث رقم 3-2256.

كما تكشف تلك الشّواهد الشِّعريّة ـ على تفاوت درجات التّقارب بينها وبين النّصّ القرآنيّ ـ عن جانب من التّناصّ الخارجيّ في السّورة الكريمة؛ إذ تتقاطع بعض تراكيب سورة الزّمر وصورها الدّلاليّة مع رصيد لغويّ وثقافيّ كان متداولًا في كلام العرب السابق أو القريب من عصر التّنزيل. ولا يعني ذلك أنّ النّظم القرآنيّ قد كرّر تلك التّراكيب بدلالاتها السّابقة، بل استوعبَ المألوف اللّغويّ وأعادَ تشكيله داخل نظامه الدّلاليّ الخاصّ؛ حيث أصبحت العبارة المألوفة جزءًا من بناء عقديّ وحجاجيّ وأخرويّ أشمل وأتمّ.

1.6. الحواريّة: (استحضار خطاب الآخر ومحاورته هـ):

﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى**﴾ [الزمر: 3]. ضمَّنت السورة خطابَ خصومها في نسيجها، فحكت حجّة المشركين المركزيّة في عبادة الوسائط بلفظهم ومنطقهم، ثم فنَّدتها؛ وحكت دعواهم في: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ**﴾ [الزمر: 38]، وأقرَّتهم على مقدّمتها لتنقضهم بها، وحكت قولة الإنسان إذا خوَّله الله نعمةً: ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ**﴾ [الزمر: 49]، وردّ عليها بمصير قارون ومن قالها قبله. فالسورة (بمصطلح باختين) نصٌّ لأصوات مؤطَّرة: صوتُ الوحي يستدعي أصوات المخالفين إلى ساحته فيحاورها ويحاكمها؛ وهذا الاستحضار أمانةٌ في النقل وقوةٌ في الحجاج، إذ لم تُحاكَم دعاوى الخصوم غائبةً بل أُحضرت بنصّها.

2.6. التّناصّ القائم على التّداخل الثّقافيّ والبيئيّ:

1. **صورة التّكوير:** قال تعالى: ﴿**يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ**﴾ [الزمر: 5]. وأصل التكوير لفّ الشيء على الشيء، كتكوير العمامة. فتستدعي الآية خبرة مادّيّة مألوفة في البيئة العربيّة، ثمّ تنقلها إلى تعاقب اللّيل والنّهار. ولا يتعلّق الأمر باقتباس نصّ مكتوب، بل بتحويل مخزون حسّيّ وثقافيّ إلى صورة كونيّة[73].

(73) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 9: 565.

2. **البيئة الرّعويّة**: تستدعي ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ عالَم الأنعام الذي تقوم عليه جوانب من حياة العرب الاقتصاديّة والغذائيّة، فيجتمع التّناصّ القرآنيّ مع المعرفة الرّعويّة المشتركة.

3. **البيئة الزّراعيّة**: تعتمد آية الماء والزّرع والحطام على ملاحظة تعاقب حياة النّبات، واختلاف ألوان الزّروع، ثمّ اصفرارها. وتحوّل هذه الخبرة المشاهدة إلى بنية استدلاليّة على البعث، وإلى موعظة بشأن سرعة التّحوّل والفناء.

4. **مثال العبد ذي الشّركاء**: قال تعالى: ﴿**ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا**﴾ [الزمر: 29]. ينقل المثل خبرة اجتماعيّة واقتصاديّة معلومة: عبدٌ تتنازعه أوامر شركاء مختلفين، وآخر خالص لسيّد واحد. ثمّ يُحوّلها إلى حجّة على فساد الشِّرك وراحة التّوحيد. فهذا تداخل بين الخطاب العقديّ والخطاب الاجتماعيّ، لا تناصّ مع نصّ سابق بعينه. وتعمل صيغة: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ بوصفها قالبًا حجاجيًّا عربيًّا قائمًا على نفي التّسوية بين المتضادَّين.

وقد أشار المفسّرون إلى هذه الخلفيّة صراحة؛ «هو بين جماعة مالكين متشاكسين، يعني مختلفين متنازعين، سيّئة أخلاقُهم. وكلّ واحد منهم يستخدمه بقدر نصيبه وملكه فيه»، وقال ابن زيد: «أرأيت الرجل الذي فيه شركاء متشاكسون كلّهم سيّئ الخلُق، ليس منهم واحد إلّا تلقاه آخذًا بطرف من ماله لاستخدامه»[74]. وكانت الشركة في العبيد نظامًا سائدًا معروفًا في الجاهليّة والإسلام، يدلّ عليه حديث النّبيّ صلى الله عليه وسلم (ت: 11 هـ) : «من أعتق شركًا له في عبد، فكان له مال يبلغ ثمَن العبد، قوّم العبد قيمة عدل، فأعطى شركاءه حصصهم، وعتق عليه، وإلّا فقد عتق منه ما عتق»[75]. ما يدلّ على أنّ صورة العبد المشترك بين أسياد كانت من الوقائع الشائعة المُعاشة الّتي يعرفها كلّ عربيّ.

(74) ينظر: الطبري، جامع البيان، 20: 199.
(75) البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم 2522.

وقريب من معنى الآية ما أورده ابن هشام (ت: 218 هـ) في السيرة من شعر «زيد بن عمرو بن نفيل، في فراق دين قومه، وما كان لقي منهم بعد ذلك: أرباً واحداً، أم ألف ربٍّ، أَدينُ إذا تُقسمت الأمور»[76]

5. **مشهد السّوق والتّناصّ مع عادات وأعراف العرب: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ العَذَابِ عَلَى الكَافِرِينَ (71) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى المُتَكَبِّرِينَ (72) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾** [الزمر: 71-73]، والسّوْق في أصل استعماله هو لسوْق الإبل و«جلبها وطردها، ... وما يساق من الدّوابّ، وسُقت المَهر إلى المرأة، وذلك أنّ مهورهم كانت الإبل»[77]، وسبقت الإشارة إلى أنّ سوْق الكافرين أفادت الإسراع بهم إلى جهنّم، وطريقة سوْقهم فيها «بالعنف والإهانة أفواجًا متفرّقة بعضها إثر بعض، مرتّبة حسب ترتيب طبقاتهم في الضّلالة والشّرارة»[78]، أمّا في حقّ المتّقين؛ فالسّوق يكون على معهود العرب وعاداتهم فهم يسوقون «مراكبهم التي يركبونها، إذ لا يذهب بهم إلّا راكبين»[79]، وهذا من سنن العرب في استقبالهم الضيوف وإكرامهم لهم، ومن شواهد ذلك أنَّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم (ت: 11 هـ) حينما أدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فأقبلوا عليه «يتنازعون زمام ناقته»، حتّى قال لهم: «دعوا النّاقة فإنّها مأمورة[80]. ويؤيّد ذلك أيضًا قوله تعالى في سورة مريم: **﴿يَوْمَ نَحْشُرُ المُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾** [مريم: 85]؛ قال ابن كثير (ت: 774 هـ): «والوفد: هم القادمون ركبانًا، ومنه الوفود وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدّار الآخرة»[81].

(76) أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، السيرة النبوية، ط3 (بيروت: دار الكتاب العربي، 1990)، 1: 255.

(77) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، 353.

(78) أبو السعود محمد بن محمد العمادي، تفسير أبي السعود المسمّى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ط4 (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1994)، 7: 263.

(79) المصدر نفسه، 7: 264.

(80) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن باز وآخرين، ط1 (الرياض: دار طيبة، 2000)، 7: 307.

(81) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 3: 185.

وهكذا يتضح جليا أنّ التّناصّ في سورة الزُّمَر جاء آليّةً فاعلةً في بناء المعنى وتحقيق الانسجام؛ إذ ربط آيات السّورة بعضها ببعض، ووصلها بشبكة القرآن الدّلاليّة الكبرى، من خلال التّفسير والتّفصيل، والتّوكيد، واستكمال المشاهد، والحُجج. كما استحضر أقوال المخالفين فحاورها وفنّدها، واستثمر ما استقرّ في بيئة المتلقّين وثقافتهم من صورٍ وتعبيرات، ثمّ أعاد توجيهها في بناءٍ عقديّ وحجاجيّ متكامل.

وبذلك لا يقوم التّناصّ فيها على الأخذ أو الاقتباس، بل على تفاعلٍ دلاليّ يُبرز وحدة الخطاب القرآنيّ، ويُعمّق مقاصد السّورة في تقرير التّوحيد والبعث والجزاء.

الخاتمة والنتائج:

تناولنا في هذا البحث التّناصّ بوصفه معيارًا من معايير النّصّيّة وآليّةً من آليّات بناء المعنى وتحقيق الانسجام، ثمّ طبّقناه على نماذج مختارة من سورة الزُّمَر، مع مراعاة خصوصيّة النّصّ القرآنيّ. وقد خلصت الدّراسة إلى النتائج الآتية:

- كشفت الدّراسة عن تقاطع التّناصّ مع عدد من مباحث الموروث البلاغيّ والنّقديّ العربيّ، مثل مفهوم الاقتصاص والسّرقات الأدبيّة والاقتباس والتّضمين والتّلميح والمعارضة والنّقائض، غير أنّ هذه المباحث تمثّل أصولًا وظيفيّة جزئيّة له، ولا تطابقه في حدوده ومنطلقاته وغاياته.
- أظهرت آراء اللغويين والبلاغيين والنقاد العرب القدماء وعيًا مبكّرًا بدرجات الأخذ والتّحويل، وبضرورة التّمييز بين المعاني المشتركة والصّور الخاصّة؛ وهو ما يؤكّد أنّ مجرّد الاشتراك في معنى عامّ لا يكفي لإثبات العلاقة التّناصّيّة ما لم تؤيّده قرائن لفظيّة، أو تركيبيّة، أو دلاليّة، أو وظيفيّة، كما رأينا في آلية الاقتصاص لدى ابن فارس.
- تبيّن أنّ تطبيق مفهوم التّناصّ على القرآن الكريم يقتضي تكييفه ضمن ضوابط تحفظ للنّصّ القرآنيّ مصدريّته الإلهيّة وأصالته وإعجازه، وترفض تفسير علاقاته بالنّصوص والخطابات الأخرى على أساس الأخذ، أو الاقتباس، أو التّبعيّة.

- ظهر التّناصّ الدّاخليّ أخصب مجالات التّناصّ في السورة؛ إذ تعالقت آياتها بنظائرها في سائر القرآن. وتنوّعت صوره بين اللّفظيّ والدّلاليّ والمشهديّ والحجاجيّ والقصصيّ، مؤدّيةً وظائف التّفسير والتّفصيل والتّوكيد واستكمال المشاهد وإعادة بناء الحجج، مع احتفاظ كلّ موضع بخصوصيّة سياقه ومقصده.
- كشفت المقارنة بين بعض تراكيب السّورة وكلام العرب وشعرهم عن تقاطع النص القرآنيّ مع الرّصيد اللّغويّ والثّقافيّ العربي. ولا يدلّ هذا التقاطع على أخذ القرآن من تلك النصوص، بل يؤكّد نزوله بلسان العرب، واستثماره المألوف اللّغويّ والثّقافيّ وإعادة توجيهه داخل بناء عقديّ وحجاجيّ وأخرويّ خاصّ.
- برز التناص مع أقوال المشركين ومعتقداتهم وحججهم، ثمّ ناقشها النّصّ، وكشف تناقضها تحت سلطة الخطاب الإلهيّ. كما حوّلت السّورة خبرات المتلقّين البيئيّة والاجتماعيّة إلى صور دلاليّة واستدلاليّة.
- انتهت الدّراسة إلى أنّ التّناصّ في سورة الزُّمَر لا يقوم على مجرّد التّشابه بين النّصوص، بل يمثّل آليّةً فاعلةً في تحقيق الانسجام، وربط السّورة بشبكة القرآن الدّلاليّة الكبرى، وتعميق مقاصدها في تقرير التّوحيد، وإخلاص العبادة لله تعالى، وإبطال الشّرك، وإثبات البعث والجزاء.

المصادر والمراجع العربية

المراجع العربية

- الأودي، الأفوه. ديوان الأفوه الأودي. تحقيق محمد ألتونجي. ط1. بيروت: دار صادر، 1998.
- ابن بابشاذ، طاهر بن أحمد. شرح المقدمة المحسبة. تحقيق خالد عبد الكريم. ط1. الكويت: المطبعة العصرية، 1977.
- الباقلّاني، أبو بكر محمد بن الطيب. إعجاز القرآن. تحقيق أحمد صقر. ط5. القاهرة: دار المعارف، 1997.

- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري. مصر: المطبعة الأميرية الكبرى، 1311هـ.
- بدوي، عبد الرحمن. دفاع عن القرآن ضد منتقديه. القاهرة: دار الجيل، 1997.
- بلبع، عيد. أكذوبة التناص: مراجعات أسلوبية في السرقات الشعرية. ط1. طنطا: دار النابغة للنشر والتوزيع، 2019.
- بنيس، محمد. الشعر العربي الحديث: بنياته وإبدالاتها. ط3. الدار البيضاء: دار طوبقال للنشر، 2001.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. الحيوان. تحقيق عبد السلام هارون. ط2. القاهرة: مطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1966.
- جبريل، محمد السيد راضي. «مصدر القرآن الكريم في رأي المستشرقين: عرض ونقد». في ندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية. المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1427هـ/ 2006م.
- الجرجاني، القاضي علي بن عبد العزيز. الوساطة بين المتنبي وخصومه. تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي. القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، د.ت.
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن. أسرار البلاغة في علم البيان. تحقيق عبد الحميد هنداوي. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية، 2001.
- الجمحي، محمد بن سلّام. طبقات فحول الشعراء. تحقيق محمود محمد شاكر. القاهرة: دار المعارف، 1952.
- حافظ، صبري. «التناص وإشاريات العمل الأدبي». ألف: البلاغة المقارنة، العدد 4 (1984): 7–31.
- حسّان، تمام. البيان في روائع القرآن: دراسة لغوية أسلوبية للنص القرآني. القاهرة: عالم الكتب، د.ت.
- أبو حيان، محمد بن يوسف الغرناطي الأندلسي. البحر المحيط. تحقيق عادل أحمد عبد الموجود. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية، 1993.
- الخطيب الإسكافي، محمد بن عبد الله. درة التنزيل وغرة التأويل. تحقيق محمد آيدين. ط1. مكة المكرمة: جامعة أم القرى، 2001.

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. مقدمة ابن خلدون. تحقيق عبد الله محمد الدرويش. ط1. دمشق: دار يعرب، 2004.
- دراز، محمد عبد الله. مدخل إلى القرآن الكريم: عرض تاريخي وتحليل مقارن. ترجمة محمد عبد العظيم علي، مراجعة السيد محمد بدوي. ط5. الكويت: دار القلم، 2003.
- دي بوجراند، روبرت. النص والخطاب والإجراء. ترجمة تمام حسّان. ط1. القاهرة: عالم الكتب، 1998.
- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز. تحقيق نصر الله حاجي. ط1. بيروت: دار صادر، 2004.
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم حسين بن محمد. مفردات ألفاظ القرآن. تحقيق صفوان داوودي. ط4. دمشق: دار القلم، 2022.
- ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. ط5. بيروت: دار الجيل، 1981.
- الرّمّاني، أبو الحسن علي بن عيسى. النكت في إعجاز القرآن. تحقيق عبد الله عباس النّدوي. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية، 2020.
- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني. تاج العروس من جواهر القاموس. تحقيق مجموعة محققين. الكويت: وزارة الإرشاد والأنباء، 1965–2001.
- ابن الزبير الغرناطي، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الثقفي. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه من آي التنزيل. تحقيق عبد الغني محمد علي الفارسي. بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.
- الزمخشري، محمود بن عمر. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. تحقيق عبد الرزاق المهدي. ط2. بيروت: دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، 2001.
- الزوزني، أبو عبد الله حسين بن أحمد. شرح المعلقات السبع. ط1. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2002.
- السامرائي، فاضل صالح. مراعاة المقام في التعبير القرآني. ط2. دمشق: دار ابن كثير، 2019.

- السامرائي، محمد فاضل صالح. البيان القرآني في الآي المتشابهة: نماذج مختارة من كتاب ملاك التأويل. ط2. دمشق: دار ابن كثير، 2019.
- أبو السعود، محمد بن محمد العمادي. تفسير أبي السعود المسمّى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم. ط4. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1994.
- السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد. بحر العلوم. تحقيق مجموعة محققين. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية، 1993.
- الشنتمري، الأعلم. شعر زهير بن أبي سلمى. تحقيق فخر الدين قباوة. ط3. بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1980.
- الطائي، أبو يحيى بن مدرك. ديوان حاتم الطائي. تحقيق حنّا نصر. ط1. بيروت: دار الكتاب العربي، 1994.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي وآخرين. ط1. المدينة المنورة: دار الإمام مسلم للنشر والتوزيع، 2023.
- ابن عاشور، محمد الطاهر. التحرير والتنوير. ط1. بيروت: دار ابن حزم، 2021.
- عامري، سامي. هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى؟. ط2. الكويت: مركز رواسخ، 2018.
- العامري، لبيد بن أبي ربيعة. ديوان لبيد بن أبي ربيعة. تحقيق حمدو طمّاس. ط1. بيروت: دار المعرفة، 2004.
- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر. فتح الباري شرح صحيح البخاري. تحقيق عبد العزيز بن باز وآخرين. ط1. الرياض: دار طيبة، 2000.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله. كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر. تحقيق علي محمد البيجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم. ط1. بيروت: دار إحياء الكتب العلمية، 1952.
- علي، محمد مهر. مزاعم المستشرقين حول القرآن الكريم. المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1421هـ/ 2000م.

- ابن فارس، أحمد. الصاحبي في فقه اللغة. تحقيق السيد أحمد صقر. القاهرة: عيسى البابي الحلبي، د.ت.
- فضل، صلاح. بلاغة الخطاب وعلم النص. سلسلة عالم المعرفة. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1992.
- ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم. الشعر والشعراء. تحقيق أحمد محمد شاكر. القاهرة: دار المعارف، 1982.
- القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن. الإيضاح في علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع. تحقيق إبراهيم شمس الدين. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية، 2002.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي. تفسير القرآن العظيم. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط. ط1. دمشق: مكتبة الفيحاء؛ الرياض: مكتبة دار السلام، 1994.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي. تفسير القرآن العظيم. تحقيق علي شيري. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1995.
- الكرماني، محمود بن حمزة. البرهان في توجيه متشابه القرآن. تحقيق السيد الجميلي. ط1. القاهرة: مركز الكتاب للنشر، د.ت.
- مجمع اللغة العربية بالشارقة، واتحاد المجامع اللغوية العلمية بالقاهرة. المعجم التاريخي للغة العربية. ط1. الشارقة: منشورات القاسمي، 2024.
- مرتاض، عبد الملك. «فكرة السرقات الأدبية ونظرية التناص». علامات في النقد 1، الجزء 1 (مايو 1991): 77–101.
- مسائل نافع بن الأزرق. تحقيق محمد الدالي. ط1. د.م.: الجفّان والجابي للطباعة، 1993.
- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري. صحيح مسلم. الرياض: بيت الأفكار الدولية، 1998.
- مفتاح، محمد. تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص. ط3. الدار البيضاء وبيروت: المركز الثقافي العربي، 1992.

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. أخبار أبي نواس: تاريخه، نوادره، شعره، مجونه. تحقيق محمد عبد الرسول إبراهيم. القاهرة: مطبعة الاعتماد، 1924.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. لسان العرب. تحقيق مجموعة محققين. ط17. بيروت: دار صادر، 2017.
- نوفل، يسري. المعايير النصية في السور القرآنية: دراسة تطبيقية مقارنة. ط1. القاهرة: دار النابغة للنشر والتوزيع، 2014.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري. السيرة النبوية. ط3. بيروت: دار الكتاب العربي، 1990.
- يقطين، سعيد. انفتاح النص الروائي: النص والسياق. ط2. الدار البيضاء وبيروت: المركز الثقافي العربي، 2001.

المراجع الأجنبية

- Al-Azami, Muhammad Mustafa. *The History of the Qur'anic Text*: *From Revelation to Compilation*: *A Comparative Study with the Old and New Testaments*. Leicester UK Islamic Academy, 2003
- Ali, Muhammad Mohar. *The Qur'an and the Orientalists*: *An Examination of Their*, *Main Theories and Assumptions*. Ipswich, UK: Jam'iyat Ihyaa' Minhaaj al-Sunnah2004.
- Bakhtin, Mikhail M. *The Dialogic Imagination*: *Four Essays*. Edited by Michael Holquist. Translated by Caryl Emerson and Michael Holquist. Austin: University of Texas Press, 1981.
- Barthes, Roland. *Image-Music-Text*. Selected and translated by Stephen Heath London: Fontana Press, 1977.
- Beaugrande, Robert-Alain de, and Wolfgang Ulrich Dressler. *Introduction to Text Linguistics*. London: Longman Group Limited, 1981.
- Fairclough, Norman. *Discourse and Social Change*. Cambridge: Polity Press, 1992

- Genette, Gérard. *Palimpsests*: *Literature in the Second Degree*. Translated by Channa Newman and Claude Doubinsky. Lincoln and London: University of Nebraska Press, 1997.
- Johnstone, Barbara. *Discourse Analysis*. 2nd ed. Malden, MA: Blackwell Publishing, 2008.
- Kristeva, Julia. "Word, Dialogue and Novel". In *Desire in Language*: *A Semiotic Approach to Literature and Art*, edited by Leon S. Roudiez, translated by Thomas, Gora, Alice Jardine, and Leon S. Roudiez. New York: Columbia University Press 1980.
- Riffaterre, Michael. "Intertextual Representation: On Mimesis as Interpretive Discourse". *Critical Inquiry* 11, no. 1 (1984).

مَا أُشْكِلَ فِي «جَحْلَنْجَعٍ»

(قراءة تأويليّة)

"What was Meaningless in"Jaḥlanjaʿin

(*An interpretive reading*)

د. جليلة يعقوب
مخبر المباحث الدلاليّة واللّسانيّات الحاسوبيّة (LR18ES46)
كلّيّة الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، جامعة منوبة، تونس

الملخّص

وُضِعَتْ لفظة «جَحْلَنْجَعٍ» في عديد المصنَّفات ضمن ما يخرج عن فصاحة الكلام وتفسيره، ولكنْ ليْس كلّ ما يُتّفق عليه من المسلّمات، لذا أردنا إعادة النّظر في اللّفظة وربْطها بمكوّنات اللّغة العربيّة عسى أنْ نتبيّن القصد منها استنادًا إلى البيت الشعريّ الذي جاءت فيه؛ والخلاف يعود إلى المنقول من الكلام وإنشاء البلاغة وطريقة حفظ الموروث ممّا يثير أسئلة عديدة غايتها الاستدلال على المُبْهم وإرجاعه إلى الجليّ في غيْر امتناع عن نظْم الكلام وبلاغة الخطاب، وهذه الأسئلة هي: 1. أيّ مستندات اُعْتُمِدَتْ حتّى عُدَّتْ «جَحْلَنْجَعٍ» بلا دلالة أو لُطف معنى في منظومة الشِّعر العربيّ ونقده؟ 2. هل هناك ما يُساعد على تثبيت المعنى أو توضيحه فتتجاوز عموم لفظه في حدود التّركيب إلى فنون البيان واستعارة التّمثيل؟ 3. أليْس الخروج عن مجرى الأحاديث في صِيَغها الأولى بدافعٍ إلى إيجاد حجّة الفصاحة والبلاغة وتغيير وصف الأصول بالشّواهد القطعيّة؟ 4. كيف نتحوّل من «مقتضى الظّاهرة» في مقامات التّلقّي الأولى إلى المُشْتَرَك في الفهم والتّأويل؟

الكلمات المفاتيح: جَحْلَنْجَعٍ؛ فصاحة؛ بلاغة؛ إبهام؛ فهم؛ تأويل.

Abstract

The word “Jaḥlanjaʿin” has often been placed, in various works, among concepts that fall outside the scope of eloquence and its interpretation. However, not everything that is agreed upon is axiomatic. This is why we wished to re-examine this word and connect it to the components of the Arabic language, hoping to discern its intended meaning from the verse in which it appears. The disagreement concerns oral transmission, the construction of rhetoric, and methods of preserving the heritage. We pose questions in order to resolve ambiguities and restore clarity, without compromising the composition of the discourse or its eloquence. These questions are as follows : 1. On what basis is the hypothesis founded that the word “Jaḥlanjaʿin” is devoid of connotation or subtle meaning within the system of Arabic poetry and its criticism ? 2. Are there elements that allow us to establish or clarify its meaning, in order to move beyond the generality of its formulation within its structure and access the arts of rhetoric and metaphorical representation ? 3. Isn’t the departure from the initial unfolding of the narratives motivated by the desire to find an eloquent and rhetorical argument, and to modify the description of the origins by supporting it with conclusive evidence? 4. How does one move from the apparent “presupposition”of the early stages of reception to a common ground for understanding and interpretation ?

Keywords :Jaḥlanjaʿin; Eloquence; Rhetoric; Ambiguity; Understanding; Interpretation.

المقدّمة

نُجري هذا البحث على تبيين بعض ما جاء في كتب البلاغيّين من مفاهيم وتعريفات ومظاهر وأساليب تتّصل بالفصاحة والتّبيين، ومنها لفظة «جَحْلَنْجَح» التي اتُّخِذت حجّةً على الإخلال بهما، ولكنّ تداول هذه الخاصيّة لمْ يبْدُ مقنعًا خاصّة مع التّفكير في غيْر ما نُطِق أو نُقِل والنّظر إلى اللّفظ المفرد قبْل أنْ يكونَ جزءًا من تركيب ودلالة يجمعهما النّصّ، ونحن نتحدّث عن الشّعر في علاقته

بالمنطق من ناحية، وبوظيفة التّبليغ وإنشاء الثّقافيّ من ناحية أخرى. يسير التّاريخ في تقدّم ولكنّ الأصولَ إذَا لمْ تنبتَّ عن بيئتها تظلّ مرآةً للخصوصيّة في النّظام الخطابيّ حتّى يُرمى صاحبه بنطقِ ما لا يُفهَم، بل قد لا يكون عُرِفَ أو أُدْرِك لانشغالٍ بالتّدوين دون التّفكير أو تبيّن الأشكال المختلفة من اللّغات أو سرعة تحويل المسموع إلى مكتوب في غيْر جنس أو نوع؛ التّدوين لا يحفظ فقط الذّاكرة بل يدفع إلى إعادة التّفكير في اللّغة والثّقافة والعلاقة بيْنهما في الآن والزّمان وما يتّصل بالأبنية اللّغويّة المتحقّق منها في القول والمُفترَض في التّوقّع وتمثّلاته في مختلف جوانب الخطاب وروافده، فكأنّ الفروق الدّقيقة هي الّتي تساعد على تبيُّن الشّكل الجزئيّ في التّركيب والمعنى وتحديد الفروق بيْن ما يقول الفرد ويدرجه الآخر في غير مجال التّفاعل الاجتماعيّ؛ قد لا تكون هناك اختلافاتٌ إلاّ حين يطفو الانشغال بمسألة مخصوصة من العِلْم والمعرفة يكون غيْرها حاشية إذَا ما رُبِطَ الكلام بغيْر مقامه؛ المعايير طبقاتٌ في الأنساب وأصحاب المعرفة بيْن ماسكٍ بنواصي اللّغة وساعٍ إلى إدراك العلميّ منها، وبيْن هذا وذاك قد تضيع حلقاتُ الوصْل بيْن اللّفظ والمعنى جوهر التّواصل بيْن الشّعوب والقبائل، وقد لا تقترن المسألة فقط بالمعجم فإنْ هو إلاّ المبتدأ في إخبارٍ بنمطِ حياة تحوّلَ إلى فنٍّ في القول والبيان، ومن هناك يصبح المشكِل من اللّفظ دليلاً عليْه في ما قد ينشأ به من الحرف ويبتعد عن المعنى والتّصنيف، ذلك أنّ اللّغة في أصلها أداء واستعمال، وبتباعد الزّمان وذهاب أهل الكلام فيه قد تتساقط بعض المعاني، وهو ما يولّد الحاجةَ إلى التّأويل والتّفسير خاصّة إذَا ظلّت اللّفظة منغلقةً على جانبها التّاريخيّ في التّواصل الاجتماعيّ، فهي احتمالاتُ تدوينٍ عديدةٌ افتراضها في عدم الاستماع الجيّد إلى المتكلّم، أو أنّ هذا الأخيرَ لمْ يكن فصيحًا بالدّرجة الّتي بها يتّبع مخارج الحروف وعلاقة الكلمات ببعضها، أو أنّ الأمر متعلّقٌ باختلاف اللّهجات إذْ تمّ التّركيز على البداوة وعدم القدرة على فهْم ما ينطِق به ذلك الأعرابيّ؛ وعسى أنْ نقاربَ اليقينَ أو ندركَه في مسارات البحث وإشكالياته التّالية: 1. حمْل اللّغة الإبهامَ في ذات اللّفظ أو هو التّفاوت في تاريخيّته واقترانه بالظّواهر الاجتماعيّة والتّفاعل المستمرّ؛ 2. كيفيّة تحوّل الافتراض إلى بيان علميّ له من التّجريد والتّنظير قواعدُ في علوم اللّغة ونقْد الشّعر ليْس لأحدهما من اكتمال إلاّ في إحكام ربْط الأنظمة اللّغويّة بالأنساق الثّقافيّة؛ 3. قد لا تتبدّل

اللّفظة في الأصوات، ولكنّها تفقد بعض خصوصياتها لتصبح مجرّد علامة لغويّة تحتاج التّفسير أو يقف الفهْم دونه فتفقد وظيفتها التّعبيريّة العاديّة لتدخل مجال البيان والبديع.

1 ـ الاشتباه في الأصل

1.1. في شبهة الأسماء والمسمَّيَات والمرجع التّاريخيّ

ليْس غريبًا أنْ يكونَ فهْم اللّفظ شرطًا من شروط استدامة استعماله حتّى وإنْ تباعدت المسافات الزّمانيّة والمكانيّة، أو هي مزيّة التّدوين في حفظ الذّاكرة وألاّ يكون فضله فقط إعادة المنقول في نُسخٍ عديدة وتسميات مختلفة لا تخرج بدورها عن دائرة الغموض، ومن نماذج ذلك ما جاءتْ عليْه لفظة «جَحْلَنْجَع» في سياق يورده القدامى مفردًا أو مقترنًا بسابقٍ في الحجّة والدّليل كما يلي: [من الرَّجَز]

إِنْ تَمْنَعِي صَوْبَكِ صَوْبُ المَدْمَعِ * يَجْرِي عَلَى الْخَدِّ كَضِبْبِ الثَّعْثَعِ
من طَمْحَةٍ صَبيـــرُهَا جَحْلَنْجَعِ * لَمْ يَحْضُهَا الجَدْوَلُ بالتَّنَـوَّعِ

ومن الإشكاليات في هذيْن البيْتيْن ما اتّصل باسْم صاحبهما، فقد نُسِبَا في لسان العرب إلى «أبو الهَمَيْسَع»:

«قال أبو تراب (ت. 245هـ/ 859م): «كنت سمعتُ من أبي الهَمَيْسَع حرفًا، وهو جَحْلَنْجَع، فذكرتُهُ لشَمِر بن حَمْدَوَيه (ت. 255هـ/ 868م)، وتبرّأتُ إليه من معرفته، وأنشدته فيه ما كان أنشدني، قال: وكان أبو الهَمَيْسَع ذكر أنّه من أعراب مَدْين، وكنّا لا نكاد نفهم كلامه»[1].

(1) ابن منظور، لسان العرب (بيْروت: دار صادر، 1993)، 83 / III.
قوم مَدْيَن: «من القبائل العربيّة الّذين كانوا ينزلون مدينة مدين القريبة من أرض معان من أطراف الشّام ممّا يلي ناحية الحجاز قريبًا من بحيْرة لوط (البحر الميّت). وينسبهم المفسّرون إلى إبراهيمَ عليْه السّلام، وإنْ كانوا لا يملكون دليلاً على نسبتهم هذه؛ وكانتْ مدين تقع على أهمّ الطُّرُق التّجاريّة الّتي تبدأ من جنوب الجزيرة العربيّة (المحيط الهنديّ) مرورًا بمكّة والمدينة وتَبُوك ونهاية بالشّام: سوريّة وفلسطين)، أيْ أنّ اقتصاد أهل مَدْين كان يقوم على التّجارة، ولكن لا نستطيع أنْ نقرّر بيقين هل كانتْ لهم دولة، وما هيَ الحدود الّتي كانتْ عليْها، وإنْ كان من المؤكّد أنّه كانتْ لهم سطوة وجبروت على غيْرهم، وكانوا كثرةً.»
* جمال عبد الهادي محمّد مسعود ؛ وفاء محمّد رفعت جمعة، أخطاء يجب أنْ تُصحّحَ في التّاريخ جزيرة العرب سيرة هود وصالح وشُعيْب وسليمان عليهم السّلام وأصحاب الأخدود

وفي تعريف آخرَ للهميسع (دون اقتران بِـ «أبو») أنّه اسم علم مفرد، أنْ كان لِسَبأ عدّة أولاد اشتهر منهم خمسة وتناسلوا وبقيت أعقابُهم إلى الآن. ومن نسلهم جميع قبائل اليمَن، وهُمْ: حِميَر، وكهلان، وعمرو، وأشعر، وعاملة، وبحسبهم صارت أصول قبائل اليمن خمسة منهم تفرّعت العمائر والبطون والأفخاذ والفصائل.

[القبيلة الأولى]: حِمْيَر، وهو حمير بن سبأ؛ قال الجوهريّ (ت. 393هـ/ 1003م): واسمه العَرَنَجّ؛ قال أبو عبيد (ت. 224 هـ/ 838م): وكان له من الولد: الهَميسع، ومالك؛ وزادَ ابن الكلبيّ (ت. 204هـ/ 818م) في الجمهرة ذكرَ: يزيد، وعريب، ومسروح، ووائل، ومعدِ يَكرب، وأوسا، ودرما، ومُرّة.

وقبيلة حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود قبيلةٌ ذات كيان عشائريّ قويّ، وهي إحدى أكبر قبائل الجزيرة العربيّة وأقدمها يُقدّر عمرها بمائة وعشرة سنة قبل الميلاد إلى الآن وانتشرت قبائل حِمْيَر بالأرض فمنهم باليمن والسّعوديّة والإمارات وسلطنة عُمَان والعراق وسوريا[2].

تعدّدت المرجعيات في هذه الأخبار، وكانت الغاية من روايتها التّثبّت من معاني الكَلِم والسّعي إلى الإحاطة بجميعها خاصّة إذَا تعلّق الأمر بتصنيف المعاجم، فيكون الاستنجاد بعِلْم الأنساب والثّقات أو إرجاع الأمر إلى فروق اللّهجات للتّحرّي خشية ألاّ توافق المعاني الكلماتِ أو لا يكون القول ممّا اتّفقت عليه العربُ؛ وقد يُطلَبُ اللّفظ لذاته فلا توجدُ حجّة عليْه إلاّ الرّواية والرّوايتيْن تُحْفَظُ دون تأمّل في خصائصها، ولكنّها تكون حافزًا للنّظر في خلفياتها التّاريخيّة والجغرافيّة وفي علاقة اللّغويّ بالمرجعيّ ومعايير الفصاحة بيْن أنْ تكون سجلاّت قول خاصّة بثقافة مغلقة أو جزءًا من علاقة الخطاب بالواقع:

«فمن المعلوم أنّ لسانيات الخطاب بالمقارنة مع لسانيات الجملة ترتكز على معطيات إنتاج الخطاب وظروفه التّواصليّة وتفاعل أقطابه وخاصّة المتكلّم

وأصحاب الفيل (المنصورة: دار الوفاء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 1997)، 46 / I-47.

(2) القلقشنديّ، كتاب قلائد الجمان في التّعريف بقبائل عرب الزّمان، تحقيق: إبراهيم الإبياريّ (القاهرة: دار الكتاب المصريّ/ اللبنانيّ، 1982)، 39-40؛ ابن حزم، كتاب جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق: عبد السّلام محمد هارون (القاهرة: دار المعارف، 1982)، 432.

والمخاطَب وعلاقة القائل بقوله ومختلف آليات البرهنة والاستدلال والجدل والإقناع والإيحاء والتّضمين والاستلزام»[3].

الاختلاف لا يعني العدميّة بل يدعو إلى تمثّل الظّاهرة اللّغويّة صوتيًّا ومعجميًّا ودلاليًّا ضمن الشّفويّ والمكتوب، وهُمَا ليْسَا بمتّفقيْن بالضّرورة، والخلط فيهما لا يمتنع لا في اللّفظ المفرد ولا ما عُدَّ مركّبًا، لذلك ينبغي أنْ يكون التّثبّت، فعندما توضع كلمة في تركيب مخصوص من الطّبيعيّ أنْ تكونَ لها دلالة تجانسه وتتّصل فيه بقصْد المتكلّم؛ ومن المرجّح أيْضًا أنّه اختار من المعجم ما به يناسب المعنى الموضوعَ، وبالتّالي يعسر الحديث عن اعتباطيّة الدّالّ والمدلول خاصّة في الإنشاء الشّعريّ الّذي تُراعى فيه جميع المقاييس فلا اختلالَ بل استثناءات لا تُعْتبَر فعليًّا ممَّا يخرج عن الفصاحة والبيان؛ والحديث عن الأسماء والمُسمَّيات في مثل هذه المقامات هو جزءٌ من المرجع التّاريخيّ الّذي قيل فيه ثقافيًّا وحضاريًّا فلا يبرحهما، ولكن إنْ يقْصرْ الفهمُ فلا بدّ من طرح السّؤال الّذي لمْ يُطْرحْ في سياق الحال وهو: لماذَا لمْ يتحقّقْ-الانسجام بيْن المتكلّم والمخاطَب؟ ومعه قد تكون الحقيقة تاهت في مسارات أخرى من مجالات التّواصل من واقع المجتمعات ومقاماته التّبادليّة من ناحية، والمرجع الزّمنيّ وخصائصه اللّغويّة والمعرفيّة من ناحية أخرى.[4]

2.1. في فهْم الكَلِم وتقدير معانيها في المعجم

قد يساعد الشّرح المعجميُّ على تبيُّن علاقة اللّفظ بالنّظْم والنّحو الّذي جاءت عليْه العبارات في مقاصدها وإمكانيات فهمِهَا حسب السّياق، وهذا مرتبط بتنوّع المعنى بوصفه وحدة معجميّة لها علاقة بالمرجع، وهو ما يبرّر إمكانيّة تحويله في الاستعمال حسب «تجربة الجماعة اللّغويّة» أو مجازًا حين يُستفاد المعنى

(3) عبد المجيد القدوري، والحسين المجاهد، «التّحليل اللّغويّ منهاج لاستنتاج جوانب حضاريّة نموذج: تحليل الأدب الأعجميّ الموريسكيّ» في التّاريخ واللّسانيات النّصّ ومستويات التّأويل أعمال المائدة المستديرة تنسيق وتقديم عبد الأحد السّبتي (الرّباط: كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة/ مراكش – 25–26 ماي، 1990)، 30–31.

(4) Andrew Kehler, *Coherence*, *Reference*, *and the Theory of Grammar* (California : CSLI Publications, 2002), 156.

من التّركيب ومن المعاني البلاغيّة الخبريّة والإنشائيّة[5]، فالكلمات في «لسان العرب» تُذْكَرُ بجذرها واشتقاقها، وأصولها التّاريخيّة والأقوال الّتي ترتبط بها مع مصادرها في الشِّعر والنّثر والأنساب وكلّ ما له علاقة بالموجودات خارج اللّغة، وهو ما يبرّر تتبّع الكلمات في البيْتيْن محور الاهتمام على النّحو التّالي:

الصّوْبُ: نزول المطر، وصَبَتْ السّماءُ الأرضَ: جادتْها، وصاب الماءَ وصوّبه: صبّه وأراقه؛ وصابوا بهم: وقَعُوا بهم؛ والصّوْبَة: الجماعة من الطّعام، والكَدْسَة من الحنطة والتّمر وغيْرهما؛ وصوّب السّهمَ: وجّهه وسدّده نحو الهدف، أيْ أدركه وناله ولم يُخطئْه؛ والصّوْب: الجهة والنّاحية، اتّجه صوْبه: نحوَه؛ والصّوب: المطر بقدْر ما ينفع ولا يؤذي؛ وأصاب منافسَه: نال منه وجرَحه، أصابه الاكتئاب؛ أصاب مُرادَه: أدركه وناله؛ صاب المطرُ الأرض: أمطرها، انصبّ ونزَلَ؛ صاب به وقعَ[6]. **الضِّئْبُ**: حبّ اللّؤلؤ؛ **الثّعثع**: اللّؤلؤ أو الصَّدَف. **طَمْحة**: من الفعل «طَمَحَ»: نظر أو تطلّع بعيدًا نحو هدفٍ عالٍ، أو تطلّع إلى تحقيق شيْء كبير، وكلّ مرتفع مفرط في تكبّر: طامح، وذلك لارتفاعه[7]؛ **الصّبِير**: صَبَره عن الشّيْء، حبَسَه؛ والصّبْر نقيض الجَزَع، صبَر يصبِرُ صبْرًا، فهو صابرٌ وصبّار وصبير وصَبور، والصّبيرُ: الكفيل؛ وصبير القوم زعيمهم المُقَدَّمُ في أمورهم، والجمع صُبَرَاءُ؛ والصّبير: السّحاب الأبيض لا يكاد يُمطِر، والصَّبْرة من الحجارة ما اشتدّ وغلُظَ، والصَّبِيرُ: الجبل[8]؛ **الْجَحْلُ**: العظيم من كلّ شيْء؛ والسّيّد من الرّجال[9]؛ **نَجع**: النُّجْعَة عند العرب: المذهب في طلب الكَلَأ في موضعه. والبادية تُحضَر محاضرها عند هيْج العشْب ونقص الخُرَف وفناء ماء السّماء في الغدران، فلا يزالون حاضرةً، يشربون الماء العِدَّ، حتّى يقع ربيعٌ بالأرض، خرفيًّا كان أو شتيًّا، فإذَا وقع الرّبيع توزّعتْهم النُّجَعُ، وتتبّعوا مساقطَ الغيْث، يرعَون الكلأ والعشب من عامٍ قابلٍ وتنشّ الغدْران، فيرجعون إلى محاضرهم على أعداد الماء[10].

(5) إبراهيم بن مراد، «المقْولة الدّلاليّة في المعجم»، مجلّة المعجميّة- تونس، العدد 16-17 (2001): 36-37.

(6) ابن منظور، لسان العرب، VIII / 301.

(7) المصدر نفسه، II / 534.

(8) نفسه، IV / 218-220.

(9) نفسه، I / 552-553.

(10) نفسه، VI / 235-236.

البحث في المعجم بحثٌ في الجانب المجهول أو الغائب الّذي قد يكون سبَبَ الاختلاف أو الإبهام في «المعنى القديم» وعدم القدرة على تمييزه لغياب «الألفة» بيْن الملفوظ والنّسق الثّقافيّ الّذي جاء فيه أو «التّفكير (...) بوصفه شكلاً من أشكال خريطة بدائيّة للمنطقة الجغرافيّة الّتي ينبغي دراستها»[11]:

«يوفّر التّمييز بيْن الوسَط والشّكل إمكانيّةً لرؤيةِ أنّ المعنى يتطلّب دائمًا إدراكَ خفايا الأمور والاستنباط(...)، ويتطلّب استحضار إمكانياتٍ أخرى أثناء الفعل الملموس، أيْ أنّ الحقيقيّ والممكن ليْسَا مجاليْن منفصليْن»[12].

لا يحصر المتلقّي القول في فائدة الخبر بل يفكّر فيه في سياقات أخرى وخاصّةً بمنطق حجاجيّ، المقدّمة فيه مجازَة ولكنّ المعنى تصوّريّ في اتّجاهات عديدة تتّصل بالقائل (الأعرابيّ) والمتلقّي في زمن الرّواية، وكلّ مَنْ تداول النّصّ ولمْ يتّخذه مسلَّمَة، وأجراه فيما يحتمل أكثر من تصوّر في الأخبار «باعتبار الصّور النّحويّة التّركيبيّة (...) ومجرى العمل [اللّغويّ] أيْ حركة التّوتّر الكلاميّ تكون ثلاثيّة (...) بيْن المتكلّم والمخاطَب والكون»[13].

تظلّ هناك علائقُ سببيّة بيْن صيغة اللّفظ وفهْم المعنى بوضع خطاطة تخرج من التّعقيد وفائض النّقْل والثّقة في أسانيد الرّواية؛ لم يكن هناك جدال إلاّ في إطار المُعطى بوصفه مسلَّمة، وكان التّعاملُ معها على أساس ما يُناسب المعجم وفصاحة اللّغة، وتمّ إهمال فرضيّة أنّ حجّةً تبيُّن المعنى توجَد داخل اللّفظ وفي مجاله البيئيّ والطّبيعيّ؛ والتّغافل عن هذا الجانب، إنْ كرْهًا أو قسْرًا، يدفع إلى الظّنّ بأنّ المعجمَ أشكالٌ وصِيغ لا أفقَ لها في الزّمن، وإنّما هي رواياتٌ تحتوي مواضيعَها مُسْبَقًا، فلا يكون التّثبّتُ إلاّ من خلال الرّواية والأبنية الّتي تتكرّر ومنها يكتسب اللّفظ شرعيّة تأكيده بما هو عليْه في الذّاكرة الجماعيّة وضمن ما يُفْهَمُ

(11) ستيفن د. تانسي؛ نايجل جاكسون، أساسيات علم السّياسة، ترجمة: محيي الدّين حميدي (دمشق: دار الفرقد للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2016)، 32.

(12) نيكلاس لومان، مدخل إلى نظريّة الأنساق، ترجمة: يوسف فهمي حجازي، (كولونيا؛ بغداد: منشورات الجمل، 2010)، 286.

(13) خالد ميلاد، «تصنيف آخر لأعمال الكلام» في الدّلالة النّظريات والتّطبيقات أعمال الندوة المهداة إلى روح الأستاذ عبد الله صولة، جمع النّصوص وراجعها وقدّم لها خالد ميلاد (تونس: جامعة منوبة-كلّيّة الآداب والفنون والإنسانيات/ وحدة البحث المصطلح الدلاليّ، 2015)، 141.

وَمَا لاَ يُفْهَمُ، فالتّفكير في الأشياء يعني ربْط أبنيتَها اللّغويّة بأُطرها الاجتماعيّة لأنّ هناك علاقة معرفيّة خاصّة توجِّه اعتقاد الفرد واختياراته المعرفيّة في ترجيح نموذج منسجم مع الأنساق دون أنْ تكون هناك ضرورة للتّعديل أو «الاستدلال الشّرطيّ» (conditional inference)[14] الّذي يتأسّس على ثنائيات مثل الإثبات والنّفي، والصّريح والضّمنيّ لترتيب المعاني والمفاضلة بيْنها، لأنّ هذا المنهج قد يُضعف التّحليل المنطقيّ القائم على فرضيات معيَّنَة تدلّ عليْها مؤشّرات في القول والواقع، وتجعل تقدير المعنى رهين أحد اختيارات ثلاثة: القبول برأي البلاغيّين، أو احتمال «نموذج ضمنيّ» (implicit model)[15]، أو تقديم إجابة واحدة هي العبارة المشروطة باللّغة والتّداول، المستحسَنَة في الفهم، البعيدة عن الخلْط أو الانحياز.

2 ـ في نَظْم الكَلِم وإدراك المعاني

الكلام في مصادره المتعدّدة وإرجاعه إلى وحدة قد يعطّل عمليّة التّواصل والفهْم خاصّة إذَا كان الاعتماد على صياغة الألفاظ وكيفيّة إلقائها، فكأنّها مهارة تجعل السّامع يستسيغها أو ينكرها إذَا لمْ يكن متأكّدًا من حقيقة ما نُطِق به، وربّما هذا أيْضًا ممّا يخرجه من دائرة الملفوظ في حرفه إلى «المجهول» من حيث الصّيغة والتّركيب والتّسمية، فممّا ذُكِر عند النُّحَاة أنّ الاسم إذَا كان مفردًا يكون ثلاثيًّا أو رباعيًّا أو خماسيًّا، وبالتّالي فمَا تجاوز ذلك مِنْ عدد الحروف فهو مركَّب أو أعجميّ أو مزيد –وهو نادرٌ لا يُقاس عليْه–، وفي ذلك لا يتجاوز سبعة أحرف[16].

«حكى الأزهريّ (ت. 370 هـ/ 981م) عن الخليل بن أحمد (ت. 170هـ/ 786م): قال: الرّباعيّ يكون اسمًا ويكون فعلاً، وأمّا الخُماسيُّ فلا يكون إلاّ اسمًا، وهو قول سيبويه (ت. 180هـ/ 796م) ومن قال بقوله. وقال الأزهريّ عن هذه الكلمة وما بعدها في أوّل باب الرّباعيّ من حرف العيْن: هذه حروف لا أعرفها

(14) Jonathan St B. T. Evans, *Hypothetical Thinking Dual Processes in Reasoning and Judgement* (New York : Routledge, 2020), 44.
(15) Ibid., 60.
(16) السّيوطيّ، همع الهوامع شرح جمع الجوامع في عِلْم العربيّة، تحقيق: عبد العال سالم مكرم (بيْروت: دار المعرفة للطّباعة والنّشر، 1326هـ/ 1908م)، 158 / II–160.

ولمْ أجدْ لها أصلاً في كتب الثّقاتِ الّذين أخذوا عن العرب العاربة ما أوْدعوا كتبَهم، ولم أذكرها وأنا أُحِقّها، ولكنّي ذكرتها استنداراً لها وتعجّبًا منها، ولا أدري ما صحّتُها، ولمْ أذكرْها أنا هُنا مع هذا القول إلاّ لئلاّ يذكرها ذاكرٌ أو يسمعها سامعٌ فيظنّ بها غيْر ما نقلتُ فيها، والله أعلم»[17]؛

«فربّما وقَعَ الخللُ في الشِّعر من جهة الرُّواة والنّاقلين له فيسمعون على جهة ويُؤدّونه على غيْرها سهْوًا، ولا يتذكّرون حقيقة ما سمعوه منه»[18]

يُدْرَج هذا ضمن ما يعبّر عنه ابن رشيق ببُعد مسافة الكلام وخِلاف العادة[19]، معنى هذا أنّ النّقّاد والنّحاةَ رغم تثبيتهم قواعدَ اللّغة بمختلف مكوّناتها فإنّ للخطابة شروطها ومنها الفصاحة والبلاغة، وهما الخلفيّتان الأكثر اعتياديّة وعفويّة في تقاليد الشِّعر العربيّ في الحفظ والإلقاء[20]، وهذا لا يمنع الاستثناء –وإنْ عُدَّ من عيوب الشّعر ولكنّه موجود– من ذلك افتراض تسكين لام الفعل «نَجَعْ» على ضرورة شعريّة حتّى يستقيم الوزن، وربّما في ذلك عودة إلى الأصل في البناء أمّا الحركة ففرعٌ طارئ؛ يقول أبو سعيد السّيرافيّ (ت. 368هـ/ 979م) في «شرْح كتاب سيبويْه»:

«اعلمْ أنّ الشِّعر لمّا كانَ كلامًا موزونًا، تكون الزيادة فيه والنّقصُ منه، يخرجه عن صحّة الوزن حتّى يُحيلَه عن طريق الشِّعر المقصود مع صحّة معناه، استُجيزَ فيه لتقويم وزنه مِنْ زيادة ونقصان وغيْر ذلك ما لا يُستجازُ في الكلام مثلُه»[21].

ويقول السّيوطيّ (ت. 911هـ/ 1505م) في «هُمَع الهَوامع شرح جمع الجوامع»:

---

(17) ابن منظور، لسان العرب، III / 83.

(18) ابن طبَاطبَا، عيار الشِّعر، شرح وتحقيق: عبّاس عبد السّتّار (بيْروت: دار الكتب العلميّة، 1982)، 129.

(19) ابن رشيق، العمدة في محاسن الشّعر، وآدابه، ونقده، تحقيق: محمد محيي الدّين عبد الحميد (بيْروت: دار الجيل للنّشر والتّوزيع والطّباعة، 1981)، I / 220.

(20) Alessendro Duranti, *Linguistic Anthropology* (New York: Cambridge University Press, 1997), 15-16.

(21) السّيرافيّ، شرح كتاب سيبويه، تحقيق أحمد حسن مهدلي وعليّ سيّد عليّ (بيْروت: دار الكتب العلميّة، 2008)، I / 189.

«الأصل في البناء السّكون لأنّه أخفّ فلا يُعدَل عنه إلاّ لسببٍ لأنّ الأصْل عدم الحركة فوجبَ استصحابُه ما لمْ يمنع منه مانعٌ، وإذَا عُدِلَ إلى الحركة قُدِّم الأخفّ فالأخفّ وذلك الفتْح ثمّ الكسْر ثمّ الضّمّ فالسّكون تكون في الحروف نحوَ قَدْ وهَلْ وبَلْ، والأفعال كالأمْر والماضي المتّصل بضمير رفع متحرّك والمضارع المتّصل بنون الإناث، والأسماء نحو مَنْ وكَمْ»[22]

فالقاعدة عامّة ولكنّ الأمثلة تدلّ على أنّ السّكون مظروف بنوع الكلمة وخصائص التّركيب الّذي تأتي فيه؛ والأمر ذاته مُثبَت في «الكتاب» ضمن خصائص بناء الكلِم و «مجاري أواخرها»، يقول سيبويْه:

«والوقْف قولهم: اضْربْ في الأمر، لمْ يُحرّكوها لأنّها لا يوصف بها ولا تقع موقع المضارع، فبعُدت من المضارعة بُعْدَ كَمْ وإِذْ من المتمكّنة. وكذلك كلّ بناء من الفعل كان معناه افْعلْ.

(...) والوقْف فيها [الحروف] قولهم: مَنْ، وهَلْ، وبَلْ، وقَدْ»[23].

ولكنّ نماذجَ تسكين المتحرّك كثيرة، وممّا يذكر ابن قتيْبة (ت. 276هـ/ 889م) في «الشّعر والشّعراء» في حديثه عن «الإجازة» قوله:

«قال بعضهم: هو أنْ تكون القوافي مقيَّدة فتختلف الأرداف*، كقول امرئ القيْس (500 – 540م) [من مجزوء البسيط] لاَ يَدَّعِي الْقَوْمُ أَنِّي أَفِرّ **(...)

وقال الخليل بن أحمد: هو أنْ تكون قافيةٌ ميمًا والأخرى نونًا، كقول القائل [من الرَّجَز]:

يَا رُبَّ جَعْدٍ مِنْهُمُ لَوْ تَدْرِينْ يَضْرِبُ ضَرْبَ السَّبْطِ الْمَقَادِيمْ

(22) السّيوطيّ، همع الهوامع شرح جمع الجوامع في عِلْم العربيّة، 20 /I–21.
وانظر أيْضًا: القيروانيّ القزّاز، ضرائر الشّعر: أو كتاب ما يجوز للشّاعر في الضّرورة، تحقيق وشرح ودراسة: حمد زغلول سلاّم؛ محمد مصطفى هدّارة (الإسكندريّة: منشأة معارف الإسكندريّة، 1393هـ/ 1973م).
سامي عوض؛ مالك يحيا؛ كسرى زهيري، «الضّرورة الشعريّة عند أبي عبد الله محمد بن جعر القيروانيّ من خلال كتابه (ضرائر الشِّعر)»، مجلّة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العِلميّة 36، العدد 6 (2014)، 217–233.
(23) سيبويْه، الكتاب، تحقيق وشرح: عبْد السّلام هارون (القاهرة: عالم الكتب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 1983)، 17 /I.

(...) وقول امرئ القيْس [من الرَّجَز]

فَالْيَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إِثْمًا مِنَ اللهِ وَلاَ وَاغِلِ»[24]

إنّ تقليب اللّفظة على وجوهها المختلفة لمْ يستقمْ أمره في عَروض الشِّعر ولغة العرب وأساليب المعاني إلاّ على هذه الصّيغة من الشّكل والإعراب، وتفصيل ذلك بدأ بالمعجم، ومنه إلى القِسْم الاستهلاليّ من القصيدة العربيّة، وآخر الاستثناء المجاز الاستعارة، والاهتمام بمختلف المعايير في اللّغة يندرج ضمن اعتبارها نشاطًا حواريًّا في التّداول وفي الأفكار خاصّةً، والنّظر إلى الوحدات الكلاميّة بوصْفها «التّحوّل المفاهيميّ للتّجربة» (la transformation conceptuelle d'une expérience) وتعلّقَ منطقٍ بتاريخٍ أيْ أنْ تُفَسَّر الأشياء بوضعها في ظرفها لأنّ الممكن في الفهم أو في التّجربة يتحوّلُ حسب الزّمن، وهو يتجاوز حدود التّدوين ليجعل الدّلالة سيمياء نقديّة تنبني على الإدراك المستمرّ؛ إنّ الإشكالَ هو في جعْل التّفكير نمطيًّا أو هو القصور دون جعْل «الفرديّ» من المنطوق الكلاميّ جزءًا من مجموع التّجربة الإنسانيّة، ذلك أنّ اللّغة أسلوبُ حياة يجعل العباراتِ قابلة للمراجعة[25]، خاصّة عندما يتكلّم الباثّ والمتقبّل اللّغة العربيّة إلّا أنّهما لا يُجريان الكلام بنفس «الاقتران الصّوتيّ-المعنويّ» (sound-meaning pairing)[26] لذلك لمْ يكن لهما نفس الاعتقاد، ونشأ الحديث والجدل في معنى لفظة «جَحْلَنْجَح» الّتي كانتْ في سياق مفرد أو دائرة مغلَقة، وتحوّلتْ إلى مقام احتواها ولكنّه لَمْ يكن يناسب شكلها ولا جنسها، وهو ما أتبَع دائرتيْن مغلقتيْن تنأى إحداهما عن الأخرى فلا جامعَ إلاّ اتّجاه التّأويل في سياق ومقام آخريْن

(24) * الرِّدْفُ: حرف مدّ يكون قبل الرّويّ؛ ** هو عجُز بيت صدره: لا، وأبيكِ، ابنةَ العامريّ.
جزئيات الاستدلال بالشّواهد الثّلاثة مختلفة بعض الشّيْء، ولكنّ مبرّرَ اختيارها اشتراكُها في تسكين ما ينبغي له أنْ يُحرّكَ في الأفعال: «أفرْ؛ تدرينْ؛ أشربْ».
ابن قتيْبة، الشّعر والشّعراء، تحقيق وشرح: أحمد محمّد شاكر (القاهرة: دار المعارف، د. ت.)، I / 97-98؛
ولمزيد التّوسّع انظرْ فصل «عيوب الشِّعر»، I / 95-103.

(25) Philippe Lacour, « Faire sens. Essai sur la philosophie selon Gilles-Gaston Granger. » *ATALA*, no 8 (2005): 133.

(26) Peter John Glanville, *The Lexical Semantics of the Arabic Verb* (UK : Oxford University Press, 2018), 14.

يضع اللّفظة في ترتيب واحد ولكنْ بخصائص تركيبيّة نحويّة تجعل الانسجامَ بيْن اللّفظ والمعنى شبكة من أشكال النّظْم واختلاف الدّلالة، وهي حركة في الذّهن تتحوّل إلى تفريعات حسب حدود العبارات وتصوّر المحلاّت الإعرابيّة للكلمات حتّى وإنْ لمْ تتغيّرْ مواضعها، فالمتحوّل هو تقدير المتلقّي لدوْر كلّ كلمة في الشّكل والمضمون دون إسقاط تصوّراتٍ تخرج عن العلاقات بيْن اللّغة والأشياء في جماليّة الشّعر وأبعاد التّأويل[27].

3 ـ قراءاتٌ ووجوه

بيّنتْ دلالات الكلمات في المعجم فروقًا تخصّ الاشتقاقَ والصّيغة ممّا لا يخرج عن المعنى العامّ، وكانتْ منطلقًا لِشرح البيْتيْن في ضوء ما عُرِفت به القصيدة العربيّة من مقدّمات القول ومقامات التّلفّظ والتّلقّي الّتي قد توحي بالواقعيّة و تبرز المتكلّم وصداها في الآخر وفي الزمان والمكان أيْضًا، والكلّ في فلك الظّمأ والوَجْد يدور، ذلك أنّ الشاعرَ يخاطب الحبيبة في غيابها وحضورها ويجعل نحوَ الكلام يناظر في الشّرط جوابه، وليْس من الجناس إلاّ التّقارب الصّوتيّ ينقلب إلى أثر الكِبْر والامتناع لدى المرأة التي ليْس للمحبّ منها إلاّ النّظر أو ما يُخَيَّلُ منه في الصّورة والصّدى، ويتحوّل الاستقبالُ إلى حاضرٍ «يجري» في الزّمان والنّفْس يعبّر عنه المحبّ بالدّمع الجاري أو الماء المنهمر، هذا إذَا قُرِئَ البيْت الأوّلُ على النّحو التّالي:

إِنْ تَمْنَعِي صَوْبَكِ صَوْبُ المَدْمَعِ يَجْرِي عَلَى الْخَدِّ كَضِئْبِ الثَّعْثَعِ

فيكون الشّرط «إِنْ تَمْنَعِي صَوْبَكِ»، وجوابه ما بقي من البيت.

وقد تبدو الحبيبة هي الباكية ينزل الدّمع من عيْنيْها مِغزَارًا في إطلاق للمفعول به أو إبدال توضيح ما أُبْهِمَ يتجاذب معنييْن: أوّلهما حقيقيّ عندما ينحدر الدّمعُ على الخدّ، وثانيهما مجازيّ فكأنّ الكِبْر والتّعالي ينحدران في لحظة الفراق والوداع أو هما خيالُ بيْنٍ وشوق، وليْس هذا ممّا يَعيب، بل ينقلب فيه المعنى على الصّورة الشّعريّة، أصلُها تشبيهٌ عاديّ في اللّفظ إذْ يُشَبَّهُ الدّمعُ باللّؤلؤ حبّاتٍ لامعاتٍ، إلاّ أنّه

(27) عيّاد بومزراق، إشكاليات المصطلح وتعطّل النّظريّة النّقديّة كتابات أدونيس وجابر عصفور نموذجًا (بيْروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2022)، 211.

يُحيل على تشبيه تمثيليّ ينضاف فيه تشبيه العيْن بالصّدَفَة، والمفارقةَ في كلتيْهما الحرص على احتواء الدُّرر وتحصينها من العالَم الخارجيّ، لكنّ من الظَّرْف ما يشتدّ فتتحوّل الإرادة إلى قسْر ويضيع الدّرّ المكنون في متاهات الأسباب والعِلل؛ قد يبدو المشهدُ بهذه الصّورة مؤذيًا إلاّ أنّ القلْب جاء في البكاءِ يبرز جمال الطبيعة في المرأة وأنّ الأصول في بهجة الطّبيعة تنقلب إلى فرْع، هذا بلاغيًّا، ومن النّاحية التّركيبيّة يكون البيْت الأوّل بأكمله مع صدر البيْت الثّاني جملة الشرط، أمّا الجواب فعجُز البيْت الثاني، وتكون كلمة «صوبَ» بالفتح اقترانًا بموضعها الإعرابيّ، والأصلُ في تركيبه المفعول المطلق لفعل محذوف، وفرعُه بدَلُ الكلّ من الكلّ.

وإنْ يكن قدَرُ المُحبِّ البعدَ عن حبيبته فليْس له مع ذلك إلاّ الصّبر والتّعلّل بطيْف الخيال، ولكنّ هذا لا ينفي نبرة استغراب واستنكار، فهو السّيّد في قومه، وهو القويّ العظيم كالجبل في شموخه وبروزه، وله من الجاه وأسباب الوجود ما يجعل فرضيّة رفضه أو عدم الالتفات إليْه جزءًا من وهْم في معايير الصّورة الأنموذج للفتى، ولكن ما يضعها في حدود النّسبيّ صورةٌ أنموذج أخرى المرأة السّيّدة في قومها تُعَدُّ كالدّرّة المكنونة في الفرادة والتميّز، فلا يفوز بها إلاّ من حوّل الشّرطَ ضمن الجواب والامتناع إلى استقبال في اللاّنهاية من الحياة والجمال.

قد يُعلن الشّاعر/ المحبّ/ زعيم القبيلة وسيّدها أنّه الأصل في تركيب نحويّ ومحلّ إعرابيّ ليْس الجزء فيه إلاّ قرين الكلّ يرادفه في خطاب الشِّعر ومنظومة المجتمع، فتصبح لفظة «جَحْلَنْجَع» من الملحون الّذي ينبغي الاستغناءُ عنه وإبداله بالمركّب الإضافيّ «جَحْلُ النُّجَع» الذي يُضاعِف تضخّم الذات، وأنّ امتناعَ وقوع الفعل في الماضي ليْس صفةً بل حدثًا، وأنّ الصّبر قرينُ من تهوى الأنموذج في الفتوّة وطموح كلّ من يريد الصّعود إلى قمم الجبال.

يختزل البيْتان ما يُعرف بالنّسيب في استهلال القصيدة العربيّة و «ذِكْر خَلْق النّساء وأخلاقهنّ وتصرّف أحوال الهوى به معهنّ»[28]، وفيهما من معاني الغزل والتّواشج بيْن المحبّ والحبيبة ما يُذكّر بالوقفة الطلليّة واقترانها بمشهد

(28) قدامة بن جعفر، نقد الشِّعر، تحقيق وتعليق: محمّد عبد المنعم خفّاجي (بيْروت: دار الكتب العلميّة، د. ت.)، 134.

الرّحيل والإيذان بالبعد والفراق وأثر ذلك في نفسيّتيْ المحبّ والحبيبة، أمّا الثّانية فمقدّمات بلا خواتيم، وأمّا الأوّل فاستمرار في الزمان والمكان من خلال البحث عن منابع الماء؛ والاحتفال بالرّبيع في الواقع سرعان ما ينقلب إلى صدى الفخر ومفهوم الفتوّة ورمزيّة الجبل بمقابلة إمكان التّهاوي بفرض الصّعود؛ وإنّه لَلْخروج من تقسيم القصيدة وفق مواضيعها إلى ما به يبلغ المعنى درجة البيان في صحّته وصداه، وهو ما يفتح بوّابات النّظر إلى البيْتيْن بوصفهما مجازًا يناظر الحقيقة أو ينفيها.

4 ـ منتهى النصّ بداياته

1.4. في جعْل النصّ المفرد متعدّدًا

قد يكون ما أُشْكِل حلقة مفقودة مقترنة بعدم وجود رغبة في التّواصل والمشاركة فكأنّ الحرص الوحيد كان على التّدوين، فغَلب الاهتمام بالبنية ربْط المعنى بسياقه الاجتماعيّ والثقافيّ»:

«في نظريّة الاتّصال، هناك ثلاثة منظورات مختلفة على الأقلّ للنّظر إلى كيفية عمل هذه العمليّة: الاتّصال كعمليّة أحاديّة الاتّجاه لبناء المعنى، حيث يحاول المرسِل بناء أو إعادة بناء المعنى الّذي طوْرُه المستقبل؛ والاتّصال كعمليّة ثنائيّة الاتّجاه لبناء المعنى، حيث يبني شخصان أو أكثر معانيَ جديدة معًا؛ والاتّصال كعمليّة متعدّدة الاتّجاهات ومتزامنة لبناء المعنى، حيث ينصبّ التّركيزُ على التّطوير المستمِرّ للمعنى نفسِه»[29].

تبيّن أنّ لفظة «جَحْلَنْجَعٍ» ليْستْ ثابتة كما تراءتْ في بيانات المصنّفات المعجميّة والبلاغيّة وإنّما هي عنصر يختلف باختلاف المنطلق الّذي يُتَّخَذُ في القراءة وتعديل التّركيب والعلامةِ الإعرابيّة، ما يعني أنّ التّداخلَ كان نتيجة اتّباع القواسم المُشترَكَة في التّعامل مع الألفاظ ومصادرها بيْن المُعَرَّف (اجتماعيًّا) والنّكرة، والاعتباطيّ والأنسب فيما به تُحْفَظ اللّغة من الانحدار في «التّأثيرات

(29) Betteke Van Ruler, « Communication Theory: An Underrated Pillar on Which Strategic Communication Rests », in *International Journal of Strategic Communication* 12, no 4 (2018), 368.

العشوائيّة المتقاطعة للموضوع والعنصر»[30] من وجهة نظر القدامى خاصّةً، والدّارسين عامّةً؛ يُفترض وجود قواعد عامّة تحكم العربيّة في مختلف علومها ونظمها، بقيَ أنّ الفروقَ النّاجمة عن روايات الأخبار من ناحية وتنوّع اللّهجات من ناحية ثانية أحدثت هذه الإشكالياتِ في المرجع والوقوف عنده على أنّه الأنموذج في تحديد أنظمة اللّغة والنّحو بدلالته المُطلَقة والمقيَّدَة على حدّ سواء:

« يتأثّر أداء المتحدِّث بمحدوديّة الذّاكرة، والتّردّد، والتّكرار، وعدد من تنحنحات الحلْق أو الحركات اللاّإراديّة اللّفظيّة؛ إنّ موضوع النّظريّة اللّغويّة هو النّظام التّوليديّ الّذي يفسّر كفاءة المتحدِّث الأصليّ، وليس استخدام هذا النّظام من قِبل أنظمة التّحليل والإنتاج، وقد أثار هذا على الفور سؤالًا عميقًا وصعبًا: إذَا كان أداء المتحدِّث الأصليّ –ما يقوله– متأثِّرًا بطُرُقٍ مختلفة، فكيف اكتسب النّظام الأساسيُّ للقواعد الّذي يجعل أداءه ممكنًا؟ يجد اللّغويّون هذه المهمّة صعبة للغاية، وحتّى اليوم، لمْ تكتمل بأيّ حال من الأحوال لأيّ لغة طبيعيّةٍ»[31].

قد يرجع الأمر إلى التّقدير أو إلى الحُجّة المقنَّعة في حَمْل المعنى على غيْر ما وُجِدَ له في الأصل بُغية اتّباع النّمط في الحدّ والتّعريف ونفي المتشابه في ظاهر الكَلِم، أو التّمسّك بالعبارة العلامةِ وخصائصها الشّكليّة؛ والتّوسّع في ذلك لا يعني حذف القاعدة ولا إنشاء بديل، بل تعكس الدّراسة المفارقاتِ الّتي قد تتولّد عن السّياقات الدّلاليّة أو الخلفيات في التّاريخ والفكْر؛ وقد تنحسر قواعدُ البنية لتطفوَ دلالة التّعبير وفروق التّعديل والجدَل حول سلطة النّصّ واللّغة (اللّهجة).

(30) R. Harald Baayen, *Analyzing Linguistic Data A Practical Introduction to Statistics Using R*. (New York : Cambridge University Press, 2008), 273-274.
(31) Anna Maria Di Sciullo, « On Aspects of the Theory of Syntax », *Inference* 6, no 2 (2021), 2.

الجدول 1.4. بعض جوانب نظْم اللّغة وتطوّر أنماطها[32]

أ. خصائص نمط اللّغة:
- حجم نمط اللّغة: عدد أشكاله اللّغويّة
- النّطاق النّحويّ: عدد فئات الأشكال النّحويّة الّتي يتضمّنها نمط اللغة
- النّطاق الدّلاليّ: أنواع الإشارات اللّغويّة وغير اللّغويّة المرتبطة باستخدام نمط اللّغة (مثل المفرَد والمركَّب، والمستعمَل والمهجور، والمُشترَك والعشائريّ)

ب. القِيَم العمليّة المرتبطة بنمط اللّغة:
- الصّور النّمطيّة المتعلّقة بالمستخدِمين، وطُرُق استخدام اللّغة، والظّروف المحيطة باستخدامها
- القِيَم الإيجابيّة أو السّلبيّة المرتبطة بنمط اللّغة

ج. السّياق الاجتماعيّ لنمط اللّغة:
- فئات الأشخاص القادرين على معرفة أشكال نمط اللغة (أو بعضها)
- فئات الأشخاص المتمكّنين من استخدام نمط اللّغة بشكل كامل (المعاجم وآثار التّدوين فيها)

2.4. في مجازات التّلقّي

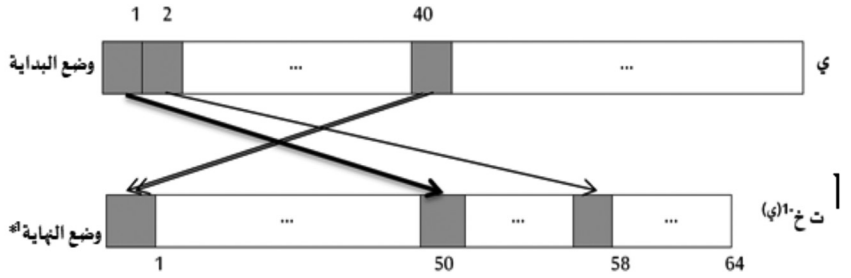
اللّفظ أصول في اللّغة ولكنّه معانٍ وعلاقات لها بداياتها في النّظْم، أمّا التّواصل العدديّ فمفتوحٌ لأسبابٍ بعضها تحليليّ، وبعضها الآخر مسارات في استخدام الأسماء وقد لا تجري على معانيها، فاللّفظ إنْ يكن جزءًا من تركيبٍ أو جملة فهو دلالة إحاليّة في السّياق ومقامه قد يكون منفصلاً عنه في النّعت والوسم، فحُكْمُ الزّمان على الأشياء أنْ يقترنَ بالأنظمة في مختلف معارف اللّغة، وله نظرة بديلٌ إذَا ما قِيسَ الأمر بحياة الحضَر والبدو أو الأعراب الّذين يتملّكون ناصية الكلام قبْل أنْ يتغيّر في مقامات التّلقّي فيبدو اللّفظ مُبهمًا قياسًا بالمألوف أو بالعلاقة بيْن المتكلّم والمتلقّي، هذا ينطِق على الطّبيعة، وذاك يراها بمعايير بلاغة الخطاب وجماليّته، فليْس الأمر في معرفة ما يمكن أنْ يكون حجّة ودليلاً بل في عطف خواصّ الأشياء على مُدْرَكَاتِها:

«فيمكن لجملة في لغة ما أنْ تُقرّر نفس المضمون المُعَبَّر عنه من قِبَلِ شخصٍ يقدّم نفس البيان باستخدام لغة مختلفة، فالجُمَل والمقْولات والمضامين مترابطة

(32) Asif Agha, « Registers of Language », in *A Companion to Linguistic Anthropology* (Oxford: Blackwell Publishing Ltd, 2004), 3.

منهجيًّا، مع أنّها ليْست شيْئًا واحدًا، فالجملة سلسلة ماديّة، والبيان نشاطٌ بشريّ والمضمون معنًى مجرَّدٌ «.

فكأنّ معاني الأشياء مقترنة بالعالم الخارجيّ أكثر من أبنية النّصّ خاصّة عندما تتشابك المرجعيات ويتحكّم المظهر الإيقاعيّ في جهة الدّلالة أو المتشابه منها ضمن تحوّلات الشّكل والمعنى بيْن النّصّ الأوّل وسلطة القدامى في المرويّ من الأحاديث والشِّعر أو العُدول بما يجعل النّهائيّ بدايةً لمتغيَّر في وسائط القول وثراء اللّغة، ويصبح الدّليلُ اللّفظيّ في الشِّعر قراءة بيانات وإعادة بنائها لِتوضيح ما وراء اللّفظ وترتيب المعجم، ويمكن أنْ نعبّرَ عن ذلك مجازًا من خلال الرّسم التّالي:



الشّكل 2.4 في الاستدلال على التّأويل وتحديث الخطاب الشِّعريّ

التّعبير عندما يصبح خصيصة متعلّقة بالهُويّة، وأيّ خروج عن النّمط يُعدّ مشكلة تحديد الزّمان والمكان وأثرها في التّسمية والمصدر، والتّفسير إمكانات اللّغة في غيْر سياقها الأصليّ، ولكنّ هذا لا ينفي عنها الأصل المُشتَرَك في محتوى ما يبدو مُبْهَمًا أو خارج أُطُر المحتوى الدّلاليّ من منظور المتلقّي، وهو ما يجعل وجهات النّظر تختلف استنادًا إلى معاييرَ متعدّدة هي: القول وصِيَغ النّقْل الّتي ترتبط بالسّمات الاجتماعيّة اللّغويّة من ناحية، وبالأثر النّفسيّ للخطاب والكلمات في استثنائيّتها وإمكان إرجاع عدم فهمها إلى الخطأ من ناحية أخرى أو كأنّه «تشابه صوتيّ» (orthographic resemblance) ينزاح باللّفظ عن أصوله الاشتقاقيّة والدّلاليّة ؛ إنّ النّظرَ إلى المعطى على أنّه إشكالٌ بلاغيّ قد يكون دافعًا إلى إعادة النّظر في

الألفاظ الموروثة «منطوقِها» ومكتوبِها لتفسير الرّوابط بيْن المصدر الأساسيّ وما انتهى إليْنا من المنقول بخصائصَ قد تكون مضافةً بفعل التّاريخ.

5. التّأويل وإمكانات المعنى

1.5. في إجراء اللّفظ على غير معناه

قد يكون الاستغناء عن حرفيّة الدّلالة من خلال التّأويل واتّخاذ تغيُّر المقام عاملاً مساعدًا على تبيُّنِ الخفاء والمبالغة الّتي تجعل المعنى يغيب عند الإخبار، ويُقدَّر بالعقل في المقاربة بيْن المتباعديْن، فيُمثَّل للغائب في العبارة بما يناظره ويُدانيه في الصّفات والمشهد من الحاضر؛ ومن نماذج ذلك صورة المرأة في الشِّعر القديم تُسْتدعى في مجازات تلازمها في الصّفات والتّصنيف وقرائن الحال الّذي يصبح من دواعي حمْل المفقود من أطياف الخيال والبُعد عن وهْم اللّقاء إلى الموعود من فيْض الماء وخصْب الأرض وترجيح مقاصد الكَلِم في واقع الذات والجماعة يخالها المرءُ اختياراتٍ وقدرة على تقرير المصير حتّى يتأكّدَ من سلطة المكان والقدَر، فليْس له منهما إلاّ الرّحيل الّذي يتأكّد في أصداء مقامات القول والخوف الدّائم من الفقْد حتّى وإنْ تعاظمت الذّات بمعيار الشّرف والنّسب؛ إنّ المنزلة الاجتماعيّة اكتساب –وإنْ تكن وراثة– واحتمال الاستمرار كالاسم من المُسمَّى يُفْقَد الإيجاب بالسّلب إنْ بالحرف في علاقته بالفعل: «لَمْ يَحْضُهَا» أو بالمجاز حين ترادف الحِياضُ أو مجامعُ المياه الموتَ أو انقطاعَ الفروع عن الأصول فإذَا الإنسان في رحلة أبديّة بيْنهما بيْن الذّات والإحالة ومن علاماتها الضّميرُ يُخَصَّصُ ويظلّ موافِقًا لكلّ نوْع في الجنس والعدد، ومثال ذلك ضمير المؤنّث المفرد في معناه المألوف يقترن بالمرأة، وهو في هذيْن البيْتيْن يمكن أنْ يُؤَوَّلَ على السّحابة إنْ تمنعْ ماءَها تُصِبْ الإنسان حالة من الهلع والتّفجّع، والبكاءُ أجلى مظاهرهما يُتَجاوز باستحضار ما يحاكي الدّرّ في صورته وتلألئه ولكنّه، على عَرَضيّته، أثمنُ منه وأجلّ قدْرًا، فالقيَمُ المضافةُ تتضاءل إذَا تعلّق الأمر بالحياة والمصير وخلاصتُه «جَحْلُ النُّجَعِ» في إضافة الجمع إلى المفرد: المحور في الفعل التّضاؤل في القدرة حين يستبدّ المكان بالمرء فيحْبِيه أو يُميته أو يدفعه إلى الرّحيل أو «جَحْلٌ نَجَعَ» قد تهتزّ صورته إذَا لمْ ينهمر الماء وينبت الرّبيع، والكناية عنه الجدول بروافده وفروعه، أو خيرات الأرض في تنوّعها وكثرتها.

تتقادم النّصوص وتمرّ العصور ولكنّ الفاعلَ الاجتماعيّ مستمرّ، والخطاب وإنْ يكنْ شعريًّا قائمًا على المجاز وإمكانات التّأويل فإنّ المتلقّيَ يرى فيه أكثر من نظام لغويّ أو محورًا في الدّلالة فتكون اللّغة أشدّ تعقيدًا في الفهم والاختيار ؛ وتعديل اللّفظ لمْ يكن إلاّ جزءًا من شبكة المعاني الّتي تحقّقه في إطار إجراء مقارنة بيْن الجملة وما يشبهها، وصِلَة الكلام بشكله المقصود من المحتوى أو من حَرْفيّة العبارة في بنيتها السّطحيّة أو فائدة الاستلزام (منطق الكلام غير المباشر the logic indirect speech) منها ارتباطًا بالتّوقّعات أو النّوايا أو الشّكوك أو الفهْم «المُضَلِّل» «المُظَلَّل» إذَا ما قُرِنَ بالحرف وتنوّع الإعراب . إنّ فكرة وجود «مجموعة من الخيارات» واختيار طريقة معيّنة لتمثيل منطوق مخصوص يجعل النّماذج النّحويّة (grammatical models) رغم نظاميّتها ذات بُعد وظيفيّ (functional dimention) بالأساس، وقراءة أيّ نصّ من جوانب متعدّدة تحيل على أنْ ليس فقط الأنموذج يمكن أنْ تكون له تجلّيات عديدة في الإجراء، بل النّصّ الواحد أيْضًا يمكن أنْ تكون له أشكال مختلفة وتمثّلات قد تستجيب للقواعد النّحويّة الوظيفيّة النّظاميّة (systematic-functional grammer) عامّةً وقد تخالفها، ولكنْ لها أيْضًا فائدتها من حيْث الدّراسات المقارنة (comparative studies) وتبيُّن إنْ كان النّحو والمعجم (grammer and lexicon) مرجعهما القطعيّ في الشّاهد والدّليل الشِّعر القديم أمْ أنّ كلّ ما بلغنا من موروث ينبغي أنْ يُدرسَ بوسائطَ جديدة مستحدثة لتبيّن مدى انسجام المرجع والنّصّ النّقديّ مع منطق الفهْم والتّفسيرات المحتَمَلَة، وهو ما يبرّر قراءة البيْتيْن من زوايا عديدة ربّما تكون قد حَدّدت واستكشفتْ أنماطًا أخرى في اللّغة قائمةً على التّفصيل وضرورة التّطوير.

2.5. نتوءات التّأويل

قد تتحوّل كتابة الواقع إلى مناظرة بيْن ثبات الفطرة وتحوّلات الصّنعة والاكتفاء بالموضوع في إطار تقاليد المعجم والنّحو، وكلاهما ملحق بسرديّة الخطاب وتمثّلات الفُروق بيْن المَحْكيّ والمكتوب والمفهوم الجديد لتحوّلات الحكاية والمَرويّ واعتبار الألفاظ رموزًا (codes) تحتاج الفكّ والبحث في

مضامين القول وحضور التّاريخيّ في الشِّعريّ، ذلك أنّ القراءاتِ تتوقّع معانيَ جديدة لِمَا يُناظر اللّفظ من متشابه الدّلالة وكيفيات تناول المعرفة من حيْث:

- التّساؤل عن ماهيّة الشّيْء في ذاته؛
- علاقته بما يناظره في اللّفظ والاشتقاق أو يختلف عنه في الإعجام وأنواع الكَلِم بيْن الاسميّة والفعليّة؛
- الأشكال المتعدّدة الّتي يمكن أنْ يتّخذها الشّاهد الشِّعريّ الواحد إنْ يكن ذلك في الزّمان أو بمظاهر أنواع الخطاب ضمن وضعٍ غيْر الّذي نشأ فيه أوّل مرّة؛
- القدرة على الإقناع بأنّ المختلفَ في النّوع لا يخرج عن دائرة الجنس؛
- إدراك الجزء إنّما يتمّ عبْر علاقته بسائر المنظومة اللّغويّة ولزوم إحداث التّمثّل على خلفيّة الأطروحة والأطروحة النّقيض.

قد تُرجَع الجزئيات إلى أنظمة هي في الواقع نتاج ظواهر كلاميّة ربّما لمْ يوجد ما يدعمها أو يردفها فظلّتْ من شواذّ الخطاب أو الاستثنائيّ فيه، ولكنّ الموضوع يظلّ منفتحًا على قضايا غير محدودة ما دام نظْم الكلام لمْ يخرج عن تصوّرات المجال القوليّ والعمل فيه بما يحقّق مبادئ المنطق ومجالات التّجريب؛ والخُلْفُ لا يعني النّفي أو العدميّة بما أنّ هناك عوالمَ ثلاثة كما يعتقد فريجه: العالم الخارجيّ المستقلّ عن إدراكنا، وعالم الذّات الذي يؤلّف أفكارنا وعالم ثالث هو عالم المعاني وهو عالَم مستقلّ عن الإنسان لا يخلقه ولا يبتكره وإنّما يكتشفه»؛ وإنْ توجد متناقضات ففي دغمائيّة الاختبار وانغلاق دوائر المعنى في علاقة بالواقع أو التّصوّر بالحسّ:

«إنّ الاتّجاه الطّبيعيّ للّغة، وبخاصّة في صورتها الدّارجة أو المتكلَّمَة، هو اتّجاهٌ يبعدها عن المركز، أو ما يمكن أنْ يُسمَّى اتّجاهًا طرديمركزيًّا (Centrifugal)، فاللّغة تميل إلى التّغيّر، سواء خلال الزّمان أو المكان، إلى الحدّ الذي لا توقِف تيّاره العوامل الجاذبة نحو المركز أو الّتي يمكن أنْ تُسمَّى بالجذبيمركزيّة (centripetal)؛ هذه الخاصّيّة العالميّة للّغة هامّة لعالَم اللّغة التّاريخيّ، حيث إنّها تشكّل الأساس في كلّ تغيّر لغويّ، وهي هامّة لعالم اللّغة الوصفيّ لأنّها تكوِّن

الأساسَ للاختلافات اللّهجيّة أو الطّبقيّة الّتي يصادفها الباحث في اللّغة موضوع دراسته ووصفه وتحليله، وهي هامّة لعالِم اللّغة الجغرافيّ، ليْس فقط بسبب أنّها تُعطيه صورة –أقرب إلى الدّقّة– لِلُغات العالم، وتبيّن له أهمّيّة بعضها بالنّسبة إلى البعض الآخر، ولكن أيْضًا لأنّها تمدّه بالأسُس الّتي يبني عليْها تنبّؤاته فيما يتعلّق بمستقبل اللّغات في العالم».

ليْس كلّ ما يُنْطَقُ يُفهَمُ عند السّماع، وأسباب ذلك عديدة منها اختلاف اللّهجات، والتّباعد الزمنيّ، واختلاف الوصف عن التّاريخ –حتّى وإنْ تُمُثِّلَ في حاضره– والأخطر الاستناد إلى معايير المَدَر والبَدَر، والشّرف والوضاعة في أنساب العرب وأعلامهم؛ ومع كلّ هذا، تصبح الكتابة والتّدوين شكليْن «عاقّيْن» أو هجينيْن أو مشروع احتمال، وهنا ليْس التّكلّمُ في علوم اللّغة من خلال آدابها بمُمكنٍ إلاّ ضمن المنطق والشّكّ فيما به ظهرت معايير القدامى في تصنيف الكلام وبيان بلاغته وفصاحته؛ النّتوءات اختلافاتٌ في فهم الكلمات وإبدال حدود النَّظْم وخلفيات شرح الخطاب والخروج من بوتقة الجهد البلاغيّ إلى وجوب الفكرة وعلاقة الكلّ بالجزء في مراحل بناء المعنى، وهي كذلك التّباعدُ بيْن العقل أوْ الإدراك والقيْد وشروط البيان والوضوح، والمنطوق بوصفه من المسلَّمات في حرفيّته ونصّيّته وما يجري مجراهما في الفهم والتّأويل أو في البلاغة بيْن الأُسس وما به تكُون في المفهوم والصّفة والمرجعيّات تجتمع في الكلّ اللّغويّ وتتنافر في الخصائص وحواريّة البساطة والتّركيب.

«قد يبدو في هذا الضّرب من استعمال الحمْل على المعنى في المعجم فوضى، ونقدّر أنّ مَنْ يذهب هذا المذهب في التّفسير يعني أنّه يحصر الظّاهرة اللّغويّة في جانبها المادّيّ السّاكن أيْ اللّفظ، فلمْ يرَ في الأشياء إلاّ ظاهرَها وقصر عن إدراك حقيقة النّظام في اللّغة واستيعاب الأشكال المعبّرة عن الحمْل على المعنى».

تأويل التّراث مسارٌ طبيعيّ في تطوّر النّظريات النّحويّة واللّسانيّة عامّةً، وإعادة بناء التّراكيب تخلّص اللّغة من قيود الأسلاف وضرورة قراءة ما انتهى إليْنا من معارفهم من منظور التّحرّر من سلطة النّقل إلى توجيه العقل فيما لا يَقطع مع الأصول والأُسس المفاهيميّة؛ قد تبدو في هذا الأمر مخاطرة ذات وجوه ثلاثة أوّلها: تجنّب التّفسيرات المنطقيّة لِما بات جزءًا من ذاكرة اللّغة العربيّة وقوام

المصادر الأولى فيها، وثانيها: الصّيغة الّتي بها نعيد توزيع بنية النّصّ، ولا يتمّ ذلك دون وعيٍ بخصائص الدّالّة والمعنى في السّياق والمقام، وثالثها: المنهج الّذي به نعيد بناء «المجال الفكريّ» للّغة والنّحو الّذي عليْه وصلتنا المصنّفات دون أنْ نرى فيها إشكاليات بعضها يتعلّق بالنّصّ في حدّ ذاته، وبعضها الآخر في كيفيّة أو قدرة الأجيال اللاّحقة على فهْم خطاباتٍ تفصلهم عنها قرون من الزّمان، وهل أنّ هناك فعلاً مثيرات تشدّه إليْها؟

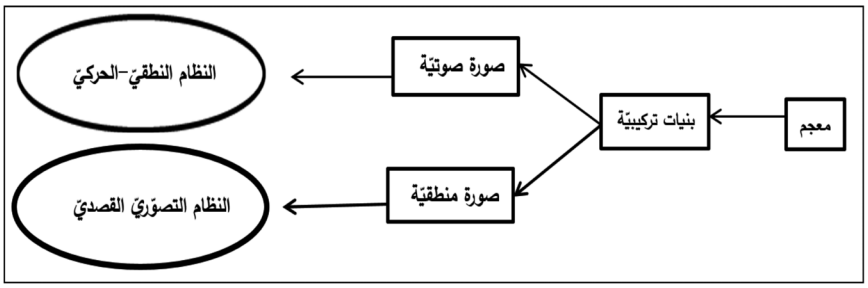
6 ـ النّتائج

– دوافع البحث بعضها بنيويّ علائقيّ من حيث نحو النّصّ عامّة والنّسيج الّذي يشدّ كلماته وتراكيبه خاصّة، وبعضها الآخر تحليليّ يفكّك العبارات وينظر في المنطق الّذي يربط اللّفظ بالدّلالة ويطرح المسائل في غيْر المستقرّ من فصيح الكلام أو الملحون فيه؛ درجات من احتمال الخطأ وسلّم حجاجيّ استدعى تجاوز التّلفّظ إلى إنشاء علاقات جديدة في الأشكال والوظائف النحويّة منها والتّداوليّة، وإنّ العواملَ لتختلف ولكنّها تؤدّي إلى طريقة في الفهْم لا تنفكّ من أصول القصيدة العربيّة في بنيتها ومواضيعها، وفي هذا السّياق قد يبدو من المضاف أيْضًا اختزال الأنموذج في أشكاله المتقاربة إلى نقطة كثيفة ربّما تبدو ذات مظهر واحدٍ في الشّكل واللّون وحدود الحيّز المكانيّ الّذي يحتويها (بيْتان من الشِّعْر) ولكنّ تِقنيّة توسيع الحقل البصريّ يحيل على أنّ النّقطة هي جُمَّاع مشاهدَ عديدة غاية في التّكثيف بل في التّجزئة والتّفصيل، ومن هنا ندخل في مجال تحويل الحامل إلى المحمول وهو جزءٌ من التّعريف به وبيانه؛

– تاريخيّة الخطاب لا تعني عدم قابليّته لسياقات التّحوّل، فالحال متوقَّعٌ إنْ حقيقةً أو مجازًا، والألفاظ تظلّ قابلة للتّفكيك وإعادة البناء بما لا يتجاوز قواعد النّظام ومنطق التّأويل، ذلك أنّ موضوع الطّراز هو أقرب إلى التّجريد منه إلى القطيعة بيْن المعرفة وأسئلتها، والمعنى لمْ يخرجْ عن خصائص القصيدة العربيّة القديمة في أشكالها ومصطلحاتها؛ والسّؤال الذي يعنينا دائمًا هو النّحو الّذي به نقرأ النّصّ وفق مقتضيات الكلام واعتبار أنساق التّواصل، فإمكانات القراءة تعدّدة مترابطة في آنٍ من منطلق فرضيات العقل وإيجاد الخيوط النّاظمة بيْن المَقول وجعْل ضوابطه مرِنَة في ظروف التّأويل واحتمالات ما بَعْد البلاغيّ؛

– هناك نقاط تشابه والتقاء الغائب غيْر المكتمل بالشّاهد على الأقلّ على مستوى الفرضيّة برّرناه بانحراف ربّما في دقّة النّطق وحدود المقطع وذلك باختيار مناويلَ متعدّدة كانتْ اعتقادًا وتقديراتٍ قياسًا بالأصل حتّى الوصول إلى النّموذج الّذي رأيْنا فيه صيغة استيفاء شروط الإيقاع واللّفظ والمعنى، والعامل المساعد في ذلك الثّراءُ المعجميّ، فرغم الفُروق الدّقيقة بيْن الدّلالات هناك خيوطٌ ناظمة تُتَّخَذُ مقياسًا للتّعرّف إلى خصائص النّظْم وبنية العلامة اللّغويّة إذَا حُجِّمَتْ ولمْ يُراعَ التّباينُ المنهجيّ بيْن التّعليميّة والنّقديّة والتّأويليّة؛ ومن الفُروق ما يعود إلى الوسط الاجتماعيّ والنّادر من استعمال الكَلِم، والمرجع حين يتحوّل إلى مأزق في القياس والنّمذجة إذَا لمْ تنسجم الفرضياتُ مع «القالب» الأصليّ، فتصبح الأصوات المعزولة بديلاً عن اللّفظة المركَّبَة، ويكون تجريب المحاكاة بيْن النّطق والإيقاع مساعدًا على تقدير الصّواب في الكلمات ومتغيّراتها الّتي لا تخرج عن إطار المعجم والدّلالة؛

– النّقْل يجعل اللّغةَ خصائصَ في الانتظام وروافد الدّلالة على نحوٍ كان طبيعيًّا وجُعِلَ وضعيًّا، وبيْنهما حلَقاتٌ في المشافهة والتّدوين قد تكون سقطتْ عن غيْر قصْد، وبسببها قد يتحوّل القول إلى تعدّد المعنى أو اللاّمعنى، هذا الخلطُ يجعله متجاذَبًا بيْن نقل المعرفة وحدود التّواصل ودافعًا لرَفْع الاحتمال وإثبات الفرضيّة من خلال المنهج الاستدلاليّ في القول والتّعبير الّذي وإنْ نُصِّصَ على هيئته فيما لمْ يَحْسُنْ ففي إعادة القراءة بمعايير اللّغة وقوانينها اهتداءٌ إلى تغيير الصِّيَغ والأوزان دون الخروج عن منطق الكلام وبحور الشِّعر وإيقاع المعنى، أمّا الحالات الإعرابيّة فإلحاق بأصول في الكَلِم وضرورات في الإبدال على وجوهٍ متعدّدة ولكنّها تُجيز كسْر الطّوْق في النّقل وقيوده الّتي بات من الضروريّ النّظرُ إليْها منطقيًّا من حيث الكلمة وتفاصيل العبارة استنادًا إلى مختلف الأنساق المُوجِّهة لها، وهو ما يمكن تلخيصه في الشّكل التّالي:



في الشّكل التّالي : **شكل تأليفيّ. النصّ وتحوّلات الدّلالة**

[من الرَجَزِ]

مِنْ طَمْحَةٍ صَبيرُهَا جَحْلٌ نَجَـــعْ * لَمْ يَحْضُهَا الْجُدْوَلُ بِالتَّنَوَّعِ**

أو

مِنْ طَمْحَةٍ صَبيرُهَا جَحْلُ النُّجَعْ * لَمْ يَحْضُهَا الْجُدْوَلُ بِالتَّنَوَّعِ**

(والثانية أبلغ وألصق بالشِّعر العربيّ أغراضًا ومعانيَ)

الخاتمة

القصد والحقيقة والتّأويل والإرباك الّذي قد يحصل خاصّة إذَا كانت الوقائع مؤشّرات على الواقع، ربّما لا تعني المتلقّيَ إلاّ في الرّواية وسرديّة الخطاب في نموذج واحد لمْ يناظره أحدٌ إلاّ في من اعْتُبِرَ ذاكرة نقْل ووجهة نظر؛ والألفة في حقيقتها ومجازها قد تضيق بمقامها قلقَ اللّفظ بدلالته أو اغترابَه عنها؛ والاستلزام العقليّ (logical implication) أو العلاقة الضّروريّة بيْن أمريْن في التّصوّر الذّهنيّ قد لا يجانس الوثوق البلاغيّ إلاّ في نقائص المعنى وفردانيّة المعتقد، فاللاّمحدود من التّأويل يجعل المقدّماتِ براهينَ حتّى يجد ما يثبتها أو ينفيها في تعالق المعارف وعلوم اللّغة منها يُقَدّ نظْمُ الفهم المشتَرَك المتعالي عن فيْض الرّواية والنّقْل وسلطتِهما؛ إنّه الانحراف إلى المنطق وفق القياس وجعْل النّتائج اكتشافًا لما بَعْد النّصّ والموضوع، وأنّ الزّمنَ حواشي النّسيان أو مرحلة البدْء في التّخفّف من سلطة السّلف وقيود المظهر وسلاسل المقْولات الّتي تنفي مقتضيات

التّحوّل والاختلاف إلى توازن آخر في فهم اللّغة وإدراك أشكال التّفاعل بيْن مادّتها وأجزائها؛ الحدّ ضرورة في العلْم، ولكنّه صفة لحركة المادّة في التّجريد، وإنّ الفكرة المُمكنة قد تغيّر أبعاد المعرفة وترشِّح النّسبيّ في ما اعْتُبِرَ وضعًا مطْلقًا للبلاغة والفصاحة.

Further Reading

Consider a study addressing the consequences of adding white noise to the comprehension of words presented auditorily over headphones to a group of subjects, using auditory lexical decision latencies as a measure of speed of lexical access. In such a study, the presence or absence of white noisewould be the treatment factor, with two levels (noise versus no noise). In addition, we would need identifiers for the individual words (items), and identifiers for the individual participants (or subjects) in the experiment. The item and subject factors, however, differ from the treatment factor in that we would normally only regard the treatment factor as repeatable. (Baayen, R. Hararld, Analyzing Linguistic Data A Practical Introduction to Statistics Using R, 241)

المصادر والمراجع العربية

العربيّة والمُعرَّبة

- ابن جعفر، قدامة. نقد الشِّعر. تحقيق وتعليق: محمّد عبد المنعم خفّاجي. بيْروت–لبنان: دار الكتب العلميّة، د. ت.، ط. 1.
- ابن حزم، أبو محمد عليّ بن أحمد. كتاب جمهرة أنساب العرب. تحقيق وتعليق: عبد السّلام محمد هارون. القاهرة–مصر: دار المعارف، 1982، ط. 5.
- ابن رشيق، أبو عليّ الحسن. العمدة في محاسن الشِّعر، وآدابه، ونقده. تحقيق: محمد محيي الدّين عبد الحميد. بيْروت–لبنان: دار الجيل للنّشر والتّوزيع والطّباعة، 1981، ط. 5. [الجزء الأوّل]
- ابن طبَاطبَا، محمد أحمد. عيار الشِّعر. شرح وتحقيق: عبّاس عبد السّتّار. بيْروت–لبنان: دار الكتب العلميّة، 1982، ط. 1.
- ابن قتيْبة، أبو محمد عبد الله. الشِّعر والشّعراء. تحقيق وشرح: أحمد محمّد شاكر. القاهرة–مصر: دار المعارف، د.ت. [الجزء الأوّل]

- ابن منظور، محمّد بن مكرم. لسان العرب. بيْروت–لبنان: دار صادر، 1993، ط. 3. [15 جزءًا]
- بن مراد، إبراهيم، «المقْولة الدّلاليّة في المعجم»، مجلّة المعجميّة–تونس، العدد 16–17 (2001): 17–76.
- پاي، ماريو. أُسس علم اللّغة. ترجمة وتعليق: أحمد مختار عمر. الرّياض–المملكة العربيّة السّعوديّة: عالم الكتب للطّباعة والنّشر، 1998، ط. 8. [1965]
- بغوره، الزواوي. الفلسفة واللّغة نقد «المنعطَف اللّغويّ» في الفلسفة المعاصرة. بيْروت–لبنان: دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، 2005، ط. 1.
- بنكر، ستيفن. الغريزة اللّغويّة كيف يخلق العقل اللّغةَ؟ ترجمة: الطيّب الحصني. الجُبَيْل–المملكة العربيّة السّعوديّة: صفحة سبعة للنّشر والتّوزيع، 2021، ط. 1. [1994]
- بومزراق، عيّاد. إشكاليات المصطلح وتعطّل النّظريّة النّقديّة كتابات أدونيس وجابر عصفور نموذجًا. بيْروت–لبنان: مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2022، ط. 1.
- تانسي، ستيفن د.؛ جاكسون، نايجل. أساسيات علم السّياسة. ترجمة: محيي الدّين حميدي. دمشق–سورية: دار الفرقد للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2016، ط. 1.
- تورين، آلان. براديغما جديدة لفهم عالم اليوم. ترجمة: جورج سليمان. بيْروت–لبنان: المنظّمة العالميّة للتّرجمة، 2011، ط. 1. [2005]
- الحاج صالح، رشيد. المنطق واللّغة والمعنى في فلسفة فتجنشتين. دمشق–سوريا: دار كيوان للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2011، ط. 1.
- الحيزم، وئام. تأويل اللّفظ والحمل على المعنى. جامعة تونس–كلّيّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، 2009، ط. 1.
- سيبويْه، أبو بِشر عَمرو. كتاب سيبويْه، تحقيق وشرح: عبْد السّلام هارون. القاهرة–مصر: عالم الكتب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 1983، ط. 3. [الجزء الأوّل]

- السّيرافيّ، أبو سعيد. شرح كتاب سيبويه، تحقيق: أحمد حسن مهدلي وعليّ سيّد عليّ. بيْروت–لبنان: دار الكتب العلميّة، 2008، ط. 1. [الجزء الأوّل]
- السّيوطيّ، جلال الدين. همع الهوامع شرح جمع الجوامع في عِلْم العربيّة، تحقيق: عبد العال سالم مكرم. بيْروت–لبنان: دار المعرفة للطّباعة والنّشر، 1326هـ/ 1908م، ط. 1. [الجزآن 1+2]
- عوض، سامي؛ يحيا، مالك؛ زهيري، كسرى، «الضّرورة الشعريّة عند أبي عبد الله محمد بن جعر القيروانيّ من خلال كتابه (ضرائر الشِّعر)»، مجلّة جامعة تشرين للبحوث والدّراسات العِلميّة 36، العدد 6 (2014): 217–233.
- غروندان، جان. التّأويليّة، ترجمة: جورج كتوره. بيْروت–لبنان: دار الكتاب الجديد المتّحدة، 2017، ط. 1. [1990]
- القدوري، عبد المجيد؛ والمجاهد، الحسين، «التّحليل اللّغويّ منهاج لاستنتاج جوانب حضاريّة نموذج: تحليل الأدب الأعجميّ الموريسكيّ» في التّاريخ واللّسانيات النّصّ ومستويات التّأويل أعمال المائدة المستديرة تنسيق وتقديم عبد الأحد السّبتي (الرّباط: كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة/ مراكش – 25–26 ماي، 1990)، 27–35.
- القلقشنديّ، أبو العباس أحمد بن عليّ. كتاب قلائد الجمان في التّعريف بقبائل عرب الزّمان، تحقيق: إبراهيم الإبياريّ، القاهرة–مصر: دار الكتاب المصريّ/ اللّبنانيّ، 1982، ط. 2.
- القيروانيّ، أبو عبد الله محمد بن جعفر التّميميّ القزّاز. ضرائر الشِّعر: أو كتاب ما يجوز للشّاعر في الضرورة، تحقيق وشرح ودراسة: حمد زغلول سلاّم؛ محمد مصطفى هدّارة. الإسكندريّة–مصر: منشأة معارف الإسكندريّة، 1982، ط. 1.
- لومان، نيكلاس. مدخل إلى نظريّة الأنساق، ترجمة: يوسف فهمي حجازي. كولونيا–ألمانيا، بغداد–العراق: منشورات الجمل، 2010، ط. 1. [2002]
- المالكيّ، طارق. الاستدلال في المنطق وتطبيقاته في اللّسانيات. عمّان–الأردن: دار كنوز المعرفة للنّشر والتّوزيع، 2019، ط. 1.
- مسعود، جمال عبد الهادي محمّد؛ جمعة، وفاء محمّد رفعت. أخطاء يجب أنْ تُصحّحَ في التّاريخ جزيرة العرب سيرة هود وصالح وشُعيْب وسليمان عليهم

السّلام وأصحاب الأخدود وأصحاب الفيل. المنصورة-مصر: دار الوفاء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 1997، ط. 3. [الجزء الأوّل]
- مكغين، كولن. فلسفة اللّغة شرح الكلاسيكيات، ترجمة: متعب القرني. الرّياض-المملكة العربيّة السّعوديّة: دار معنى للنّشر والتّوزيع، 2021، ط. 1. [1997]
- ميلاد، خالد، «تصنيف آخر لأعمال الكلام» في الدّلالة النّظريات والتّطبيقات أعمال النّدوة المهداة إلى روح الأستاذ عبد الله صولة، جمع النصوص وراجعها وقدّم لها خالد ميلاد (تونس: جامعة منوبة-كلّيّة الآداب والفنون والإنسانيات/ وحدة البحث المصطلح الدّلاليّ، 2015)، 136-145.
- الميلود، عثماني. التّخييل موضوعًا للتّفكير. الدّار البيْضاء: شركة النّشر والتّوزيع المدارس، 2022، ط. 1.

الأجنبيّة

- Agha, Asif. « Registers of Language. » In *A Companion to Linguistic Anthropology*, (2004), 23-45. Oxford, UK : Blackwell Publishing Ltd.
- Baayen, R. Harald. *Analyzing Linguistic Data A Practical Introduction to Statistics Using R*. New York: Cambridge University Press, 2008.
- Di Sciullo, Anna Maria. « On Aspects of the Theory of Syntax. » *Inference* 6, no 2 (2021) : 1-7.
- DOI: 10.37282/991819.21.35
- Duranti, Alessendro. *Linguistic Anthropology*. New York: Cambridge University Press, 1997.
- Giovanelli, Marcello & Harrison, Chloe. *Cognitive grammar in stylistics a practical guide*, London : Bloomsbury Publishing Plc, 2018.
- Glanville, Peter John. *The Lexical Semantics of the Arabic Verb*, UK : Oxford University Press, 2018.

- Jeshion, Robin. « Slurs, Inflammatory Language, and the Specificity Problem. » *Croatian Journal of Philosophy* 25, no 75 (2025) : 315-337. https://doi.org/10.52685/cjp.25.75.2
- Kehler, Andrew. *Coherence*, *Reference*, *and the Theory of Grammar*, California : CSLI Publications, 2002.
- Lacour, Philippe. « Faire sens. Essai sur la philosophie selon Gilles-Gaston Granger. » *ATALA- L'objet de la philosophie aujourd'hui*, 8 (2005) : 129- 139.
- Paar, Christof & Pelzl, Jan.*Understanding Cryptography A Textbook for Students and Practitioners*. Berlin- Heidelberg : Springer-Verlag, 2010.
- Ruler, Betteke van. « Communication Theory: An Underrated Pillar on Which Strategic Communication Rests. » *International Journal of Strategic Communication* 12, no 4 (2018): 367-381, DOI: 10.1080/1553118X.2018.1452240

الألوان في عرفان الأكمه

د. وليد الزيدي

مخبر المباحث الدلاليّة واللّسانيّات الحاسوبيّة (LR18ES46)
كلّيّة الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، جامعة منوبة، تونس

الملخّص:

نبسط في هذا المقال تصوّرا مخصوصا للألوان، يتيح للكفيف الأكمه أن يتمثّلها ويبني متصوّرات مكافئة لها. وذلك لأن الألوان طاقات إبصاريّة لا يحقّق الكفيف معانيَها ولا يفقهها بالإبصار، وإنّما يحسن أن تتأدّى إلى ذهنه من طريق السمع بالتركيز على الصوت في خصوصيّته ومميّزاته وتشكّلاته وطبقاته. فتنشأ، في ذهن الكفيف الأكمه، تمثّلات ذهنيّة قوامها ما يصل إلى سمعه من أصوات مخصوصة مختلفة مائزة تصدرها عناصر الكون في تفاعلها مع الطبيعة. فينشئ منها تصوّرات، ويبني عليها مقارنات، ويستلهم منها إيحاءات تكوّن في عقله سمات تمييزيّة للألوان ومراجعَ سمعيّة لها.

على هذاا ليست الألوان سمات بصريّة أو صورا مرئيّة وتشكّلات مشهديّة، تتميّز درجاتها وتركيباتها بالإدراك البصريّ، وإنّما هي، لدى الكفيف الأكمه، يمكن أن تكون منتجات صوتيّة تكون قرائن مادّيّة على الألوان وتستمدّ من تميّز الأصوات واختلافها مراجعها ال حقيقيّة.

فالألوان إذن أصوات تتميّز في ذهن الكفيف الأكمه، تميّز الألحان والأنغام وتقترن كلّ خصوصيّة صوتيّة بخصوصيّة لونيّة تحيل عليها في السمع.

لذلك نقترح في هذا المقال منطقا في التفكير يمكن أن نقرّب على وفقه متصوّرات الألوان بالنسبة إلى المكفوفين الذين يستولي تركيزهم عل السمع ويعتنون بما يصل إلى الأذُن أكثر ممّا تدركه سائر الحواسّ.

الكلمات المفاتيح: الكفيف الأكمه، اللون، الذهن، العرفان، التجربة الإدراكيّة، التمثّلات، التصوّرات، الصوت، الخصوصيّات الصوتيّة، الوقع، السمع، الإبصار، الإدراك، التمييز، الموسيقى.

Résumé :

Nous proposons, dans cet article, une conception particulière portant sur les méthodes permettant aux non-voyants ayant une cécité congénitale de conceptualiser les couleurs et visualiser leurs caractéristiques en formant des représentations mentale similaires à leurs manéfestations visuelles.

En effet, nous centrons l'intérêt sur la perception sensorielle des aveugles et leurs compétences distinctives axcées sur l'expérience auditive qui prime sur tous les autres sens et les prédomine.

Les couleurs constituent des énergies visuelles dont la personne aveugle de naissance ne peut appréhender pleinement les significations et les gammes ni les réaliser mentalement par l'imagerie visuelle.

Il est toutefois possible de les représenter, dans sonimagination, par la sensation auditive et les images mentales procédées de l'audition, en s'appuyant sur l'ensemble des variations de la voix et la pluralité des sons émanés de la nature.

La conception des couleurs provient,chez le non-voyants de naissance,selon cette conception, de la perception des sons et relève de l'audition.

Le non-voyant de naissance, peut alors déceler les couleurs et percevoir sa variation par le biais des sons, à travers leurs aspects acoustiques, leurs caractéristiques et spécificités mélodiques, et leurs intonations.

Les représentations mentales conçues par l'aveugles de naissance sur les couleurs et élaborées par son expérience auditive, puisent leurs sources dans les caractéristiques propres aux sons et des particularités vocales inhérentes aux phénomènes naturels. Ces derniers, émettent leurs identités sonores et énoncent des orientations créant des sensations auditives équivalentes à la communication verbale.

De plus, chaque phénomène naturel produit une intensité sonore équivalente à la musique instrumentale. Ces sensations auditives et ces variations sonores, influencent la réception de l'aveugle de naissance et l'incitent à créer des concepts cognitifs, à établir des comparaisons et procéder à des associations conceptuelles formant, dans son esprit, des traits distinctifs pour les couleurs. Ces derniers sont dérivés de la variation sonore et fondés sur l'ensemble des inflexions que prend la voix diffusée.

Dès lors, les couleurs ne sont pas, pour le non-voyant de naissance, des phénomènes de nature visuelle, des images perceptibles ou des configurations scéniques, dont les nuances, les subtilités et les valeurs se distingueraient par la vision et la constatation réelles. Les couleurs pour le non-voyant de naissance, représentent des productions sonores et des faits auditifs qui puisent leurs véritables références dans la spécificité mélodique et la diversité vocales et musicales produises par la nature.

Les couleurs sont donc des sons, des produits accoustiques des représentations verbales, qui se distinguent dans l'esprit du non-voyant de naissance tout comme se distinguent les mélodies et les intonations à l'écoute. Elles réfèrent, dans sa mémoire, à la diversité des phénomènes naturels et des composantes de l'univers.

C'est pourquoi nous proposons, dans cet article, une logique de pensée qui permet d'envisager la conception des couleurs chez la personne aveugle par les sons et la spécificité de la production vocale et les sources auditives qui intègrent les unités symboliques du langage dans la communication et la compréhention.

Les couleurs donc, sont des représentations sonores vocalisées véhiculées par des images auditives verbalisées.

Mots-clés : Le non-voyant, la cécité congénitale, la couleur, l'esprit, la cognition, l'expérience perceptive, les représentations mentales, l'imagerie mentale, Les conceptions, La conceptualisation, Les références, les perceptions, le son, vocal, les phénomènes naturels, les caractéristiques sonores, l'impact, l'audition, la vision, la perception, la distinction, la musique, les instruments musicaux.

المقدمة:

فرضيّة هذا البحث، أنّ اللون لا يمثّله للمكفوف الأكمه الوصفُ، مهما يكن بيانه، ولا يقرّبه إلى ذهنه التذوّقُ، كما اقترحت بعض الدراسات، وإنّما تمثّله له اللغةُ بمواردها وما ينشئه هو بها من عوالمَ على خلاف ما يتواضع عليه الناس، ويقرّبه إليه الصوتُ والنغمُ واللحن. فالإبصار، إنّما يكون بالكلام والأصوات. وذلك لأنّ الصوتَ الذي يُسْمَعُ والكلمةَ التي تُنْطَقُ هما التجربتان الإدراكيّتان المتيسّرتان للمكفوف، ومنهما تنبع تمثّلاته وسيطرته على العالم. وهو ما سنحاول التبسّط فيه على وفق عنصرين. نمحّض أوّلَهما لتأثير اللغة في توجيه الأكمه إلى إنشاء الصور. ونخصّص ثانيهما إلى الموارد الرمزيّة التي يتوخّاها المكفوف للإبصار بالألوان والأشياء المرئيّة.

1 ـ اللغة، عند المكفوف، تجربة إدراكيّة مخصوصة:

يرى قدر من الدّارسين (Fraiberg، 1977؛ Dunlea، 1989؛ Sampaio، 1994؛ Hatwell، 2003؛ Galiano & Baltenneck، 2007؛ Galiano & coll.، 2012؛ Portalier، 2009)، بناء على ما نتج عن تجارب اختبروا بها كفايات المكفوفين الذّهنيّة والتّصوّريّة، أنّ النّظام التّصوّريّ المفهوميّ الذي يحكم أداء المكفوف وما ينتظمه من تمثّلات تصل الصّورة باللّغة، نظام يكاد يكون قاصرا مخالفا عن نظالنظام التصويريّ الذي للمبصرين. وآية قصور هذا النّظام التّصوّريّ ووجه الاضطراب في اشتغاله بيّن، في ما نبّهت عليه تجارب الدّارسين، في معرفة المكفوف بحقائق العالم الواقعة معرفة تخالف عمّا يعرفه المبصرون، وفي اكتسابه اللّغة على نحو متأخّر، وفي استعماله الكلمات ووعيه بمعانيها وعيا تعوزه التّجربة الإدراكيّة المبكّرة وفي فهمه الدّلالة الفهمَ الملتبس وإجرائه المقاصد على ما يخالف مقامَ الخطاب. (HatwellK 1966، 2003).

فأمّا معرفة المكفوف بالعالم، فإنّ ما يستفاد من الدّراسات المطّردة على التّصوير الذّهنيّ للمكفوف (Imagerie mentale) (Lambert، Sampaio، 2001 Mauss & Scheiber، 2004؛) هو ضعف القدرة على إنشاء الصّورة الملازمة لاشتغال اللّغة بما أنّ الصّورة واللّغة هما النّظامان التّمثيليان الأكبران

تُبنى بهما وفيهما عمليّات العرفان، وتنمّيهما ضروب التّجارب الحسيّة الحركيّة ويرفدهما الإدراك البصريّ. وكلّ ذلك يفتقر إليه المكفوف في بناءه التّمثّل ونشاطه للتّواصل بالعالم. فيكون إلى العزلة أقرب منه إلى التّفاعل مع الآخرين، يستبدّ به التّوحّدُ لأنّ الصّورة البصريّة هي ما يؤلّف بينه وبين من يحفّونه (Keller، 1958). وهو ما يعترف به طه حسين: من أنّ «حياته حيرة متصلة كلما خلا إلى نفسه. وكان لا يملك أمره إلا حين كان يتحدث إلى الناس أو يسمع لهم أو يختلف إلى الدروس أو يصغي لما كان يقرأ عليه.» (الأيام، ج3، ص114): ترى غاليانو ومن يتعاون معها (Galiano & Baltenneck، 2007؛ Galiano & coll.، 2012) أنّ المكفوف الفاقد مكوّنا من مكوّنات التّجربة مهمّا هو الإدراك البصريّ، يعرف العالم معرفة تنبو عن معرفة المبصرين به لأنّ تلقّي الصّورة وإنشاء التّصوّر اللّذين يعوزهما البصر المفقود ولا يشحذهما الإدراك المبكّر، يؤثّران في الوعي بما يخفق في المحيط من حركات وما يحدث من أحداث. لذلك يعوّل المكفوف، في إنتاج الصورة والتمثّل، على اللغة يتغلغل فيها ويستمدّ منها توجيهات وتدلالا. وهو يكاد يغرق في الخيال ويقطع ما بينه وبين الخارج من أسباب تبعد به ولا تجدي عليه نفعا. وهو ما يشهد له قولُ طه حسين: «وإنَّما كان يخلو إلى نفسه ويعيش في عالَمٍ من الْخَيال يستمدُّه من هذه القصص والكُتب المختلفة التي كان يَقْرَؤها فيُسْرِفُ في قِراءَتها» (الأيام، ج1، ص119–120). فيكون النّظام المفهوميّ التّصوّري الذي يميّز المكفوف من غيره نظاما مخصوصا لا يكاد يمدّ بسبب إلى ما يتكافأ فيه المبصرون من تمثّلات وما يشتركون فيه من تصوّرات، لأنّ المعرفة، كما يذهب إلى ذلك روسل (Russel، 1912، ت.1965) تُشتَقّ من التّجربة وأنّ ثمة ضربا من المعرفة تقصر اللّغة عن أدائه وتهن عن تبليغه. فهي معرفة حسيّة مباشرة تستوعب مظاهر الأشياء التي تحفظها الصّورة في الذّهن وتعيد بناءها وتجدّد إنتاجها مصبغة عليها من الوعي الذّاتيّ ما يبعثها خلقا جديدا لا يجور عن حقائق الحال كلّما أثارها في الذّهن مثير أو قدحها في النّفس قادح. وإذا لم يُتِح البصر للذّهن أن يبني ضروب هذا التّمثيل بالمعرفة المباشرة، وإذا عزب البصر عن جملة الحواسّ النّاقلة للمعلومة الإدراكيّة، وإذا نشط المكفوف للحركة متأخّرا وجرّب الأشياء متعثّرا، اختلفت المعرفة والتبست عليه المفاهيم في ذهنه لاختلاف مصادر المعلومة الإدراكيّة وتأثر معاني المفاهيم باختلاف

المعرفة التي يفسدها اشتباه الألفاظ واختلاط معانيها في اللّغة من حيث بنية العلامة (الدّالّ والمدلول) وعدم مجانسة الصّورة للملفوظ وعسر مطابقة القصد المستفاد للقول المنجز (Dunlea، 1989)، و(Capet، 2012).

فلكأنّ المعرفة التي تتحصّل للمكفوف وتستيقنها نفسه وتُشحَن بها تصوّراته معرفة تُستمَدّ ممّا يتيحه له السّمع وما يصوّر له اللّمس، وهو يستكشف العالم ويسيطر عليه، (didErot، 1951)، فتنشأ تصوّراته للعالم ولظواهر الكون غريبة منكَرة، شأن تصوّر طه حسين للظّلمة التي يصنعها صوتا بدلا من أن يراها لونا أو أثرا أو يحسّها زمنا. وهو ما يدلّ عليه قوله: «والغريب أنه كان يجد للظلمة صوتًا يبلغ أذنيه، صوتًا متصلا يشبه طنين البعوض لولا أنه غليظ ممتلئ. وكان هذا الصوت يبلغ أذنيه فيؤذيهما، ويبلغ قلبه فيملؤه روعًا» (الأيام، ج2، ص38). فالمكفوف يبني بما يصنع من خطاب عالما من تصوّرات يسلكها في ما ينشط له من أعمال ويتصوّر بما يؤدّيه إليه اللّمس صورا قد لا تشهد لمظاهر الأشياء ولا تسعفه بعلم يجعله مع المبصرين سواء (Gaunet Gentaz، 2009 &).

ولا تفتأ الدراسات المطّردةُ على كفايات المكفوف الذهنيّة وطاقته التصوّريّة، تشهد لأمرين: أحدهما أنّ الأكمه يسلك المعارفَ المدرَكَةَ بالبصر وبسائر الحواسّ في المعلومات اللسانيّة، (قاليانو، 2013). والآخر، أنّ ما لا يدركه بالبصر، يستدرك عليه باللفظ، يُجْزِلُ حظَّه من البيان، وبه يتصوّر المرئيّاتِ، وبه يتمثّل الألوان. فاللغة تسهم الإسهام الأوفى في بناء النظام التصوّريّ وتركيزه في ذهن الأكمه. وذلك لأنّها، كما تؤكّد (Galiano، 2013)، أداة إبصاريّة مخصوصة، ونظام عرفانيّ يبصّر الضرير بما يعمى عنه، ويخوّله إنشاءَ صور قريبة من الواقع، وييسّره إلى خلق صور بعيدة عن الواقع أيضا، صور متمحّضة له خالصة لاعتقاده لا يفقهها إلا هو. وبإنشائه هذه الصورَ، ينتسب إلى العالم، وبها يمدّ إليه بالأسباب. فاللغة، بصفتها مواردَ رمزيّة ورصيدا علاميّا، هي العيار على كلّ صورة، والزمام على كلّ عبارة، والترجمان عن كلّ غيرِ ناطق. وذلك لأنّ الكلماتِ في تنسّقها وانتظامها في التركيب، إنّما تنوب عن الحقائق المدرَكة، وباللفظ يحقّق المكفوف في ذهنه ما لا يبصره. وقد بيّنت فرايبورغ (1977)، أنّ

اللغةَ واللمس هما السبيلان الوحيدتان اللتان لا مندوحة عنهما في فهم الأكمه الدلالةَ وتمثّله العالَمَ.

على هذا، فإنّ من الأمور التي كانت في المعقول موجودة، وفي المحصول معلومةً، أنّ اللونَ، في ذهن الأكمه، ليس صورةً مرئيّةً يبصّره بها الواصفون. فإذا صحّ أننا، كما يذهب إلى ذلك كوسلن (1994)، نفكّر بالصورة، وأنّ الصورةَ هي «يد العقل mind's hand)، فإنّ الكلماتِ ذات التصوير الذهنيّ البصريّ، كالقمر والنور، والألوان، وما إلى ذلك، أقلّ تمكّنا في ذهنه وأوهن بناء في خياله. أمّا الكلماتُ ذات التصوير الذهنيّ السمعيّ والتي لا يتطلّب فهمُ معانيها الإبصارَ بها، فهي أمكن في ذهنه، وأحكم. وللكلمات الإبصاريّة، في ذهن المكفوف، معان غريبة مستغلقة، شأن الألوان. فهي كلمات، بالقياس إليه، جوفاء واهية مثلها مثل الأجداث الخاوية لا يفقه لها المكفوف معنى، إلا أن يردّد ما يسمع، ويعيد ما يقال عنها دون أن يَعِيَ ذلك على وجهه. فإذا تمثّل له اللون في هيئة الكلمة وشُبِّهت له المرئيّاتُ بالكلمات، من حيث رسمها ونظامها وما يتصرّف منها، تمثّل اللونَ وصاغ له في ذهنه تمثيلا.

2 ـ لإبصار بالصوت:

إنّ الصوت في الأذن كالنور في العين. وخير ما يمثّل الألوان للأكمه، ويصوّرها في خياله، ممّا كان له فيه مستَغْنى عن غيره، وكفاية عن سواه، إنّما هو الصوت في مختلف طبقاته ودرجاته ومصادره. وذلك لأنّ الصوتَ يعرب، من جهة صحّة الشهادة، عن الأمزجة والخواطر، ويطلق ما تقيّده إرادةُ التحفّظ والتحرّز والمداراة. والصوت يعدل في أوزان البيان ما للإشارة من تبيان. ومنه تنشأ، عند المكفوف، الصورةُ التي لا ينحلّ شدادُها، ولا تتخرّم رُبُطُها، (هاتوال، 2003). فما تكِلُّ عنه العينُ، وما يقصر دونه الوصفُ، يَفي به الصوتُ حين يبلغ السمع. يشيع في الصوت من حشرجة، وما يشينه ممّا ينبو عنه السمعُ وينكره، يمثّل ما يشيع في الوجه من تورّم وتجهّم، وما عليه الهيئة من بسطة وضخامة. وقد اعتمد طه حسين على الصوت في وصف صديقه، فبدأ بوصف شكله وخصائص وجهه، ثم خَلُص إلى التنبيه على مصدر وصفه. وهو ما يفيده قوله: «وكان على قصره ضخما عريضَ الأطراف مرتبكها كأنّما سُوِّيَ على عجل، وكان

وجهه جهما غليظا، يخيّل إلى من رآه أنّ في خدّيه ورما فاحشا، ولم يكن صوته عذبا ولا مقبولا، وإنّما كان غليظا فجّا» (طه حسين، أديب، ص. 12). فبالصوت يتعرّف المكفوف على من حوله ومن يخالطهم، وبخصائص الصوت تنكشف له خصائص الصور والأشكال والهيئات.

ثمّ إنّ ما يكتمه القلبُ ينطقُ به الصوتُ، لذلك أبصر طه حسين صديقَه من صوته لا ممّا يصفه الواصفون. وهو ما يعترف به الصديقُ نفسُه، إذ يقول: «ولكنّك لم تَرَ وجهي ولا شكلي أيها الصديق وأكبر الظنّ أنّك عرفتَ من صوتي أني قبيح الشكل دميم الوجه بعيد كلّ البعد عن أن أروق العذارى، وأرضي أهواء النساء. ولم أكن أرى ذلك في نفسي، ولا أعترف به عليها» (طه حسين، أديب، ص. 106).

فما في الوجه من وسامة أو دمامة وما في الهيئة من قبح الشكل أو حسن القدّ والخفر، إنّما يبصره المكفوف بما يسمعه من أصوات، يميّزها تمييزا، وينشئ منها تصوّراته. فتكون الصور المنقولة إليه بالصوت والمدرَكة به، أوضح في ذهنه وأمكن في نفسه ممّا يحيط به الوصفُ، حتى وإن كانت هذه الصور مختلفة عمّا يعرفه الناس.

فعلى الصوت تستولي ثقةُ المكفوف في التصوّر، وعليه يتّكل في النفوذ إلى العالم من حيث يكتفي المبصرون بالظواهر.

ولعلّ في حديث طه حسين، دليلا إلى تبيّن النحو الذي ينحوه المكفوف في تمثّل الألوان وتصوّر الجمال. وهو حديث يجريه على لسان صديقه وهو يقول له وهو يحاوره: «قل الحقّ، إنّما تريد أن تسمع أحدَ هذين الصوتين اللذين تشيع فيهما العذوبة كما تشيع النضرةُ في الغصن المورِق اللدِن.» (طه حسين، أديب، ص. 35).

فما في الغصن المورق من لدانة ونضرة، وما في الأوراق من نضارة وخضرة، إنما يمثّلها للمكفوف حفيفُ الأشجار تضطرب في الريح العاصفة. ولقد أوتيَ المكفوف القدرةَ على تمييز الأصوات بعضها من بعض والإبصار بها. وما في البحر من زرقة، وما يغشاه من حركة، إنّما يصوّرها في ذهن الأكمه صوتُ الأمواج تصطخب وتتلاطم وتصطفق، لتخبر المكفوفَ المصغيَ لها بما يعاينه المبصر. ودرجات اللون الأحمر يمثّلها للمكفوف الصوت الرقيق الحادّ الذي يصدره

القوسُ وهو يُسْحَب على الربابة، أو تصدره المزامير. فالأصوات، عند المكفوف الأكمه، تعرب عن الضمائر وبها يتولّى مكنون السرائر، فهي على سمعه غالبة ولطبعه غامرة. والصوت دليل الأكمه إلى تصوّر الجسم والهيئة والخصوصيّات الدقيقة التي يدقّ المسلك إليها، والتي تعزب عن المبصر. وهو ما يفيده حديثُ طه حسين: «أيّهما آثر عندك وأحبّ إليك؟ صوت هذه الفتاة الناهد التي تسمّى عزيزة، وقد يضحكها ما تخوضون فيه، فإذا ضحكها يضطرب في الحجرة مشرقا صافيا مضيءا كأنّه البلّور» (طه حسين، أديب، ص. 30).

فكون الفتاة ناهدا، تصوير يخوّله للمكفوف الصوتُ، وما انتظم لها من بلاجة الوجه، وما انبسط به محيّاها من صفاء وإشراق، إنّما أدّاه إلى نفس طه حسين صوتُها وأعرب عنه ضحكُها. وفي رقّة ضحكها وطريقتها في التفاعل مع ما يَرِدها من أحاديث خصوصيّة روحها التي ينفذ إليها المكفوف من طريق الصوت. والإضاءة في المحيّا والصفاء في البَشَرة، والإشراق في الوجه، أوصاف يعرفها المكفوف الأكمه ممّا أدركه في البلّور من وقع إذا تحطّم جذاذا أو استوى زجاجا أو مُرّدت به الأشياء. وأثر البلّور في الجسم كأثر الصوت في السمع. فهو يستعين تجربتَه الإدراكيّة الحاصلة له بالحواس السليمة الأخرى ليستبصر بها العالم، ويتمثّل بها ما يقصر عنه البصرُ. فهو يوظّف معارفه الإدراكيّة في التعرّف على ما لم يدركه.

وخلاصة القول: أنّ للعمى في ذهن المكفوف تأثيرا في النظام التصوّريّ، لأنّه يؤخّر اكتسابه اللغةَ والنشاطَ للحركة. ثمّ إنّ في موارد اللغة طاقات تصوّريّةً تخييليّة، يستثمرها المكفوف في إنشاء الصور المدركة بالبصر وتمثّلها. وأن الصوت الذي يبلغ سمعَ المكفوف، يمثّل هويّات الأشياء وخصاءصها. وهو إلى ذلك الطاقة التي تجعل الكلمات في ذهنه ذات حياة، لأنّ معانيَها هي، بالقياس إليه، وجوهُ الناس وهيئاتهم وأحجامهم ومقاماتهم. فهي دليله في إنشاء الصور على وفق إدراكه، وفي بناء عوالمَ يخلو إليها، ويتّخذها وسائط بينه وبين ما يجهله وما لا يدركه. فبموارد اللغة، ينشئ الصورَ، وبالأصوات، مهما تكن مصادرها وطبقاتها، يتمثّل الألوان وكلّ ما لا يبلغه بعينه. وخير ما يقرّب اللونَ للمكفوف ويهديه إليه هو التمثيل بالأصوات في اختلافها وضروب تأثيرها في السمع.

قائمة المراجع:

المراجع العربيّة:

- حسين، طه، أديب (2002). تونس: دار المعارف للطباعة والنشر.
- حسين، طه (د.ت). : **الأيام**، ط.55، دار المعارف، القاهرة
- الزمخشريّ، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزميّ (ت.538 هـ). رسالة في التسلية لمن كُفّت عينُه. تحقيق: هلال ناجي. سوريا: مجمع اللغة العربيّة.

المراجع الأجنبيّة:

- Capet, A. (2012). *Confiance corporelle et cécité congénitale*. *Une approche psychomotrice d'un adolescent atteint du syndrome d'ostéoporose-pseudogliome*, Mémoire en vue de l'obtention du Diplôme d'Etat de Psychomotricienne non publié, Université Toulouse III, Toulouse.
- Diderot, D. (1951). Lettre sur les aveugles à l'usage de ceux qui voient. Paris : Gallimard.
- Dunlea, A. (1989). Vision and the Emergence of meaning. Cambridge: University Press.
- Fraiberg, S. (1977a). *Insights from the Blind*. *Comparative studies of blind and sighted infants*. London, UK: Souvenir Press.
- Fraiberg, S. (1977b). *Every child's birthright*: *In defense of mothering*. New york: Basic books.
- Galiano, A.R., & Baltenneck, N. (2007). Interactions verbales et déficience visuelle: le rôle de la vision dans la communication. *Revue électronique de Psychologie Sociale*, 1, 47-54. En ligne http://RePS.psychologie-sociale.org.
- Galiano, A.R., & Portalier, S. (2009). Les fonctions du langage chez la personne aveugle. Méta-analyse de la relation entre connaissance et langage. *L'année psychologique*, 109, 123-153.
- Galiano, A.R., Portalier, S., Baltenneck, N., & Poussin, M. (2012). Étude pragmatique des compétences référentielles des personnes aveugles. *Bulletin de psychologie*, 518, 129-139.

- Galiano, A.R. (2013). *Psychologie cognitive et clinique du handicap visuel*. Bruxelles : De Boeck.
- Hatwell, Y. (1966). *Privation sensorielle et intelligence*. Paris: PUF.
- Hatwell, Y. (2003b). *Psychologie cognitive de la cécité précoce*. Paris: Dunod.
- Hatwell, Y. (2008, Septembre). *Cécité précoce et développement cognitif* . Communication présentée à un colloque de l'APSLF, Rouen. En ligne http://www.univ-rouen.fr/servlet/com.univ.utilsKeller, WR. (1958). Autistic patterns and defective communication in blind children with retrolental fibroplasias. In PH Hoch & J Hubin (Eds), *Psychopathology of Communication*. New York: Grune & Stratton. pp. 64-83.
- Keller, WR. (1958). Autistic patterns and defective communication in blind children with retrolental fibroplasias. In PH Hoch & J Hubin (Eds), *Psychopathology of Communication*. New York: Grune & Stratton. pp. 64-83.
- Kosslyn, S. M. (A994). Image and Brain. The resolution of the imagery debate. Cambridge: MIT Press.
- Lambert, S., Sampaio, E., Mauss, Y., & Scheiber, C. (2001, Avril). *The somatosensory and visual cortex roles during a tactual mental imagery*: *An fMRI study*. Communication présentée au congrès annuel de l'ISMRM-ESMRMB, Glasgow (UK).
- Magee, B., & Milligan, M. (1995). On Blindness: Lettres Between Bryan Magee and Martin Milligan. Oxford: Oxford Univ. Pr. Piaget,J. & Inhelder, B. (1966). *L'image mentale chez l'enfant*. Paris : Presses universitaires de France.
- Piaget,J. & Inhelder, B. (1966). *L'image mentale chez l'enfant*. Paris : Presses universitaires de France.
- Russell, B. (1965). Problèmes de Philosophies. Paris : Payot (trad. Du 1912).

نحو الغموض

القسم الثاني (الخصائص والنّتائج)

Grammar of ambiguity

Second part (Characteristics and results)

د. سمير الأزهر جوّادي

مخبر المباحث الدلاليّة واللّسانيّات الحاسوبيّة (LR18ES46)
كلّيّة الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، جامعة منوبة، تونس

الملخص:

هذا المقال هو الجزء الثاني من مقال نشر في العدد الثاني من مجلة «الفكر اللساني» الصادر في (أفريل 2022)، ص ص 161-188.

في هذا القسم الثّاني من البحث، «نحو الغموض: الخصائص والنّتائج»، يقوم الباحث بتحليل ما توصّل إليه في القسم الأوّل، ثمّ يوسّع المدوّنة لاختبار صدقيّة النّتائج، لتشمل نماذج من مؤلّفات نحاة من الطبقات التّالية لسيبويه في البصرة، والكسائيّ في الكوفة. كـ: «معاني القرآن» للفرّاء. ونماذج من مؤلّفات نحاة المدارس اللّاحقة، كـ: «الخصائص» لابن جني، عن المدرسة البغداديّة، و«مغني اللّبيب» لابن هشام، عن المدرسة المصريّة، و«شرح جمل الزجّاجي» لابن عصفور، عن المدرسة الأندلسيّة.

وقد خلص الباحث من كلّ ذلك إلى أنّ الغموض، هو منطلق التّأليف النّحويّ في العربيّة. وهو محرّكه، ومصدر حيويّته الرّئيسيّ. وهو من عوامل ثراء تراثنا، الّذي نحتاج إلى تجديد وسائلنا، حتّى نبلغ غايتنا منه. وحتّى لا يبقى دليلا على أمجاد ماضينا فقط، بل سببا متينا إلى مستقبل أفضل أيضا.

الكلمات المفاتيح: النّحو، النّظام، المنهج، القواعد التّحويليّة، النّجاعة.

Abstract :

In this second section of the research named "ambiguity grammar: characteristics and results", the researcher analyzes what he has attained in the first section, then he expands the logbook to examine the veracity of the results in order to include samples of the works written by the grammarians who belonged to the class that succeeded Sibawayh in Basra, and Al_Kisa'i in Kufa, such as Al Farra's "Maani Al Quran" (Quran meanings), and some samples of the writings of the grammarians of the subsequent schools, like Ibn Jinni's "Al khasais" from Baghdad school, Ibn Hisham's "Mughni Al Labib" from the Egyptian school", and Ibn usfur's "Sharh Jumal Al_Zajjaji" from the Andalusian school.

The researcher induced that ambiguity is the basis of grammatical writings in Arabic language, its motor and the fundamental source of its dynamism, and it is one of the factors behind the richess of our traditions which requires modernization of our means in order for us to be able to take advantage of it, and to be not only a proof of our glorious past, but also a firm inducer for a better future as well.

Keywords : Grammar, The system, The method, Transformational rules, Efficacy.

القسم الثاني: خصائص نحو الغموض في التّراث:

إنّ تحليل ما توصّلنا إليه، بخصوص نحو الغموض في مدرستي البصرة والكوفة النّحويّتين، مفتاح رئيسيّ لفهم منطق اشتغال تراثنا في هذا الباب من أبوابه. وسنحاول بلوغ غاياتنا في هذا المستوى من البحث، بتناول ما نتناوله من مسائل، على أساس ثنائيّة البصرة والكوفة أوّلا، وعلى أساس ثنائيّة المنهج والمضمون ثانيا. فنأخذ خصائص نحو الغموض في المدرستين، من حيث منهجه، ثمّ من حيث مضمونه. ثمّ نقارن ما نتوصّل إليه، لفهم طبيعة العلاقة بين

المدرستين، وربّما تعديل بعض ما ساد من أفكار مسبقة، أو تأييدها، بحسب ما يهدينا إليه البحث من نتائج.

الباب الأوّل: خصائص نحو الغموض في المدرسة البصريّة:

الفصل الأوّل: منهج البصريّين في نحو الغموض:

نتناول هذا المستوى من البحث على أساس ثنائيّ، هو المسار، والوسائل. ونقصد بالمسار، التّدرّج المعتمد في التّعاطي مع مسائل الغموض النّحويّ. أمّا الوسائل، فنقصد بها، العدّة النّظريّة الّتي يستعين بها النّحاة على مغلقات المسائل، استدلالا، وتعليلا، وبرهنة، وتأييدا، ودحضا.

1 –المسار: انطلاقا من «الكتاب» لسيبويه – باعتباره ممثّلا للمدرسة البصريّة في هذا البحث – يمكن رصد المعالم التّالية، لمسار تناوله المسائل النّحويّة الغامضة.

أ –تحديد المسألة: ويكون ذلك في أبواب لها عناوين دقيقة، ذات إحالة مباشرة على المسألة موضوع النّظر، نحو: «هذا باب ما جرى من الأمر والنّهي على إضمار الفعل المستعمل إظهاره إذا علمت أنّ الرّجل مستغن عن لفظك بالفعل» (سيبويه، 1988، ج: 1، ص: 253). وهذا اختيار له أثر كبير على ما بعده، إذ يحتّم الالتزام بقضايا البحث، ويفرض سيرها على نهج واضح، منظّم.

ب –عرض الشّواهد: وهي إمّا من عموم الفصيح من كلام العرب، أو من القرآن الكريم، أو من الشّعر الحجّة، ومنه في «الكتاب»، «من ذلك قول العرب في مثل من أمثالهم: «اللهمّ ضبعا وذئبا» (نفسه، ج: 1، ص: 255).

ج –تفسير الغموض: ويكون ذلك ببيان موضع الغموض، وتفسير إعراب ما بدا إعرابه مشكلا من الكلام. ومنه في «الكتاب»: «وإذا سألتهم ما يعنون قالوا: اللهمّ اجمع [أو اجعل] فيها ضبعا وذئبا. وكلّهم يفسّر ما ينوي. وإنّما سهل تفسيره عندهم لأنّ المضمر قد استعمل في هذا الموضع عندهم بإظهار» (نفسه، ج: 1، ص: 255).

2 –الوسائل: تتنوّع الوسائل في «الكتاب»، وكلّها بسبب من الغموض. فلولاه ما كانت، ولا احتيج إليها. وهي للوصف، والاستدلال، والتّفسير. يتبيّن بفضلها

قواعديّة الاستعمال الغامض، وانسجامه مع النّظام، وعدم خروجه عليه. ومنها مصطلحات ذات صلة مباشرة بالغموض النّحويّ، كالحذف، والتّقدير، والتّقديم والتّأخير، والاستبدال. وغيرها ممّا توصف به الجمل المتولّدة من حيويّة القواعد التّحويليّة المختلفة، وتكون الصّلة بينها وبين الأصل صلة غير واضحة، يحتاج في بيانها إلى تأويل.

ومنها ما هو من الوسائل الّتي يستعين بها النّحاة، لفتح مغلقات بعض الاستعمالات، فيتحكّمون في شرودها، ويردّون بها ما بدا على غير السّمت، إلى السّمت. وما بدا على غير منهج العربيّة إليه. وهو باب بحث واسع، ليس من أهدافنا في هذا العمل الإحاطة التّامّة به، وإنّما بيان أهميّته في نحو الغموض، ودوره في بلورة المعالم الأساسيّة للتّفكير النّحويّ في العربيّة، في أحد أهمّ أطواره، وبين مدرستين من أهمّ مدارسه.

ومن هذه الوسائل الّتي رصدناها في «الكتاب» لسيبويه:

أ –القياس: القياس، أداة إجرائيّة عمليّة، له أركان أربعة. هي: المقيس، والمقيس عليه، والعلّة، والحكم. وهو في «الكتاب» كثير، ومنه قول سيبويه في «هذا باب ما جرى نعت المعرفة عليها»: «وإذا قلت: مررت بزيدٍ الرّاكعِ ثمّ السّاجدِ، أو الرّاكعِ فالسّاجدِ، أو الرّاكعِ لا السّاجدِ، أو الرّاكعِ أو السّاجدِ، أو إمّا الرّاكعِ وإمّا السّاجدِ، وما أشبه هذا، لم يكن وجه كلامه إلاّ الجرّ، كما كان ذلك في النّكرة. فإن أدخلت بل ولكن جاز فيهما ما جاز في النّكرة. فعلى هذا فقس المعرفة» (سيبويه، ج:2، ص:8).

والمقيس في هذا الشّاهد، المعرفة، والمقيس عليه النّكرة، والعلّة العطف، والحكم الجرّ للمعطوف عليه والمعطوف. واحتيج إليه، لأنّ الكلام قد يرد بنفس تلك الحروف، على غير ذلك الحكم. كالّذي نجده في «هذا باب بدل المعرفة من النّكرة والمعرفة من المعرفة وقطع المعرفة من المعرفة مبتدأة»: «وقد يكون مررت بعبدِ اللهِ أخوك، كأنّه قيل له: من هو؟ أو من عبد الله، فقال أخوك» (نفسه، ص: 16).

ب –الحمل: ممّا جاء في حدّ الحمل، وكان الأقرب إلى مقاصد هذا البحث وغاياته، وأوثق صلة بتراثنا النّحويّ، ما وجدناه في كتاب «تأويل اللّفظ والحمل على المعنى» لوئام الحيزم، وهو قولها: «يقتضي الحمل في اللّغة وجود شيئين حامل ومحمول متّصلين على نحو مّا. وإذا كان الحمل لغة ماديّا فهو في النّحو ذهنيّ (...) كما اعتمد النّحاة «الحمل على» مبدأ لتفسير ما بدا من الاستعمال خارجا عن الأصول الّتي جرّدوها وإرجاعهم إليها» (الحيزم، 2009، ص: 52).

وهو أنواع كثيرة، نكتفي منها في هذا البحث، بالحمل على اللّفظ، والحمل على الموضع، والحمل على المعنى، والحمل على الجوار، دون سواها، لأهميّتها في دراستنا من ناحية، ولأنّ التّوسّع في هذا الباب غير ذي جدوى فيها من ناحية ثانية.

* الحمل على اللّفظ: وهو من الوسائل الّتي اعتمدها سيبويه، في تفسير إعراب ما أشكل إعرابه من العربيّة، وأمثلته في «الكتاب» كثيرة، منها ما نطالعه في: «باب ما يحمل فيه الاسم على اسم بني عليه الفعل مرّة ويحمل مرّة أخرى على اسم مبنيّ على الفعل»، وهو قوله: «(...) ولو قلت هلك القومُ حتّى زيدًا أهلَكْتُهُ، اختير النّصبُ، ليبنى على الفعل كما بني ما قبله مرفوعا كان أو منصوبا، كما فُعِلَ ذلك بعد ما بني على الفعل وهو مجرور» (سيبويه، ج: 1، ص: 96).

* الحمل على الموضع: وشواهده في «الكتاب» كثيرة، منها ما ذكره سيبويه، لتفسير إعراب قول العـرب: «هو منّي درجَ السيّلِ، أي مكان درجِ السّيل»، وذلك في «باب ما شبّه من الأماكن المختصّة بالمكان غير المختصّ شُبِّهَتْ به إذا كانت تقع على الأماكن» (نفسه، ج: 1، ص: 412). فـ «دَرَجَ» تأخذ في الاستعمال موضـع «مَكَانَ»، وتحمل عليها، لتفسير الوجه في نصبها.

* الحمل على المعنى: من الحمل على المعنى في «الكتاب»، ما نطالعه في: «باب يحذف منه الفعل لكثـرته في كلامهم حتّى صار بمنزلة المثل»، وهو قـوله: «ومن ذلك قول عبد العزيز الكلابيّ: [من الوافر]

وجدنا الصّالحين لهم جَزَاءٌ وجـنّات وعينا سلسبيـلا

لأنّ الوجدان مشتمل في المعنى على الجزاء، فَحَمَلَ الآخِرَ على المعنى». (الكتاب، ج: 1، ص: 288). وأهميّة الحمل على المعنى فيما جرى من الكلام على الغموض بالغة. إذ به يفسّر الإعراب، ويقدّم الوجه فيه.

* الحمل على الجوار: الحمل على الجوار، كثير في «الكتاب»، وهو ضروب، فمنه: ما كان على الجوار المباشر، ومنه ما كان على الجوار القريب، ومنه ما كان على الجوار الواسع، وكلّه ممّا يحتاج إليه النّحاة، لتفسير ما أشكل. وقد قال سيبويه تأكيدا لمكانة الحمل في التّفكير النّحويّ العربيّ: «وقد حملهم قرب الجـوار على أن جرّوا: هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ، ونحوه، فكيف ما يصحّ معناه» (الكتاب، ج: 1، ص: 67).

ج -الإحالة: الإحالة نوعان، داخليّة، وخارجيّة. والدّاخليّة نوعان، قبليّة، وبعديّة. والخارجيّة نوعان، سياقيّة ومقاميّة. وهي من الأدوات الّتي تربط بين أجزاء الكلام، فيتّضح بها ما يكون بين مكوّناته من الأسباب، فيستعان بها في تفسير الإعراب، وبيان الوجه فيه.

* الإحالة الدّاخليّة:

- الإحالة الدّاخليّة القبليّة: وممّا يحمل في «الكتاب» على الإحـالة الدّاخليّة القبليّة، ما نطالعه في «هذا باب ما ينتصب فيه المصـدر كان فيه الألف واللاّم أو لم يكن فيه على إضمار الفعل المتـروك إظهاره، لأنّه يصير في الإخبار والاستفهام بدلا من اللّفظ بالفعل، كما كان الحذر بدلا من احذر في الأمر» (نفسه، ج:1، ص:335): «وذلك قولك: ما أنت إلاّ سيرا، وإلاّ سيرا سيرا (...) فكأنّه قال في هذا كلّه: ما أنت إلاّ تفعل فعلا، وما أنت إلاّ تفعل الفعل، ولكنّهم حذفوا الفعل لما ذكرت لك. وصار في الاستفهام والخبر بمنزلته في الأمر والنّهي، لأنّ الفعل يقع ها هنا كما يقع فيهما، وإن كان الأمر والنّهي أقوى لأنّهما لا يكونان بغير فعل» (نفسه، ج:1، ص:335). والإحالة الدّاخليّة القبليّة، ضروريّة في حالات الحذف والإضمار، لأنّه لا حذف إلا بعد الذّكر، ولا إضمار إلا بعد إظهار.

- الإحالة الدّاخليّة البعديّة: وممّا كان في «الكتاب» على الإحالة الدّاخليّة البعديّة قـول سيبـويه في معرض تناولـه «هذا باب ما ينتصب على إضمار الفعل المتـروك إظهاره في غيـر الأمـر والنّهي» (نفسه، ج: 1، ص: 290): «وممّا

ينتصب في غير الأمر والنّهي على الفعل المتروك إظهاره قولك: يا عبدَ اللهِ، والنّداءُ كلُّهُ، وأمّا يا زيدُ فله علّة ستراها في باب النّداء إن شاء الله تعالى» (نفسه، ج:1، ص: 291).

ولهذا الضرب من الإحالة فوائد، لعلّ أجلّها فيما يظهر لنا من هذا البحث، توجيه القارئ، وترتيب ما يقرأ في ذهنه على نحو يجعله أكثر ما يكون انسجاما مع الكاتب. فإذا هما يسيران في الكتاب على نهج واحد، فينجلي ما قد يكون من غموض في بعض مستويات الكتاب بفضل تلك الإحالات.

– الإحالة الخارجيّة السّياقيّة: من الإحالة الخارجيّة السّياقيّة، في «الكتاب»، قول سيبويه في «هذا باب من المعرفة يكـون فيه الاسم الخاصّ شائعا في الأمّة»: «وقال ناس: كلّ ابن أفعل معرفة لأنّه لا ينصرف، وهذا خطأ، لأنّ أفعل لا ينصرف وهو نكرة، ألا ترى أنّك تقول هذا أحمرُ قُمُدٌ فترفعه إذا جعلته صفة للأحمر، ولو كان معرفة كان نصبا، فالمضاف إليه بمنزلته، قال ذو الرّمّة: [من الطّويل]

كأنّا علـى أولاد أَحْقَـبَ لاحــها ❋ ورمـيُ السّفا أنفاسها بسهام
جَنُوبٌ ذوت عنها التّناهي وأنزلت ❋ بها يـومَ ذبّابِ السّبيب صِيَــام

كأنّه قال: على أولادِ أَحْقَبَ صِيَامٍ» (نفسه، ج:2، ص ص: 99 100–).

– الإحالة الخارجيّة المقاميّة: ما يحمل من «الكتاب» على الإحالة الخارجيّة المقاميّة، كثير، منه، قول سيبويه في: «هذا باب ما ينتصب من الأسماء الّتي أخذت من الأفعال انتصاب الفعل، استفهمت أو لم تستفهم»: «وذلك قـولك: أقائما وقد قعد النّاس، وأقاعدا وقد سار الرّكب (...) وذلك أنّـه قد رأى رجـلا في حال قيام أو حال قعود، فأراد أن ينبّهه، فكأنّه لفظ بقوله: أتقوم قائما وأتقعد قاعدا، ولكنّه حذف استغناء بما يرى من الحال، وصار الاسم بـدلا من اللّفظ بالفعل فجرى مجرى المصدر في هذا الموضع» (الكتاب، ج: 1، ص ص: 340 – 341).

وهذا الضّرب من الإحالة، يكثر في تقدير المحذوف في الأعمال اللّغويّة. كالتّحذير، والإغراء، والتّوبيخ. وغيرها ممّا جرى في النّظم مجراها، ويفسّر إعراب ما كان غامضا من الكلام.

د -التّرجيح: التّرجيح يكون إذا كان لأحد الرّأيين ما يقدّمه على الآخر، ولولا الغموض ما كان. فإذا كان الرّأيان متفاوتين بحجّة ظاهرة، لم يحتج إلى التّرجيح، أمّا إن كانا متقاربين، ولأحدهما حجّة ليست للآخر جاز التّرجيح، وأفاد. كما في: «هذا باب ما يضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره بعد حرف». وهو قوله: «وإذا أضمرت فأن تضمر النّاصب أحسن، لأنّك إذا أضمرت الرّافع أضمـرت له أيضا خبـرا، أو شيئا يكون في موضع خبره، فكلّما كثر الإضمار كان أضعف» (نفسه، ج: 1، ص: 259). فالنّصب والرّفع جائزان، وكلاهما صواب، ولكنّ كراهة كثرة الإضمار، إذا أمكنت قلّته، قدّمت النّصب على الرّفع، ورجّحته.

الفصل الثّاني: منهج الكوفيّين في نحو الغموض:

نسلك في هذا الفصل من البحث، مسلك الفصل الأوّل. فنبنيه على ثنائيّة المسار، والوسائل. ونراعي في ذلك خصائص المدوّنة المعتمدة في البحث، فقد يكون في «معاني القرآن» للكسائي، ما لا يوافق خطّتنا في تناول «الكتاب» لسيبويه. فنحتاج إلى قراءة الأثرين قراءة تحفظ تمايزهما وتراعي الفروق الّتي بينهما.

-1المسار: لمسار الكتابة في «معاني القرآن» خصوصيّة لم تستمرّ بعد الكسائيّ، مع نحاة الطّبقات اللاّحقة من الكوفيّين، ولا غيرهم، إلاّ مع الفرّاء، ومن كتب في معاني القرآن وإعراب مشكله. حيث بنوا كتبهم – وكلها تحت عنوان «معاني القرآن» أو «إعراب مشكل القرآن – على ترتيب آيات المصحف الشّريف. ولهذا المسار ثلاث خطوات، هي:

أ – عرض الآية: اعتمد الكسائيّ في عرض ما يعرضه من آيات القرآن الكريم، ترتيب السّور في المصحف، وترتيب الآيات في السّور. ولم يأت عليها آية آية، وإنّما عمد إلى الانتقاء، على أساس الغموض، أكان ذلك الغموض من جهة الإعراب، أم من جهة القراءة. وهو ما جعله يترك عديد السّور، فلا يتناولها، إمّا لأنّ وجه الغموض فيها قد سُبِقَ إليه في سورة قبل، أو لوضوح الوجه في إعرابها. فالسّور الّتي وردت في «معاني القرآن»، (95 سورة)، من مجمل (114 سورة)، هي مجموع سور القرآن الكريم. والآيات الّتي تمّ تناولها فيه، (690 آية)، من (6236 آية)، بنسبة: (٪11.06) تقريبا.

ومن شواهد هذا المستوى من مسار الكتابة النّحويّة لدى الكسائيّ، ما نطالعه في صدر كلامه على ما رآه على الغموض من آيات سورة البقرة، وهو: «قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:2). «(...) جيء باللاّم في ذلك لئلاّ يتوهّم أنّ ذا مضافة إلى الكاف» وقال: «ذلك إشارة إلى القرآن الّذي في السّماء ولم ينزل بعد» (معاني القرآن، ص: 61).

ب – تحديد موضع الغموض: ومنه في «معاني القرآن» ما كان عند تناول الآية: ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (يونس: 37). وهو قوله: «[تصديقَ] «قال الكسائيّ: ولكن كان تصديقَ الّذي بين يديه» ويجوز الرّفعُ على أنّهُ خبر مبتدأ محذوف وتقديره... ولكنْ هو» (نفسه، ص: 158). فهو يبدأ بتحديد موضع الغموض النّحويّ، [تصديقَ]. ثمّ يبيّن الوجه في إعرابه، بتقدير عامل النّصب، [كان]. ويطرح وجها آخر ممكنا، مخالفا للأوّل، برفع [تصديق]، على أنّه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: (هو).

ج – تفسير الإعراب: ليست كلّ الآيات الّتي تناولها الكسائي في «معاني القرآن» على الغموض النّحويّ، فمنها ما يشتغل بالخلاف في نطق كلمة معيّنة، أو بالخلاف في قراءة آية ما. وممّا جاء في هذا الكتاب لتفسير الإعراب – وهو ما يعنينا في هذا البحث – قوله، في سياق تناوله قوله تعالى: ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ (يونس: 98). «نُصِبَتْ لأنّه استثناء ليس من الأوّل أي لكنّ قومَ يونُسَ» (نفسه، ص: 160).

2 –الوسائل: الوسائل في «معاني القرآن»، لا تخرج عن وسائل سيبويه في «الكتاب». إلاّ أنّ فرق ما بين الكتابين حجما، يجعل الأمر أظهر في «الكتاب» منه في «المعاني». وسنكتفي في هذا المستوى من البحث بتناول القياس، والحمل، والإحالة، والتّرجيح. ونختار لكلّ منها من الشّواهد ما يظهره، ويبيّن أهميّته.

أ –القياس: منه في «معاني القرآن»، قول الكسائي في سياق تناوله الآية: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت: 3). «ويجوز (قرآنٌ عربيٌّ) بالرّفع يجعلانه نعتا لكتاب قال مثل قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ (الأنعام: 92)» (نفسه، ص: 224). فالمقيس هو ما جرى من الكلام

على الحذف، وهو الآية موضوع النّظر. والمقيس عليه هو الآية الثّانية التّامّة، والعلّة وجوب تمام الإسناد، والحكم الرّفع.

ب –الحمل: ممّا يسبق إلى الملاحظة في هذا المستوى من البحث، أنّ حضور هذه المفاهيم في «الكتاب» أظهر وأثرى. وهي في «معاني القرآن» قليلة، وربّما احتاج مقتفيها إلى التّأويل، ليثبت وجودها فيه. لذلك لن نطلب التّوسّع فيما لم يتوسّع فيه المؤلّف، ولن نحاول إثبات وجود ما لا يوجد في كتابه.

* الحمل على اللّفظ: ومن الحمل على اللّفظ ما ذكره الكسائيّ في معرض تناوله قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**﴾ (آل عمران: 97) (...) هي شرط في موضع رفع بالابتداء. والجواب محذوف، تقديره: من استطاع فعليه الحجّ، ويدلّ عليه عطف الشّرط الآخر بعد قوله في قوله: (ومن كفر)» (نفسه، ص: 104).

* الحمل على الموضع: للحمل على الموضع في «معاني القرآن» عديد الشّواهد، منها، ما ورد عند تناول الكسائي الآية: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**﴾ (البقرة: 26). وهو قوله: «التّقدير أن يضرب مثلا ما بين بعوضة، حذفت «بين» وأعربت بعوضة بإعرابها» (نفسه، ص: 65). وقد أعرب المذكور حملا على موضع المحذوف، فانتصب وحقّه الخفض.

* الحمل على المعنى: من شواهد الحمل على المعنى لدى الكسائيّ في «معانيه»، ما نجده في تناوله قوله تعالى: ﴿**فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ**﴾ (الأحقاف: 25). «معناه لا يرى شيء إلاّ مساكنهم فهو محمول على المعنى، كما تقول: ما قام إلاّ هندٌ، والمعنى ما قام أحدٌ إلاّ هندٌ» (نفسه، ص: 233).

ج –الإحالة: ممّا يحمل على الإحالة في «معاني القرآن» ما ذكره الكسائيّ في سياق تناوله قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ**﴾ (فصلت: 41) «قال الكسائي: (في خبر إنّ): قد سدّ مسدّه ما تقدّم من الكلام قبل (إنّ) وهو قوله: (أمّن يلقى في النّار)» (نفسه، ص: 225). وهي إحالة داخليّة قبليّة.

د –التّرجيح: يكون التّرجيح، إذا احتمل الإعراب أو القراءة أكثر من وجه، لأحدها ما يقدّمه على غيره، فيرجّح عليه. ومنه في «معاني القرآن» ما سيق عن

الكسائي في معرض تناوله قوله تعالى:﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (هود: 111)، وهو قوله: «[قرأ الكسائيّ بتشديد (إن) وتخفيف لما] وأنكر أن تخفّف (إن) وتعمل، وقال: لا أدري على أيّ شيء قرأوا (إنّ كلاّ). قال الكسائيّ: [في القراءة بتشديد (إن) و(لما)]: «الله عزّ وجلّ أعلم بهذه القراءة ما أعرف لها وجها». وقال: «وإنّما تقرأ كما أقرئنا، وذلك أنّ (إن) إذا نصبت بها – وإن كانت مخففة – كانت بمنزلتها مثقلة. و(لما) إذا شدّدت كانت بمنزلة إلاّ» (نفسه، ص: 165)

القسم الثّالث: نتائج البحث

إنّ تناول نحو الغموض في هذا البحث، قد مكّننا من التوصّل إلى نتائج عديدة. سنحاول عرضها في هذا المستوى من العمل، معتمدين المسار نفسه الّذي سلكناه في تناول ما تناولناه من مسائل. فنعرض منها ما تعلّق بنحو الغموض في مستوى البنى العميقة، ثمّ ما تعلّق منها بغموض البنى السّطحيّة، مع بيان أثر كتابي المدوّنة المعتمدة، لا فقط في مؤلّفات الطّبقات الموالية من نحاة نفس المدرسة، بل في عموم كتب النّحو الّتي كانت فيما تلا من الأطوار الموالية من تاريخ النّحو العربيّ.

فـ «الكتاب» لسيبويه – وهو من أعلام الطّبقة الرّابعة من نحاة البصرة – هو أوّل أثر يصل إلينا من نحاة هذه المدرسة. كما أنّ «معاني القرآن» للكسائيّ – وهو من أعلام الطّبقة الثّانية من نحاة الكوفة – هو أوّل كتاب يصل إلينا من نحاة هذه المدرسة. ولهذا التّرتيب لكلا الكتابين أهميّة كبرى في فهم تطوّر التّأليف النّحويّ في العربيّة. وفي فهم أيّ الاتّجاهين كانت له الغلبة.

من أجل ذلك، عمدنا إلى جعل هذا القسم من البحث، ثلاثة أبواب.

أوّلها لنتائج قسمه الأوّل، الّذي اشتغلنا فيه برصد معالم نحو الغموض في المدرستين، من خلال الكتابين المدوّنة اللّذين اعتمدناهما في هذا البحث.

وثانيها لنتائج قسمه الثّاني، الّذي اشتغلنا فيه باستقراء ما هدانا إليه القسم الأوّل. سواء في مستوى مسارات الكتابة لدى سيبويه والكسائيّ، أو في مستوى الوسائل المعتمدة لديهما، لتفسير الغموض النّحويّ من ناحية، وبيان وجوه إعراب ما بدا مشكلا من العربيّة من ناحية ثانية.

أمّا ثالثها، فلمعانٍ عامّة، وسمات شاملة، يمكن من خلالها فهم مسارات تطوّر التّأليف النّحويّ في العربيّة. وفيه سنحاول الإجابة عن السّؤال المحوريّ لهذا البحث. وهو: هل أنّ المدارس النّحويّة – وخاصّة منها مدرستا البصرة والكوفة – اتّجاهات فكريّة مختلفة، أم هي مسارات متعدّدة داخل نفس الاتّجاه؟

الباب الأوّل: الغموض أساس النّحو:

ممّا سلّمنا به منذ بدايات هذا البحث، أنّ موضوع التّفكير النّحويّ، هو الغموض، لأنّ الواضح لا يحتاج إلى تفسير، ولا إلى تعليل، ولا إلى تأويل، ولا إلى برهنة. فكلّها من لوازم الغموض، يحتاجها النّحويّ لبيان مواضع ذلك الغموض، وتفسير إعراب ما جرى من الكلام عليه. وعلى هذا فإنّ الغموض هو سبب ظهور علم النّحو، وعليه مدار كلام النّحاة، وبه اشتغالهم. وما من باب من أبواب كتبهم، إلاّ وقد حوى مسائل مشكلة، وطرح ما بين النّحاة فيها من الخلاف، وأدلى فيها برأيه، وقارع بحججه.

وقد اعتبرنا في القسم الوصفيّ من هذا العمل، أنّ الغموض يمكن أن يكون في البنى العميقة للجملة، كما يمكن أن يكون في بناها السّطحيّة. وهو في الثّانية أظهر منه في الأولى، ولكنّه على نفس الدّرجة من الأهميّة في كليهما. لذلك أفردنا لكلّ منهما فصلا، نعرض فيه أهمّ النّتائج الّتي توصّلنا إليها فيه.

الفصل الأوّل: غموض البنى الأساسيّة البسيطة.

المقصود بالأساسيّة، البنية القواعديّة الأولى للجملة، قبل أن يجري عليها أيّ نوع من أنواع التّحويلات. إسنادا إلى المجهول، أو حذفا، أو زيادة، أو استبدالا، أو تقديما وتأخيرا، أو غير ذلك ممّا يمكن عدّه من التّحويلات. وبالبسيطة، غير المركّبة. وسنحاول في هذا المستوى من البحث، أن نستقرئ ما توصّلنا إليه في القسم الوصفيّ لهذه المسألة من ملاحظات، ونستنبط ما يحكمها من قواعد، من خلال نتائجه الأساسيّة، سواء منها ما تعلّق بالمدرسة البصريّة، أو ما تعلّق بالمدرسة الكوفيّة.

فمن الجوامع المشتركة بين «معاني القرآن» للكسائيّ، و«الكتاب» لسيبويه، استخدامهما مفهوم الأصل، بلفظه أو بمعناه، لتعيين البنية المرجعيّة للجملة في

العربيّة، ومن شواهد ذلك في «الكتاب» ما نطالعه في «هذا باب الابتداء» وهو قوله: «(...) كما تؤخّر وتقدّم فتقول: ضرب زيدا عمرٌ، وعَمْرٌ على ضرب مرتفع. وكان الحدّ أن يكون مقدّما ويكون زيد مؤخّرا. وكذلك هذا، الحدّ فيه أن يكون الابتداء فيه مقدّما» (سيبويه، ج 1، ص: 127). ومن شواهده في «معاني القرآن» قول الكسائيّ في معرض تناوله الآية: ﴿**إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**﴾ (البقرة: 271): «الأصل فنعمّ ما هي، فحذفوا ما الأخيرة اختصارا» (الكسائي، ص: 95).

فالبنية العميقة للجملة في العربيّة – في تقديرنا – هي ما اصطلح عليه عَلَمَا المدوّنة المعتمدة في هذا البحث بـ: «الأصل»، فهو العلاقة الإسناديّة البسيطة الّتي لم يطرأ عليها أيّ ضرب من ضروب التّحويل الممكنة. فيكون الحذف، والزّيادة، والاستبدال، والتّقديم والتّأخير، كلّها باعتبار ذلك الأصل. والغموض في هذا المستوى من البنية نادر، وقد لاحظنا أنّ أكثره يجري في الفصل والوصل. فلا يستبين، أهو جملة، أم جملتان؟ وأهو على القطع، أم هو على الوصل، شأن ما وقفنا عليه في أمثلة من «الكتاب»، ومواضع عديدة من «معاني القرآن». منها ما جاء في معرض تناول الآية: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا**﴾ (آل عمران: 7): «الرّاسخون مقطوع ممّا قبله والكلام تمّ عند قوله (إلاّ الل هـ)» (الكسائي، 1998، ص: 96).

فالغموض في مستوى البنية العميقة، سواء منه ما تجلّى في الفصل والوصل، أو ما كان في أقسام الكلام، كأسماء الأفعال الّتي لم تخلُصْ لأحد القسمين، فلم تكن اسما ولا فعلا. أو ما كان في اعتبار «ما» مثلا، مشبّهة بليس، أو غير مشبّهة. كلّه لا يمكن أن يقيم دليلا قويّا على أنّ الغموض سمة من سمات البنية العميقة للكلام في العربيّة. فالبنية العميقة، سمتها الوضوح، والبساطة. وهو ما يجعلها المرجع في الحكم على قواعديّة المنجز من الكلام.

وعلى هذا، فإنّ الغموض هو سمة البنى السّطحيّة، فهي ترتبط ارتباطا عضويّا بالتّجربة الفرديّة للمتكلّم، وبالطّبيعة الإبداعيّة الّتي تميّزها. فالمتكلّم لا يبدع نظام القواعد، بل قد لا يعرفها معرفة دقيقة، وإنّما يستبطنها استبطانا بشكل فطريّ، يسمح له بإنجاز عدد لا متناه من الجمل القواعديّة، على غير مثال سابق، وفهم ما

لا يتناهى من الجمل القواعديّة الّتي لم يسبق أن تلقّاها، وقبول ما كان منها صوابا ورفض ما كان منها خطأ.

والبنية السّطحيّة، كلّ ما ينجزه المتكلّم، بينما البنية العميقة نظام القواعد المستبطن في العقل. فكلّ ما يقوله المتكلّم أو يكتبه، هو تصرّف في نظام القواعد، وليس استعراضا لها. لذلك هو من البنى السّطحيّة، الّتي لا تتمثّل فقط فيما ينشأ من كلام عبر القواعد التّحويليّة المختلفة، سواء منها ما تحدّثنا عنه في هذا البحث، أو ما لم نتحدّث عنه. وإنّما تشمل كلّ صور التّعبير الممكنة جميعها، حتّى ما كان منها ممثّلا للبنية العميقة تمثيلا تامّا. لأنّه حتّى في تلك الصّورة من صور الإنجاز، يعبّر عن تجربة متفرّدة للمتكلّم، وعن اختياراته الخاصّة في تأثيث المواضع المجرّدة للجملة الّتي حقّقها في السّياق المعيّن الّذي أنشأ فيه كلامه.

المقصد نفسه، لدى ثلاثة متكلّمين للعربيّة، يمكن أن يكون التّعبير عنه على أساس قواعديّ واحد. فيكون جملة فعليّة بسيطة، من (فعل)+(فاعل) +(مفعول)، ولكنه لا ينتج الجمل نفسها بل ينتج ثلاث جمل:

أ- خرج زيدٌ صباحًا.

ب- غادر زيدٌ صباحًا.

ج- ذهب زيدٌ صباحًا.

فهذه الجمل على مستوى محور التّوزيع متماثلة، جمل فعليّة، مكوّناتها تستجيب للأصل في كلّ يقتضيه أصل الجملة الفعليّة، سواء من حيث المكوّنات أو من حيث التّرتيب. فهي: (فعل)+(فاعل) +(مفعول). ولكن على مستوى محور الاختيار يتميّز بعضها عن بعض. فالفعل في الجملة (أ) ليس هو الفعل في الجملة (ب)، والفعل في الجملة (ب) ليس هو الفعل في الجملة (ج)، والفعل في الجملة (ج) ليس هو الفعل في الجملة (أ). وهو ما يعني أنّ البعد الإبداعيّ لدى المتكلّم يتحقّق في كلّ ما ينجزه، سواء منه ما التزم فيه بنظام القواعد، أو ما اعتمد فيه القواعد التّحويليّة.

ولكن، لأنّ ما يعنينا في هذا البحث هو الغموض النّحويّ، لم نشتغل بمثل هذه المسائل، وصرفنا العناية إلى ما في البنى السّطحيّة من غموض، ظننّا - وأيّدتنا

الشّواهد الكثيرة والبحوث السّابقة – أنّه أجرى فيما كان من الكلام على القواعد التّحويليّة.

الفصل الثّاني: القواعد التّحويليّة ونجاعة النّظام اللّغويّ.

ما سبقنا إليه في الفصل الأوّل، يدلّ على أنّ مدار الغموض النّحويّ هو البنية السّطحيّة، وأنّ البنية السّطحيّة وظّفت وسائل كثيرة ليكون غموضها مفيدا. وأهمّها القواعد التّحويليّة. فالقواعد التّحويليّة، من أدوات النّظام اللّغويّ، الّتي تحقّق له مرونة كبيرة، تمكّنه من التّعبير عمّا لا يتناهى من المعاني. وإبداع ما لا يتناهى من الجمل، وتحقّق له ما يحتاجه من النّجاعة.

ويمكن اختزال أهمّ نتائج هذا المستوى من البحث فيما يلي:

1 –الغموض وحيويّة التّجربة اللّغويّة للمتكلّم:

من النّتائج المهمّة لهذا المستوى من البحث، أنّ الغموض النّحويّ، ذو صلة وثيقة بحيويّة التّجربة اللّغويّة للمتكلّم. فالمنجز سواء منه ما كان يوميّا، أو أدبيّا، تصرّف لا ينتهي في نظام القواعد، واستفادة متجدّدة من مرونته. والقواعد التّحويليّة، حذفا، وزيادة، واستبدالا، وتقديما وتأخيرا، وغيرها ممّا لم نعدّده في هذا السّياق، هي الأدوات الّتي يتيحها النّظام للمتكلّم للتّعبير عن مقاصده، بجمل مختلفة، تطرح باختلافها، اختلافا بين النّحاة في إعرابها، بسبب غموض العلاقة بينها وبين نظام القواعد الّذي تنتمي إليه.

2 –الغموض وحيويّة المعنى:

النّتيجة الثّانية لهذا المستوى من البحث، مرتبطة ارتباطا عضويّا بالنّتيجة الأولى. فاللّفظ والمعنى، لا فكاك لأحدهما من الآخر، ولا وجود لأحدهما خارج الآخر. فهما وجهان لعملة واحدة، فحيويّة التّجربة اللّغويّة في مستوى البنية، ترافقها حيويّة في مستوى المعنى. فالمعنى النّحويّ هو أساس المعنى البلاغي، والحذف – مثلا – كما في العديد من الشّواهد الفصيحة ينقل الكلام من الحقيقة إلى المجاز، والدّلالة من الضّيق إلى الاتّساع. ومنها قوله تعالى: «واسأل القرية»، على حذف المضاف في «القرية» بتقدير أنّها «أهل القرية». حيث إنّ المعنيّ بالسّؤال في «أهل القرية» محدّد، بينما المعنيّ بالسّؤال في «القرية» واسع.

3 –الغموض والإبداع:

سبقنا إلى الإشارة إلى العلاقة بين الغموض والإبداع في التّجربة اللّغويّة للمتكلّم. فالبنى السّطحيّة باعتبارها كلّ ما ينجزه المتكلّم من الجمل في السّياقات المختلفة، والمقامات المتعدّدة، يحكمها قانون، هو الإبداع. ومستعمل اللّغة إذ يستعملها، يأتي بجمل جديدة مفهومة، ويفهم ما لم يسمعه قبل من جمل جديدة أيضا. وهذا المنحى الإبداعي الّذي يحكم الاستعمال، يجب أن يستفيد استفادة قصوى من مرونة النّظام اللّغويّ. ممّا يطرح غموضا في تفسير إعراب العديد من الاستعمالات.

4 –الغموض وثراء النّظام اللّغويّ:

النّتيجة الرّابعة لهذا المستوى من البحث، هي أنّ القواعد التّحويليّة تعبير قويّ عن ثراء النّظام اللّغويّ وإمكانيّاته اللاّمتناهية في التّعبير عن مقاصد المتكلّم. والغموض ليس دليلا على فشل النّظريّة النّحويّة في تفسير قواعديّة بعض الاستعمالات، بقدر ما هي دليل على مرونة ذلك النّظام وقدرته على ابتكار بنى متجدّدة للتّعبير عن المعاني الجديدة. والغموض ليس نقطة ضعف، بقدر ما هو سمة مميّزة، تمنح نصوص لغة ما ثراء وعمقا، وتدلّ على قدرتها على التّعبير عن كلّ ما قد يحتاج متكلّمها إلى التّعبير عنه.

5 –الغموض ونجاعة النّظام اللّغويّ.

النّجاعة في مفهومها العامّ، هي تحقيق أفضل النّتائج، بأدنى تكلفة، وأقلّ وقت. وهي مفهوم أساسيّ في مجالات الإنتاج الاقتصاديّ المختلفة، ويمكن التوسّع في استخدامه في غير المجالات الاقتصاديّة ليشمل مختلف مجالات الحياة، ومنها اللّغة. فالقواعد التّحويليّة في لغة ما، تمنح الخطاب نجاعة كبيرة لا تكون له بغيرها. والمثال الأوضح على ذلك، ما نجده في الأعمال اللّغويّة. فالحذف في الإغراء، والتّحذير مثلا، يحقّق للجملة أعلى درجات النّجاعة الممكنة. ويبلّغ المتكلّم غايته بأقلّ مجهود. فتنبيه من خشينا عليه من الوقوع في حفرة وتحذيره منها، يمكن أن يكون بالحذف، كما يمكن أن يكون بالذّكر.

- بالذّكر: احذر الحفرةَ.

- بالحذف: الحفرةَ.

الجملة الثّانية، تمنح المَنَبَّهَ أجزاء من الثّانية، قد تكون كافية لسلامته. وهو ما يجعلنا نستنتج أنّ الاستعمال يضحّي بالوضوح النّحويّ لفائدة النّجاعة. فيصبح الغموض إحدى وسائل النّظام لتحقيق نجاحه في بلوغ غاياته، وتحقيق أهدافه.

6 -الغموض اختبار للنّظريّة النّحويّة

الغموض النّحويّ في مختلف مستوياته، وليد التّجربة المتجدّدة للمتكلّم مع نظام القواعد للغته. فالبنى السّطحيّة باعتبارها إجراء لجملة القواعد التّحويليّة، على ما وسمناه في مستوى سابق بالجملة الأصليّة، يفضي إلى إشكالات كثيرة في تفسير بعض المواضع الإعرابيّة فيما ينجزه المتكلّم من جمل. وهو ما يسمح لنا باعتبار الغموض اختبارا للنّظريّة النّحويّة، فهل هي قادرة على تفسيره، أم أنّها قد تعجز أحيانا عن ذلك؟

وفي هذا المستوى تستدعي النّظريّة مفاهيم، كالتّقدير، والقياس، والحمل، والإحالة... لتبيّن أنّها قادرة على تفسير إعراب جميع ما يدخل في الجمل القواعديّة من ملفوظ المتكلّم. فكلّ ما عدّ جملا صحيحة، تستطيع النّظريّة تفسير إعرابه مهما بدا مشكلا، ومهما كانت درجة غموضه. لذلك نجد سيبويه في رسالته الّتي أشرنا إليها في بدايات هذا البحث، يبيّن أنّ مجال علم النّحو، هو الجمل المستقيمة نحويّا، والمفيدة دلاليّا.

7 -النّظام اللّغويّ وحاجته إلى الغموض

الغموض النّحويّ في النّظام اللّغويّ ليس عيبا، ولكنّه حاجة. ولعلّ هذا الاعتقاد، هو الّذي جعل ابن جنّي في الخصائص، يسم الحذف وغيره من القواعد التّحويليّة، بـ: «شجاعة العربيّة». فاللّغة، كما الإنسان، وجود يحتاج لتكون له خصوصيّته وتميّزه إلى الشّجاعة. والكسائيّ، كما سيبويه، نظر إلى ما يجري في الاستعمال من تحويلات، على أنّه من الفصيح الصّحيح. وأنّ ما يكون فيه من غموض، هو من مكاسب النّظام اللّغويّ، وليس من نقاط ضعفه. وعلى النّظريّة النّحويّة تفسيره، لا اتّهامه.

الباب الثّاني: نتائج القسم الثّاني:
الغموض وتأسيس منهج الكتابة النّحويّة ومصطلحاتها

إنّ نتائج القسم الثّاني من هذا البحث، تقود في مجملها، إلى تبيّن العلاقة الوثيقة بين الغموض النّحويّ، والتّأسيس لمنهج الكتابة لدى النّحاة. ونشأة جهاز اصطلاحيّ مستقرّ ناجع، استطاع من خلاله نحاة المدوّنة المعتمدة في هذا البحث، أن يقدّموا حلولا منسجمة مع النّظريّة النّحويّة العربيّة لمختلف المسائل الّتي طرحوها، وتفسير إعراب ما بدا إعرابه مشكلا وفقا لأصول تلك النّظريّة ومبادئها.

واستقراء تلك النّتائج كان على أساس المسار الخارجي للكتابة النّحويّة لدى سيبويه في «الكتاب»، والكسائيّ في «معاني القرآن». ثمّ على أساس المسار الدّاخليّ للكتابة لديهما، والوسائل الّتي اعتمداها في تفسير الإعراب، والبرهنة على الوجه المرجّح في الاستعمال الغامض.

الفصل الأوّل: على مستوى المسار.

في هذا الطّور من أطوار الكتابة النّحويّة لدى العرب، لاحظنا اختلافا واضحا بين اختيارات سيبويه، واختيارات الكسائيّ. إذ عمد سيبويه إلى التّدرّج في تناول ما تناوله من قضايا، من المجمل إلى المفصّل. فيبدأ بعناوين الأبواب، «هذا باب...». ثمّ يطرح الأمثلة، ويبيّن موضع الإشكال فيها. ثمّ يفسّر إعرابها، ويبيّن وجوه الخلاف فيها، ليصل إلى ترجيح الوجه الّذي يراه أوجه، وتقديم الجواب الّذي يراه أشفى وأوفى. بينما عمد الكسائيّ إلى نهج آخر، ينطلق فيه من ذكر الآية موضع الغموض، ويبيّنه، في مستوى القراءة، وفي مستوى النّحو. ثمّ يفسّر إعرابه، ويأتي بالشّواهد المؤيّدة للوجه الّذي اختاره.

والاستنتاج الأهمّ في هذا المستوى، هو أنّ مسار سيبويه في الكتابة النّحويّة. أي: اعتماد الأبواب في عرض المسائل، هو المسار الّذي غلب على كتب النّحاة من بعده. فكلّ النّحاة، سواء منهم نحاة البصرة، أو نحاة الكوفة. سلكوا نهج سيبويه في الكتابة، إلاّ الفرّاء – وهو من نحاة الطّبقة الثّالثة من نحاة الكوفة – فإنّه نسج على منوال الكسائي. أمّا من جاء بعده من نحاة الطّبقة الرّابعة، كابن سعدان (261

هـ)، في كتابه «الوقف والابتداء في كتاب الله عزّ وجلّ»، ومن نحاة الطّبقة الخامسة والأخيرة من طبقات الكوفيّين، كثعلب (291 هـ). إلاّ في كتابه: «معاني القرآن». فإنّهم اعتمدوا طريقة سيبويه، ولم يختاروا طريقة الكسائي. ومن الشّواهد على ذلك من كتاب ابن سعدان، «باب تسمية حروف الجزاء» (ابن سعدان، 2002، ص: 86). ومن «كتاب الفصيح» لثعلب: «باب فعلت بفتح العين» (ثعلب، كتاب الفصيح، ص: 260).

وممّا تجدر الإشارة إليه في هذا المستوى، أنّ الكتب الموسومة بـ: «معاني القرآن» – وهي أربعون كتابا أحصاها ابن كيسان في مصنّفه المعنون بـ: «معاني القرآن وإعرابه» – تقتفي أثر الكسائيّ، خاصّة، في قسمها الّذي تشتغل فيه بإعراب مشكل الآيات، وبيان الوجه في إعرابها، وقراءتها. ونفس الشّيء بالنّسبة للكتب الموسومة بـ: «إعراب القرآن». وعددها حسب ابن كيسان، في نفس الكتاب، ثمانية وثلاثون. تركب نهج الكسائيّ في التّدرّج من عرض الآية موضع الغموض، إلى بيان مشكلها قراءة وإعرابا، فتفسيره. ثمّ ذكر الشّواهد للبرهنة على وجاهة الوجه المرجّح قراءة وإعرابا.

وهذا الاستنتاج يصبح أصدق وأعمّ، إذا سحبناه على المدارس النّحويّة اللاّحقة، كالمدرسة البغداديّة، ومدرسة مصر والشّام، ومدرسة الأندلس والمغرب. وسنمثّل لكلّ من هذه المدارس بنماذج من مؤلّفات أهمّ أعلامها، لتأييد ما توصّلنا إليه في هذا المستوى من البحث.

1 –المدرسة البغداديّة: ومن أهمّ أعلامها ابن جنّي (393 هـ)، الّذي اعتمد في «الخصائص»، منهج سيبويه، بعرض مادّة كتابه في أبواب. منها في صدر المجلّد الثّاني، «باب في ترك الأخذ عن أهل المدر كما أُخِذَ عن أهل الوبر» (ابن جنّي، 1952، ج: 2، ص: 5).

2 –مدرسة مصر والشّام: ومثالنا هنا، أحد أهمّ أعلام هذه المدرسة، وهو ابن هشام الأنصاري (761 هـ)، في كتابه: «مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب»، في مستهلّ مجلّده الأوّل. «الباب الأوّل: في تفسير المفردات وذكر أحكامها» (ابن هشام، ج: 1، ص: 5).

3 –مدرسة الأندلس والمغرب: وقد نهج ابن عصفور الإشبيليّ (669 هـ)، وهو أحد أعلام هذه المدرسة، في كتابه «شرح جمل الزجّاجي»، نهج سيبويه، فبناه على أبواب مرتّبة، كان أوّلها: «باب أقسام الكلام» (ابن عصفور، 1998، ص: 15). ثمّ تدرّج من العموم إلى الخصوص، ومن المجمل إلى المفصّل، في عرض مادّة كتابه، فكان من أبواب متنه، «باب البدل» (نفسه، ص: 250).

فمنهج سيبويه في كتابه قد أصبح منهج عموم النّحاة بعده، بينما استمرّ منهج الكسائيّ فقط فيما كان من كتبهم في معاني القرآن وإعرابه. ولعلّ لهذا ما يبرّره، فالكسائيّ – وهو أحد القرّاء السّبعة – كان في كتابه قارئا أكثر منه نحويّا. بينما كان سيبويه في كتابه نحويّا بالأساس. ويمكن أن نفهم هذين المسارين على معنى آخر، وهو أنّ المدارس النّحويّة لها جوامع تدعونا إلى مناقشة فكرة أنّها مدارس مختلفة.

الفصل الثّاني: على مستوى الوسائل:

اخترنا أن نجعل استنتاجات هذا المستوى من البحث قسمين.

أحدهما، لما يتّصل بالأدوات المنهجيّة، كالتّقدير، والقياس، والحمل، والإحالة وغيرها ممّا يدخل في بابها.

والثّاني، لما يتّصل بالمفاهيم والمصطلحات، كالجملة، والكلام، والإسناد، والحذف... وغيرها ممّا هو على منوالها.

وتجدر الإشارة هنا، إلى أنّ محور الكتابة النّحويّة، سواء في المدوّنة المعتمدة في هذا البحث، أو في غيرها من الكتب الّتي استندنا إليها لفهم المسار العامّ لتاريخ النّحو العربيّ، الغموض هو مدار علم النّحو ومحوره. ولهذا شواهد قويّة في عناوين بعض أبواب تلك الكتب، ومنها، في «معاني القرآن» للفرّاء (أبي زكريّاء يحيى بن زياد (207 هـ))، «تفسير مشكل إعراب القرآن ومعانيه» (الفراء، معاني القرآن، ج: 1، ص: 1).

وممّا هو على هذا الوجه في «مغني اللّبيب» لابن هشام، أبواب كثيرة، منها:

- «مسوّغات الابتداء بالنّكرة» (ابن هشام، 1964، ج: 2، ص:520).

- «المواضع الّتي يعود الضّمير فيها على متأخّر لفظا ورتبة» (نفسه، ص: 541).

- «بيان أنّه قد يظنّ أنّ الشّيء من باب الحذف، وليس منه» (نفسه، ص: 676).

فمنذ سيبويه والكسائيّ، ومن جاء بعدهما من أعلام مدرستيهما، مرورا بنحاة المدارس الموالية. وسواء كانت الكتابة على نهج «معاني القرآن»، تتناول إعراب مشكل القرآن الكريم، أو على نهج «الكتاب»، تحاول التّأسيس لمنوال متكامل في الكتابة النّحويّة. اشتغل النّحاة بالغموض، لا باعتباره مظهرا، بل باعتباره أساسا للتّفكير النّحويّ ومنطلقا رئيسيّا له.

وقد لاحظنا في هذا المستوى أنّ البدايات كانت لا تفصل بين المجالات، فنجد النّحو والصّرف والاشتقاق، والبيان، والقراءة، وغيرها ممّا يمكن أن يسوقه النّحويّ لتفسير الإعراب، أو للبرهنة على الوجه المرجّح لديه، تأتي بشكل يدلّ على عدم نضج هذا المجال المعرفيّ وعدم استقراره.

1 –على مستوى العدّة المنهجيّة:

استنتجنا في هذا المستوى من البحث، أنّ سيبويه والكسائيّ قد توسّلا الأدوات نفسها لتفسير إعراب ما جرى من العربيّة على الغموض. ولكنّ تلك الوسائل، كالتّقدير، والحمل، والإحالة، والقياس، وغيرها ممّا أشرنا إليه في مستوى سابق من هذا البحث. لم تحضر دائما صريحة، وإنّما اقتفيناها اقتفاء، وطلبناها من لوازمها في المواضع المختلفة الّتي وردت فيها. فنجد للتّعبير عن «التّقدير» عبارات، كـ: «الأصل»، أو «الحدّ»، أو «أي» التّفسيريّة. ولهذا شواهد كثيرة جدّا، منها في «الكتاب»: «كما تؤخّر وتقدّم فتقول: ضرب زيدًا عمرٌو، وعمرٌو على ضرب مرتفع. وكان الحدّ أن يكون مقدّما ويكون زيد مؤخّرًا» (سيبويه، ج: 2، ص: 127). ومنها أيضا قوله في: «باب أَنْ وإِنْ»: «وتقول: إنّه خليق لأن يفعل، وإنّه خليق أن يفعل، على الحذف. وتقول (...) اخلولَقَتْ السّماء أن تمطر، أي لأن تمطر» (نفسه، ج: 3، ص: 157).

ومن شواهد ذلك في «معاني القرآن» ما يقوله الكسائي في سياق تناوله الآية: **﴿وَأَوْرَثْنَا القَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا**

﴿فِيهَا﴾ (الأعراف: 137): «الأصل في مشارق الأرض وفي مغاربها ثمّ حذف (في) فنصب» (معاني القرآن، ص: 136).

وما يلتمس من الإشارات في كتب المؤسّسين، تفرد له الأبواب في كتب اللاّحقين، وخاصّة في كتب أعلام المدارس المتأخرة، كمدرسة مصر. حيث يفرد ابن هشام – وهو أحد أهمّ أعلام هذه المدرسة – الأبواب الكثيرة للحديث عن التّقدير، فيبيّن وجوهه، ووجاهته، وشروطه، وغير ذلك ممّا يحتاجه أهل الصّناعة للاستفادة من هذه الآلة وحسن إجرائها. ومن تلك الأبواب في «المغني».

- بيان مكان المقدّر (ابن هشام، 1964، ج: 2، 678).

- بيان كيفيّة التّقدير (نفسه، ص: 678).

وهو ما يمكّننا من الاطمئنان إلى استنتاج رئيسيّ في هذا المستوى من البحث، هو أنّ نحو الغموض قد أرسى أسسه وبنى قواعده، وكرّس مناهجه، وأنّ اهتمام النّحاة تجاوز في هذا الموضوع العناية بالمسائل مع نحاة الطبقات الأولى، إلى العناية بالوسائل مع النّحاة المتأخّرين. وهو ما حقّق للمشتغلين على الغموض النّحويّ عُدَّةً منهجيّة متكاملة يستطيع بها النّحاة حلّ ما استغلق، وتفسير إعراب ما غمض.

وما قيل عن التّقدير، يصحّ على القياس، والحمل، والإحالة وغيرها ممّا هو من قبيلها. فجميعها ممّا استخدمه سيبويه والكسائيّ في كتابيهما، مع تفوّق لسيبويه لا يمكن أن نحكم من خلاله بفوارق حقيقيّة تميّز «الكتاب»، وتقضي له بالفرادة. فنطمئنّ إلى أنّ نحو البصرة مذهب مختلف عن نحو الكوفة، اختلافا يجعلهما اتّجاهين متمايزين، لكلّ منهما قضاياه، ومناهجه، ومصطلحاته. فنحن، وحتّى هذا المستوى من البحث، وجدنا في مدوّنتنا ما يجمع بين المدرستين، أكثر ممّا يفرّق بينهما. وهذه أيضا نتيجة تحتاج نظرا. ولا يمكن أن يكون ما سبق كافيا لإثباتها، إلاّ أن يكون فيما سيأتي مساند له، ومؤيّد لمضمونه.

2 –على مستوى المصطلحات:

إذا سلّمنا بأنّ الغموض النّحويّ، متأتّ في البنى السّطحيّة من التّحويلات، الّتي يجريها المتكلّم، ليصيب مقاصده، ويحقّق أغراضه. فإنّ مصطلحات (نحو

الغموض)، سترتبط في مستواها الخاصّ بجملة القواعد التّحويليّة. الحذف، والزّيادة، والاستبدال، والتّقديم والتّأخير.

وفي استنتاج أوّليّ، نجد أنّ نحويّي المدوّنة في هذا البحث، قد تعاطيا مع هذه المصطلحات، على أنّها ممّا لا يحتاج إلى تعريف. فهي عندهما من المعلوم بالضّرورة، تأتي في السياقات المختلفة، دون تفسير لمعناها، ولا تعريف بمحتواها. وهي من جهازهما الوصفيّ لما يجري من العربيّة على الغموض، لتفسير إعرابه، وبيان وجوه الخلاف فيه، ثمّ تأييد أحدها، أو دحضها، وإثبات غيرها.

ودليل ذلك أنّهما لا يستغنيان عن التّعريفات في مواضع كثيرة من كتابيهما، فيتوسّعان في تعريف ما عُدَّ لديهما من المسائل. ويكتفيان بالتّسمية دون التّعريف فيما عدّ لديهما من الوسائل. ومثال ذلك في «الكتاب» قول سيبويه في «هذا باب الابتداء»: «فالمبتدأ كلّ اسم ابتدئ ليبنى عليه كلام. والمبتدأ والمبنيّ عليه رفع. فالابتداء لا يكون إلاّ بمبنيّ عليه. فالمبتدأ الأوّل والمبنيّ ما بعده عليه فهو مسند ومسند إليه» (الكتاب، ج: 2، ص: 127). ومثاله في «معاني القرآن» قول الكسائيّ، في معرض تناوله الآية: ﴿**قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ 80 بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ (البقرة: 80 – 81). (...) «الفرق بين (بلى) و(نعم) أنّ (بلى) إقرار بعد جحد، ونعم جواب استفهام بعد جحد» (معاني القرآن، ص ص: 74– 75).

ولكنّهما إذا ما تحدّثا عمّا وسمناه بالوسائل، اكتفيا ببيان موضع الغموض، والوجه في تفسير إعرابه، دونما عناية بتعريفة. ومثال ذلك من «الكتاب» قول سيبويه، في: «هذا باب ما يضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره في غير الأمر والنّهي»: «ومن ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿**بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾ (البقرة: 135) أي بل نتّبع ملّة إبراهيم حنيفا، كأنّه قيل لهم: اتّبعوا، حين قيل لهم: كونوا هودا أو نصارى» (الكتاب، ج: 1، ص: 257).

أمّا نحاة المدارس المتأخّرة، فإنّهم يولون تعريف المصطلحات عناية ظاهرة، فيفردون لها الأبواب العديدة. ومن ذلك ما نجده في «الخصائص» لابن جنّي. ومن تلك الأبواب:

- «باب في فرق ما بين البدل والعوض» (ابن جني، ج: 1، ص: 265).
- «باب في تخصيص العلل» (نفسه، ص: 144).
- «باب في الاعتراض» (نفسه، ص: 335).
- «باب في شجاعة العربيّة» (نفسه، ص ص: 360 -441).

ومن شواهد ذلك أيضا، ما نجده في مواضع كثيرة من «مغني اللّبيب» لابن هشام الأنصاري، حيث يقول في باب «بيان أنّه قد يُظَنُّ أنّ الشّيء من باب الحذف، وليس منه»: «جرت عادة النّحويّين أن يقولوا: يحذف المفعول اختصارا واقتصارا، ويريدون بالاختصار الحذف لدليل، وبالاقتصار الحذف لغير دليل ويمثّلونه بنحو (كلوا واشربوا) أي أوقعوا هذين الفعلين، وقول العرب فيما يتعدّى إلى اثنين «من يسمعْ يخلْ» أي تكونْ منه خيلة» (ابن هشام، ج: 2، ص: 676).

وما تجدر الإشارة إليه في هذا المستوى، هو تحرّر نحاة المدارس التّالية للبصرة والكوفة، من الارتباط بمواقف إحدى المدرستين. بل نجد النّحويّ يأخذ من هذه وتلك، ما رآها على صواب. ومن ذلك ما نجده عند ابن هشام، فهو يخالف الكوفيّين ويوافق البصريّين في مواضع. ويوافق الكوفيّين ويخالف البصريّين في مواضع أخر. ومن المواضع الّتي خالف فيها الكوفيّين، قوله في «باب إِن المكسورة الخفيفة» (نفسه، ج: 1، ص: 17): «الثالث أن تكون مخفّفة من الثّقيلة، فتدخل على الجملتين، فإن دخلت على الاسميّة جاز إعمالها، خلافا للكوفيّين» (نفسه، ج: 1، ص: 20). ومن المواضع الّتي يوافق فيها الكوفيّين، قوله: «وقد ذكر لــ «أن» معان أربعة أخر: أحدها: الشّرطيّة كإن المكسورة، وإليه ذهب الكوفيّون، ويرجّحه عندي أمور» (نفسه، ج: 1، ص: 34).

الخلاصة:

الغموض وتطوّر الكتابة النّحويّة:

يمكن أن نخلص ممّا سبقنا إليه من نتائج في هذا البحث، إلى أنّ نحو الغموض، باعتباره مدار الخلاف بين النّحاة في مختلف أطوار تاريخ هذا العلم من علوم العربيّة، أحد المحرّكات الرّئيسيّة لتطوّر مناهج النّحاة ومصطلحاتهم وطرق تعاطيهم مع المسائل المختلفة. فلحيويّة التّفكير النّحويّ والغموض، صلة واضحة، لا تتجلّى فقط في كتب الخلاف النّحويّ، ومن أشهرها «الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريّين والكوفيّين» لأبي البركات بن الأنباري (577 هـ) الّذي أحصى إحدى وعشرين ومائة مسألة. بل تتجلّى كذلك في كلّ ما أنشأه النّحاة من مؤلّفات، بداية من كتاب سيبويه، إلى كتب نحاة الطّبقات الأخيرة من النّحويّين.

واستقراء ما توصّلنا إليه في المراحل المختلفة لهذا البحث، جعلنا نخلص إلى أنّ الكتابة النّحويّة، قد تطوّرت عبر ثلاثة مناح، في مسار تميّزت بداياته بحويّة كبيرة، ونهاياته باستقرار شبه تامّ.

1 -المنحى التأسيسي: حيويّة التّفكير النّحويّ.

نعتقد أنّ الخلاف هو السّمة الغالبة على البدايات، في كلّ باب من أبواب المعرفة. فالمسائل، والوسائل، والمناهج، والمصطلحات، جميعها تخضع لاجتهادات المؤسّسين. ففي علم النّحو طال الخلاف حتّى تسمية هذا العلم، فهو عند نحاة الطّبقة الأولى من البصريّين «علم العربيّة»، وطالت مضمونه، ففي «الكتاب» النّحو، يشمل الإعراب، والصّرف، والاشتقاق، والبيان. ولكن مع النّحاة المتأخرين، انفصلت تلك الأبواب من المعرفة اللّغويّة، واستقلّ كلّ منها بموضوعه. فظهرت كتب اشتغلت بالجملة، وسمت بأنّها في النّحو. وكتب اشتغلت بالكلمة، وسمت بأنّها في الصّرف. ومن أكثرها شهرة، كتابا ابن الحاجب (646 هـ)، «الكافية» في النّحو، و«الشّافية» في التّصريف. وأشهر منهما ما ألّف في شرحهما، مثل «شرح الكافية» و«شرح الشّافية» للأستراباذي (686 هـ).

وتتميّز هذه المرحلة بالمرونة والاتّساع، فعلم النّحو ما زال يبحث عن نفسه، وما زال مؤسسوه يحاولون صياغة أركانه، ومنحه معالمه الخاصّة. ولعلّ أوّل الجهود في هذا الباب، ما نجده في صدر «الكتاب» لسيبويه»، وهو ما وسمه منصف عاشور، في بحث نشره بحوليات الجامعة التّونسيّة، بـ: «رسالة سيبويه». بل تتّسم في الغالب بالغموض، وعدم الاستقرار، وهو ما جعل نحاة مدوّنة هذا البحث يجتنبون تعريف ما اتّصل بنحو الغموض من وسائل تفسير، ومصطلحات. وسمات هذه المرحلة منحت التّفكير النّحويّ حيويّة لم تكن في غيرها من مراحله، ولا في أيّ طور آخر من أطواره.

ولقد شمل الخلاف العوامل، فعامل الابتداء عند البصريّين معنويّ، وهو الابتداء. بينما عامله عند الكوفيّين لفظيّ، فالمبتدأ والخبر عندهم يترافعان، فيكون العامل في المبتدأ الخبر، والعامل في الخبر المبتدأ. إضافة إلى خلافات عديدة في الحذف، والتّقديم والتأخير، وغيرها ممّا سبقنا إليه في مواضعه من هذا البحث. وفي علامات الإعراب استخدم البصريّون الجرّ، بينما استخدم الكوفيّون الخفض. وفي أيّهما الأصل في الاشتقاق الفعل أم المصدر، وقد قرّر البصريّون أنّ المصدر هو الأصل، بينما رأى الكوفيّون أنّ الفعل هو الأصل.

وكلّما اتّسع الخلاف زادت المساحة المباحة للتّفكير، وهو ما ميّز هذه المرحلة، ومنحها تأثيرا واضحا على ما تلاها من المراحل، وهو ما نلاحظه بوضوح تامّ في مؤلّفات البغداديّين، ومدرستي مصر والشّام، والأندلس والمغرب. فجميعهم ما عرضوا لخلاف إلاّ رجعوا فيه إلى أقوال أئمّة المدرستين وحججهم وأدلّتهم. ولعلّ اللاّفت في هذه المرحلة، ضعف الجانب التّنظيري، الّذي كان السّمة المميّزة للمرحلة الّتي تلت التّأسيس، ونقلت النّحو من المنحى الوصفيّ، إلى المنحى التّنظيري.

2 –المنحى التّنظيري: عمق التّفكير النّحوي.

إنّ ثراء طور التّأسيس في تاريخ النّحو العربيّ، وسم طور النّضج والاكتمال بالعمق النّظريّ. حيث اشتغل النّحاة بضبط المسائل، ووضع المناهج، وتحديد المصطلحات. ولعلّ أكثر الكتب تمثيلا لهذا المنحى، في هذا الطّور من أطوار تاريخ النّحو العربي. كتاب «الخصائص»، لابن جنّي. ففيه عناية بالحدود، ودقّة

في ضبط التّعريفات، لم يسبقه إليها غيره، وظلّت إلى اليوم، تثير إعجاب من بعده. ومن ذلك قوله في «باب القول على اللّغة وما هي»: «أمّا حدّها فإنّها أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم» (ابن جنّي، ج: 1، ص: 33).

وهذا المنحى التّنظيريّ، في خصائص ابن جنّي، غالب غلبة، توحي بأنّ علم النّحو قد تجاوز مرحلة التّأسيس، إلى ما يمكن اعتباره بناء للنّظريّة النّحويّة للّغة العربيّة. وذلك من خلال أبواب، مثل:

- «باب ذكر علل العربيّة أكلاميّة هي أم فقهيّة؟» (نفسه، ج: 1، ص: 48).
- «باب في مقاييس العربيّة» (نفسه، ج: 1، ص: 109).
- «باب في تعارض السّماع والقياس» (نفسه، ج: 1، ص: 117).
- «باب في عكس التّقدير» (نفسه، ج: 1، ص: 272).
- «باب في أنّ ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب» (نفسه، ج: 1، ص: 357).
- «باب في شجاعة العربيّة» (نفسه، ج: 2، ص: 360).
- «باب في تسمية الفعل» (نفسه، ج: 3، ص: 34).

ولعلّ هذه الخصائص، هي الّتي جعلت عبد القادر المهيري، يتحدّث عن النّظريّات النّحويّة لابن جنّي، في كتاب أنجزه باللغة الفرنسيّة، تحت عنوان: « Les théories grammaticales d'Ibn Jinnī نظريّات ابن جنّي النّحويّة» (المهيري، (عبد القادر)، 1973) ونقله إلى العربيّة محمّد الشّاوش، ضمن منشورات معهد تونس للتّرحمة، سنة: 2024. فالنّظريّة باعتبارها جهازا تفسيريّا، تتألّف من نظريّة عامّة، ونظريّات فرعيّة، تتكامل جميعا لتكسبها أعلى قوّة تفسيريّة ممكنة. فتكون بذلك قادرة، وفي إطار تلك النّظريّة، على تفسير جميع الاستعمالات القواعديّة في اللّغة العربيّة.

والمطّلع على «الخصائص»، يجد فيها ما لم يجده فيما سبقها من مؤلّفات النّحويّين. فابن جنّي لا يقف عند وصف اللّغة العربيّة، شأن سيبويه، والكسائيّ، بل يتجاوز الوصف إلى التّحليل، فالتّفسير. ولا يكتفي بالتوقّف عند المسائل،

بل يتناول الوسائل، والمفاهيم، ويتوسّع في تعريفها، وشرحها، ويبيّن قوانين اشتغالها.

3 -المنحى التّعليميّ: استقرار علم النّحو.

بعد ابن جنّي، سواء مع مدرسة مصر والشّام، أو مدرسة الأندلس والمغرب، وغيرهما من النّحاة الّذين عاصروهما، ولم يكونوا منهما. نجد ضمورا واضحا للمنحى التّنظيري، لصالح منحى جديد هو المنحى التّعليميّ. وفي هذه المرحلة من أطوار تاريخ النّحو العربي غلب الاستقرار، سواء على مستوى مضمون التّفكير النّحويّ، أو على مستوى مناهجه، ومفاهيمه الأساسيّة، وجوانبه الإجرائيّة.

ومن شواهد ذلك، قول ابن عصفور (669 هـ)، في كتاب «شرح جمل الزجّاجي»: «الأصل في الاشتقاق: وهذه المسألة خلافيّة بين أهل البصرة وأهل الكوفة. فمذهب أهل الكوفة أنّ المصدر مشتقّ من الفعل (...) وذهب أهل البصرة إلى أنّ الفعل مشتقّ من المصدر» (ابن عصفور، 1998، ج:1، ص: 28). فهو يعرض المعلومة عرضا، ليرسّخها لدى المتعلّم، فلا يناقشها، ولا يبيّن موضع الإشكال فيها، ولا حجج المتخالفين، ولا أساس تقديم وجه على آخر وترجيحه عليه.

ومن خصائص هذا المنحى، اعتماد خطاب توجيهيّ. تقدّم فيه الأدوات المعتمدة، في تفسير ما جرى من الكلام على الغموض النّحويّ، في شكل قواعد، يتمّ ضبطها بصرامة توحي باستقرارها. فهي ليست مجالا للنّقاش، بل وصفة للتّطبيق. وممّا يمكن الاستدلال به على ذلك، قول ابن هشام، في «بيان مكان المقدّر»: «القياس أن يقدّر الشّيء في مكانه الأصليّ، لئلاّ يخالف الأصل من وجهين: الحذف، ووضع الشّيء في غير محلّه» (ابن هشام، ج: 2، ص: 678).

وهذا المنحى التّعليميّ، يظهر في غلبة الخطاب التّعريفي، على التّحليل، والنّقاش، والتّفسير. حيث إنّ المخاطَبَ المفترضَ هو الطّالب، الّذي يصدّق ما يتلقّى، ولا يختبره. ومن شواهد ذلك، عناوين أبواب كثيرة من «شرح جمل الزجّاجي»، منها:

- «تعريف الفاعل» (ابن عصفور، 1998، ج:1، ص: 93).

- «تعريف المفعول به» (نفسه، ص: 99).
- «باب الاشتغال» (نفسه، ص: 346).
- «باب الجواب بـ «بلى» و«نعم» (نفسه، ج: 3، ص: 77).

وممّا يدخل في هذا المعنى، والفكرة فيه أوضح. ما نجده في «المغني» حيث وسم ابن هشام الباب السّابع، من الجزء الثّاني من كتابه، بـ: «في كيفيّة الإعراب والمخاطب بمعظم هذا الباب المبتدئون» (ابن هشام، ج: 2، ص: 741). فجعل الغاية التّعليميّة صريحة، مباشرة. وهو أمر يقتضي استقرارا تامّا في علم النّحو، فما كان محلّ خلاف يناقش. ولا يكون موضوعا للتّعليم، إلاّ ما اكتمل، ووصل درجة من النّضج، جعلته يستقرّ، مضمونا، ومنهجا، وأدوات، ومصطلحات.

إنّ اعتقادنا أنّ تاريخ النّحو العربيّ مسار، وليس أطوارا منفصلة، أو طفرات في فترات مختلفة من ذلك التّاريخ. يدعونا إلى اعتبار أنّ تقسيم كوفة/ بصرة، أشبه ما يكون بالموضة المعرفيّة، إن صحّت العبارة. إذ لم نجد اختبارا لهذا التّقسيم، إلاّ في البحوث الجديدة. ومن أكثرها فائدة في سياقنا هذا، كتاب منيرة القنّوني، «نشأة النّحو العربيّ: دراسة إبستيمولوجيّة للمنوال والتّناسق النّظريّ». وفيه قراءة مختلفة لذلك التّقسيم، من خلال حيويّة المسائل الخلافيّة، لا فقط بين المدرستين، بل عبر أطوار النّحو العربيّ المختلفة. مكّنتها من اختبار التّصوّرات القديمة، وطرح المسألة طرحا مختلفا، يسمح بمقاربة التّراث النّحويّ العربيّ على أسس جديدة مختلفة. وممّا جاء في كتابها المذكور، تعبيرا عن هذا المعنى، قولها: «يمثّل التّصنيف بصرة/ كوفة عائقا يحول دون اكتشاف العديد من المناويل الّتي تختفي وراء ما سمّي خاصّة بالمدرسة النّحويّة البصريّة، وأغلب الباحثين المحدثين الّذين ذهبوا إلى هذا التّصنيف كانوا متأثّرين بما ورد في كتب الطّبقات» (القنّوني، 2005، ص: 317).

الخاتمة:

نشير في خاتمة هذا البحث، إلى أنّ نحو الغموض، مدخل من مداخل كثيرة ممكنة، يستطيع من خلالها دارس العربيّة أن يجيب عن أسئلة، لا تجيب عنها بقيّة المداخل. وهو بما فيه من ثراء، وبما في تراثنا النّحويّ من حيويّة في هذا الباب،

يثير قضايا هامّة، ويختبر أحكاما وآراء، أصبحت بتواترها، واستقرارها، أفكارا محصّنة، على المعنى الّذي وضعه (كارل بوبر) في كتابه (أسطورة الإطار) لهذا المصطلح.

فنحو الغموض لا يُستقصى فقط من كتب الخلاف النّحويّ، بل من كلّ ما أنشأه النّحاة من مؤلّفات. وفي مختلف أطوار تاريخ هذا العلم من علوم العربيّة. على المستويين الأفقي والعموديّ. والمقصود بالأفقيّ، المسار المتزامن، شأن مدرستي الكوفة والبصرة. والمقصود بالعموديّ، المسار المتتابع، ويشمل نحاة أطوار مختلفة من تاريخ النّحو العربيّ. كطبقات نحاة المدرستين المذكورتين، ومدارس، بغداد، ومصر والشّام، والأندلس والمغرب.

وقد أتاح هذا المدخل الوقوف على أهميّة الغموض النّحويّ، في فهم المحرّكات الأساسيّة لتطوّر هذا العلم، سواء على مستوى مضمونه، أو على مستوى مناهجه، أو على مستوى مصطلحاته. كما أتاح تقسيم مساراته إلى ثلاثة مناح أساسيّة، هي المنحى التّأسيسيّ، والمنحى التّنظيريّ، والمنحى التّعليميّ، وتفسير حيويّة الأوّل، وعمق الثّاني، واستقرار الثّالث.

فحيويّة المستوى الأوّل مأتاها طبيعة البدايات، فالتّأسيس إمّا أن يكون على غير مثال، أو على أمثلة متعدّة. وفي الحالتين كلتيهما، يغلب الغموض. وهو ما لاحظناه، سواء في كتب إعراب مشكل القرآن الكريم، أو في كتب النّحو الأولى. حيث لم يول النّحاة عناية تذكر بما يدخل في نحو الغموض، سواء على مستوى المصطلحات، أو على مستوى الوسائل المعتمدة لتفسير إعراب ما أشكل إعرابه. وصرفوا موفور عنايتهم للمسائل، فبيّنوا مواضع الغموض، وحلّلوها، ثمّ فسّروا إعرابها، وعرضوا حججهم للوجه الّذي اختاروه، بشواهد من كتاب الله عزّ وجلّ، أو من الشّعر، أو من كلام العرب.

أمّا عمق المستوى الثّاني، فمصدره بلوغ الوصف غايته. وانتقال عناية النّحاة – وأهمّهم ابن جنّي – إلى التّفسير. حيث تبلورت المفاهيم الأساسيّة، واتّضحت ملامح النّظريّة النّحويّة. وفي كلّ مستوى من تلك المستويات، أثر واضح للغموض. فالتّعليل، والتّقدير، والقياس، والإحالة، كلّها بسبب من الغموض النّحويّ، ولولاه ما كانت. وهو ما يسمح لنا بالحكم، بأنّ النّظريّة النّحويّة العربيّة،

هي نظريّة لتفسير الاستعمالات الغامضة، لا لتفسير الاستعمالات الواضحة. والنّحو هو نحو الغموض، لا نحو الوضوح.

أمّا ما شهده المستوى الثّالث من استقرار، فمصدره اكتمال علم النّحو ونضجه، حيث لم يعد المجال مجال سجال بين النّحاة، ولا مجال استقراء، ولا مجال بحث عن الأطر المثلى، لتفسير ما جرى من الكلام على الغموض. وإنّما تحوّلت الغاية إلى غاية تعليميّة، يحاول من خلالها النّحويّون إكساب المتعلّمين مهارات الإعراب، والإحاطة بجملة الوسائل لحلّ ما أشكل من المسائل. ويدخل في هذه الفئة من النّحاة، نحاة ما بعد المدرسة البغداديّة عموما. مصر والشام، والأندلس والمغرب. كابن هشام، وابن عصفور، وألفيّة ابن مالك، وشروحها المختلفة.

وما سبقنا إليه، جعلنا نصل إلى نتيجة، لسنا أوّل من يصرّح بها. وهي أنّ مدرستي الكوفة والبصرة، ليستا اتّجاهين مختلفين لعلم النّحو في العربيّة، وإنّما هما جزء من مسار عامّ لتطوّره. وأنّ تقسيم البصرة/ الكوفة، ليس له ما يؤيّده، لا على مستوى المضمون المعرفيّ لكتب أعلام طبقات نحاة الفئتين، ولا على مستوى المنهج، ولا على مستوى وسائل التّفسير، والمصطلحات.

فتاريخ النّحو العربيّ، مسار، وليس محطّات منفصلة. ولا يمكن فهم ما وصل إليه من كمال لفت انتباه الدّارسين عربا، ومستشرقين، إلاّ إذا قرأنا حركته، ومنطقها، وفهمنا قوانين تطوّره إلى الصّورة الّتي آل إليها. لذلك لا بدّ من تجديد مناهج البحث في تراثنا، والاستفادة ممّا تقترحه النّظريّات الجديدة، سواء منها النّظريّات اللّغويّة، أو نظريّات المعرفة، وفلسفة العلوم، من وسائل لتحقيق فهم أفضل له، حتّى يكون نقطة انطلاق لرؤى مختلفة، تحيي التّراث وتجعله جزءا من حاضرنا لا فقط جزءا من ماضينا.

ويبقى هذا البحث محاولة – نرجو أن تكون مفيدة – لدراسة الغموض، وبيان دوره في حيويّة التّفكير النّحويّ في العربيّة، في طور مهمّ من أطواره. ولا يمكن أن يكون بأيّ حال من الأحوال، قد بلغ منتهى غاياته. وإنّما هو فتح باب لهذا الموضوع، نرجو أن تتلوه بحوث تضيف إليه. فتتجاوز نقاط ضعفه، وتستفيد من نجاحاته، لتبني عبر مسار متكامل، رؤية جديدة للتّراث، تنفتح على المستقبل. فنكون أكثر انتماء إلى تراثنا، وأكثر فعلا في حاضرنا، وأكثر أثرا في مستقبلنا.

قائمة المصادر والمراجع:

العربيّة:

- الأنباري (كمال الدين أبي البركات): الإنصاف في مسائل الخلاف بين النّحويّين البصريّين والكوفيّين، دار الفكر، (د ت).
- الإشبيلي (ابن عصفور)، 1998، شرح جمل الزجّاجي، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه: فوّاز الشعّار، إشراف الدّكتور إميل بديع يعقوب، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان، ط: 1.
- الأنصاري (ابن هشام)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، حقّقه وخرّج شواهده: مازن المبارك ومحمّد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط: 1، 1964.
- ابن جني (أبو الفتح عثمان)، الخصائص، تحقيق محمّد على النجّار، المكتبة العلميّة، 1952.
- ابن سعدان (أبو جعفر محمد)، الوقف والابتداء في كتاب الله عزّ وجلّ، تحقيق: محمّد خليل الزروق، مركز جمعة الماجد للثّقافة والتّراث، دبي، ط: 1، 2002.
- ابن كيسان (محمّد بن أحمد)، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: محمد محمود محمد صبري الجبة، مكتبة الإمام البخاري، الإسماعيلية – مصر، ط: 1، 2013.
- بوبر (كارل): أسطورة الإطار: في دفاع عن العلم والعقلانيّة، ترجمة: يمنى طريف الخولي، عالم المعرفة، عـــدد: 292، أبريل/ مايو 2003، سلسلة كتب ثقافيّة شهريّة، يصدرها المجلس الوطنيّ للثّقافة والفنون والآداب، الكويت.
- ثعلب (أبو العباس أحمد)، الفصيح، تحقيق: عاطف مدكور، دار المعارف، (د. ت).
- الحيزم (وئام)، تأويل اللّفظ والحمل على المعنى، جامعة تونس: كلية العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، 2009.

- سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: 3، 1988.
- الفرّاء (أبو زكريّاء يحيى بن زياد)، معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي ومحمّد علي النجّار، الدّار المصريّة للتّأليف والتّرجمة، (د. ت).
- القنّوني (منيرة)، نشأة النّحو العربيّ: دراسة إبستيمولوجيّة للمنوال والتّناسق النّظريّ. دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان، الطبعة: 1، 2014.
- الكسائيّ (علي بن حمزة): معاني القرآن، إعداد: عيسى شحاته عيسى، دار قباء للطباعة والنّشر والتّوزيع، 1998.

بغير العربيّة:

- Mehiri (Abdelkader): Les théories grammaticales d'Ibn Jinnī, Faculté des lettres et des sciences Humaines de Tunis, Sixième série: Philosophie littérature – Volume V. Publications de l'université de tunis, 1973.

الاستعارة السوسيوبيولوجية في مواجهة هندسة النُّظُم الفراكتالية:
إعادة التشكيل الإبستمولوجي في دراسات الترجمة بين تشيسترمان وفيليكوفسكي

Sociobiological Metaphor Versus Fractal Systems Engineering: Epistemological Reconfigurations in Translation Studies Between Chesterman and Velikovsky

د. زهير بوحولي
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، تونس

الملخّص

يقتضي التحليل الإبستمولوجي المعاصر رصد تحول جذري في بارادايم دراسات الترجمة؛ تحول يتجاوز عتبة الوصف اللساني السكوني ليعيد استيعاب الظاهرة الترجمية باعتبارها ظاهرةً تطوريةً كونيةً.

ويتناول هذا المقال مقارنةً بين أنموذجين معرفيين متباينين في العمق والمنطلقات: الميميائيات الكلاسيكية التي طرحها أندرو تشيسترمان (1997/ 2016)، وهي مقاربة ترتكز على "الاستعارة السوسيوبيولوجية"، والثقافة التطورية "ما بعد الكلاسيكية" التي أسس بنيانها جاي تي فيليكوفسكي (2023)، وتُطرح بوصفها "علماً كلياً" (Meta-meta- science) يرتقي بالظاهرة من مجرد تشبيه مجازي معزول نحو رد علمي فيزيائي ورياضياتي حتمي. ويستخلص المقال كون الفجوة القائمة بين التشبيه الاستعاري وهندسة النُّظُم الفراكتالية تمثل نقلة نوعية في فهم وحدات الثقافة والترجمة باطراد، وأن

أنموذج الهولونات الفراكتالية يوفر إطاراً مترولوجياً قابلاً للقياس الكمي يحل محل مفهوم الميمة شبه العلمي.

الكلمات المفاتيح : الثقافة التطورية؛ الهولون الفراكتالي؛ الميميائيات الكلاسيكية؛ دراسات الترجمة؛ الاتساق المعرفي؛ الاستعارة السوسيوبيولوجية؛ ما وراء علم العلوم.

Abstract

Contemporary epistemological analysis necessitates tracing a radical paradigm shift in translation studies; a transformation that transcends static linguistic description to grasp translation as a cosmic evolutionary phenomenon. This article undertakes a rigorous comparison between two cognitive models divergent in depth and premises: classical memetics proposed by Andrew Chesterman (1997/2016), an approach relying on the "sociobiological metaphor," and post-classical evolutionary culturology founded by J. T. Velikovsky (2023), presented as a "meta-meta-science" that elevates the discipline from a mere figurative analogy to a deterministic physical-mathematical scientific reduction. The article concludes that the gap between metaphorical tropes and fractal systems engineering represents a qualitative leap in understanding the units of culture and translation, and that the fractal HOLON/parton model provides a rigorous metrological framework that replaces the pseudoscientific concept of the meme.

Keywords : Evolutionary Culturology; Fractal HOLON/parton; Classical Memetics; Translation Studies; Consilience; Sociobiological Metaphor; Meta-meta-science.

مقدمة إبستمولوجية: الاستعارة اللسانية في مواجهة التأسيس العلمي

شهدت دراسات الترجمة منذ سبعينيات القرن الماضي تحولات جذرية في منطلقاتها النظرية والمنهجية. فبعد أن ظلت مقتصرة على الوصف اللساني

السكوني والتحليل النصي المباشر، بدأت تتجه نحو فهم الترجمة كظاهرة ديناميكية تخضع لقوانين التطور والانتقاء (Chesterman, 2016). يبرز هذا التحول عبر أنموذجين معرفيين متباينين في العمق والمنطلقات، يمثلان مرحلتين متتاليتين في تطور الفكر الترجمي.

الأنموذج الأول: الميميائيات الكلاسيكية، (Classic Memetics) كما طرحها أندرو تشيسترمان Andrew Chesterman في كتابه ميمات الترجمة (1997؛ الطبعة المنقحة 2016). تعتمد هذه المقاربة بالدرجة الأولى على ما يمكن تسميته "الاستعارة السوسيوبيولوجية" (Sociobiological Metaphor). في هذا الأنموذج، تُعامل وحدات الترجمة بوصفها "ميمات" (Memes)

الجينات البيولوجية، حيث تنتقل الأفكار عبر النسخ والتقليد. ورغم وجاهتها الإبداعية، فإنها تظل في إطار التشبيه المجازي الذي يفتقر إلى القياس الفيزيائي والرياضي الصارم. (Chesterman, 2009)

الأنموذج الثاني الثقافة التطورية "ما بعد الكلاسيكية"، (Evolutionary Culturology) التي أسسها جاي تي فيليكوفسكي (J. T. Velikovsky, 2023)، وتُطرح بوصفها "علماً كلياً". (Meta-meta-science) ويمثل هذا الأنموذج المستوى الثالث من العلم؛ (Level 3 Science) فهو يختزل العلوم المفردة (Level 1) والعلوم الفوقية (Level 2) ليحقق "الاتساق المعرفي" (Consilience) وتوحيد المعرفة (Wilson, 1998). هنا، لا تعد الميميائيات مجرد وجهة نظر أو استعارة، بل هي " الرد العلمي للظواهر إلى أصولها الفيزيائية " (Scientific Reduction) الذي يحوّل العلوم الإنسانية إلى علوم صلبة (Hard Sciences) عبر صهر الكيانات الثقافية واللغوية في وحدة قياسية موحدة هي "الهولون الفراكتالي"، المحكوم بقوانين فيزيائية ومعلوماتية كونية تفقد معها الاستعارة المجازية وظيفتها التفسيرية لتترك مكانها للحتمية النسقية. (Velikovsky, 2023)

وتكمن أهمية هذه المقارنة في أنها تضع دراسات الترجمة في مواجهة تحدٍ إبستمولوجي جوهري: هل يمكن لدراسات الترجمة أن تتخطّى حدود التشبيه المجازي لتتحوّل إلى هندسة نسقية قابلة للقياس والتنبؤ؟ وهل يمتلك الأنموذج

الفراكتالي القدرة الإبستمولوجية على الارتقاء بالميمة من رتبة المفهوم "شبه العلمي" (Pseudoscientific) المعزول، إلى رتبة الهولون النسقي الخاضع للقياس الرياضي الحتمي؟

I ـ الميميائيات الكلاسيكية : الاستعارة السوسيوبيولوجية

1 – الجذور الداروينية والتشبيه الجيني

يرجع الفضل في صياغة مفهوم "الميمة" (Meme) إلى عالم الأحياء التطوري ريتشارد دوكينز، الذي أطلق المصطلح في فصله الأخير من كتابه الجين الأناني. (1976) استمد دوكينز التسمية من الجذر اليوناني "ميميما" (Mimema)، بمعنى "ما يُحاكى" أو "ما يُقلد"، وقصد بها وحدة نقل ثقافي تنتقل من دماغ إلى آخر عبر المحاكاة. (Dawkins, 1976) عرّفها بوصفها "وحدة نقل ثقافي، أو وحدة تقليد"، واعتبر أنها تشكّل نظيراً ثقافياً للجينة البيولوجية (Dawkins, 1976) .

أدرج دوكينز أمثلة يومية على الميمات، منها: النغمات الموسيقية، والأفكار، والعبارات الشائعة، وصيحات الموضة في الملابس، وطرق صنع الأواني أو بناء القباب. (Dawkins, 1976) ورغم أنه لم يقصد بناء نظرية علمية كاملة، فإنّه أرسى قواعد ما أصبح يعرف لاحقاً بحقل "الميميائيات". (Memetics) لقد أكد دوكينز ضرورة توفّر ثلاث خصائص جوهرية في الميمة الناجحة: طول العمر، (Longevity) والخصوبة، (Fecundity) ودقة النسخ. (Dawkins, 1976 (Copying-fidelity

2 – تشيسترمان وميمات الترجمة

بنى أندرو تشيسترمان مقاربته الترجمية على هذا الأساس الداروينيّ، لكنه حّول التركيز من الثقافة العامّة إلى النظرية الترجمية نفسها. في كتابه ميمات الترجمة (1997؛ المنقّح 2016)، عرض تشيسترمان الترجمة بوصفها عملية انتقال للأفكار النظرية والممارسات الترجمية عبر الزمن والمجتمعات الترجمية (Chesterman, 2016) صنف استراتيجيات الترجمة إلى ثلاثة مستويات: استراتيجيات نحوية، (Syntactic) ودلالية، (Semantic) وبراغماتية،

(Pragmatic) كل منها يمثل نوعاً من "الميمات" التي تتنافس على الانتشار داخل المجتمع الترجمي. (Huang & Zhao, 2021)

يركز تشيسترمان وتوري (Toury)على أنّ المعايير تمثل قيوداً سوسيولوجية وضغوطاً مؤسساتية تنتقل عبر التنشئة الاجتماعية والامتثال للمؤسسة الترجمية والتدريب الأكاديمي. (Chesterman, 2016)

ومع ذلك، ظلت مقاربته مقيدة بعدة قيود:

أوّلاً: بنيةُ الميمة المفاهيميةُ عند تشيسترمان ظلت غامضة؛ فهو لم يقدم تعريفاً تشغيلياً (Operational Definition) يمكن قياسه تجريبياً.

ثانياً: طبيعة الميمة الفيزيائية ظلت مجازية بالكامل؛ فهو يتحدث عن "أنماط عصبية من المشابك في الدماغ" افتراضا نظريّا، دون قياس مادي حقيقي، ما يجعل الميمة حبيسة التصور الذهني الذاتي المفتقر إلى حامل فيزيائي معلوماتي محدّد.

ثالثاً: آليات الانتقال والتطوّر ظلّت وصفية وسلوكية لا تفسيرية حتمية؛ فهو يرصد تاريخ انتشار الأفكار دون صياغة خوارزميات رياضية أو قوانين كونية تحكم حركة هذه الميمات وتداخلها عبر مستويات الحجم والمقياس المختلفة داخل النسق الثقافي. (Chesterman, 2009)

3 – حدود الاستعارة السوسيوبيولوجية

يمكن تلخيص النقد الموجّه إلى الميميائيات الكلاسيكية في نقطة جوهرية واحدة: هي بقاؤها في دائرة "العلم الأوّليّ" (Protoscience) أو "الاستعارة العلمية". (Scientific Metaphor) فالقول: إنّ الأفكار "تشبه" الجينات لا يعني بالضرورة أنها "هي" الجينات ثقافياً. يفتقر المفهوم إلى وحدة قياس موحّدة، وإلى مقياس كمّي يحدّد قوة الميمة أو ضعفها، وإلى أنموذج تنبّؤي يتنبّأ بمسار انتشارها . (Aunger, 2000)

لقد أدرك تشيسترمان نفسه بعض هذه الحدود، وحاول في طبعته المنقّحة (2016) توسيع الإطار ليشمل "الميمات العليا" (Supermemes) و" الميمات المعيارية"، (Norm-memes) إلا أنّه لم يتمكّن من تجاوز الإطار المجازي الأساسي. (Chesterman, 2016) فبقي المفهوم أسير "العالم الثاني" (World

2) لبوبر أي عالم الحالات الذهنية الذاتية، دون أن يخترق "العالم الأوّل" (World 1) عالم الظواهر الفيزيائية الموضوعية.

II ـ الثقافة التطورية : ما وراء علم العلوم وهندسة النُّظُم

1 – من العلوم المفردة إلى العلوم الكلية

طرح جاي تي فيليكوفسكي في أعماله المتعدّدة (2016–2025) أنموذجاً مغايراً تماماً، يقوم على فكرة العلم الكلي (ماوراء علم العلوم) (Meta–meta–science) حيث التمييز في هذا الأنموذج بين ثلاثة مستويات من العلم: (Velikovsky, 2023)

– المستوى الأوّل: العلوم المفردة، (Individual Sciences) ومنها الرياضيات، والفيزياء، وعلم الأحياء، وعلم النفس، ودراسات الترجمة، وهي العلوم التي تنكفئ على دراسة حقول معزولة ومحددة.

– المستوى الثاني: العلوم الشارحة الفوقية، (Meta–sciences)

التي تدرس مناهج العلوم المفردة وهي التي تتجاوز حدود حقل معيّن لتنطبق على العلوم المفردة كافة؛ ومنها علم النُّظُم وعلم المعلومات مثلا.

–المستوى الثالث : العلم الكلي، (Meta–meta–science) وهو علم الثقافة التطورية (Evolutionary Culturology) نفسه، الذي يختزل جميع الأنظمة في جميع المجالات، ومدخلاتها ومخرجاتها، إلى كيان علمي واحد موحّد: "الهولون الفراكتالي " (Fractal HOLON /parton) (Velikovsky, 2023).

2 – الهولون الفراكتالي: الوحدة الكونية الموحّدة

يمثّل الهولون الفراكتالي المفهوم المركزي في الثقافة التطوّرية. استمدّ فيليكوفسكي الجذر "هولون" (Holon) من عمل آرثر كوستلر (*The Ghost in the Machine*, 1967)، الذي عرّفه بأنه كيان يكون في الوقت نفسه "كلاً" (Whole) و"جزءاً" (Part) من كيان أكبر.

أضاف فيليكوفسكي بُعداً فراكتالياً (Fractal) لهذا المفهوم، ما يعني أنّ النمط الهيكلي يتكرّر في المستويات السُّلّمية المقياسية (Scale–levels) كافة، من

المستوى دون الذرّي إلى المستوى الكوني. (Velikovsky, 2023) ويتألف الهولون الفراكتالي من أربع فئات بنيوية: (1) الأفكار 2)، (Ideas) السيرورة الذهنية (3)، (Mental Processes) السيرورة الفيزيائية (Physical Processes)، و(4) المنتجات (Products). وهذا التصنيف يوفّر إطاراً علميّاً صارماً يمكن تطبيقه على أيّ نظام في أيّ مجال، بما في ذلك الترجمة؛ حيث يصبح النص المترجم إضافة إلى كونه مدونة لسانية "منتجا" فيزيائيا معلوماتيا ناتجا عن «سيرورة ذهنية» و«فيزيائية» معقدة تُعيد صياغةَ "الأفكار" الفوقية الحاكمة للمجتمع الترجمي كما تعيد استيعابَها. وتحكم الهولونات الفراكتالية ثلاثة قوانين كونية حتمية:

· القانون الأول: الاندماج والتكامل تصاعديّا، (Upward Integration) حيث تندمج الوحدات في نظام أكبر في المستوى المقياسي الأعلى.

· القانون الثاني: التنافس والتعاون أفقيّا، (Lateral Cooperation / Competition) حيث تتفاعل الوحدات النظيرة في المستوى المقياسي نفسه.

· القانون الثالث: التحكم والسيطرة نزولا، (Downward Command and Control) حيث يفرض النظام الأكبر قيوداً صارمة على الوحدات الأصغر المودعة داخله. (Velikovsky, 2023)

3 – الإرجاع العلمي النسقي وتوحيد المعرفة

يمثل الإرجاع العلمي النسقي (Scientific Reduction) المنهج الجوهري في علم الثقافة التطورية.

فبدلاً من تفكيك كل مجال إنساني بمنهجه الخاص ولغته الوصفية المنعزلة، يرتدّ هذا الأنموذج بجميع الظواهر الثقافية إلى وحدات فيزيائية ومعلوماتية قابلة للقياس، وضمن مستويات سُلّمية مقياسية محدّدة، تحكمها قوانين موحدة وآليات تطورية متناظرة. وهذا التوحيد الهيكلي هو ما يحقق تماماً مفهوم "الاتساق المعرفي" أو "تضافر الأدلة المعرفية" (Consilience) الذي دعا إليه عالم البيولوجيا إدوارد ويلسون لتأسيس وحدة المعرفة الكونية. وفي سياق دراسات الترجمة، يعني هذا الرد الإبستمولوجي أنّ النصّ المصدر، والنص الهدف، والمترجم، والمتلقي، لم يعودوا مجرد عناصر لسانية معزولة، بل

يتم استيعابهم بوصفهم هولونات فراكتالية متداخلة تتفاعل حتمياً وفق القوانين الكونية الثلاثة. فالنص الهدف يتبلور هنا بوصفه "منتجاً" (Product) ينبثق عن "السيرورة الذهنية" (Mental Processes) المعرفية لدى المترجم؛ وهذه السيرورة تقع بدورها تحت التأثير المباشر "للأفكار" والمعايير النظرية السائدة في البيئة الترجمية، قبل أن تتحوّل عبر وسائط مادية إلى "سيرورة فيزيائية" (Physical Processes) تُنتج النص في شكله المطبوع أو الرقمي الملموس.

III ـ المقارنة الإبستمولوجية : استعارة مجازية في مواجهة هندسة نسقية

1 – في البنية المفاهيمية:

يتباين الأنموذجان تباينا جوهرياً في طبيعة البناء؛ فالميمة عند تشيسترمان تظل بنية فكرية أو سلوكية مجردة قائمة على التقليد والنقل الثقافي الشفاهي أو النصي، دون مظهر بنيوي محدّد علمياً.

في المقابل، يتشكّل الهولون الفراكتالي وحدة هندسية متداخلة حتمياً (نسق مدمج داخل نسق فائق)، يمثل في الآن ذاته كلاً متكاملاً وجزءاً وظيفياً، ويتميز ببنية رياضية فراكتالية تسمح بنمذجته حسابياً وهندسياً بصورة دقيقة (Velikovsky, 2023).

2 – في الطبيعة الفيزيائية:

تظل الميمة في البارادايم الكلاسيكي افتراضية ومفهوماً مجازياً؛ ورغم محاولات ربطها افتراضياً بالأنماط العصبية للمشابك في الدماغ لربط عوالم بوبر الثلاثة (المادة، والحالات الذهنية، والأفكار الموضوعية)، فإنّها تفتقر إلى أيّ قياس فيزيائي موضوعي. أمّا الهولون الفراكتالي فهو كيان فيزيائي رياضي، ومعلوماتي حتمي؛ يتخذ من ثنائية المادة والطاقة، إلى جانب التدفق المعلوماتي الصارم، ركائز أساسية صلبة غير قابلة للتأويل المجازي (Velikovsky, 2023) .

3 – في الفئات البنيوية:

تفتقر الميمياء التقليدية إلى تحديد دقيق لفئاتها البنيوية، حيث تتسع الميمة

بشكل هلامي لتشمل نطاقاً فضفاضاً من الظواهر (كالنغمات، والعادات، والأزياء) دون بيان تصنيفي (Taxonomic) صارم؛ في حين ينقسم الهولون بدقة مجهرية إلى أربع فئات نسقية متلازمة: (الأفكار، السيرورة الذهنية، السيرورة الفيزيائية، المنتجات). وهو ما يتيح إرساء إطار قياسي وكمّي حقيقي لأيّ ظاهرة ثقافية أو ترجمية. (Velikovsky, 2023)

4 – في آليات التكرار والانتشار:

تعتمد الميمة في انتشارها الأفقي على المحاكاة السلوكية والتقليد، محكومة بمعايير دوكينز الوصفية الثلاثة (طول العمر، والخصوبة، ودقة النسخ)، وهي آليات عاجزة بنيويّاً عن التنبّؤ الكمّي الرياضي.

أمّا الهولون فيتحرك ميكانيكياً وحتمياً عبر القوانين الكونية الثلاثة المتداخلة: الاندماج صعوداً، التفاعل والتنافس أفقياً، والتحكم والسيطرة نزولاً؛ وهي قوانين رياضية نسقية قابلة للبرمجة والمحاكاة التجريبية حاسوبياً. (Velikovsky, 2023)

IV ـ نحو ترجمة قابلة للقياس

يمثل التحول من الميميائيات الكلاسيكية إلى علم الثقافة التطورية نقلة نوعية وجذرية في تفكيك ظاهرة الترجمة واستيعابها. فبينما ظلّت الميمة في أطروحة تشيسترمان مقيّدة بحدود الاستعارة السوسيوبيولوجية برغم قيمتها الإبداعية والتأسيسية؛ يفتح الهولون الفراكتالي آفاقاً غير مسبوقة لتأسيس "ترجمة قابلة للقياس" (Measurable Translation)؛ حيث يُعاد تعريض النصوص، والمترجمين، والعمليات الترجمية برمتها للتحليل بوصفها نُظُماً فيزيائية معلوماتية صلبة خاضعة لقوانين رياضية حتمية.

إنّ ما يطرحه أنموذج فيليكوفسكي لا يقف عند حدود التوسيع التراكمي لنظرية تشيسترمان، بل يمثل قطيعة برادايمية وتحوّلاً إبستمولوجياً كاملاً: من العلوم الإنسانية المرنة أو التأويلية (Soft Humanities) إلى العلوم الصلبة والحاسوبية، (Hard Sciences) ومن الوصف النوعي الانطباعي إلى القياس الكمي المعياري، ومن التشبيه الاستعاري المجازي إلى هندسة النُّظُم الفراكتالية.

وهذا التميز الهيكلي هو ما يجعل علم الثقافة التطورية مرشّحاً بامتياز ليكون البارادايم القادم الحاكم لدراسات الترجمة في العقود المقبلة.

المصدر	الهولون الفراكتالي (Fractal HOLON / parton)	الميمة (Meme)	وجه المقارنة
1Memes of Translation 2 The Turns of Translation Studies 3 Memetics: A Literature Review 4 A Short Practical Guide to Using Evolutionary Culturology	نظام فراكتالي متداخل (نظام داخل نظام)؛ كيان يمثل في الوقت نفسه «كلا» (وحدة) و«جزءاً» من وحدة أكبر.	وحدة فكرية أو ثقافية للتقليد أو النقل الثقافي؛ لم يتم العثور على بنية علمية محددة لها قبل عام 2016.	البنية
1 Memes of Translation 2 The Turns of Translation Studies 3 Memetics : A LiteratureReview؛ 4 A Short Practical Guide to Using Evolutionary Culturology	فيزيائية، رياضية، ومعلوماتية حتمية؛ تعتمد على المادة والطاقة والمعلومات كركائز أساسية ضمن الأنظمة العلمية.	افتراضية أو مجازية (تعتبر شبه علمية)، وهي أنماط عصبية من المشابك في الدماغ (World 1)، وحالات ذهنية (World 2)، وأفكار موضوعية (World 3)؛ وحدة معلومات تستقر في الدماغ (ثقافة داخلية).	الطبيعة الفيزيائية
1 Memes of Translation 2 The Turns of Translation Studies 3 Memetics: A LiteratureReview 4 A Short Practical Guide to Using Evolutionary Culturology 5 Elements of Evolutionary Culturology	تنقسم إلى أربع فئات رئيسيةهي: (أفكار، سيرورة ذهنية، سيرورة فيزيائية، منتجات).	غير محددة بدقة في علم الميمات التقليدي، وتوصف غالباً بكونها أفكارا أو عادات؛ تشمل النغمات، والألحان، والعبارات الشائعة، والشعارات، وأزياء الملابس (صيحات الموضة)، وطرق صنع الأواني.	الفئات البنيوية

المصدر	الهولون الفراكتالي (Fractal HOLON / parton)	الميمة (Meme)	وجه المقارنة
1 Memes of Translation 2 The Turns of Translation Studies 3 Memetics: A LiteratureReview 4 A Short Practical Guide to Using Evolutionary Culturology	محكوم بالقوانين الثلاثة: التكامل أو الاندماج صعوداً، التنافس أو التعاون أو التفاعل أفقيّا، والتحكم والسيطرة نزولاً	تنتشر وتنتقل من عقل أو دماغ إلى آخر عبر عملية المحاكاة أو التقليد، وتعتمد على الانتقاء الطبيعي الثقافي، وطول العمر (longevity)، و ا لخصو بة (fecundity)، ودقة النسخ (copying-fidelity).	التكرار الرأسي/ الأفقي

جدول رقم1 : مرتكزات الميمة الكلاسيكية بنيويا وفيزيائيا في مواجهة الهندسة الهولونية الفراكتالية

يُهندس هذا الجدول القطيعة البارادايمية الحاسمة بين الميميائيات الكلاسيكية لأندرو تشيسترمان وعلم الثقافة التطورية لجاي تي فيليكوفسكي، متبنياً استراتيجية حِجاجية تقابل الرد المجازي بالحتمية النسقية. وعبر تفكيك عناصر البنية، والطبيعة الفيزيائية، والفئات البنيوية، وآليات الانتشار، يبرهن الجدول على أنّ مفهوم "الميمة" بوصفه كياناً افتراضياً هلاميّاً ينتمي إلى العالم الثاني من عوالم بوبر الثلاثة وقد تم تجاوزه علمياً لصالح "الهولون الفراكتالي" وحدة رياضية فيزيائية حتمية تنقسم إلى أربع فئات نسقية متلازمة (الأفكار، السيرورة الذهنية، السيرورة الفيزيائية، المنتجات) وتحكمها ثلاثة قوانين كونية خوارزمية. وتمثل خانة "المصادر التنظيرية" أداة نقدية تُظهر للقارئ الفجوة الزمنية والمعرفية التي تفرضها الوثبة التطورية المعاصرة، وتجسد بصرياً مفهوم "الاتساق المعرفي" (Consilience) لإدوارد ويلسون عبر صهر نظريات الترجمة مع فيزياء النظم المعقدة، لتأسيس مشروعية علم ترجمة قياسي، وحاسوبي، وحتمي.

V ـ قوانين التطور وآليات الانتقال الثقافي : الهندسة الفراكتالية

1- قصور الاستعارة البيولوجية التفسيري إزاء حتمية القوانين الكونية

يُعدّ فك شفرة "آليات النقل والتمرير النسقي" (Mechanisms of Transmission) ركيزة أساسية لأيّ أطروحة تطوّرية، سواء أتحركت في المجال البيولوجي أم الثقافي. فالداروينية البيولوجية لم تكتسب شرعيتها الصلبة إلا عندما حددت آليات فيزيائية ومادية دقيقة للتوريث والانتقاء والتنوع، إذ نقلها ذلك من رتبة التخمين إلى رتبة التنبؤ والتفسير والتحقق التجريبي المعملي. أمّا النظريات الثقافية واللسانية التي استعارت الإطار الداروييني وفي مقدمتها الميميائيات الكلاسيكية فقد اصطدمت بتحدٍ إبستمولوجي جوهري يتمثل في عجزها عن "ترجمة" هذه الآليات من بيئتها العضوية إلى الفضاء الثقافي دون التضحية بالصرامة العلمية (Aunger, 2000)؛ فالاستعارة والمشاكلة المجازية، وإن امتلكتا طاقة إبداعية في بواكير البناء النظري، فإنّهما تقصران تماماً عن تحويل الظاهرة إلى علم صلب قابل للمترولوجيا والقياس الحتمي.

وفي هذا الفضاء النقدي، يتبدّى شرخ معرفي عميق بين مقاربتين متباينتين: الأولى تمثلها أطروحة تشيسترمان (Chesterman, 2016) التي تستعير معايير دوكينز (Dawkins, 1976) البيولوجية الثلاثية الوصفية: طول العمر، والخصوبة، ودقة النسخ لتسقطها على الترجمة باعتبارها ظاهرة سلوكية اجتماعية. والثانية يطرحها بارادايم الثقافة التطورية لفيليكوفسكي (Velikovsky, 2023) عبر ثلاثة "قوانين كونية حتمية" (Universal Laws) تُدير حركة تدفّق الوحدات المعلوماتية عبر المستويات السُّلّمية المقياسية كافة، من الجسيمات دون الذرّية وصولاً إلى النظم الفكرية الكونية. ومن هنا تتبلور الإشكالية: هل تمتلك المعايير البيولوجية ذات الطبيعة السلوكية والوصفية القدرة على تفسير ديناميات النقل الثقافي؟ وهل يمكن للقوانين الكونية الرياضية الموحّدة أن تصوغ إطاراً تنبؤياً حاسوبياً يضبط حركة الهولونات الترجمية واستقرارها؟

2 – معايير تشيسترمان التناسلية: الامتثال للمعايير وتحدّي الانتقال الثقافي

1.2. الجذور الداروينية: معايير دوكينز الثلاثة يستند تشيسترمان في هندسته آليات تمرير الميمات الترجمية وانتشارها إلى المعايير الثلاثية التي صاغها ريتشارد دوكينز (1976) لقياس نجاح المستنسِخات الثقافية:

طول العمر، (Longevity) والخصوبة، (Fecundity) والنسخ الوفيّ. (Copying-fidelity) فالميمة الناجحة في البارادايم الداروييني التقليدي هي الكيان المعلوماتي الذي يمتلك القدرة على الاستقرار في الذاكرة البشرية لأطول فترة زمنية ممكنة، (طول العمر) ويمتلك طاقة انتشارية عالية وسريعة بين أدمغة الأفراد (الخصوبة)، ثم الحفاظ على نواته الهيكلية الصلبة وجوهره المفهومي دون تحريف كبير عبر حلقات النقل والتداول المتكررة (النسخ الوفيّ). ورغم الأهمية التحليلية لهذه الثلاثية في رصد سلوك الظواهر الثقافية، فإنّها تظلّ معايير وصفية وبَعدية بالدرجة الأولى؛ إذ تكتفي بتشخيص "ما" يحدث للظاهرة بعد ذيوعها واستقرارها، دون أن تمتلك القدرة الإبستمولوجية على تفسير كيفية عمل تلك التفاعلات بنيوياً ومادياً في المستويين الفيزيائي والرياضي، ودون تقديم أداة تنبؤية تضبط حركة هذه الوحدات قبل عملية الانتقال.

2.2. تطبيق تشيسترمان: الترجمة امتثال للميمات المعيارية نقل تشيسترمان هذه الثلاثية الدوكنزية إلى عمق النظرية الترجمية، معتبراً أنّ استدامة أي استراتيجية تعبيرية أو أيّ مفهوم نظري ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمدى امتثالها "للميمات المعيارية" (Norm-memes) الحاكمة للمجتمع الثقافي المستهدف وتكيّفها معه. فالترجمة، في هذا التصور، تتجاوز النقل اللغوي الساكن لتصبح "استجابة وظيفية" لضغوط معيارية واجتماعية تنتقل وتتناسخ بين أجيال المترجمين عبر التنشئة والتقليد، متنافسةً على موارد الحوض الثقافي وفق معايير التناسل الثلاثة.

وتُمثل "ميمة التكافؤ الديناميكي" (Dynamic Equivalence Meme) التي هندسها يوجين نايدا (Eugene Nida) في ستينات القرن العشرين، أنموذجاً مثالياً لهذا الانتقال؛ إذ تغلغلت في الفكر الترجمي مستفيدةً من "خصوبة" تعبيرية

عالية (لسلاسة تطبيقها)، و"طول عمر" امتد لعقود، و"نسخ وفيّ" عالي الدقة عبر الأدبيات والمناهج الأكاديمية. ومع ذلك، يظل هذا التحليل تشخيصياً ورجعياً؛ فهو يعجز بنيوياً عن صياغة أنموذج رياضي يتنبّأ "بنقطة التشبّع الإبستمولوجي" (Saturation Point) التي تصل إليها الميمة داخل الحوض الترجمي، كما يعجز عن تفسير لحظة أفولها التاريخي.

3.2. حدود المعايير البيولوجية في المجال الثقافي تواجه المعايير البيولوجية الثلاثية حدوداً إبستمولوجية جوهرية وقاصرة عند إسقاطها قسراً على حقل الثقافة ومجال الترجمة.

- أولاً: إنّ مفهوم "طول العمر" يستعصي على الصهر القياسي في الفضاء النظري؛ إذ كيف يمكن نمذجة "عمر" فكرة ترجمية بنسق رياضي؟ هل يُقاس بعدد السنوات الزمنية لظهورها في المتون المكتوبة، أم بتعاقب أجيال المترجمين الذين تبنّوا ممارستها؟ هذا الغموض يكشف عن غياب إطار قياسي متجانس (Homogeneous Metric) .

- ثانياً: تظل "الخصوبة" مفهوماً نسبياً وسياقياً؛ إذ قد تشهد الميمة النظرية انتشاراً وبائياً سريعاً داخل مجتمع أكاديمي ضيّق ومغلق. لكنّها تعجز تماماً عن اختراق مجتمع المترجمين المهنيين في سوق العمل والامتداد بينهم.

- ثالثاً: وهذا أهم معرفياً، إنّ شرط النسخ الوفيّ يصطدم صراحةً بماهية الفعل الثقافي والترجمي ذاته؛ فالأفكار والخيارات الاستراتيجية بخلاف الكود الجيني الصارم لا تُستنسخ آلياً، بل تمرّ عبر وعي المترجم الذي يعيد إنتاجها وتعديلها مع كل حلقة نقل وتمرير سياقي.

وهذا القصور البنيوي للمشابهة الجينية هو ما يرمي بالثقافة في حوض "التطور اللاماركي الحتمي" (Lamarckian Evolution)؛ حيث يتأسّس الانتقال الثقافي على مبدأ توارث الصفات والاستراتيجيات المكتسبة؛ فالتحويرات والتعديلات التي يُدخلها المترجم على الميمة خلال ممارسته المهنية والذهنية، تُمرَّر مباشرة إلى المنتج الميميائي التالي وقرائه، الأمر الذي يجعل الميمياء الكلاسيكية عاجزة

عن ضبط تفاعلات التطور اللساني لافتقارها إلى معادلات حركية ترصد هذا التحوير المستمر.

VI ـ القوانين الكونية الثلاثة لفيليكوفسكي: هندسة الترجمة فراكتاليا

1. من الوصف إلى القانون: نحو علم حتمي صلب في المقابل، يطرح فيليكوفسكي (Velikovsky, 2023) ثلاثة قوانين كونية صارمة (Universal Laws) تُدير حركة الوحدات الثقافية والمعلوماتية وفي طليعتها الوحدات الترجمية وتضبط تفاعلاتها عبر المستويات السُّلّمية المقياسية (Scale-levels) كافة.

وتتميز هذه القوانين بكونها تنفض يدها تماماً من المقاربات الوصفية أو البَعدية السلوكية، لتتموضع منظومةً "حتمية"، (Deterministic) تصوغ تفاعل الوحدات في قوالب رياضية نسقية قابلة للنمذجة الصورية والتحقق التجريبي الحسابي. والمفتاح الإبستمولوجي الحاكم هنا هو مفهوم "المعاودة الذاتية الارتدادية" (Recursion) المستمد مباشرة من الهندسة الفراكتالية؛ حيث النمط البنيوي الحركي ذاته يُعيد استدعاء نفسه وتكرار جوهره هندسياً في المستويات المقياسية كلّها ممتدّاً باطّراد حتمي من الجسيمات المادية دون الذرّية إلى البنى الكونية الشاملة، ومن الكلمة المفردة والتركيب اللساني إلى المتن النصي المتكامل والمكتبة الترجمية الشاملة. (Mandelbrot, 1982)

2.1. القانون الأول: الاندماج والتكامل صعودا (Integrate Upwards) ينص هذا القانون الكوني على أن الوحدات المتمايزة والمتموضعة في مستوى مقياسي معين، تندمج بنيوياً لتؤلف نظاماً فائقاً (Supersystem) في مستوى المقياس الأعلى.

وتتكامل الكلمات باعتبارها هولونات صغرى لتؤلف جملة، وتتلاحم الجمل لتصنع فقرة، وتنتظم الفقرات لتشيّد فصلاً، وتندمج الفصول لتخرج كتاباً مترجماً كاملاً، وتتراكم الكتب لتؤسس مكتبة ترجمية وتقليداً ترجمياً مستداماً. (Velikovsky, 2023)

ويمثّل هذا التكامل "انبثاقا" نسقيّا (Emergence) لخصائص كيفية جديدة يستحيل ردها أو اختزالها إلى خصائص المكوّنات المنفردة متجاوزا بذلك تراكم الأجزاء الكمّي الصامت؛ فالكتاب المترجم بوصفه نظاماً فائقاً متكاملاً يحوز خصائص بنيوية كلية (مثل التماسك الموضوعي والأسلوبي الشامل) لا يمكن العثور على أثرها في أي كلمة مستقلة معزولة.

وفي سياق دراسات الترجمة، يقضي هذا القانون بعدم تعامل المترجم مع كلمات مفردة ومنعزلة، بل مع وحدات ديناميكية تتكامل باطراد داخل نظام هرمي متدرج مقياسياً. وكلما ارتقت حركة البناء صعوداً نحو مستويات المقياس الأعلى، تولدت "شروط حدّية وقيود منظِّمة" (Boundary Conditions) جديدة تضبط سلوك الوحدات الأصغر وتوجّه حركتها؛ فالنوع الأدبي للنص المصدر باعتباره نظاماً فائقاً وحاكماً يفرض شروطاً حدّية صارمة وقوانين نسقية توجه خيارات المترجم الدقيقة في انتقاء المفردات وبناء الجمل داخل النص الهدف (Velikovsky, 2023).

3.1. القانون الثاني: التنافس والتعاون أفقيا (Compete /Cooperate Sideways)

ينص هذا القانون الكوني على أنّ الوحدات المتموضعة في مستوى المقياس والحجم نفسه تتفاعل بنيوياً إما بالتنافس المحموم أو بالتعاون الوظيفي.

ففي مستوى الكلمة باعتباره مستوى قياسياً لسانياً محدّدًا تتنافس المترادفات والبدائل اللغوية المتاحة على الظهور في المتن المستهدف؛ حيث تتشكّل كل مفردة بوصفها "مرشّحة" (Candidate) تخوض صراع بقاء إبستمولوجيّاً مع مرشّحات أخرى للفوز بـ "موقع" (Slot) تعبيري داخل الجملة (Velikovsky, 2023). وفي الآن ذاته، تتبنّى الكلمات الفائزة سلوكاً تعاونياً أفقياً لبناء المعنى الكلي للجملة، وتتعاون الجمل بدورها لتشييد المعنى الكلي للفقرة، في هندسة متسلسلة ومتكررة ارتدادياً. (Velikovsky, 2023)

ويتميز هذا التفاعل الأفقي بإمكانية نمذجته رياضياً بالاعتماد على أدوات صلبة مثل "نظرية الألعاب" (Game Theory) أو "نماذج التفاعل الكمي" (Quantum

(Interaction Models)؛ (Velikovsky, 2023) إذ يتحول قرار المترجم في اختيار لفظ محدد من الذوق الأدبي الانطباعي، ليُقرأ باعتباره "قراراً استراتيجياً" (Strategic Decision) حتمياً يتأثر بمعادلات التنافس بين البدائل المتاحة من جهة، وشروط التعاون الأفقي المطلوب لتحقيق التماسك النصي من جهة أخر. (Velikovsky, 2023) ويوفر هذا القانون بخلاف المعايير البَعدية والوصفية لتشيسترمان إطاراً رياضياتياً حتمياً قابلاً للبرمجة والمحاكاة والاختبار التجريبي حاسوبياً. (Velikovsky, 2023)

4.1. القانون الثالث: القيادة والتحكم نزولا (Command /Control Downwards)

ينص هذا القانون الكوني على أنّ النظام الفائق والأكبر المتموضع في مستوى المقياس الأعلى يُنظِّم مكوناته الفرعية ويتحكم فيها بنيوياً ومعلوماتياً.

فإطار النص العامّ الفوقي (مثل النوع الأدبي، أو الغرض الوظيفي، أو الجمهور المستهدف) يفرض "قيوداً صلبة" (Hard Constraints) ومحددات صارمة على آليات اختيار المفردات وبناء الجمل، الأمر الذي يُصيّر الترجمة "هندسة نُظُم" حقيقية (Systems Engineering) ويخرج بها عن رتبة الممارسات التبسيطية القائمة على مجرد "رصف الكلمات وتطابقها" ((Word–matching (Velikovsky, 2023))

ويمثل هذا التحكم الهيكلي النازل تجسيداً صريحاً لمفهوم "السببية النازلة" (Downward Causation)، باعتبارها واحدة من أهم الخصائص الإبستمولوجية المميزة للأنظمة المعقدة (Emmeche, 2004). فالنص المترجم بوصفه منتجاً نهائياً ومستقراً يفرض شروطه الحّدية الصارمة على كل مفردة مودعة داخله؛ فلا يمتلك اللفظ سلطة الظهور في المتن إلا إذا جاء متوافقاً كلياً مع "النمط الشامل" (Global Pattern) الذي يحدده النوع والغاية وطبيعة المتلقي. (Velikovsky, 2023)

وهذا التنظيم الفوقي هو ما يفسر غرس القدرة لدى القارئ المتمرس على تحديد "نوع" النص الكلي وسياقه وجنسه الأدبي بمجرد قراءة جملة واحدة

معزولة؛ فالنظام الفائق يترك بصمته ومعادلته الهيكلية على كل مكون فرعي من مكوناته الصغرى (Velikovsky, 2023)

VII ـ المقارنة النهائية: عجز الاستعارة التنبئي في مواجهة الصرامة القانونية في الهندسة النسقية

تتبدّى الفجوة الإبستمولوجية بين الأنموذجين جلياً في مدى قدرتهما على "التنبؤ العلمي". (Prediction) فالمعايير البيولوجية الثلاثية التي استند إليها تشيسترمان (طول العمر، والخصوبة، ووفاء النسخ للأصل) تمكث في دائرة التشخيص الوصفي البَعْدي؛ إذ تكتفي بإخبارنا بالشروط التي يجب أن تحوزها الميمة لتوصف بأنها ناجحة، بيد أنها تعجز بنيوياً عن إرشادنا وتحديد ميقات نجاحها، أو حساب حجم انتشارها، أو التنبّؤ بنقاط توقّفها في البيئة الثقافية. ويقذف هذا القصور التنبؤي بالميميائيات الكلاسيكية في حيّز "العلم الأوّليّ" (Protoscience) العاجز عن صياغة أنموذج رياضياتي منضبط.

في المقابل، تمنح قوانين فيليكوفسكي الكونية الثلاثة الباحث إطاراً تنبّؤياً حتمياً شديد الصرامة؛ حيث يتيح القانون الأوّل (الاندماج صعودا) التنبؤ المسبق "بخصائص الانبثاق النسقي" (Emergent Properties) الناشئة عند تلاحم الهولونات الصغرى. في حين يُدير القانون الثاني التنافس والتعاون الأفقي بين الوحدات ويسمح بنمذجة تفاعلاتها البينية وتعيين "نقاط التوازن النسقي" (Equilibrium) التي ستؤول إليها. بينما يتكفل القانون الثالث (التحكّم النازل) برصد "المحدّدات والقيود الصلبة" (Constraints) التي يفرضها النظام الفائق على جزيئاته المودعة فيه.

ويقود هذا الإطار التنبّؤي الحتمي إلى إخراج الترجمة في فضاء الأنموذج الفراكتالي من حيّز الممارسات التأويلية المرنة، ليصيّرها "هندسة نُظُم" صلبة وقابلة للقياس المترولوجي الدقيق؛ حيث يخضع النص الترجمي للتفكيك والتحليل باعتباره هولوناً معلوماتياً يشتبك مع هولونات نظيرة وفق معادلات رياضية منضبطة. وبذلك، لا تتحدّد الترجمة في هذا البارادايم استجابة اجتماعية للمعايير فحسب، بل تتبلور بصفتها عملية "بناء نسقي" (System Building)

يخضع بذاته للقوانين الكونية الحاكمة للأنظمة المادية والمعلوماتية كافة، الممتدة باطّراد من فيزياء الذرة إلى الاتساع الكوني.

VIII ـ نحو ترجمة حتمية

مثّل التحوّل من المعايير البيولوجية الوصفية إلى القوانين الكونية الرياضياتية نقلة نوعية وجذرية في استيعاب آليات النقل والانتشار الثقافيين. فبينما ظلت الميميائيات الكلاسيكية أسيرة التشبيه الاستعاري تكتفي برصد الظاهرة بَعدياً دون تفسير ديناميّاتها بنيوياً فتح الأنموذج الفراكتالي آفاقاً بكرًا لتأسيس "ترجمة حتمية" (Deterministic Translation)؛ تتيح للباحث نمذجة العملية الترجمية رياضياتياً صِرفاً، والتنبؤ الدقيق بمخرجاتها استناداً إلى مدخلاتها وقوانينها الحاكمة.

ولا يعني هذا المنزع الحتمي إلغاء كينونة المترجم أو مصادرة طاقته الإبداعية، بل يقضي بإعادة تموضع هذا الإبداع وتأطيره داخل قالب نسقي منضبط، (Systemic Framework) يغرس القدرة على تحليله وفهمه علمياً ومادياً. فالترجمة، في نهاية المطاف، لا تتبلور بصفتها "فناً غامضاً وسريالياً"، (Mysterious Art) ولا باعتبارها "علماً مرناً وتأويلياً"، (Soft Science) بل هي "هندسة نُظُم معقّدة" (Complex Systems Engineering) تخضع طوعاً لقوانين كونية موحّدة ومطّردة.

1. توظيف الإرث البوبري الإبستمولوجي في البناء النظري للترجمة

يُعدّ كارل بوبر (Karl Popper) في طليعة الفلاسفة الذين أحدثوا أثراً عميقاً في الفكر العلمي المعاصر، بالاستناد إلى نظريته الحاكمة في "نموّ المعرفة" (Growth of Knowledge) التي بسطها في متونه المتعدّدة. ورغم عدم معالجة بوبر للظاهرة الترجمية بصورة مباشرة، فإنّ إرثه الإبستمولوجي الشامل وتحديداً "نظرية العوالم الثلاثة" و"مخطط حل المشكلات" غدا حجر زاوية متينًا تتأسس عليه النظريات الترجمية المعاصرة.

ويشترك كل من تشيسترمان وفيليكوفسكي في الارتكاز إلى هذا الإرث الفلسفي، غير أنهما يفترقان عند مفترق طرق برادايمي برفضهما السير في المسار

ذاته؛ إذ يتبنّى الأنموذج الأوّل الخطّية البوبرية المباشرة مصيراً لحل المشكلات اللسانية، في حين يرتدّ الثاني نحو هندسة "المعاودة الدورية الارتدادية" (Recursion) الفراكتالية باعتبارها الخوارزمية الكونية الحتمية القادرة على تفسير ولادة الإبداع وانبثاقه النسقي.

2. مخطط تشيسترمان في حل المشكلات: الترجمة مساراً خطّياً

1.2. الجذور البوبرية: المخطط الرباعي المتسلسل

يستند تشيسترمان في تحليله لآليات الإبداع الترجمي على "المخطط الرباعي" (Tetradic Schema) الذي صاغه بوبر مسبقاً لتوصيف ديناميات نمو المعرفة البشرية.

وينتظم هذا المخطط في أربع مراحل متتالية وصارمة (Popper, 1972): تبدأ بـ P1 (المشكلة الأولى: Problem 1)، وهي المعضلة النظرية أو الإجرائية المباشرة التي تطلق شرارة البحث والتحرّي؛ وتليها TT النظرية التجريبية، (Tentative Theory) المتمثلة في الحل المؤقت والفرضية المقترحة لمجابهة تلك المعضلة؛ ثم تعقبها مرحلة EE (حذف الأخطاء: Error Elimination)، وهي عملية تُعنى بالاختبار والنقد والتجريب سعياً إلى دحض النظرية وتفنيدها؛ ليتولد في النهاية P2 (المشكلة الجديدة: Problem 2)، وهي المعضلة الأعمق والأشدّ دقة التي تنبثق جراء تصفية الأخطاء السابقة.

ويرى بوبر أن هذا المخطط لا ينكفئ على حيز العلوم الطبيعية وحدها، بل يتعداها بوصفه أنموذجاً عاماً ومطكسباً يضبط أشكال النمو المعرفي كافة، ويتناظر بنيوياً مع أطروحات التطور البيولوجي الصارمة (Popper, 1972).

2.2. تطبيق تشيسترمان:

الترجمة حلا مستمرا للمشكلات اللغوية

سحب تشيسترمان هذا المخطط على فضاء الترجمة الإجرائي؛ مفترضاً مواجهة المترجم معضلة أوّلية (P1) تتمثل في كيفية تمرير النص وإعادة صياغته في اللغة الهدف. ثم يقترح حلاً مؤقتاً (TT) يتجسد في مسوّدة ترجمية أوّلية، يُخضعها المترجم تالياً لآلية حذف الأخطاء (EE) عبر الامتثال للميمات المعيارية

السائدة والنقد الذاتي؛ لتنبثق في النهاية معضلة جديدة (P2) تستدعي حلاً آخر، وهكذا باطراد متسلسل. وتغدو الترجمة في رؤية تشيسترمان مساراً متواصلاً لحل المشكلات اللغوية البحتة؛ حيث تتحدد كل ترجمة بصفتها محاولة تجريبية تخضع دوماً للنقد والتنقيح.

ورغم البناء المنطقي الذي يقدمه هذا الإطار،فإنه يظل حبيس مسار خطي متسلسل؛ إذ يفترض انطلاق العملية من نقطة (P1) واستقرارها عند نقطة، (P2) معتقداً انتهاء كل دورة إلى تقدم معرفي تراكمي ناعم. ويعجز هذا التصور الخطي عن استيعاب "العَوْدة الدورية المستمرة" (Cyclicity) التي تحكم ثنايا الفعل الإبداعي الفعلي؛ حيث يرتدّ المترجم مراراً نحو نقطة البداية حين يكتشف فجأة أنّ الحلّ الوليد ما هو في الحقيقة إلا مشكلة أعمق. كما يقصر هذا المخطط عن تفسير ظواهر "الانبثاق النسقي التلقائي" (Systemic Emergence) وتحديداً ولادة خصائص كيفية كلية جديدة يستحيل ردها إلى المكونات الفرعية؛ وهي الظواهر التي تؤلف جوهر الإبداع والابتكار في الترجمة الأدبية والشعرية على وجه الخصوص.

3.2.حدود المسار الخطي: غياب المعاودة الدورية والانبثاق النسقي

تتبلور حدود الأنموذج الخطي وقصوره الإبستمولوجي في ثلاثة مرتكزات نقديّة:

· أولاً: غياب المعاودة الدورية؛ (Cyclicity) فالعملية الإبداعية الفعلية وتحديداً في الممارسة الترجمية لا تتّبع صراطاً مستقيماً، بل هي عملية دورية ارتدادية، يتنقل المترجم خلالها في فضاء التناظر الكائن بين النص المصدر والنص الهدف، وفي الحيّزين اللغوي والثقافي تلازماً، دون صيرورة تفضي إلى "نقطة نهاية" حتمية ومحددة مسبقاً.

· ثانياً: غياب حلقة التغذية الراجعة؛ (Feedback Loop) إذ يفترض المخطط البوبري صعود كل دورة نحو "مشكلة أعمق"، بيد أنه يقصر عن توفير آلية

مترولوجية تقيس "عمق" هذه المشكلة كمياً، أو تضبط شروط الميقات الحتمي لتوقف الدورة الخوارزمية.

· ثالثاً: غياب الانبثاق (Emergence) فالأنموذج الكلاسيكي يُصيِّر الإبداع حلاً تعويضياً لمشكلة لسانية معزولة، بينما يتعدّى الإبداع الحقيقي في الترجمة الأدبية خاصة رتبة الإجابات التبسيطية لينتج ذاته باعتباره مولِّداً " لمشكلات ومعضلات" جمالية ومعرفية جديدة يستحيل تفكيكها أو استيعابها داخل حدود الإطار القديم. (Chesterman, 2016)

3.الخوارزمية التطورية عند فيليكوفسكي: التلازم الديناميكي بين الفكرة والمنتج

1.3.تجاوزالخطية نحو الديناميكية الدورية: خوارزمية (iP)

في المقابل، ارتقى فيليكوفسكي (Velikovsky, 2023) بمفهوم بوبر محوّلاً إياه نحو "خوارزمية دورية" (Cyclic Algorithm) وسمها برمز التلازم الحركي (iP)؛ حيث تُحيل (i) على الفكرة الذهنية (Idea) بينما تقترن (P) بالمنتج أو السيرورة (Product /Process).

وتقضي هذه الخوارزمية الكونية بأنّ الفكرة الذهنية تصير مادية في صورة منتج أو سيرورة ملموسة، ويعود هذا المنتج بدوره فيولّد أفكاراً جديدة في وعي المتلقّي، لتستمرّ الديناميكية في دورة ارتدادية لا نهائية (Velikovsky, 2023). وبخلاف المخطّط الخطّي المتسلسل، (P1 P2) الذي يفترض تقدماً تصاعدياً ناعماً، تؤسس الخوارزمية الدورية(P) للإبداع باعتباره "حلقة مغلقة" (Closed Loop) ترتدّ فيها المخرجات لتغدو مدخلات منظِّمة للدورة اللاحقة. (Velikovsky, 2023)

2.3.الانبثاق الإبداعي: ولادة الهولون الفراكتالي الجديد

يتحدد "الإبداع" في الحقل الترجمي ضمن هذا الإطار النسقي الشامل حالةً من "الانبثاق التلقائي الكيفي" لهولون فراكتالي جديد يمثله النص المترجم. فالنص المستهدف باعتباره منتجاً (Product) مستقراً لا يتجسد مجرد حل تعويضي لمعضلة لسانية معزولة، بل يتشكل "كياناً وجودياً جديداً" (New Entity) يحوز

خصائص كيفية كلية يستحيل عزلها أو ردها إلى خصائص النص المصدر أو موجهات المترجم المنفردة (Velikovsky, 2023) .

وينبثق هذا الهولون جراء التفاعل الحتمي المتزامن بين الأفكار، (Ideas) والسيرورة الذهنية (Mental Processes)، والسيرورة الفيزيائية (Physical Processes) الناشطة داخل نسق المترجم؛ في حين يتدخل "النسق البيئي المحيط" (Environment) ليصم المنتج بالإبداع والابتكار شريطة استيفائه ثلاثة محددات قياسية صلّبة: الجدة (New)، والفائدة الوظيفية، (Useful) والمفاجأة المفهومية. (Velikovsky, 2023) (Surprising)

وتتمم هذه الموجهات الثلاثة الجدة والفائدة والمفاجأة "محددات بيئية موضوعية" (Environmental Criteria) منبثقة من السببية النازلة للنسق العام، وتنفض يدها تماماً من "المعايير الذاتية والانطباعية". (Subjective Criteria) فالسلطة الحاكمة بجودة النص المترجم وإبداعيته لا ترتبط برأي المترجم أو ذوقه المنكفئ على ذاته، بل تنشأ من كيفية اشتباكه وتفاعله الديناميكي مع "النسق البيئي" الشامل الذي يستوعب القراء، والنقاد، وضغوط السوق، وحركة التقاليد الأدبية الموروثة. وتغدو الترجمة الإبداعية هي تلك الكتلة المعلوماتية التي تتفوق وظيفياً (Functionally Outperforms) على الهولونات والبدائل اللغوية المتنافسة في البيئة ذاتها، لكونها الأكثر حيازة لعناصر الجدة والفائدة والمفاجأة القياسية (Velikovsky, 2023) .

3.3. الخوارزميات الثلاث المفسرة للإبداع: التوليف، وإعادة التوظيف، وتعديل البيئة النسقية

صاغ فيليكوفسكي ثلاث خوارزميات توليدية عامة يقبل حقل الترجمة تمثلها واستيعابها بصورة حتمية:

الخوارزمية الأولى: التوليف أو الدمج (Combination)؛ وتتحقق بدمج وحدتين معلوماتيتين موجودتين مسبقاً (أو أجزاء مقتطعة منهما) لتخليق وحدة منبثقة جديدة. ويتشكل هذا إجرائياً في الفضاء الترجمي بصهر استراتيجية

تعبيرية غربية المنشأ مع تقنية بلاغية مشرقية، صياغةً لـ "نمط أسلوبي وليد" يحوز خصائص كيفية مغايرة لوعي الطرفين الكلاسيكيين. (Velikovsky, 2023)

الخوارزمية الثانية: إعادة التوظيف (Repurposing)؛ وتتأسس على استعارة وحدة نسقية مستقرة في حقل معرفي محدد، واستثمار طاقتها لفك معضلة ناشطة في حقل آخر مباين. ويتبدى هذا تطبيقياً في المسار الترجمي بنقل المفاهيم الحركية لعلم النفس المعرفي واستدامتها داخل فضاء التحليل المعقد المصاحب لترجمة المتون الشعرية والأدبية الشائكة.

الخوارزمية الثالثة: تعديل البيئة (Environment Alteration)؛ وتقوم على تحوير شروط النسق المحيط بالظاهرة، لتتحول الوحدات التي وُصمت سابقاً بـ "عدم التكيف" إلى عناصر متكيفة ومستقرة في اللحظة الراهنة. ويتمظهر هذا الفعل في السياسات الترجمية بإعادة هندسة وتغيير "الميمات المعيارية" (Norm-memes) الحاكمة للمجتمع الأكاديمي والمهني عبر التدريب والتأثير الإبستمولوجي الوازن؛ التحول الذي يُصيّر الخيارات التعبيرية التي كانت تُنعت بـ "الرفض والخرق القواعدي" سابقاً خياراتٍ مقبولةً وممتثلةً للنسق البيئي الجديد. (Velikovsky, 2023)

4. قصور المسار الخطي أمام حتمية المعاودة الدورية في تفكيك الفعل الإبداعي

تتجلى الفجوة الإبستمولوجية بين الأنموذجين في كنه صياغتهما وتفسيرهما لماهية "**الإبداع**". ففي برادايم تشيسترمان، ينحصر الإبداع **باعتباره** "حلاً موضعياً لمعضلة" ناشطة داخل مخطط خطي متسلسل؛ حيث يواجه المترجم المشكلة((P1))، ويقترح الفرضية المؤقتة((TT))، ويخضعها لتصفية الأخطاء((EE))، ليستقر عند الوضع الجديد((P2)).

ويمكث هذا الإطار أداةً تشخيصيةً لرصد العمليات الترجمية الروتينية والآلية، بيد أنه يقصر تماماً عن تفسير مكامن الابتكار الحقيقي الذي يتجاوز عتبة "حل المشكلات" الضيقة صعوداً نحو "ابتكار واقع فكري ومعلوماتي جديد".

في المقابل، يتبلور الإبداع عند فيليكوفسكي باعتباره "انبثاقاً تلقائياً" ينشأ حتماً جراء التفاعل الديناميكي المتزامن بين الأفكار والعمليات الناشطة في مستوى نسق معقد؛ فالنص المترجم لا يتجسد مجرد حل تعويضي لمعضلة لسانية، بل ينتظم "بصفته هولوناً فراكتالياً جديداً" يحوز خصائص وقوانين نوعية خاصة به. ويمنح هذا الإطار الباحث القدرة على استيعاب الإبداع الترجمي باعتباره ظاهرة نسقية معقدة، قابلة للنمذجة الرياضياتية الصارمة والتحقق التجريبي حاسوبياً (Velikovsky, 2023).

5. نحو إبداع قابل للقياس المترولوجي

يمثل الانعطاف عن الخطية البوبرية صوب هندسة "المعاودة الدورية" الفراكتالية قطيعة برادايمية وثورة معرفية في تفكيك الإبداع الترجمي. فبينما ظل أنموذج تشيسترمان أسير فكرة "حل المشكلات اللغوية" برغم قيمته الوصفية يفتح علم الثقافة التطورية الباب واسعاً لتأسيس "إبداع قابل للقياس" (Measurable Creativity)؛ يتيح تعريض النص المترجم للتحليل الحتمي بصفته هولوناً فراكتالياً وليداً، وقياس منسوب "جدته"، و"فائدته الوظيفية"، و"درجة مفاجأته المفهومية" كمياً، استناداً إلى آلية اشتباكه وتفاعله مع شروط النسق البيئي المحيط به.

فالإبداع، في نهاية المطاف، لا يتحدد "موهبة غيبية غامضة" (Mysterious Talent) ولا مساراً خطياً تجميعياً صامتاً، (Linear Solution) بل يتبلور بصفته "انبثاقاً نسقياً علوياً" (Systemic Emergence) يخضع كلياً لقوانين كونية موحدة ومطردة

X. الاتساق المعرفي (Consilience) والآفاق الاستشرافية للدراسة

1. أفول التشبيه المجازي وصعود الهندسة المعلوماتية

تطمح هذه الدراسة إلى تأسيس المقارنة لانعطاف جوهري في كنه استيعاب الظاهرة الترجمية؛ انعطاف يقطع مع "أفول التشبيه المجازي" (Age of Metaphor) ليعلن "صعود الهندسة المعلوماتية" (Age of Informational Engineering).

فبعد عقود من الهيمنة النظرية للميميائيات الكلاسيكية التي قدمت إطاراً تشخيصياً مفيداً بيد أنه رهين الأقيسة الاستعارية يتبلور الأنموذج الفراكتالي باعتباره بديلاً علمياً صلبًا يحقق مفهوم "الاتساق المعرفي" أو "تضافر الأدلة المعرفية" (Consilience) الذي نادى به عالم البيولوجيا التطورية إدوارد ويلسون (Wilson, 1998).

ويُقصد بالاتساق المعرفي الوثب سوياً (Jumping Together) تبعاً لتحديد ويلسون الصارم للبنى المعرفية، ويتحقق بتوليف الحقائق والنظريات القائمة عليها في مختلف التخصصات، ابتكاراً لقاعدة تفسيرية موحدة ومشتركة (Wilson, 1998) . وهذا التوليف النسقي هو ما تنجزه أطروحة الثقافة التطورية لفيليكوفسكي بدقة مجهرية؛ إذ يربط الفيزياء بالبيولوجيا والمعلوماتية بالعلوم الإنسانية، متموضعاً بدراسات الترجمة في صميم "وحدة العلوم الكونية" (Unity of Knowledge).

2 – من الجينة إلى الهندسة الفراكتالية: تحقيق الاتساق المعرفي

1.2. حدود التشبيه الجيني

يستند أنموذج تشيسترمان كما أظهرنا في الأقسام السابقة إلى "التشبيه بالجينة" (Gene Metaphor) الذي قدّمه دوكينز (1976). فالميمة عند تشيسترمان هي "وحدة ثقافية للنسخ" تشبه الجينة البيولوجية في انتقالها من حامل إلى آخر عبر المحاكاة والتقليد (Chesterman, 2016). ورغم إبداع هذا التشبيه، فإنّه ظلّ أسير حدوده المجازية. فالجينة بوصفها وحدة فيزيائية يمكن عزلها وتحليلها تسلسلياً وقياس تأثيرها الظاهري (Phenotypic Effect) بدقة. أما الميمة بوصفها وحدة افتراضية فلا يمكن عزلها فيزيائياً، ولا تحليلها تسلسلياً، ولا قياس تأثيرها بدقة كمية (Aunger, 2000). وهذا ما جعل الميميائيات الكلاسيكية "علماً أوّليّا" (Protoscience) يفتقر إلى الأنموذج الرياضي والتجريبي. (Ermakov et al., 2021)

2.2 الهندسة الفراكتالية بديلاً علمياً حتمياً

في المقابل، يطرح أنموذج فيليكوفسكي "الهندسة الفراكتالية" (Fractal Engineering) باعتبارها بديلاً علمياً صلباً يتجاوز مآزق التشبيه الاستعاري التفسيرية. فالهولون الفراكتالي هو نسق متداخل مدمج، يحوز بنية رياضياتية معيّنة، وأربع فئات بنيوية دقيقة، وتديره ثلاثة قوانين كونية حتمية. (Velikovsky, 2023)

ولا ينكفئ هذا الأنموذج على استعارة رداء مجازي من علم الأحياء، بل يمارس ردّاً إبستمولوجياً نسقياً (Scientific Reduction) يصهر الأنظمة كافة بما فيها الأنظمة البيولوجية، والثقافية، والترجمية تلازماً في فئات ووحدات قابلة للقياس المترولوجي الموحّد. فالجينة ذاتها في فضاء الأنموذج الفراكتالي تُستوعب على أنها "هولون" معلوماتي يخضع حتماً لسلطان القوانين الكونية الثلاثة؛ حيث يمتثل للاندماج صعوداً (تلاحم الجينات داخل الكروموسومات)، ويتفاعل تنافسياً أفقياً (تزاحم الأليلات المتنافسة)، ويخضع للتحكم والسيطرة نزولاً عبر التعبير الجيني المُنظَّم (Velikovsky, 2023).

ويمثل هذا الرد النسقي الرياضياتي التجسيد الإجرائي الفعلي " للاتساق المعرفي" (Consilience) الذي نادى به ويلسون (1998)؛ إذ طمح ويلسون في كتابه "الاتساق: وحدة المعرفة" إلى صهر فروع العلوم الإنسانية والصلبة كافة وربطها بقوانين مادية موحدة. وانتقد التشرذم المفرط داخل الأكاديميا، مؤكداً أن المعضلات المعقدة تقتضي بالضرورة توليفاً (Synthesis) للمناظير المنهجية عابرة التخصصات. ويبرز أنموذج فيليكوفسكي بصفته الصياغة العملية لهذا الطموح الفلسفي؛ إذ يرتدّ بالعلوم الإنسانية المرنة نحو الصرامة القياسية عبر توحيد الوحدات والمقاييس والقوانين الكونية.

3 – صرامة النظام المعلوماتي النسقي الرياضياتية

1.3. الثقافة التطورية إطاراً مترولوجياً قياسياً

يمنح علم الثقافة التطورية (Evolutionary Culturology) الباحث إطاراً أشد صرامة لقياس الوحدات الثقافية وتحليل بنيتها النسقية في مستويات سُلّمية

مقياسية (Scale–levels) محدّدة، نأياً بالظاهرة عن التموضع بصفتها استعارات سوسيولوجية وتأويلية مرنة (Velikovsky, 2023).

فالهولون الفراكتالي بصفته وحدة معلوماتية متعينة يخضع للقياس ثلاثي الأبعاد: كمية المعلومات (Information Quantity) المودعة داخله، وجودة المعلومات (Information Quality) المحدِّدة لمدى فائدته الوظيفية، وتعقيد المعلومات (Information Complexity) الضابط لدرجة انبثاقه الكيفي. (Velikovsky, 2023) وتكفل هذه المعايير القياسية الثلاثة صياغة قالب كمّي يتنزّل في سياق أيّ نص ترجمي، تعييناً لمنسوب إبداعيته ودرجة فاعليته الوظيفية في بيئته.

2.3. الانعطاف عن التوصيف النوعي نحو الحوسبة القياسية والكمية

يمثل الانعطاف عن التوصيف النوعي السلوكي صوب القياس الكمي الحتمي ثورة بارادايمية هائلة في فضاء دراسات الترجمة. فأنموذج تشيسترمان برغم طاقته التحليلية ظلّ وصفياً بالدرجة الأولى؛ إذ يرصد آليات تداول الأفكار وتنافس المفاهيم النظرية، بيد أنه يعجز تماماً عن قياس حجم انتشارها كمياً، أو حساب ميقات أفولها، أو التنبّؤ بـنقطة توقفها في الحوض الثقافي (Chesterman, 2016).

في المقابل، يُقدم الأنموذج الفراكتالي "معادلات رياضياتية حتمية" (Equations) تتيح حساب مسار تدفق الهولونات عَبْر أبعاد الزمان وعبر الفضائين الثقافي واللساني. فقانون الاندماج الصاعد صياغته رياضياتية حتمية عبر دالة تجميع (Aggregation Function) تضبط آليات تلاحم الوحدات الصغرى لبناء النظام الفائق. وقانون التنافس والتعاون أفقياً تقبل دينامياتُه النمذجة بالاستناد إلى نظرية الألعاب (Game Theory) أو آليات الديناميكا السكانية (Population Dynamics). في حين يتبلور قانون التحكم نزولاً في قالب "شروط حدّية منظِّمة" (Boundary Conditions) رياضياتية صارمة تقيد سلوك المكونات الفرعية وتوجه حركتها.

(Velikovsky, 2023)

4 – الترجمة نظاماً فيزيائياً: إثبات البنية الهولونية

1.4. تبلور الوحدات الترجمية هولوناتٍ فراكتاليةً

يبرهن التحليل المقارن في هذه الدراسة أنّ الوحدات الترجمية الممتدة باطراد من المفردة والجملة إلى الفقرة والمتن النصي وصولاً إلى المكتبة الشاملة هي هولونات فراكتالية حتمية (Fractal HOLONs /partons) تذعن كلياً لسلطان القوانين الكونية الثلاثة.

فالكلمة يتبلور كنهها على أنّها "كل" متكامل (يحوز دلالة مستقلة) وجزء وظيفي (داخل جملة أكبر) في آن واحد. وتنتظم الجملة باعتبارها "كلاً" نسقياً (يحمل بناءً نحوياً مستقلاً) و"جزءاً" بنيوياً (يؤلف فقرة أكبر). وتطّرد هذه المعاودة الذاتية الارتدادية في مستويات المقياس والحجم كافة، بدءاً من الحيز اللغوي الدقيق وصولاً إلى الفضاء الثقافي الواسع. (Velikovsky, 2023)

2.4. تلازم السببية النازلة والانبثاق الصاعد

يفرض النظام الفائق الكلي (النص المترجم) سلطة "التحكّم النازل" (Downward Control) على أجزائه ومكوناته الفرعية، في الوقت الذي تتكامل فيه تلك الأجزاء صعوداً لتوليد "معنى نسقي" (Meaning) يستعصي رده أو اختزاله إلى مجرد مجموع معاني الكلمات المنفردة.

فالنص المترجم باعتباره نظاماً فائقاً وأكبر يفرض محددات وقيوداً صلبة وصارمة على آليات اختيار المفردات وصياغة الجمل، الأمر الذي يُصيّر الممارسة الترجمية "هندسة نُظُم" صلبة (Systems Engineering) ويبرئها من رتبة التجميع الساكن القائم على مجرد "رصف الكلمات وتطابقها الحرفي" (Word–matching) (Velikovsky, 2023). ويشكل هذا التحكم النازل التجسيد الإجرائي لـ "السببية النازلة" (Downward Causation)، بوصفها واحدة من أبرز الخصائص المميزة لديناميات الأنظمة المعقدة (Emmeche, 2004).

وبناءً على هذا المبدأ، يفرض النص المترجم بصفته منتجاً نهائياً ومستقراً شروطه الحدّية الصارمة على كل كلمة مودعة فيه؛ فلا يمتلك اللفظ مشروعية

الظهور في المتن إلا إذا جاء متوافقاً كلياً مع "النمط الشامل" (Global Pattern) الذي يحدد ملامحه النوع الأدبي، والغرض الوظيفي، وطبيعة الجمهور المتلقي. (Velikovsky, 2023)

وفي الاتجاه المعاكس والحتمي، تتكامل الأجزاء الصغرى صعوداً لإنتاج "خصائص منبثقة تلقائياً" (Emergent Properties) يستحيل العثور على أثرها في أيّ جزء فرعي منفرد. فالسمات الكلية كالتماسك الأسلوبي للنص المترجم، والإيقاع النثري المتدفق، والتأثير العاطفي الكامن، هي خصائص كيفية تنبثق (Emerge) جراء التفاعل البيني والتعاون الأفقي للأجزاء، ولا يقبل كنهها الاختزال في سمات كلمة أو جملة معزولة.

ويغدو هذا "الانبثاق الصاعد" (Upward Emergence) المحرك الأساسي الحاكم والمفسر لإمكانية الإبداع الترجمي؛ فالمترجم لا يخلق المعنى من عدم سريالي، بل يشيد نظاماً معلوماتياً متكاملاً تتولد عنه دلالة منبثقة جديدة لا وجود لها في أي من مكوناته الفرعية المنفردة. (Velikovsky, 2023)

5 – الآفاق الاستشرافية: التموضع نحو علم ترجمة كلي

1.5 الأدوات الإجرائية المستحدثة للمترجم والباحث

يمنح تبنّي أنموذج فيليكوفسكي المترجم والباحث أدوات منهجية صلبة تتجاوز عتبة التوصيف السلوكي التقليدي صعوداً نحو التفسير العلمي الشامل.

فالمترجم باعتباره "مهندس نُظُم" (Systems Engineer) غدا قادراً على تشغيل الخوارزمية الدورية الارتدادية(P) واستثمارها لتفكيك مسار عمله الإبداعي، وقياس منسوب "جدته"، و"فائدته الوظيفية"، و"جرس مفاجأته" كمّياً، استناداً إلى آلية اشتباكه وتفاعله مع شروط النسق البيئي المحيط. أمّا الباحث بصفته "عالماً كلياً" (Meta–meta–scientist)فإنّه يستعين بالقوانين الكونية الثلاثة لنمذجة العملية الترجمية رياضياتياً، والتنبّؤ الحتمي بمخرجاتها، وإخضاع فرضياته للتحقق التجريبي الحسابي (Velikovsky, 2023) .

2.5 تموضع الترجمة في قلب "علم كل شيء يتطور"

يقضي هذا الأنموذج بتموضع الظاهرة الترجمية في قلب "علم كل شيء يتطور" (Science of Everything that Evolves) المحكوم بقوانين هندسية ورياضياتية حتمية. فالترجمة في الفضاء الفراكتالي لم تعد مدونة لسانية منعزلة، بل تتبلور باعتبارها جزءاً حيوياً من "نسق كوني شامل" (Cosmic System) يذعن بذاته لنفس القوانين الفيزيائية والمعلوماتية التي تدير تطور النجوم، وتفاعلات الذرات، ونمو الكائنات الحية (Velikovsky, 2023) .

ولا يعني هذا المنزع الارتدادي النسقي (Scientific Reduction) قمع خصوصية الترجمة أو محو هويتها اللسانية، بل يمثّل "توحيداً إبستمولوجياً صلبًا" (Unification) يستوعبها داخل إطار علمي أشمل يتيح فك شفراتها الإدراكية والمادية بعمق وكثافة أكبر.

3.5 الانتقال نحو ممارسة ترجمية هندسية

يمثل الانعطاف عن الميميائيات الكلاسيكية صوب علم الثقافة التطورية تبعاً لما برهنت عليه هذه الدراسة المقارنة انعطافاً إبستمولوجياً حاسماً وقطيعة معرفية هائلة في فضاء دراسات الترجمة.

فبينما تمكث الميمة عند تشيسترمان مقيدة بحدود الاستعارة السوسيوبيولوجية برغم قيمتها التأسيسية يفتح الهولون الفراكتالي الآفاق لتأسيس "ترجمة قابلة للقياس المترولوجي" (Measurable Translation) و"إبداع صلب خاضع للقياس المعياري" (Measurable Creativity) .

إنّ الاتساق المعرفي الحتمي الذي يشيّده هذا البرادايم بصهر تخصصات الفيزياء والبيولوجيا والمعلوماتية في قلب العلوم الإنسانية يتموضع بالترجمة في صميم "وحدة العلوم الكونية"، ويصيّرها جزءاً لا يتجزأ من علم النظم التطورية الشامل؛ مؤكداً أنّ آفاق البحث المستقبلية لن تكون حكراً على التشبيهات الاستعارية والأقيسة المجازية، بل ستمتثل طوعاً للهندسة النسقية الصارمة.

* **وفي الحيّز الإجرائي والتطبيقي**، يفتح الأنموذج الفراكتالي آفاقاً واسعة لإعادة هيكلة هندسة المناهج الأكاديمية المعنية بتدريب المترجمين؛ فبدلاً من تدريس "المعايير" باعتبارها مفاهيم مجازية وسلوكية يحفظها المتدرب تلقيناً،

يقبل البرادايم الجديد طرحها وتدريسها بصفتها "محددات وشروطاً حدّية صارمة" (Boundary Conditions) رياضياتية تقبل البرمجة والتحقق داخل بيئات تدريبية حاسوبية افتراضية؛ حيث يشتبك المتدرب مع "هولونات نصية" خاضعة للقوانين الكونية الثلاثة، ويتعلم كيف يُدير الاندماج صعوداً، ويضبط التنافس والتعاون أفقياً، ويمتثل للتحكم والسيطرة نزولاً. (Velikovsky, 2023) ويقود هذا التحول الهيكلي إلى نقل التدريب من رتبة "المحاكاة والتقليد العفوي" (Imitation) إلى رتبة "هندسة النظم المعرفية"، (Engineering) حيث يتشكل وعي المتدرب باعتباره "مصمماً نسقياً" (System Designer) يبني النص الهدف هولوناً فراكتالياً متكاملاً ومستقراً بنيوياً. وفي مجال الترجمة الآلية والمساعدة الحاسوبية، (CAT Tools) يوفر الأنموذج الفراكتالي إطاراً متيناً لتطوير "محركات ترجمة فراكتالية" (Fractal Translation Engines)؛ وهي محركات لا تعالج النص استناداً إلى التفكيك الحرفي المنعزل (كلمة بكلمة)، بل تُدير تفاعلاته النسقية "هولوناً بهولون".

وتتولى هذه المحركات تحليل الجملة باعتبارها نظاماً متداخلاً من الكلمات–الهولونات، وتُترجمها امتثالاً لقوانين الاندماج صعوداً، والتنافس أفقياً، والتحكم نزولاً. (Velikovsky, 2023) ويقضي هذا التحول بأن الذكاء الاصطناعي المستثمر في الحقل الترجمي لن يقتصر على رتبة "التطابق الإحصائي الاحتمالي الساكن"، (Statistical Matching) بل سيترقّى صعوداً ليغدو "نمذجة نسقية حتمية" (Systemic Modeling) تفهم النص وتستوعبه بنياناً فراكتالياً يحوز مستويات سُلّمية مقياسية متعددة التداخل.

* **وفي مستوى السياسات الترجمية** الحاكمة في المؤسسات الدولية والحكومات، يقبل الأنموذج الفراكتالي التطبيق والتشغيل لصياغة "استراتيجيات ترجمة وطنية" (National Translation Strategies)؛ تتأسس على تشريح "النسق البيئي" (Environment) الخاص بالترجمة في كل قطر، وتعيين "الهولونات الثقافية" المستحقة للنقل والعبور (أفكار، وسيرورات، ومنتجات)، فضلاً عن قياس "نقاط التوازن النسقي" (Equilibrium) القائمة بين صادر الترجمات وواردها (Velikovsky, 2023). ويمنح هذا الإطار القياسي الدول النامية على

سبيل المثال القدرة على تحديد الفجوات المعرفية الحقيقية المستهدفة بالسد عَبْر فعل الترجمة، نأياً بالسياسات السيادية عن العشوائية القائمة على مجرد الاكتفاء بـ "ترجمة كل ما يصل عفوياً".

* **وفي سياق التنمية المستدامة** والأهداف الإنمائية للأمم المتحدة على سبيل المثال، يمكن أن يسهم الأنموذج الفراكتالي في قيادة "ترجمة المعرفة من أجل التنمية"؛ (Translation for Development) بالاعتماد على تفكيك "الهولونات المعرفية" (Knowledge Holons) التي تقتضيها البنية المجتمعية المحلية، وترجمتها عَبْر مسار يضمن امتثالها "للاندماج صعوداً" (أي صهرها داخل البنى والأنظمة الاجتماعية المحلية لضمان حيويتها) وخضوعها لـ "التحكم نزولاً" (أي تكييفها طوعاً مع الشروط والقيود الحدّية للبيئة المحلية). وتخرج الترجمة ضمن هذا التصور عن رتبة "النقل اللساني الصامت"، لتتحدّد بصفتها "هندسة معرفية" حقيقية (Knowledge Engineering) تُعنى ببناء مهارات المجتمعات الإنسانية وتطويرها.

* **وفي الحيّز الطبّي الصارم**، يمكن أن يرفد الأنموذج الفراكتالي الباحثين بآليات مستحدثة لتطوير "بروتوكولات ترجمة طبية" (Medical Translation Protocols) محكمة؛ تعتمد على رصد "الهولونات المعلوماتية الدقيقة" (Information Holons) الناشطة في النصوص الطبية بدءاً من المصطلحات المجهرية وصولاً إلى البروتوكولات العلاجية الشاملة وترجمتها عَبْر سياق يصون بقاء "التحكم والسيطرة نزولاً" المفروضة من النظام الطبي الأكبر الفائق. (Velikovsky, 2023) فالزَّلل في نقل تعبير طبي معزول لا يتجسد هنا "خطأ لغويا عارضا"، بل هو "خلل هيكلي نسقي قاصر" (Structural Failure) يضرب استقرار الهولون الفراكتالي المكوّن للنص الطبي برمتّه، وهو خلل يقبل التجنب والكبح التام عبر تطبيق القوانين الكونية الثلاثة بصرامة رياضياتية حاسوبية.

* **وفي الحيّز القانوني**، يكن أيضا للأنموذج الفراكتالي أن يسهم في تطوير "أنظمة ترجمة قانونية" (Legal Translation Systems)؛ تعتمد ميكانيكياً على تشريح "الهولونات التشريعية" (Legislative Holons) الممتدة من المواد القانونية الفرعية وصولاً إلى النصوص الدستورية العليا وترجمتها عَبْر سياق

يضمن الامتثال "للاندماج صعوداً" (أي اندماجها الحتمي في النسق القانوني الأكبر للغة الهدف) ويخضع "للتحكم نزولاً" (أي فرض المحددات والقيود القانونية الفوقية الصارمة على خيارات المفردات والعبارات الصغرى). ويقضي هذا التموضع بعدم انحصار الترجمة القانونية في رتبة "النقل النصي الصامت"، لتتبلور بصفتها "هندسة تشريعية" حقيقية (Legislative Engineering) تُشيّد الجسور البنيوية بين النظم القانونية المتباينة.

❋ **وأمّا في المجال الأدبي**، فيمكن أن يوفر الأنموذج الفراكتالي للباحثين أدوات تفكيك لصياغة "نماذج ترجمة أدبية"؛ (Literary Translation Models) ترتكز على تحليل "الهولونات الأسلوبية" (Stylistic Holons) من الصور البلاغية المعزولة والإيقاع النثري المتدفق صعوداً نحو البنية السردية الشاملة وترجمتها عَبْر نسق يكفل "الانبثاق التلقائي" للمعنى الثقافي الجديد في النص الهدف. (Velikovsky, 2023) وتخرج الترجمة الأدبية ضمن هذا الإطار النسقي عن رتبة "إعادة الصياغة اللفظية المرنة"، لتنتظم "باعتبارها إبداعاً هولونياً" فريداً (Holonic Creativity) يولّد نصاً وليداً يحوز خصائص وقوانين نوعية خاصة بكيانه المستقل.

❋ **وفي فضاء تقييم جودة الترجمة**، يمنح الأنموذج الفراكتالي المؤسسات والباحثين "مقاييس كمية حتمية" (Quantitative Metrics) تضبط جودة النص المترجم، نأياً بالعملية عن اعتمادها على "الانطباعات والتمثلات الذاتية" (Subjective Impressions) التي لدى المراجعين والنقاد. وتتحول آلية قياس جودة النص من رتبة الأحكام الانطباعية العائمة، لتتحدد "بصفتها قياساً علمياً معيارياً ومترولوجياً"؛ يقبل الحساب الكمي برصد ثلاثة أبعاد: "درجة الاندماج" (Integration Degree) الكائنة بين المكونات النص الصغرى، و"درجة التوازن الأفقي" (Equilibrium Degree) الناشئة بين البدائل اللغوية المتنافسة، و"درجة الامتثال" (Compliance Degree) للشروط والمحدّدات الحدّية التي يفرضها النظام الفائق والأكبر.

(Velikovsky, 2023)

* **وفي عصر البيانات الضخمة،** (Big Data)يمكن أن يسهم الأنموذج الفراكتالي في قيادة وتطوير "منصات ترجمة ذكية" (Smart Translation Platforms) ويعمل على تطويرها؛ حيث تعتمد بنيويّاً على تفكيك "الهولونات البيانية" (Data Holons) بدءاً من النصوص المصدر والذاكرات الترجمية وصولاً إلى قواعد المصطلحات الكبرى وترجمتها عَبْر مسار يمتثل طوعاً "للمعاودة الذاتية الارتدادية الفراكتالية" (Fractal Recursion) الحاكمة للأنماط والكتل المعلوماتية في مختلف مستويات المقياس والحجم.

ويقود هذا التأسيس إلى نقل الترجمة في عصر التدفق الرقمي الهائل من رتبة "المعالجة الآلية الساكنة للنصوص"، لتتبلور باعتبارها "تعديناً معرفياً" ذكيّاً (Knowledge Mining) يستخلص المعنى الكامن في محيط البيانات ويُعيد بناءه وتشكيله في نصوص منبثقة جديدة حيّة ومستقرّة نسقياً.

* **وفي فضاء التنوع الثقافي والحوار** القائم بين الحضارات، يمكن أن يسهم الأنموذج الفراكتالي في تطوير "استراتيجيات ترجمة ثقافية"؛ (Cultural Translation Strategies) ترتكز على تفكيك "الهولونات الثقافية" (Cultural Holons) الشاملة للمفاهيم الدينية، والأنماط الاجتماعية، والرموز الفنية وترجمتها عَبْر سياق يضمن الحفاظ على "التنوع الفراكتالي" (Fractal Diversity) للثقافات. ويقضي هذا التأسيس بخروج الترجمة من مستوى "النقل الثقافي السطحي"، لتتحدد بصفتها "حواراً هولونياً" عميقاً (Holonic Dialogue) ينشُد التفاهم بين الحضارات دون مصادرة خصوصية أيّ منها ولا محو كينونتها.

* وفي المستويين الأكاديمي والبحثي، يتطلب الأنموذج الفراكتالي إعادة صياغة هندسية شاملة للمناهج الدراسية في كليات الترجمة؛ بحيث تستوعب "علم النُّظُم"، (Systems Science) و"الهندسة المعلوماتية"، (Information Engineering) و"الرياضيات التطبيقية" (Applied Mathematics) باعتبارها موادَّ أساسيةً لا غنى عنها، إلى جانب مقرّرات اللسانيات والأدب والثقافة.

فالترجمة في عصر الهولونات الفراكتالية لن تنكفئ على تخريج "ناقل لغوي عارض"، بل ستتكفل بإنتاج "مهندس معرفي" حقيقي، (Knowledge Engineer) يقيم الجسور البنيوية بين العوالم الثقافية باعتبارها نُظُماً فيزيائية معلوماتية صلبة

تذعن لقوانين كونية موحدة ومطردة. وهذا هو التحدي الإبستمولوجي الحقيقي الذي تطرحه هذه الدراسة: إذ هو لا يتوقف عند عتبة فهم الترجمة وتأويلها، بل يقضي "بهندستها".

ولتوضيح آليات تشغيل علم الثقافة التطورية (Evolutionary Culturology) بصفته عدسةً تحليلية ومترولوجية تفكك استراتيجيات الترجمة (Translation strategies) التي صاغها أندرو تشيسترمان، يقتضي الأمر إحداث قطيعة إبستمولوجية في لب تعريف "الاستراتيجية" ذاتها (Chesterman, 2016; Velikovsky, 2023).

ففي الميمياء الكلاسيكية، تتحدد الاستراتيجية بكونها "حيلة مهنية مؤقتة" أو "أداة مفاهيمية افتراضية" لصيانة معضلة ترجمية موضعية وحلّها. (Chesterman, 1997, 2016) أمّا في علم الثقافة التطورية، فإنّ كل خيار استراتيجي، وكل مفردة، وكل متن نصي، يُعامل باعتباره هولوناً/ بارتوناً فراكتالياً (Fractal HOLON / parton)؛ وهو وحدة معلوماتية (ميمة ثنائية الوجود المادي والذهني) تُمثّل في الآن ذاته كلاًّ مستقلاً وجزءاً وظيفياً من نسق أكبر، ويخضع اشتغالها بالكامل لسلطان القوانين الكونية الثلاثة (Velikovsky, 2023).

6. تطبيقات قوانين فيليكوفسكي الكونية على استراتيجيات تشيسترمان (النحوية، والدلالية، والبراغماتية):

1.6. استراتيجيات الترجمة النحوية وقانون "الاندماج صعوداً" (Integrate Upwards)

يقضي هذا القانون الكوني الأوّل بأن تندمج الوحدات المعلوماتية الصغرى وتتلاحم لتبنيَ نسقاً هيكليّاً منبثقاً في مستوى المقياس الأعلى. (Velikovsky, 2023) وفي الفكر الترجمي النسقي، تشتغل اللغة المكتوبة هولوناً/ بارتوناً فراكتالياً متدرجاً سُلّميّاً وعبر مقاييس حجمية متلازمة:

(رموز كتابية>>>حروف>>>كلمات >>>عبارات >>>جمل >>>فقرات>>>نص كامل).

(Velikovsky, 2023)

1 . التطبيق الإجرائي على الاستراتيجيات النحوية:

يتجلّى هذا القانون عندما يواجه المترجم معضلة نحوية فيعمد إلى تشغيل استراتيجية من قبيل تغيير البنية القواعدية (Transposition) مثلا أو تحوير بنية الجملة. (Chesterman, 2016) (Clause structure change) إذ يقوم في هذه اللحظة بإعادة تنظيم الهولونات/ البارتونات اللغوية الصغرى (متمثلة في الكلمات والروابط البينية)، لتندمج اندماجاً متسقاً وصحيحاً في عمق الهولون/ البارتون الأعلى (وهو الجملة أو الفقرة المستهدفة (Velikovsky, 2023).

ويتضح هذا إجرائياً، عند نقل صيغة المبني للمجهول الإنجليزي نحو صيغة اسمية أو فعلية نشطة (مبنية للمعلورم) في العربية ضماناً لسلاسة التدفق الأسلوبي؛ حيث يتولى المترجم تفكيك البنية القواعدية القديمة ويُعيد دمجها صعوداً لتلائم النسق التركيبي للغة الهدف، صياغةً لـ "اندماج صاعد" حتمي يكفل بقاء الكتلة المعلوماتية للفكرة ويضمن اتساع انتشارها في الحوض الثقافي الجديد(Chesterman, 2016; Velikovsky, 2023)

2. استراتيجيات الترجمة الدلالية وقانون التنافس والتعاون أفقياً (Compete /Cooperate Sideways)

ينص هذا القانون الكوني الثاني على أن الوحدات المتموضعة في مستوى المقياس ذاته تتفاعل تفاعلاً بينياً؛ إمّا بالتعاون العرضاني لتعزيز المتانة البنيوية للنظام، أو بالتنافس المحموم على الموارد المعلوماتية والسياقية المحدودة (Velikovsky, 2023).

التطبيق الإجرائي على الاستراتيجيات الدلالية:

تستهدف الاستراتيجيات الدلالية بنية المعنى مباشرة (من قبيل تشغيل المترادفات، أو الأضداد، أو إعادة الصياغة البلاغية والأسلوبية) (Chesterman, 2016) .وداخل "مساحة العمل الإدراكية والمعرفية" للمترجم (Mental

workspace)، يتولد تنافس أفقي شديد بين الهولونات/ البارتونات الدلالية البديلة

(متمثلة في الكلمات المترادفة) لشغل الحيز التعبيري ذاته والموقع المحدد داخل الجملة (Chesterman, 2016; Velikovsky, 2023).

وفي الوقت ذاته، يتبلور تعاون بنيوي أفقي بين الكلمات المختارة صياغةً لـ "مجمع هولوني مستقر نسقياً" (Co-adapted memeplex)؛ حيث تتعاضد المفردة مع جاراتها سياقياً لإنتاج دلالة منسجمة ومتكاملة. (Velikovsky, 2023) وعندما يصطفي المترجم لفظاً دون آخر، فإنه لا يمارس اختياراً عشوائياً، بل يُجري عملية "انتقاء نسقي حتمي" تتأسس كلياً على مدى ملاءمة اللفظ للبيئة النصية المحيطة به في مستوى المقياس البنيوي ذاته. (Chesterman, 2016; Velikovsky, 2023)

استراتيجيات الترجمة البراغماتية وقانون القيادة والتحكم نزولاً (Command & Control Downwards)

ينص هذا القانون الكوني الثالث على أن النظام الأكبر المتموضع في مستوى المقياس الأعلى يمارس سلطةً تنظيميةً وهيكليةً على المكونات الفرعية، ويفرض محددات صلبة على الوحدات الأصغر المودعة بداخله (Velikovsky, 2023).

التطبيق الإجرائي على الاستراتيجيات البراغماتية:

تتشكل الاستراتيجيات البراغماتية (من قبيل التنقية الثقافية، Cultural filtering أو تعديل الغرض الوظيفي للرسالة، أو التوضيح الإضافي) بصفتها الفئة الأكثر تأثراً بالمتغيرات الفوقية والنسقية (Chesterman, 2016).

وهنا، يتدخل الهولون/ البارتون (HOLON /parton) الأكبر مقياساً وحجماً المتمثل في الغرض العام للترجمة (Skopos)، أو الميمات المعيارية الكبرى، (Macro-norms) أو شروط العميل الموجهة (The brief) فيفرض قيادةً حتميةً على الخيارات الدلالية والنحوية الصغرى ويُدير التحكم النازل فيها (Chesterman, 2016; Velikovsky, 2023).

وبناءً على ذلك، إذا كان النسق الثقافي السائد في اللغة الهدف يرفض بنية تعبيرية معينة، فإنّ الميمة المعيارية الفوقية (Macro-norm) تتدخل فوراً قوةً كابحةً تملي على المترجم نزولاً حذفَ هذا اللفظ أو استبداله في المستويات الصغرى. (Micro-level changes)

(Chesterman, 2016; Velikovsky, 2023)

فالخيارات النحوية والمفردات الدقيقة لا تُصطفى بحرية عشوائية أو عفوية، بل تنتظم مجندة بالكامل لخدمة استقرار النظام النصي والثقافي الكلي وضمان استدامته الوظيفية.

.(Hermans, 2007; Velikovsky, 2023)

7. تجسيد خوارزمية التطور الدورية

تكتمل أبعاد الصورة المعرفية عَبْر استيعاب آلية النقل والانتشار النسقي للمعلومات ذاتها؛ فالترجمة لا تنحصر في رتبة النقل اللساني الساكن، بل تتحدد صراحةً بسيرورة تحول دوري للمعلومات تُديرها خوارزمية التطور الثقافي الحتمية (Velikovsky, 2023):

$$\Rightarrow\text{(Product) (e-meme)}\Rightarrow\text{(Process)}\Rightarrow\text{(Idea)}\rightarrow\text{(i-meme)}$$

- أولاً: تنطلق السيرورة من وجود النص الأصلي المصدر باعتباره منتجاً ثقافياً خارجياً (Product / e-meme) متجسداً في العالم المادي والموضوعي .(Popper, 1978; Velikovsky, 2023)

- ثانياً: يتولى المترجم فك شفرات هذا المنتج عَبْر سيرورة ذهنية إدراكية، (Mental process) ليتشكل النص داخل وعيه أفكاراً مستوعبة مخزنة في الذاكرة الدلالية العصبية للدماغ بصفتها ميماتٍ داخلية ((Ideas / i-memes ((Blackmore, 1999; Velikovsky, 2023

- ثالثاً: يُعقد صراع البقاء الإبستمولوجي والانتخاب النسقي داخل عقل المترجم، لتتدخل استراتيجيات الإنتاج والتعبير صياغةً لـ عملياتٍ فيزيائية ولغوية ملموسة (Physical /linguistic processes) تتكفل بهندسة مسودة الترجمة .(Chesterman, 2016; Velikovsky, 2023)

رابعاً: ينبثق في نهاية المطاف النص المترجم الهدف باعتباره منتجاً جديداً ومستقلاً (Replica Product) في حوض الميمات الثقافي للغة الهدف، لتنطلق دورة انتشار وتناسخ ارتدادية وليدة عَبْر عقول القراء ومتلقي الرسالة (Vermeer, 1997; Velikovsky, 2023) .

وعبر هذه المنهجية العلمية الدقيقة، نكتشف أن استراتيجيات تشيسترمان لم تنحصر في رتبة التوصيفات الأسلوبية المرنة، بل برزت باعتبارها خوارزميات إجرائية محددة تخضع هندسياً لقوانين علم الثقافة التطورية التي تحكم تدفق المعلومات كافة وتُدير تحورها البنيوي في سياحتها الكونية (Velikovsky, 2023).

خاتمة: قطيعة برادايمية نحو هندسة دراسات الترجمة نسقيّا

تأسست هذه الدراسة المقارنة على تفكيك منعرج إبستمولوجي حاسم في فضاء دراسات الترجمة؛ منعرج يعلن أفول التشبيهات الاستعارية والمفاهيم المجازية التي ميزت البرادايم الميميائي الكلاسيكي لأندرو تشيسترمان، صعوداً نحو الحتمية الرياضياتية والمعيارية المترولوجية التي يقدمها علم الثقافة التطورية لجاي تي فيليكوفسكي باعتباره علماً كلياً (Meta-meta-science). ولقد برهن البحث على القصور التفسيري والعجز التنبئي للمعايير البيولوجية البَعدية (طول العمر، والخصوبة، والنسخ الوفي للأصل) إزاء القوة الرياضياتية للقوانين الكونية الثلاثة لفيليكوفسكي (الاندماج صعوداً، والتنافس والتعاون أفقياً، والتحكم نزولاً)؛ وهي قوانين تتعدى رتبة التوصيف السلوكي لتُصيّر الفعل الترجمي هندسة نُظُم معقدة (Systems Engineering) تخضع كلياً لقوانين المادة والطاقة والتدفق المعلوماتي، وتسمح بنمذجة العملية الترجمية وحوسبتها مسبقاً عبر خوارزميات المعاودة الذاتية الارتدادية.

ولا ينحصر التحول الإبستمولوجي الذي تشهده هذه الدراسة في رتبة الانقلاب النظري المجرد، بل يمتد إجرائياً ليفتح آفاقاً استشرافية تعيد هيكلة الممارسات التقنية والسيادية والتعليمية؛ حيث يتشكل وعي المتدرب في الكليات المعاصرة باعتباره "مصمِّماً نسقياً" (System Designer) يبني النص الهدف هولوناً فراكتالياً متكاملاً.

وتترقى منصات الذكاء الاصطناعي ومحركات الترجمة الفراكتالية لتغدو نمذجة نسقية حتمية (Systemic Modeling) تعالج المتون هولوناً بهولون، فضلاً عن تمكين الحكومات والمؤسسات الدولية من صياغة استراتيجيات ترجمة وطنية وتنموية تتأسس على التعدين المعرفي (Knowledge Mining) وضبط توازن البيئة الثقافية. إن هذا البرادايم الوليد يحقق عهداً جديداً من "الاتساق المعرفي" (Consilience) عبر الوثب سوياً (Jumping Together) بالحقائق اللسانية والإنسانية وصهرها في بوتقة العلوم الصلبة؛ واضعاً دراسات الترجمة في قلب وحدة العلوم الكونية، ليغدو التحدّي الحقيقي الذي يجابه الباحثين والمترجمين في العقود المقبلة منحصراً في ميكانيكا واحدة: لم يعد المطلوبُ فهم الترجمة وتأويل سياقاتها فحسب، وإنما صار الالتزامَ التام "بهندستها".

قائمة المراجع:

- Aunger, R. (Ed.). (2000). *Darwinizing culture*: *The status of memetics as a science*. Oxford University Press.
- Chesterman, A. (1997). *Memes of translation*: *The spread of ideas in translation theory*. John Benjamins.
- Chesterman, A. (2009). The view from memetics. *Paradigmi*, 27(2), 75–88.
- Chesterman, A. (2016). *Memes of translation*: *The spread of ideas in translation theory* (Rev. ed.). John Benjamins. https://doi.org/10.1075/btl.22
- Dawkins, R. (1976). *The selfish gene*. Oxford University Press.
- Emmeche, C. (2004). Aspects of complexity in life and science. *Philosophica*, 74, 29–48.
- Ermakov, D., Karpova, O., & Kharitonov, N. (2021). Memetic approach to cultural evolution. *Biosystems*, 206, 104427. https://doi.org/10.1016/j.biosystems.2021.104427
- Eugene A. Nida, *Toward a Science of Translating*, Leiden: E. J. Brill, 1964, p. 159.

- Heylighen, F., & Chielens, K. (2009). Evolution of culture, memetics. In *Encyclopedia of complexity and system science*. Springer.
- Koestler, A. (1967). *The ghost in the machine*. Hutchinson.
- Mandelbrot, B. B. (1982). *The fractal geometry of nature*. W. H. Freeman.
- Popper, K. R. (1972). *Objective knowledge*: *An evolutionary approach*. Clarendon Press.
- Thunes, M. (2017). The concept of 'translation unit' revisited. *Bergen Language and Linguistics Studies*, 8(1), 245–260. https://doi.org/10.15845/bells.v8i1.1331
- Velikovsky, J. T. (2023). Memetics: A literature review, in light of the new meta-meta-science of evolutionary culturology. *Academia.edu*.
- Velikovsky, J. T. (2023). *Elements of evolutionary culturology* (2nd ed.). Amazon Services.
- Velikovsky, J. T. (2025). *A short practical guide to using evolutionary culturology*. ResearchGate.
- Wilson, E. O. (1998). *Consilience*: *The unity of knowledge*. Alfred A. Knopf.

Performativity. Duke UP, 2003.

- Sharma, *Akhil. Family Life. W. W. Norton,* 2015.
- "A Novel Like a Rocket." *The New Yorker*, *7 Apr. 2014,* https://www.newyorker.com/books/page-turner/a-novel-like-a-rocket.
- Tello García, *Edgar. "Akhil Sharma contra la mística: el cuerpo sin conciencia." Indi@logs,* vol. 5, 2018, pp. 41-55. https://doi.org/10.5565/rev/indialogs.82.

- The Promise of Happiness. Duke UP, *2010.*

- Ben Driss, *Hager. "Immigrant Everyday Life: The Ordinary,* the Ethnic, and the Artistic in Akhil Sharma's Family Life." Watchung Review, vol. 1, 2017, pp. 3-13.

- Bryla, *Martyna. "Problematizing the Fantasy of the Good Life in Akhil Sharma's Family Life (2014) and Gary Shteyngart's Little Failure (2014)." Alicante Journal of English Studies,* no. 43, 2025, pp. 39-59. https://doi.org/10.14198/raei.29118.

- Cvetkovich, *Ann. Depression: A Public Feeling. Duke UP,* 2012.

- Felski, *Rita. The Limits of Critique. U of Chicago P,* 2015.

- Filipczak, *Iwona. "Disability,* Illness and Cultural Belonging in Akhil Sharma's Family Life." Atlantis: Journal of the Spanish Association for Anglo-American Studies, vol. 42, no. 1, 2020, pp. 20-36. https://doi.org/10.28914/Atlantis-2020-42.1.02.

- Fitria, *Sari. "Akhil Sharma's Family Life: Regretting Doubleness of Diaspora Individuals." Poetika: Jurnal Ilmu Sastra,* vol. 10, no. 1, 2022, pp. 61-68. https://doi.org/10.22146/poetika.v10i1.64292.

- Frank, *Arthur W. The Wounded Storyteller: Body,* Illness, and Ethics. U of Chicago P, 1997.

- Guarana, *Cristiano L.,* and Morela Hernandez. "Building Sense out of Situational Complexity: The Role of Ambivalence in Creating Functional Leadership Processes." *Organizational Psychology Review*, vol. 5, no. 1, 2015, pp. 50-73. https://doi.org/10.1177/2041386614543345.

- Ngai, *Sianne. Ugly Feelings. Harvard UP,* 2005.

- Sedgwick, *Eve Kosofsky. Touching Feeling: Affect, Pedagogy,*

5-7; Cvetkovich 2, 6). Orientation is not truth and protection is not healing, and the same discipline holds at the positive pole. These functions occur within the novel’s refusal of restitution, as local forms of organization that never accumulate into recovery, so Ajay can make one event meaningful through anger without making his life coherent. Sharma’s restrained narration places the contradiction on the surface of the prose, which is why attending to these declarations means refusing to let diagnosis exhaust what the sentences make available (Felski 17). Birju’s accident does not generate a single wound followed by a single route toward cure; it creates a changed affective ecology in which feelings are recruited for tasks they were not supposed to perform, and Sharma’s achievement is to let their compromised usefulness remain compromised.

Notes

1. The phrase “functional ambivalence” has scattered prior lives in other disciplines, none of them literary-critical. In organizational psychology, Cristiano L. Guarana and Morela Hernandez use it for a deliberative cognitive process in which shared ambivalence between leaders and followers improves the joint interpretation of complex situations. Sociology after Robert K. Merton has likewise read role ambivalence as functional for institutions. Both traditions treat feeling torn as potentially beneficial. My usage names something else, a disjunction between an affect’s valence and the operation it performs in a literary text, with no implication of benefit.

2. The novel has also attracted identity-centered diaspora readings, most substantially Sari Fitria’s account, through Stuart Hall, of the “regretting doubleness” of diasporic identity in the novel (61). Such studies map the field’s other main axis but bear less directly on the affective problem pursued here.

Works Cited

- Ahmed, *Sara. The Cultural Politics of Emotion. 2nd ed.,* Edinburgh UP, 2014.

happiness refuses the assumption that more happiness means more ethical capacity, since remaining unhappy can be a way of staying in contact with an injury that positive feeling would smooth over (Promise 195-96).

The ending is a documented crux. Ben Driss, reading the novel toward a Proustian close, takes the final statement as a modernist open ending and an indication of a new beginning (12), while Filipczak positions her account explicitly against that reading, arguing that the last words underscore Ajay's illness and its continuation, signaling both the realization of a long-standing problem and the fear of beginning to recover (33). Each critic treats the sentence's affective content as settled and disputes only its direction, whereas functional ambivalence explains why it supports both readings at once. Ajay recognizes his problem not while failing to attain happiness but because happiness intensifies. At the resort he feels that "everything [is] in its place" and experiences several affects together, "sad, happy, content" (Sharma, Family Life 218), so sadness remains inside contentment. Then he gets "happier and happier" until the happiness becomes "almost heavy" (218), an adjective that turns a conventionally immaterial state into a bodily burden and enters the lexicon by which the novel has marked difficult affect throughout. The final sentence therefore announces more than the failure of success to cure trauma, since the feeling that should certify recovery instead triggers recognition of disorder. Happiness neither rewards Ajay nor deceives him but makes something perceptible.

6. Conclusion

Between the two sentences that frame this essay, Sharma develops a repertoire of emotions whose effects cannot be predicted from whether they feel good or bad (Sharma, Family Life 85, 218). Functional ambivalence names the structure without resolving it, and its purpose is not to celebrate negative affect or to claim that bad feelings secretly contain their own cure, since Ngai's politically equivocal negative affects and Cvetkovich's resistance to redemptive transformation guard against that conclusion (Ngai

Mr. Mishra’s drinking intensifies the problem. Seeing his father go upstairs, Ajay understands the act as “choosing to be happy” and calls the ability to find happiness in a difficult situation “a mark of sophistication” (Sharma, Family Life 125), language almost indistinguishable from resilience discourse. But the practice producing the relief is alcoholism, and when Ajay confronts his intoxicated father in the bathroom, the answer to his question is “I am so happy” (177). The statement is not false in the simple sense that the father must secretly be sad; what the novel rejects is the inference from positive affect to flourishing. Ahmed permits that distinction, since good feeling can be coercive and can function as a way of “going along” with what one is asked to do instead of remaining affected by what is wrong (Promise 210-11). Mr. Mishra later describes drinking as “freedom” and “peace of mind,” as if the alcohol plucked him out from among the problems surrounding him (184), and the relief is real enough to explain the attachment without being benign. Rage takes Ajay to the bathroom door, the sight of his father’s loose face suspends it, and tenderness replaces accusation, each affect having an effect without functioning as a verdict on an underlying state.

Ajay’s own happiness reproduces the same moral danger in subtler form. While secretly dating Minakshi he becomes happy and begins to look down on his parents for their unhappiness, blaming them “the way the rich cannot help but think that poor people must bring their poverty on themselves” (Sharma, Family Life 183). Happiness is not simply escape from the family’s misery but creates epistemic distance from it and turns distance into blame, so the happier Ajay becomes the easier it is to misrecognize unhappiness as personal failure. Set beside the school scene in which knowledge makes him feel rich while his mother and brother remain poor (134), the contrast is exact. Unequal fortune produced guilt and shame there, whereas happiness weakens the relational burden and lets a meritocratic judgment replace it, so positive affect has a potentially anesthetic function, reducing the very susceptibility to others’ suffering that negative affect had painfully maintained. Ahmed’s critique of the obligation to

makes coughing less awful removes neither grief nor fear; it makes the experience temporarily manipulable. The protection is also morally unstable, since to see life as material is to acquire a position from which suffering can be selected and used. When his father fails to return home, Ajay writes about a man waiting for an alcoholic wife and feels "proud at my toughness for taking whatever was happening to me and turning it into something else" (186), so fear, shame, and family crisis are translated almost in real time into literary possibility. Frank's paradox applies, since "Where life can be given narrative order, chaos is already at bay" (105) and narrating implies distance from lived chaos (98). Yet Ajay gains that control by objectifying experience, and the ethical discomfort is not an accidental side effect of art but is built into the protection art affords.

5. The Problem of Happiness

The novel distrusts happiness long before its final sentence, and the distrust begins with a family argument about gloom. Ajay remembers his father announcing the inevitability of death at an outdoor sink in Delhi, while his mother, born before Independence, mocks him and regards gloom as "unpatriotic," since complaint suggests unwillingness to accept difficulty and build the country (Sharma, Family Life 12). Cheerfulness thus becomes evidence of proper orientation toward hardship, and negative feeling can be read as civic failure. Watching It's a Wonderful Life in the living room the night before a Christmas-morning hospital visit, Ajay concludes that "if you become unhappy enough, almost anything can pass as happiness" (70), converting happiness from a stable condition into a comparative judgment produced by lowered expectation. Ahmed's The Promise of Happiness frames the material because its central question is again functional. Ahmed declines to treat happiness as an innocent inner state and examines how it attaches to happy objects and social ideals, so that being directed toward certain objects as happiness-promising is also being directed toward particular ways of living (1-2).

feel, and smell, the “stickiest parts of the sensorium,” in favor of visual detail and introspection. A sparse sensorium risked making physical reality feel thin, so he had to create “an emotional reality that was separate from the physical reality” (“Novel”). Emotional intensity is therefore generated not by sensory immersion but by the sudden conceptual sentence. Anger is satisfying, a written sentence makes coughing less awful, material protects, happiness becomes heavy. The thinned physical field lets contradictory evaluations arrive with exceptional force, inviting what Felski calls attention to how a work reorients perception (182).

The first story Ajay writes tests that proposition literally. Woken by Birju coughing, he composes a story in which the sick brother becomes a dying wife, since a spouse seems easier for a reader to identify with while a brother would be too specific, and the act of inscription changes the event. “The fact that the sentence existed made Birju’s coughing somehow less awful” (Sharma, Family Life 159). Sharma gives his narrator an explicit theory of affective conversion rather than leaving it to critical inference. The coughing remains, Birju remains ill, and the sentence cures no one, but the transfer from sound to written form alters Ajay’s relation to the sound. The story produces a further change, since imagining Birju’s death causes a “surge of love” and the piece ends with the paradox that men awakened by their wives’ coughing are “fortunate” because coughing means the loved person is still alive (159-60). Writing reorganizes valence, so the symptom that makes the night miserable becomes proof of continued life, and Ajay makes the function explicit in noting that “Seeing things as material for writing protected me” (160).

Cvetkovich offers a way to understand that protection without turning it into cure, since her project resists both medicalized reduction and the redemptive conversion of bad feeling into uncomplicated positivity (2, 6). Crafting, writing, and ordinary habits, she argues, can be ways in which difficult affects are “lived with rather than banished” (189-90), a formulation that fits Ajay better than any language of recovery. The sentence that

Guilt clarifies why shame is inseparable from attachment. Speaking to the imaginary God who becomes his private interlocutor, Ajay confesses that after the accident he had been glad he might become an only child and that he would not exchange places with Birju, and the conversation collapses over the one thing imagination cannot provide. "Why don't you make Birju like he was?" (Sharma, Family Life 65). Shame arises not because Ajay lacks love but because love coexists with self-preservation, marking the impossibility of making attachment morally pure. He soon understands himself as "more fortunate" than his mother as well, which means becoming different from her and eventually separated from her (133-34), so guilt works as relational accounting that attaches each gain to those who cannot share it. Later, happiness will let him judge his parents the way the rich judge the poor (183). The same knot shows in the household scene where Ajay, accused of caring for Birju out of guilt instead of love, strips naked and shouts, "Why should I have any shame?" (175), a gesture whose extremity betrays the force of what it claims to reject. The affect later migrates into artistic perception, since searching a train-station parking lot for his father's car Ajay feels "such overwhelming shame" and is immediately struck by the thought that "this response would be a good detail to put in my story" (186).

4. Turning It into Something Else: Writing as Affective Conversion

That conversion begins with happiness contaminated by relational guilt. Reading a biography of Hemingway, Ajay is amazed that a person could live outside the narrow futures of doctor or engineer, and the fantasy makes him "happier and happier" until he imagines living far from his mother and Birju and feels he is "doing something dishonest" (Sharma, Family Life 151-52). Autonomy already signifies unequal escape. From Hemingway he learns that "emotional truth" may matter more than factual accuracy (154), a lesson that mirrors Sharma's own compositional account. In "A Novel Like a Rocket," he explains that a child narrator risks a "flattened quality" and describes removing sound,

cups and receiving the dollars, so the feeling is painful because the relation cannot be disowned. Sedgwick’s formulation of shame as a “double movement” toward painful individuation and uncontrollable relationality captures the structure precisely (36-37). Shame says simultaneously that I am exposed as myself and that I am bound to those before whom I am exposed, and its forms are not discrete toxic contents that can be purged, remaining instead available for “metamorphosis, reframing, refiguration” but not for straightforward elimination (Sedgwick 62-63). Ajay’s shame oscillates in exactly this way, separating him from family and community while revealing how deeply his selfhood depends on them. The school scenes sharpen the ambiguity and show why guilt belongs inside the same movement, since recognizing that he is luckier than both Birju and his mother makes him experience guilt and sadness as if wearing clothes still damp from the wash (Sharma, Family Life 133-34).

Learning facts at school makes Ajay feel “made rich” while his mother and brother remain poor, and when other students abuse the Indian children with racist insults he reports that “In my guilt and shame, I wanted to fight, to be nothing like myself” (134). Shame has an agentic effect here, pushing him from passivity toward aggression, and read at that level alone the scene could support a recuperative claim in which bad feeling becomes resistance. Sharma refuses the simplification almost immediately. The recent Indian immigrants at the lunch table regard Ajay as a show-off, and he concedes they are partly right, since one motive for fighting is his determination not to be like them; he also reminds them that he is in more advanced classes and is surprised that not all Indians are smart (134-35). The same shame that refuses racist humiliation differentiates him from other racialized subjects, so resistance to external hierarchy becomes entangled with hierarchy inside the diasporic group. Ngai’s insistence that negative feeling remains politically equivocal even when it discloses a social predicament is crucial (5-7), because what an affect prompts a subject to do cannot settle the politics of the act.

anger and shame" and some spectators press dollar bills into his hands (Sharma, Family Life 125). Edgar Tello García reads the succession of healers and medical institutions as competing but inadequate responses to Birju's unresponsive body, emphasizing the ritualization of family sacrifice alongside the failures of American medical care (47-49). His argument concerns mysticism and the body, whereas the affective scene surrounding those practices raises a different question. Why is Ajay ashamed at the very moment the visitors feel culturally affirmed? The answer lies not in assuming he is ashamed of Indianness but in examining what the visitors' good feeling requires.

Ahmed's account is useful because shame is never a private verdict delivered by an isolated self. It is organized around exposure before another, actual or imagined, and around an ideal to which the shamed subject remains attached, so that turning away from others can be evidence of relation instead of its absence (Cultural Politics 104-09). This prevents a reductive reading of Ajay's response as ethnic self-rejection, since he is ashamed within a communal scene whose terms he recognizes intimately. What the visitors consume is not a cure but a narrative of themselves, in which Mrs. Mishra's desperation proves that Indian familial sacrifice remains noble and the ritual around Birju lets spectators feel good about discipline and cultural continuity. Ahmed's broader argument that collective feeling helps make a community by circulating around signs, bodies, and narratives applies directly (Cultural Politics 10-11), because the family's suffering becomes such an affective object. The visitors' pleasure in being Indian is purchased through a scene the Mishras cannot inhabit with the same emotional meaning, and Ajay's shame registers the obscenity of serving tea while strangers convert a brother's condition into evidence of communal nobility.

Shame here performs an ethical-disclosive function that supplies no moral theory and produces no just action, yet makes the relation intolerable. Anger alone might direct hostility outward, whereas shame locates Ajay inside the compromised scene, carrying the

was pleasurable” (Sharma, Family Life 178). Anger is “satisfying” in the settlement episode and “pleasurable” here, and in both it creates a position from which Ajay is no longer simply acted upon. With Birju’s accident it replaces accident with agency, and with Hemingway it places him above a writer whose authority had made him anxious. The pleasure is positional, furnishing a location from which he can judge instead of merely enduring.

Frank’s account of chaos clarifies the stakes of this conversion. If Filipczak is right to identify the novel with a structure marked by the absence of discernible causality and the collapse of expectation that one event will lead to another (97-100), then Ajay’s anger works as a local anti-chaos operation that never abolishes the larger chaos narrative. It installs causality temporarily. The accident remains irreversible, Birju remains profoundly disabled, and the family does not move toward restitution, yet for a moment anger supplies the connection chaos withholds. Sedgwick’s separation of truth value from performative effect describes this without celebrating delusion, since a practice of interpretation can organize knowledge consequentially even when access to truth is not what makes it function (124). Ajay’s anger is not valuable because it reveals a hidden truth, and the novel gives no license to rehabilitate his father’s racial claim. What matters is that anger opposes the experience of being trapped inside an event with no address, transforming “Why did this happen?” into “Who did this?” Such questions can be ethically dangerous, and they remain easier to inhabit than pure contingency. Functionality, in this sense, is emphatically not recovery.

3. Shame, Guilt, and the Ethics of Relation

If anger reorganizes causality, shame reorganizes social relation. The clearest instance follows Mr. Mehta’s spiritual cure of Birju, which draws visitors who stand in the sickroom and watch “like tourists visiting a temple to see an exorcism.” Mrs. Mishra knows they consider her “slightly crazy,” yet they also find what she does “noble and very Indian,” which makes them feel good about their own Indianness, while Ajay serves tea “full of

since anger can translate pain into interpretation by connecting an injury to structures larger than the isolated event, even as she resists any simple correspondence between feeling angry and knowing why (Cultural Politics 175-76). Ajay radicalizes that gap, since he does not merely risk misidentifying the cause of his anger but knows the causal story is false. The anger is epistemically productive without being epistemically reliable.

Moral accounts of anger tend to evaluate the emotion by the adequacy of its object. Ngai, in her chapter on irritation, revisits the Aristotelian requirement that anger be directed at the right things, toward the right people, and at the right time (182), a criterion of proportion that makes emotional correctness part of ethical judgment. Sharma's scene reveals what that criterion cannot capture, since an emotion can perform a real orienting function even when it fails the test of correct attribution. The same logic returns when he begins lying about Birju at school. Because the settlement is calculated from Birju's projected earnings, Ajay reads the modest amount as an institutional declaration that his brother was "an ordinary boy," and he invents a spectacular sibling who rescued a woman from a burning car and solved impossible mathematical problems. These fantasies "felt real," made him love Birju more, and "cultivated rage at the loss, the way my father's claims of racism cultivated it for him" (Sharma, Family Life 104).

Sharma immediately exposes the cost, since Ajay worries that needing to exaggerate Birju's gifts implies the real Birju "had not been good enough for what happened to him to count as terrible" (104). The fantasy repairs one wound by opening another, resisting the settlement's market valuation through narrative excess while preserving the premise that suffering requires exceptional worth before it can command exceptional grief, so rage dignifies loss and risks ratifying the value system it opposes. The novel later makes the pleasure of anger explicit in a different register. Reading Hemingway while his father's alcoholism worsens, Ajay notices that heavy-drinking characters never suffer consequences, and spotting this "lie" produces a superiority in which "being angry

Affect theory supplies a vocabulary for this shift without converting negativity into hidden positivity. Sara Ahmed’s guiding question in The Cultural Politics of Emotion is not what emotions are but “what do emotions do?” (4). Emotions take shape relationally, orienting subjects toward objects, attaching bodies to others and to collectivities, and producing the very boundaries they appear merely to register, which suits a novel where Ajay’s feelings are rarely sealed within private interiority. Rita Felski’s postcritical challenge to habitual suspicion is equally useful, since works of art do not only demystify or destabilize but can “recontextualize, reconfigure, or recharge perception” (17). Such an approach requires safeguards. Ngai’s minor, noncathartic feelings are politically ambiguous and offer neither automatic virtue nor therapeutic purification (5-7), and Cvetkovich insists that depathologizing bad feeling must not translate it into a redemptive story (2, 6). Sedgwick’s reparative reading is most productive as a critical disposition, an interest in what compromised materials may assemble or sustain without ceasing to be compromised (149), while her move from asking whether knowledge is true to asking what knowledge does describes exactly the gap the novel dramatizes (124).

2. Anger against Contingency

The force of the settlement scene depends on the phrase “purely accidental.” The legal facts already contain human failures, since a lifeguard does not notice Birju quickly enough and resuscitation is not administered, yet Ajay’s father does not simply assign negligence but racializes it. The explanation is more total than the evidence warrants, and Ajay recognizes this immediately, which is why the passage cannot be reduced to a child inheriting his father’s resentment. The problem anger addresses is not injury alone but contingency. An act of racism would be morally worse than an accident, though far easier to narrate, since it supplies motive, agent, and causal structure, so anger becomes satisfying because it turns senselessness into an intelligible relation. Ahmed clarifies the function while preventing its epistemic inflation,

reliably improve, events resist causal sequencing, and faith in remedy gives way to vulnerability (Frank 97-100). She argues that Family Life resists a culturally preferred narrative of triumph, reading the final "heavy" happiness as evidence that external success has not produced internal balance, though retrospective narration still offers some reflective distance (32-33). Martyna Bryla, working through Lauren Berlant's cruel optimism, reads the Mishras' American Dream as a "fantasy of the good life" whose meritocratic promise leaves little room for trauma, precarity, or disability, and treats literature as Ajay's "only lasting relief" from the realness of family life (39-40, 51). Hager Ben Driss attends to the same artistic formation, describing the novel's movement toward a Künstlerroman (11-12).2 Neither "writing helps Ajay cope" nor "the ending refuses triumph" can therefore serve as a novelty claim, and the intervention must be narrower.

"Functional" here does not mean beneficial, adaptive, healthy, emancipatory, or true. It names only an operation, since an emotion may give causality to an event, maintain an attachment, reveal a relation, prompt an action, or convert experience into form, while "ambivalence" marks the fact that these operations remain ethically and psychologically mixed. Two features distinguish the concept from a general application of affect theory. First, the disjunction runs in both directions, so that negative feelings perform consequential work without becoming good while positive feeling loses its evidentiary value, until happiness itself becomes the sensation through which disorder is recognized. Second, Sharma states the disjunction declaratively on the surface of the prose. Ajay tells the reader that anger satisfies, that writing protects, that happiness has grown heavy, so the critic describes the conditions and costs of operations the text openly announces instead of excavating a hidden content beneath them. Anger orients by distorting, shame discloses exploitation while reproducing hierarchy, writing protects by objectifying, and happiness relieves while narrowing sympathy.

mouth resuscitation, and Mr. Mishra insists the failure occurred because Birju was Indian. Ajay does not accept the explanation. “I knew that what my father was saying was a lie,” he reports, yet what follows is not a rejection of the lie but an account of its efficacy. Hearing it is “comforting” because the accident ceases to be “purely accidental, unconnected to the larger world, lacking all meaning,” and Ajay adds the sentence that gives this essay its title, “there was something satisfying about being angry” (Sharma, Family Life 85). The passage separates three questions usually made to coincide, whether an emotional judgment is true, whether the feeling it generates is pleasant, and whether that feeling performs a consequential function. Ajay’s anger rests on an explanation he knows to be false and remains negatively valenced, yet it satisfies by converting contingency into causal intelligibility.

The novel closes with an equally unsettling reversal. As an adult, professionally successful and vacationing in Mexico with Hema, Ajay feels that “everything [is] in its place”; he is “sad, happy, content,” and then “happier and happier.” Instead of ratifying recovery, the escalation of positive feeling becomes physically ominous. “The happiness was almost heavy. / That was when I knew I had a problem” (Sharma, Family Life 218). The symmetry between the two moments is easy to miss if emotion is treated as a diagnostic index. A conventionally bad feeling becomes satisfying because it organizes meaningless suffering, while a conventionally good one becomes the bodily sign through which a problem announces itself. Family Life thus asks a question not reducible to whether Ajay is traumatized, resilient, recovered, or still ill. What does a feeling do when its valence no longer predicts its function? I use the term functional ambivalence to name that disjunction between affective valence and affective function.1

Existing criticism establishes the terms against which the question must be posed. Iwona Filipczak’s influential reading intertwines disability and illness with immigration, race, class, and cultural belonging, interpreting the novel through Arthur Frank’s “chaos narrative” (20), a mode in which life does not

Keywords: Akhil Sharma; Family Life; affect theory; negative affect; shame; anger; happiness; trauma; postcritique

Résumé

La critique consacrée à Family Life d'Akhil Sharma a abordé le roman sous l'angle de l'immigration, du handicap, du traumatisme, du récit de maladie et de l'échec du rêve américain; si ces lectures éclairent la dévastation familiale et le refus, par le roman, d'une intrigue de guérison conventionnelle, elles laissent dans l'ombre un autre motif. Sharma dissocie à plusieurs reprises la valence d'un sentiment du travail que ce sentiment accomplit, et cette dissociation joue dans les deux sens. La colère rend intelligible, sur le plan causal, une catastrophe arbitraire ; la honte, et la culpabilité qui l'accompagne, exposent et entretiennent des relations compromises ; l'écriture transforme une expérience d'impuissance en matériau formel sans la guérir ni la racheter ; quant au bonheur, seul sentiment censé attester le rétablissement, il se révèle si peu fiable que le roman s'achève au moment précis où il devient « presque lourd ». En s'appuyant sur Sara Ahmed, Eve Kosofsky Sedgwick, Sianne Ngai, Ann Cvetkovich et les lectures postcritiques, cet article nomme ce motif « ambivalence fonctionnelle » : la capacité d'un affect à accomplir un travail épistémique, relationnel, éthique ou esthétique conséquent, sans pour autant devenir sain, vrai, émancipateur ou moralement bon. Lu à travers l'ambivalence fonctionnelle, le non-rétablissement du roman n'est pas une stase affective, mais un champ d'opérations compromises qui rend la catastrophe temporairement habitable.

Mots-clés : Akhil Sharma ; Family Life ; théorie de l'affect ; affect négatif ; honte ; colère ; bonheur ; traumatisme ; postcritique.

1. Introduction

Early in Akhil Sharma's Family Life, Ajay Mishra remembers a claim his father repeats while the family waits for a legal settlement after Birju's swimming-pool accident. Birju had remained underwater too long without receiving mouth-to-

”Something Satisfying about Being Angry”: Negative Affect and Functional Ambivalence in Akhil Sharma’s *Family Life*

Mootez Aloui
University of Manouba

Abstract

Scholarship on Akhil Sharma’s Family Life has approached the novel through immigration, disability, trauma, illness narrative, and the failure of the American Dream, yet while these readings illuminate the family’s devastation and the novel’s refusal of a conventional recovery plot, they ultimately leave another pattern less fully described. Sharma repeatedly detaches the valence of a feeling from the work that feeling performs, and the detachment runs in both directions. Anger makes an arbitrary catastrophe causally intelligible; shame and its companion guilt expose and sustain compromised relations; writing turns helpless experience into formal material without curing or redeeming it; and happiness, the one feeling that should certify recovery, proves so unreliable that the novel ends the moment it becomes “almost heavy.” Drawing on Sara Ahmed, Eve Kosofsky Sedgwick, Sianne Ngai, Ann Cvetkovich, and postcritical accounts of reading, this essay names the pattern functional ambivalence, the capacity of an affect to perform consequential epistemic, relational, ethical, or aesthetic work without thereby becoming healthy, truthful, emancipatory, or morally good. Read through functional ambivalence, the novel’s nonrecovery is not affective stasis but a field of compromised operations through which catastrophe is made temporarily inhabitable.

Récupérée sur le site officiel de l'Élysée : https://www.elysee.fr

- Trump, *D. (2026,* 17 juin). Conférence de presse à l'issue du Sommet du G7 d'Évian sur l'accord entre les États-Unis et l'Iran [Allocution présidentielle]. The White House. Whitehouse.gov.

pouvoir. Paris : Vuibert.

- Charaudeau, *P. (2014). Le discours politique : les masques du pouvoir. Limoges : Lambert-Lucas.*
- Danblon, *E. (2006). « La construction de l'autorité en rhétorique». Semen [En ligne],* 21/2006.
- Doury, *M. (2016). Argumentation. Analyser textes et discours. Paris : Armand Colin.*
- Ducrot, *O. (1984). Le dire et le dit. Paris : Éditions de Minuit.*
- Kerbrat-Orecchioni, *C. (1980). L'Énonciation. De la subjectivité dans le langage. Paris : Armand Colin.*
- Maingueneau, *D. (2002). « Problèmes d'ethos ». Pratiques : linguistique,* littérature, didactique, n° 113-114, 55-67.
- Maingueneau, *D. (2021). Analyser les textes de communication. Paris : Armand Colin.*
- Maingueneau, *D. (2022). « L'ethos en analyse du discours : perspectives actuelles ». Langage et société,* 178(4), 13-28.
- Mayaffre, *D. (2005). Les chemins de la lexicométrie. Paris : Presses Universitaires de France.*
- Perelman, *C. et Olbrechts-Tyteca,* L. (1958). Traité de l'argumentation. La nouvelle rhétorique. Bruxelles : Éditions de l'Université de Bruxelles.
- Plantin, *C. (1996). L'argumentation. Paris : Éditions du Seuil.*
- Logiciel Tropes (version française). Analyse sémantique de texte assistée par ordinateur. Disponible sur : www.tropes.fr.

(corpus analysé)

- Macron, *E. (2026,* 17 juin). « Conférence de presse de M. Emmanuel Macron, Président de la République, sur le bilan du Sommet du G7 » [Allocution présidentielle]. Présidence de la République française.

complexe d'autorité institutionnelle, d'argument de communauté et de dissociation des responsabilités ; le dossier de l'intelligence artificielle suit une séquence argumentative singulière , aveu de retard, valorisation d'une singularité nationale, projection collective vers un rattrapage. Ce n'est pas là une variation de style : c'est le signe que la densité argumentative d'un dossier est proportionnelle au degré de contestation qu'il est susceptible de rencontrer.

Cette étude contribue, nous l'espérons, à ouvrir un chantier encore peu défriché dans la recherche sur le discours politique institutionnel. Les conférences de presse de clôture de sommets multilatéraux forment un genre à part entière, avec ses contraintes propres, ses configurations lexicales récurrentes et ses stratégies argumentatives identifiables. Loin d'être de simples comptes rendus, elles sont des actes discursifs à part entière, dans lesquels les choix lexicaux participent pleinement à la construction de la légitimité, de l'autorité et du consensus diplomatique. C'est à ce titre qu'elles méritent une attention soutenue de la part de l'analyse du discours politique.

Références bibliographiques

- Amossy, *R. (2009) [2006]. L'argumentation dans le discours. Paris : Armand Colin.*
- Amossy, *R. (2010). La présentation de soi. Ethos et identité verbale. Paris : Presses Universitaires de France.*
- Amossy, *R. (2012). «L'ethos et ses doubles contemporains». Argumentation et Analyse du Discours,* 9.
- Aristote (1991). Rhétorique. Paris : Livre de Poche.
- Breton, *P. (1996). L'argumentation dans la communication. Paris: La Découverte.*
- Charaudeau, *P. (2002). «À quoi sert d'analyser le discours politique?»*
- Charaudeau, *P. (2005). Le discours politique. Les masques du*

chez ce dernier, absente chez Macron, suggère en outre un rapport différent à la preuve : le locuteur américain intègre l'incertitude dans son propre discours de victoire, là où le locuteur français l'exclut entièrement de son discours de bilan.

Ces résultats invitent cependant à la prudence quant à leur généralisation. Les deux corpus diffèrent aussi par leur fonction communicationnelle propre, bilan global multithématique pour Macron, justification ciblée d'un accord contesté pour Trump , ce qui limite la portée purement comparative des résultats. Une extension à d'autres discours de ces deux locuteurs, ou à d'autres chefs d'État du même sommet, permettrait de vérifier si ces profils constituent des traits stylistiques stables ou des effets propres à la situation d'énonciation du 17 juin 2026.

Conclusion

Au terme de cette analyse, un constat s'impose : l'allocution prononcée à l'issue du Sommet du G7 d'Évian ne se contente pas de relater un consensus, elle le fabrique. Cette fabrication repose sur une architecture discursive cohérente dont quatre marqueurs lexicaux constituent la charpente : la domination des verbes factifs (42,7 %), qui présentent les résultats comme des faits accomplis et irréversibles ; la prépondérance des connecteurs d'addition (54,9 %), qui transforment le bilan en accumulation quasi exhaustive d'acquis ; la causalisation par les connecteurs de cause (17,3 %), qui font d'une succession de dossiers une démonstration logique; et l'alternance pronominale NOUS/ON/JE, qui redistribue la responsabilité entre l'ethos collectif du G7 et l'engagement individuel du président selon les besoins argumentatifs de chaque séquence.

L'analyse des références lexicales et des clusters sémantiques révèle en outre que cette architecture n'est pas uniforme : chaque dossier mobilise ses propres procédés. Le dossier Ukraine se construit par dissociation temporelle et accumulation d'engagements militaires ; le dossier Iran/Ormuz/Liban/Hezbollah, plus sensible et factuellement incertain, convoque une combinaison plus

ils se sont comportés tout à fait bien »), ce qui en fait un instrument argumentatif de qualification plutôt qu'un simple reporté narratif.

Tableau 10 – Profil pronominal comparé, Macron / Trump (Tropes)

Pronom	Macron	Trump	Écart
Nous	24,2 %	12,4 %	Macron +11,8
Je	20,7 %	15,8 %	Macron +4,9
On	19,6 %	16,1 %	Macron +3,5
Ils	16,1 %	22,7 %	Trump +6,6

11. Analyse comparative : deux modèles de construction du consensus

Deux économies discursives distinctes se dégagent de cette analyse pour un même objet, l'accord avec l'Iran et la réussite du sommet. Le modèle macronien, cumulatif et coalitionnel, repose sur la juxtaposition exhaustive de résultats attribués à un « nous » collectif, sans recours à la négation ni au doute : le consensus y est construit par addition d'évidences positives. Le modèle trumpien, contrastif et référentiel, repose sur l'opposition systématique entre un avant négatif (« ils n'avaient plus… ») et un après positif, porté par un « ils » de tiers jugés plutôt que par un « nous » de coalition : la légitimité personnelle y est construite par soustraction de la menace plutôt que par addition collective.

Dans la grille de Breton (1996), l'argument de communauté domine chez Macron ; l'argument d'autorité personnelle, fondé sur la décision individuelle passée , l'élimination de Soleimani, le bombardement , domine chez Trump. La présence du doute modal

plutôt que par accumulation positive, effet rhétorique radicalement différent.

Tableau 9 – Modalisations comparées, Macron / Trump (Tropes)

Modalisation	Macron	Trump	Écart
Intensité	37,5 %	37,9 %	≈
Affirmation	14,0 %	11,5 %	Macron +2,5
Négation	11,5 %	25,8 %	Trump +14,3
Doute	0,0 %	3,3 %	Trump +3,3

10.3 Profil pronominal : ethos coalitionnel contre ethos référentiel

Le contraste le plus significatif pour l'analyse énonciative concerne la hiérarchie pronominale. Chez Macron, le « nous » domine (24,2 %), suivi du « je » (20,7 %) et du « on » (19,6 %) : profil coalitionnel, où le locuteur parle d'abord au nom d'un collectif. Chez Trump, c'est au contraire le « ils » qui domine (22,7 %, 79 occurrences), devant le « on » (16,1 %) et le « je » (15,8 %) ; le « nous » n'arrive qu'en quatrième position (12,4 %), soit pratiquement la moitié de sa fréquence chez Macron.

Ce renversement traduit deux postures énonciatives fondamentalement différentes : l'ethos coalitionnel de Macron construit la cohésion diplomatique en se fondant dans le collectif du G7 ; l'ethos référentiel de Trump construit sa légitimité en se distinguant de tiers désignés et jugés, l'Iran, l'ancien régime, Obama, parfois même Netanyahou (« Netanyahou parfois s'excite un peu »). Le « ils » chez Trump n'est pas un simple pronom de troisième personne neutre : il porte presque systématiquement un jugement évaluatif, négatif (« ils n'avaient plus… ») ou positif («

Tableau 8 – Verbes et connecteurs comparés, Macron / Trump (Tropes)

Catégorie	Macron	Trump	Écart
Verbes factifs	42,7 %	36,8 %	Macron +5,9
Verbes statifs	35,1 %	40,8 %	Trump +5,7
Connecteurs addition	54,9 %	47,2 %	Macron +7,7
Connecteurs opposition	9,7 %	23,4 %	Trump +13,7
Connecteurs cause	17,3 %	10,4 %	Macron +6,9

10.2 Modalisations : de l'assertion pleine à la négation et au doute

Les modalisations d'Intensité sont quasi identiques dans les deux corpus (37,5 % chez Macron, 37,9 % chez Trump) et constituent, dans les deux cas, la catégorie modale dominante, ce qui constitue d'ailleurs le seul point de convergence notable entre les deux profils. L'écart majeur se situe ailleurs : la Négation atteint 25,8 % (101 occurrences) chez Trump contre seulement 11,5 % chez Macron, et le Doute, totalement absent chez Macron (0,0 %), représente 3,3 % (13 occurrences) chez Trump, « peut-être », « je ne sais pas si… ».

Cette double présence de la négation et du doute dessine un univers énonciatif différent. Le discours de Macron exclut toute incertitude modale et construit une certitude univoque ; le discours de Trump, même dans la défense de son accord, tolère une marge d'hypothèse et se construit en partie par négation de scénarios alternés (« ils n'avaient plus ni leurs marines, ni leurs avions, ni leurs leaders »). Le résultat est une victoire par soustraction

conférence de presse, consacrée pour l'essentiel à la justification de l'accord qu'il vient de conclure avec l'Iran. Cette coïncidence, même événement, même objet, même journée, offre une occasion rare de comparaison rigoureuse : confronter deux profils lexicométriques sur un même événement permet d'isoler ce qui relève du genre discursif partagé, la conférence de presse de clôture de sommet, de ce qui relève du style propre à chaque locuteur.

Le corpus secondaire est constitué par la transcription intégrale de cett conférence de presse américaine, traitée selon le même protocole Tropes que le corpus principal : il représente 3 891 occurrences pour 574 propositions, dont 28 propositions remarquables. Le style général y est également qualifié d'« argumentatif » par le logiciel, mais avec un marqueur secondaire distinct : « prise en charge par le narrateur » plutôt que « prise en charge à l'aide du je » , premier indice de divergence énonciative que l'analyse quantitative confirme dans les sections suivantes.

10.1 Catégories verbales et connecteurs logiques

Chez Trump, l'ordre des catégories verbales s'inverse par rapport à Macron : les verbes statifs dominent (40,8 %, 280 occurrences) devant les verbes factifs (36,8 %, 253 occurrences), tandis que les verbes déclaratifs (22,0 %, 151 occurrences) demeurent proches de leur fréquence chez Macron. Cette inversion traduit une différence de stratégie profonde : là où Macron clôt des actions collectives accomplies, Trump installe des états de fait et des jugements de valeur stabilisés (« c'est un accord qui est très solide », « le marché, aujourd'hui, se porte mieux »).

Le contraste le plus net concerne les connecteurs logiques : l'Addition, bien que présente, est nettement moins dominante (47,2 %, 109 occurrences contre 54,9 % chez Macron), au profit d'une Opposition considérable (23,4 %, 54 occurrences, soit plus du double de la fréquence macronienne à 9,7 %). Le discours américain procède ainsi par contrastes binaires répétés : avant et après l'élimination du général Soleimani, ancien régime iranien et nouveaux dirigeants « plus intelligents », marché dégradé et marché florissant.

9. Discussion : spécificités génériques et perspectives comparatives

L'ensemble de ces résultats converge vers une conclusion centrale : le consensus n'est pas, dans cette allocution, l'objet d'un simple rapport. Il est performativement institué par les choix lexicaux eux-mêmes. En termes austiniens, les énoncés du locuteur ne se bornent pas à décrire un état du monde : ils le font advenir en le déclarant. La domination des verbes factifs en est le signe le plus manifeste : dire « nous avons adopté », c'est constituer un fait en réalité indéniable plutôt que rapporter un événement passé.

Le dossier Iran/Ormuz/Liban/Hezbollah éclaire différemment ce mécanisme. Il ne se traite pas selon la même économie additive que les autres dossiers, parce que les questions journalistiques y sont plus précises et les engagements adoptés plus incertains dans leur mise en œuvre. Le locuteur y déploie en conséquence un registre argumentatif plus complexe, combinant argument de communauté, argument d'autorité institutionnelle et cadrage par dissociation. Cette densité argumentative révèle, en négatif, que les dossiers traités en mode additif simple sont précisément ceux dont le consensus est suffisamment établi pour ne pas avoir besoin d'être démontré.

Ces observations ouvrent plusieurs pistes comparatives. Une analyse contrastée de conférences de presse de clôture d'autres sommets , G20, OTAN, COP , permettrait de vérifier si les traits identifiés ici constituent des régularités génériques du discours de bilan multilatéral ou relèvent de la singularité du locuteur. Une comparaison avec les conférences de presse des autres chefs d'État issus du même G7 permettrait, dans le même esprit, de distinguer ce qui appartient au genre de ce qui appartient au style.

10. Le discours de Donald Trump sur l'accord avec l'Iran : un corpus comparatif

Le 17 juin 2026, au même moment et à l'occasion du même sommet, le président américain Donald Trump tient également une

Relation sémantique	Fréquence	Contexte argumentatif principal
pression → Russie	2	Renforcement des sanctions G7 ; arraisonnement de la Shadow Fleet

8.2 La séquence argumentative type du discours de bilan

L'analyse croisée des connecteurs, des verbes et des références fait émerger une séquence argumentative récurrente, reproduite pour chacun des neuf dossiers du sommet, en trois temps. D'abord, la nomination du contexte conflictuel antérieur (« ces derniers mois avaient été marqués par la fragmentation »), associée à un connecteur d'opposition : cadrage par dissociation. Ensuite, l'énonciation de l'accord avec clôture verbale factitive et connecteur de cause (« c'est pourquoi nous sommes tous convenus… »): Argument d'autorité collective renforcé par la causalisation. Enfin, la validation quantifiée (« neuf déclarations donc, unanimes ») : preuve quasi logique.

Cette séquence ternaire, par sa répétition systématique à travers les dossiers, construit un effet d'inéluctabilité : le consensus apparaît comme la nécessité interne du processus plutôt que comme la conclusion d'une négociation fragile.

8.3 La gestion de la contestation journalistique

Les séquences dialogiques introduisent des ruptures dans cette logique cumulative. Les questions journalistiques portent systématiquement sur les zones de fragilité du consensus : la fiabilité de Trump, la solidité de l'accord avec l'Iran, la position du Brésil. Face à ces interpellations, deux stratégies se complètent : le recadrage par définition argumentative (« le texte que nous avons endossé est beaucoup plus fort que ce que vous venez de dire ») et l'auto-légitimation par cohérence personnelle passée (« si je n'avais pas tenu de manière constante les positions qui ont été les miennes, vous pourriez avoir un doute »). La contestation journalistique, loin de déstabiliser le dispositif, en révèle la robustesse.

Cette fréquence élevée répond à une pression journalistique récurrente sur la fiabilité du partenaire américain. Le locuteur y répond par deux stratégies complémentaires : la légitimation par validation mutuelle (« le président Trump a été très clair sur ce point avec notre plein soutien ») et la crédibilité par cohérence personnelle passée (« quand il s'est engagé vis-à-vis de nous, il a toujours fait ce à quoi il s'est engagé »). Ces deux stratégies construisent conjointement un argument d'autorité fondé à la fois sur la compétence politique de Trump et sur la cohérence éthique du locuteur lui-même.

Tableau 7 – Relations sémantiques les plus fréquentes (module Relations, Tropes)

Relation sémantique	Fréquence	Contexte argumentatif principal
président → Trump	13	Légitimation de l'accord Iran–États-Unis ; gestion dialogique des questions sur la fiabilité américaine
nation → groupe_des_8	9	Constitution de l'auditoire collectif G7 ; argument de communauté
président → zelensky	6	Dossier Ukraine : soutien militaire et intégrité territoriale
soutien → Ukraine	6	Engagements de défense aérienne, systèmes de longue portée
membre → groupe_des_8	5	Appartenance institutionnelle et identité G7
armée → Liban	4	Cessez-le-feu, forces armées libanaises, souveraineté territoriale
terre → Liban	3	Intégrité territoriale, restauration de l'autorité étatique

Cluster sémantique	Références / actants dominants	Connexion vers
NUCLÉAIRE (4 occ.)	accord (3)	activité (1), risque (1)
LIBAN (19 occ.)	armée (4), terre (3), trêve (2), accord (2)	autorité (2), Iran, israël, contrôle, soutien
PROCHE_ ORIENT (3 occ.)	accord (6), armée (4), péninsule_arabique (4), paix (3)	responsabilité, paix, stabilité, islam, dirigeant

7.4 L'intelligence artificielle : structure argumentative singulière

La référence « intelligence artificielle » (17 occurrences) se distingue par une séquence argumentative en trois temps, unique dans le corpus : l'aveu d'un retard (« aujourd'hui, ce sont les Américains qui ont ces modèles frontières »), la mise en valeur d'une singularité nationale (« la France a la chance, avec Mistral AI, de faire partie de ce club »), puis la projection collective (« on va accélérer les investissements pour nos propres modèles »). Cette séquence relève de l'argument d'analogie : ce qui a été accompli en matière de défense doit être reproduit dans le domaine de l'intelligence artificielle. C'est, en d'autres termes, un appel à la réplication d'un modèle de réussite.

8. Réseaux sémantiques et stratégies argumentatives

8.1 La hiérarchie des relations sémantiques

Le module Relations de Tropes identifie les paires de termes co-occurrents dans une même proposition. La relation président→Trump (13 occurrences) est la plus fréquente du corpus, et ce résultat traduit, sans surprise, le poids stratégique de la relation bilatérale franco-américaine dans la narration du sommet.

Liban, il forme un macro-cluster géopolitique traité comme une seule et même question de stabilisation régionale. La formule « le détroit d'Ormuz était la pierre angulaire justement du début de cet accord » illustre un cadrage par association : soutenir l'accord, c'est nécessairement soutenir la paix dans la région.

Le Liban (19 occurrences), troisième pôle de ce cluster, est pensé à travers le prisme du contrôle territorial et militaire, armée (4), terre (3) , plutôt que de l'aide humanitaire. Les relations armée→Liban et terre→Liban traduisent l'axe argumentatif central : restituer à l'armée libanaise le monopole des armes sur son territoire. Le Hezbollah, explicitement nommé et connecté à l'Iran dans le réseau sémantique, est traité par dissociation des responsabilités : « L'Iran, le Hezbollah, et derrière aussi Israël. Je ne mets pas un signe égal. »

Tableau 6 – Clusters sémantiques du dossier Proche et Moyen-Orient (Tropes, Scénario et Références utilisées)

Cluster sémantique	Références / actants dominants	Connexion vers
ACCORD (37 occ.)	groupe_des_8 (2), Iran (1), usa (1), Liban (1), émir (1)	Iran (3), soutien (3), nucléaire (3), usa (3), Liban (2), Ukraine (1), ormuz (1)
IRAN (14 occ.)	accord (3), chef (1), qatar (1), émirats_ arabes_unis (1)	responsabilité, détroit_d_ ormuz, usa, hezbollah, accord, président
DÉTROIT_D_ ORMUZ (3 occ.)	question (2), trêve (1), accord (1)	Liban, question, conversation, trêve

7.2 Le dossier Ukraine : résistance et soutien défensif

L'Ukraine (35 occurrences) constitue, après le méta-référent « groupe des 8 », le dossier diplomatique le plus dense. Son champ sémantique s'organise autour de deux isotopies en tension: la vulnérabilité subie, attaques, populations civiles, hiver, infrastructures détruites, et la résistance affirmée, l'Ukraine avance, la Russie recule.

Cette opposition correspond à un cadrage par dissociation : le désavantage passé valorise la résilience présente. La relation soutien→Ukraine (6 occurrences) confirme que ce soutien reste indissociable de la question territoriale, tandis que la relation pression→Russie (2 occurrences), liée aux sanctions et à l'arraisonnement de la Shadow Fleet, nomme la contrainte exercée sur l'adversaire sans recourir à un registre d'hostilité directe, mesure rhétorique que l'on retrouve dans d'autres sommets multilatéraux.

7.3 Le dossier Iran/Ormuz/Liban/Hezbollah : cluster géopolitique du Proche et Moyen-Orient

Ce dossier constitue l'une des zones les plus denses et les plus sensibles du corpus. Le terme « accord » (37 occurrences, troisième référence la plus fréquente) s'y révèle central : ses co-occurrents les plus fréquents, Iran, nucléaire, usa, soutien, Liban, ormuz , indiquent qu'il ne s'agit pas d'un accord générique mais d'un événement précis et d'actualité : l'accord États-Unis–Iran négocié sous l'administration Trump.

L'Iran (14 occurrences) occupe une position nœudale dans le réseau sémantique. Ses connexions de sortie, responsabilité, détroit_d_ormuz, usa, hezbollah,,, révèlent la stratégie adoptée : le locuteur soutient explicitement l'accord (« c'est un accord que nous soutenons parce qu'il met fin à une situation de très grande instabilité ») tout en articulant ce soutien à la responsabilité iranienne vis-à-vis du Hezbollah.

Le détroit d'Ormuz (3 occurrences), bien que peu fréquent, est argumentativement saillant : associé à question, accord, trêve et

leur fréquence. Le terme « groupe des 8 » (64 occurrences) domine largement, et ce n'est pas anodin. Il désigne l'instance institutionnelle légitimante par excellence, celle à laquelle toutes les décisions sont attribuées. Sa fréquence oriente l'ensemble du discours vers l'argument de communauté : le G7 est l'acteur collectif omniprésent qui décide, adopte, s'engage.

Suivent « président » (42), « accord » (37), « Ukraine » (35) et « Liban » (19), ainsi que « Iran » (14) et « Trump » (13), ce qui atteste le poids central des dossiers géopolitiques dans l'économie discursive du corpus.

Tableau 5 – Références utilisées les plus fréquentes (module Références utilisées, Tropes)

Référence	Fréquence	Référence	Fréquence
groupe_des_8	64	Usa	17
Président	42	intelligence artificielle	17
Accord	37	ensemble	16
Ukraine	35	France	15
Nation	27	Trêve	15
Conversation	27	collaboration	15
Question	22	situation	15
Déclaration	20	Iran	14
Liban	19	Trump	13
Sommet	19	capacité	13

Si le « nous » domine dans la phase d'annonce des résultats, le « je » reprends le dessus dans les séquences dialogiques où le locuteur est mis en cause personnellement : la fiabilité du président américain (« j'ai toujours eu confiance dans le président Trump, parce que je lui ai toujours dit les choses ») ou la politique d'accueil diplomatique (« je l'assume totalement »). Cette alternance n'est pas un hasard stylistique : le « nous » construit le consensus collectif dans la phase de bilan ; le « je » assume la responsabilité individuelle dans la phase de justification.

Tableau 4 – Profil pronominal (famille JE/ NOUS/ON/VOUS)

Pronom	Occurrences	Part relative	Fonction énonciative
Nous	132	24,2 %	Ethos collectif : G7+, coalition diplomatique
Je	113	20,7 %	Responsabilité individuelle, justification dialogique
On	107	19,6 %	Effacement énonciatif, consensus implicite
Il / Ils	88	16,1 %	Tiers référentiels (Trump, Zelensky, partenaires…)
Vous	54	9,9 %	Adresse dialogique (journalistes)

7. Organisation lexicale par dossiers : références et clusters sémantiques

7.1 La hiérarchie des références utilisées

Le module Références utilisées de Tropes identifie les unités lexicales constitutives de l'univers du corpus et hiérarchise

Catégorie	Occurrences	Part relative	Effet énonciatif
Doute	0	0,0 %	Absence totale : posture d'assertion pleine

6. Le profil pronominal : gestion énonciative de la responsabilité

6.1 La polysémie stratégique du « nous »

La répartition pronominale fait apparaître la supériorité du « nous» (24,2 %, 132 occurrences) sur le « je » (20,7 %, 113 occurrences) et le « on » (19,6 %, 107 occurrences). Cette hiérarchie caractérise le discours de bilan diplomatique multilatéral : le locuteur ne parle pas en son seul nom mais au nom d'une coalition, ou plutôt de plusieurs coalitions selon les dossiers.

Car le « nous » est polysémique, et délibérément. Il désigne selon les contextes le G7 dans son intégralité (« nous sommes tous convenus »), le G7+ (« nous, avec l'Inde, le Kenya, la Corée du Sud »), les partenaires européens (« nous, Européens »), ou la France seule (« nous avons convenu que l'initiative co-bâtie par la France »). Cette polysémie n'est pas une ambiguïté involontaire mais une ressource : le locuteur définit lui-même le périmètre du collectif selon les dossiers, intégrant progressivement son auditoire dans le camp des consentants.

6.2 Le «on» : l'effacement énonciatif au service du consensus implicite

Le pronom « on » (19,6 %, 107 occurrences) efface le sujet énonciateur en présentant une décision comme relevant d'une évidence partagée, sans qu'un acteur identifiable en assume explicitement la responsabilité, « on à commencé à construire des éléments de coordination très clairs ». Il fonctionne comme un pivot entre l'ethos individuel du « je » et l'ethos collectif du « nous », projetant un consensus si établi qu'il ne nécessiterait plus d'énonciateur identifiable pour être dit.

6.3 Le « je » : la réappropriation individuelle face à la contestation

à la domination des factifs et des modalisations d'intensité, elle construit un univers discursif où les résultats du sommet ne peuvent être relativisés sans sortir du terrain posé par le locuteur lui-même.

5.2 La primauté des adjectifs objectifs : la rhétorique de la factualité

Les adjectifs objectifs (47,0 %, 195 occurrences) devancent légèrement les adjectifs subjectifs (44,1 %, 183 occurrences). Des termes comme « unanime », « clair », « concret », « historique » privilégient une rhétorique du constat : le discours se présente comme une description plutôt que comme une appréciation, estompant ainsi la frontière entre l'énoncé performatif et l'énoncé constatif.

La quantification systématique des résultats, « neuf déclarations unanimes », « 195 projets concrets », « 64 milliards d'euros », renforce cet effet en fournissant des preuves quasi logiques au sens de Perelman et Olbrechts-Tyteca (1958). Le chiffre y fonctionne comme une clôture argumentative : ce qui est quantifié ne se discute plus, il se comptabilise.

Tableau 3 – Répartition des modalisations

Catégorie	Occurrences	Part relative	Effet énonciatif
Intensité	254	37,5 %	Gradation ascendante, effet d'excédence
Affirmation	95	14,0 %	« Évidemment » : consensus préconstruit
Temps	90	13,3 %	Ancrage temporel des assertions
Lieu	90	13,3 %	Délimitation géographique des engagements
Négation	78	11,5 %	Délimitation par exclusion
Manière	71	10,5 %	Qualification des procédures

Type de connecteur	Occurrences	Part relative	Rôle argumentatif
Opposition	49	9,7 %	Dissociation avant/maintenant
Disjonction	26	5,2 %	Alternatives présentées
Temps	25	5,0 %	Ancrage chronologique
Comparaison	18	3,6 %	Analogie argumentative
Condition	16	3,2 %	Cadrage conditionnel
But	6	1,2 %	Projection téléologique

5. Modalisations et adjectifs : objectiver le jugement politique

5.1 Intensité et affirmation : amplifier et présupposer

Deux catégories modales se distinguent par leur poids argumentatif. Les modalisations d'Intensité (37,5 %, 254 occurrences, extrêmement, très, absolument) produisent une gradation ascendante qui amplifie la valeur des résultats et crée un effet d'excédence : les acquis non seulement existent, ils dépassent ce qui pouvais être anticipé.

Les modalisations d'Affirmation (14,0 %, 95 occurrences) reposent quant à elles sur l'adverbe « évidemment », particulièrement récurrent dans le corpus. Cet adverbe présuppose un accord déjà acquis de l'auditoire et fonctionne comme un marqueur de consensus préconstruit : si un fait est « évident », il n'a pas besoin d'être démontré, ce qui dispense le locuteur d'une argumentation explicite, stratégie rhétorique efficace mais aussi révélatrice.

L'absence totale de modalisations du Doute (0,0 %) mérite d'être relevée avec soin. Loin d'être un accident stylistique, cette fermeture modale constitue une stratégie délibérée : un locuteur qui ne doute de rien impose discursivement la certitude. Combinée

les dossiers les uns aux autres, produisant un effet d'exhaustivité et de solidité globale du bilan. L'effet est saisissant : même si un journaliste met en doute un accord particulier, l'édifice continue de tenir grâce à la somme de ses autres composantes.

Cette logique additive constitue la charpente argumentative de l'allocution. Elle rend le consensus multidimensionnel et, par conséquent, plus difficile à démonter dans son ensemble.

4.2 Les connecteurs de cause : du récit à la démonstration

Les connecteurs de Cause occupent la deuxième place (17,3 %, 87 occurrences) : parce que, donc, c'est pourquoi. Leur présence systématique transforme le récit diplomatique en enchaînement démonstratif. Les conclusions ne sont pas étayées par des preuves extérieures mais déduites de prémisses posées par le locuteur lui-même, « et donc c'est pourquoi je peux vous dire que ce G7 est objectivement un succès ». L'auditoire est ainsi invité à suivre un enchaînement logique plutôt qu'à évaluer indépendamment chaque affirmation.

Les connecteurs d'Opposition (9,7 %, 49 occurrences) méritent une attention particulière. Ils opèrent la dissociation bretonienne entre un « avant » conflictuel et un « maintenant » consensuel. Nommer explicitement les désaccords passés, « ces derniers mois avaient été marqués par la fragmentation », pour mieux valoriser l'accord présent constitue un argument de cadrage par contraste : le consensus obtenu n'aurait pas la même valeur s'il n'était pas présenté comme une rupture qualitative.

Tableau 2 – Répartition des connecteurs logiques

Type de connecteur	Occurrences	Part relative	Rôle argumentatif
Addition	276	54,9 %	Accumulation exhaustive, bilan cumulatif
Cause	87	17,3 %	Chaîne démonstrative, causalisation narrative

les membres du G7 étaient d'accord pour dire la nécessité de ce soutien»), le locuteur transforme des déclarations individuelles en preuves concordantes d'un accord global, la convergence des voix faisant office de preuve par accumulation.

Tableau 1 – Catégories verbales (allocution présidentielle G7 Évian, 8 343 occ., Tropes)

Catégorie verbale	Occurrences	Part relative	Fonction argumentative
Verbes factifs	558	42,7 %	Clôture performative des résultats
Verbes statifs	459	35,1 %	Stabilisation et factualisation du jugement
Verbes déclaratifs	277	21,2 %	Traçabilité, preuve par concordance
Verbes performatifs	13	1,0 %	Engagement direct du locuteur

4. Les connecteurs logiques : accumulation et causalisation

4.1 La prédominance de l'addition : une logique de bilan exhaustif

Les connecteurs d'Addition dominent écrasamment le système logique du corpus (54,9 %, 276 occurrences). Ce résultat éclaire l'économie discursive d'ensemble : le discours ne procède pas par élimination ni par opposition, mais par accumulation cumulative. Les connecteurs « et aussi », « en même temps », « également » enchaînent

descriptive ne dirait rien des opérations argumentatives sous-jacentes aux fréquences observées.

3. Les catégories verbales : performatiser le consensus

3.1 La domination des verbes factifs : fermer l'action sur elle-même

Les verbes factifs (42,7 %, 558 occurrences) dominent largement le système verbal du corpus, ce résultat est, à lui seul, significatif. Ils expriment des actions concrètes dont le résultat est présenté comme effectivement accompli : « nous avons adopté », « nous sommes convenus », « 195 projets concrets ont été bâtis ». Leur valeur argumentative est double : ils signifient que l'action a eu lieu et en garantissent simultanément la réalité.

Le recours massif au passé composé de la voix active, plutôt qu'au futur ou au conditionnel, produit une clôture argumentative décisive : les décisions ne sont pas annoncées comme à venir mais présentées comme déjà entérinées. En disant « nous avons convenu », le locuteur ne rapporte pas une décision extérieure à son acte de parole : il la constitue comme irréversible, ce que Ducrot (1984) nomme la performativité de l'énoncé.

3.2 Verbes statifs et déclaratifs : stabiliser les états, tracer les positions

Les verbes statifs (35,1 %, 459 occurrences) jouent un rôle complémentaire, que l'on aurait tort de négliger. Là où les factifs clôturent les actions, les statifs , être, avoir, demeurer , fixent le présent comme état de fait acquis. La formule « ce G7 est objectivement un succès » en est l'illustration la plus nette : le jugement de valeur y prend la forme d'un état de choses, renforcé par une modalisation d'affirmation qui prétend neutraliser toute contestation possible.

Les verbes déclaratifs (21,2 %, 277 occurrences, dire, affirmer, confirmer, rappeler) assurent quant à eux la traçabilité des prises de position. En rapportant les paroles des autres dirigeants (« tous

tendances lexicales que la lecture qualitative vient confirmer ou nuancer au cas par cas, non comme des preuves d'un écart structurel entre les deux locuteurs.

En troisième lieu, la comparaison entre les deux corpus reste partiellement limitée par la différence de leur fonction communicationnelle: le discours de Macron est un bilan global multithématique, celui de Trump une justification ciblée d'un accord spécifique. Cette asymétrie, que nous reconnaissons comme une limite, n'invalide pas la comparaison mais en définit le périmètre ce que nous comparons, c'est la manière dont deux locuteurs traités par le même outil résolvent discursivement, dans un même contexte événementiel, le problème de la construction de la légitimité diplomatique.

2. Corpus et protocole méthodologique

Le corpus est la transcription officielle de l'allocution prononcée par Emmanuel Macron à l'issue du Sommet du G7 d'Évian, le 17 juin 2026 à Évian-les-Bains. Disponible sur le site de la Présidence de la République française, il comprend la déclaration liminaire et six séquences de questions-réponses, retenues intégralement afin de préserver le caractère dialogique du genre, car c'est précisément dans ces échanges que le dispositif argumentatif révèle sa flexibilité.

Le corpus représente 8 343 occurrences pour 947 propositions, dont 53 propositions remarquables au sens de Tropes, les énoncés jugés les plus représentatifs de l'ensemble du texte. Le logiciel qualifie le style général d'« argumentatif », c'est-à-dire propre à un discours qui discute, compare ou critique: cette qualification confirme d'emblée la vocation argumentative dominante de l'allocution, y compris dans les passages consacrés au compte rendu des décisions adoptées.

Notre protocole articule deux temps. Le premier, quantitatif, inventorie et classe les données issues des différents modules de Tropes. Le second, qualitatif, interprète ces résultats à partir des extraits correspondants dans le corpus. Cette articulation est nécessaire et non optionnelle : une lexicométrie purement

: il s'agit de l'étude quantitative du vocabulaire en contexte d'énonciation (Mayaffre, 2005), qui permet d'objectiver des observations susceptibles de demeurer, dans une analyse purement qualitative, tributaires de l'intuition du chercheur. Le logiciel Tropes, employé ici dans sa version française, segmente le texte en propositions, désambiguise sémantiquement les unités lexicales et les classe selon des catégories grammaticales et sémantiques hiérarchisées.

Ses principaux modules, catégories verbales, connecteurs logiques, modalisations, adjectifs, pronoms personnels, références utilisées, scénario et relations sémantiques, permettent, mis en regard les uns des autres, de dresser un profil lexicométrique multidimensionnel du corpus. C'est cet agencement d'ensemble qui nous intéresse, plus encore que chaque résultat pris isolément.

1.4 Limites et précautions méthodologiques

L'usage du logiciel Tropes appelle quelques précautions que la rigueur scientifique impose de formuler explicitement. En premier lieu, les catégories grammaticales produites par Tropes, en particulier la distinction entre verbes factifs, statifs et déclaratifs, ou entre adjectifs objectifs et subjectifs, relèvent d'un traitement sémantique automatique fondé sur un dictionnaire propriétaire non accessible à la vérification extérieure. Ces classifications, si elles permettent une approche quantitative reproductible, ne coïncident pas nécessairement point par point avec les catégories de la linguistique traditionnelle; leur interprétation appelle donc une lecture qualitative des extraits correspondants, que nous avons systématiquement opérée.

En deuxième lieu, Tropes ne produit pas de tests statistiques de significativité : les fréquences et pourcentages obtenus sont des mesures descriptives, non inférentielles. Dans la démarche comparative que nous menons entre le corpus de Macron (8 343 occurrences) et celui de Trump (3 891 occurrences), les différences observées ne peuvent être assorties d'un indice de significativité au sens statistique strict. Nous les interprétons donc comme des

politique. C'est qu'il constitue un site privilégié d'observation des mécanismes par lesquels le langage vise l'adhésion d'un auditoire (Perelman et Olbrechts-Tyteca, 1958 ; Amossy, 2009). La notion de contrat de communication (Charaudeau, 2005) est ici centrale : elle distingue les contraintes génériques propres à chaque situation d'énonciation des stratégies discursives effectivement choisies par le locuteur à l'intérieur de ces contraintes.

Dans la conférence de presse de clôture d'un sommet, ce contrat s'avère particulièrement étroit : le locuteur y reste lié par des engagements collectifs déjà pris et ne peut revenir ni sur les termes ni sur l'issue des négociations. Sa marge de manœuvre réside donc moins dans le contenu des décisions que dans leur mise en forme discursive, et c'est cette mise en forme qui constitue l'objet de la présente étude.

1.2 La grille argumentative de Philippe Breton et la notion d'accord préalable

La grille proposée par Philippe Breton (1996) offre une prise directe sur les matériaux textuels, ce qui en fait un outil d'analyse particulièrement adapté à notre corpus. Elle distingue l'argument d'autorité, l'argument de communauté, l'argument de cadrage, définition argumentative, présentation, association, dissociation, et l'argument d'analogie. Sa notion centrale, l'accord préalable, désigne le terrain commun que tout argument présuppose entre le locuteur et son auditoire.

Dans le corpus étudié, toutefois, cet accord préalable n'est pas un point de départ mais un effet recherché l'allocution doit construire le consensus en même temps qu'elle l'annonce. Certains énoncés, comme le rappelle Ducrot (1984), ont cette propriété particulière de créer la réalité qu'ils décrivent. C'est précisément cette dimension performative du lexique diplomatique que nous nous proposons de mettre au jour.

1.3 Lexicométrie et analyse du discours politique : l'apport de Tropes

Encore faut-il préciser ce que l'on entend ici par lexicométrie

Emmanuel Macron y dresse le bilan de neuf dossiers adoptés à l'unanimité : l'Ukraine et le soutien militaire au peuple ukrainien, l'accord États-Unis–Iran et ses implications sur le détroit d'Ormuz et la situation au Liban, les partenariats internationaux, la santé mondiale, les équilibres macroéconomiques, les minéraux critiques, la lutte contre la migration irrégulière et l'intelligence artificielle , avant de répondre à six séries de questions journalistiques. Traité intégralement par le logiciel Tropes.

Ce genre discursif reste, dans la recherche francophone en analyse du discours politique, nettement moins exploré que le discours électoral (Charaudeau, 2005 ; Amossy, 2009 ; Breton, 1996) ou le discours de crise (Plantin, 1996). C'est regrettable, car la conférence de presse de clôture présente une singularité argumentative que ces autres genres n'offrent pas : le locuteur y cumule deux postures difficilement séparables, celle du rapporteur qui relate une décision collective, et celle de l'acteur qui revendique sa part dans cette décision. C'est précisément cette double position qui détermine, nous le montrerons, la stratégie lexicale d'ensemble.

Notre question de recherche est la suivante : par quels moyens lexicaux et énonciatifs le discours présidentiel construit-il la représentation d'un consensus diplomatique ? Nous défendons l'idée que ce consensus n'est pas simplement rapporté mais performativement institué , le discours le fait advenir en même temps qu'il l'annonce. Trois opérations lexicales complémentaires en sont responsables : la clôture des résultats par les verbes factifs et statifs ; la causalisation du récit politique par les connecteurs logiques ; la mutualisation de la responsabilité par l'alternance pronominale NOUS/ON/JE. L'approche quantitative menée avec Tropes est à chaque étape articulée à une lecture qualitative informée par la linguistique de l'argumentation.

1. Cadre théorique

1.1 L'argumentation dans le discours politique : contrat et stratégies

Rares sont les pratiques langagières qui ont autant retenu l'attention de la linguistique de l'argumentation que le discours

Abstract

This article examines the closing press conference held by Emmanuel Macron at the G7 Évian Summit (17 June 2026), processed with the Tropes software and interpreted through Philippe Breton's (1996) argumentative framework. The corpus displays a coherent lexical architecture, driven by the dominance of factive verbs (42.7%), the prevalence of addition connectors (54.9%), and a strategic pronominal alternation between WE and I that distributes political responsibility between the collective ethos of the G7 and the president's individual commitment. Analysis of lexical references and semantic networks reveals an organization by dossier (Ukraine, Iran/Hormuz/Lebanon/Hezbollah, artificial intelligence, international partnerships) each mobilizing distinct argumentative devices. The diplomatic unity on display thus appears less as a reported fact than as an effect performatively instituted by the very choice of words.

Keywords: lexicometrics; political discourse analysis; diplomatic consensus; argumentation; Tropes software; G7 Évian Summit; Emmanuel Macron; Middle East; Iran.

Introduction

La conférence de presse occupe, dans l'espace des genres institutionnels, une position singulière que l'on sous-estime souvent. Le locuteur y est tenu simultanément à plusieurs obligations difficiles à concilier : rendre compte d'un événement achevé, en défendre les résultats devant des journalistes qui connaissent les coulisses, et s'adresser, à travers eux, à des publics aux attentes fort divergentes, opinion nationale, partenaires diplomatiques, médias internationaux. Lorsque cet événement est un sommet multilatéral de premier plan, la tension rhétorique s'accentue encore : il s'agit de faire admettre qu'un consensus a bien été atteint entre des partenaires présentés, quelques jours plus tôt, comme profondément divisés.

C'est dans cette configuration exigeante que s'inscrit l'allocution analysée ici. Le 17 juin 2026, à l'issue du Sommet du G7 d'Évian,

Le lexique au service de la construction du consensus : Approche lexicométrique et analyse discursive de la conférence de presse d'Emmanuel Macron à l'issue du Sommet du G7 d'Évian (17 juin 2026)

Mohamed Rayani
Université de la Manouba

Résumé

Cet article examine l'allocution prononcée par Emmanuel Macron à l'issue du Sommet du G7 d'Évian (17 juin 2026), traitée par le logiciel Tropes et interprétée à la lumière de la grille argumentative de Philippe Breton (1996). Le corpus s'organise en un dispositif lexical cohérent, porté par la domination des verbes factifs (42,7%), la prépondérance des connecteurs d'addition (54,9 %) et une alternance pronominale stratégique entre NOUS et JE, qui distribue la responsabilité politique entre l'ethos collectif du G7 et l'engagement individuel du président. L'examen des références lexicales et des réseaux sémantiques met au jour une organisation par dossiers, Ukraine, Iran/ Ormuz/Liban/Hezbollah, intelligence artificielle, partenariats internationaux, dont chacun mobilise des procédés argumentatifs distincts. L'unité diplomatique affichée apparaît ainsi moins comme un fait rapporté que comme un effet performativement institué par le choix même des mots.

Mots-clés : lexicométrie ; analyse du discours politique ; consensus diplomatique ; argumentation ; logiciel Tropes ; G7 d'Évian ; Emmanuel Macron ; Proche-Orient ; Iran.

l'œuvre de Med Khaïr-Eddine, thèse de doctorat en Lettres modernes, Université Lumière Lyon 2, 2000, sous la direction de Charles Bonn et Marc Gontard, p.563, via via theses.univ-lyon2.fr.

Autrement, coll. « Série Monde », H-S, n° 5, novembre 1983, pp. 190-201.

- K.B, *« Tahar Djaout,* ce vigile de l'écriture », BEYLER Louis, CHATELAIN, Gérald (dirs.) Djazâar. L'année de l'Algérie, Paris, éd. SACOM, 2003, p.21.
- LIONNET, *Françoise,* « Littérature-monde, francophonie et ironie : modèles de violence et violence des modèles », Littératures francophones, Lyon, éd. E.N.S, 2015, pp.119-138.
- MALRAUX André, *Nouvelle Revue Française n° 174,* 1er Mars 1928 ; Nouvelle Revue Française n° 187, 1er Août 1929.
- RENARD, *Pierrette,* « Traversée du désert et quête initiatique », Recherches et Travaux. La littérature et le désert, n° 35, Grenoble, ELLUG, 1988, pp.101-109.
- ZAHIR, *Mohamed,* « Poétique du désert et thématique de l'errance dans Le livre de sang de Abdelkébir Khatibi », Voyage, errance et exil. Parcours existentiels, Tlemcen (Algérie), 2019, pp.68-79. Opina Verba (format PDF), https:/www.Opinaverba.com/livres.

Article individuel

- BOUDON, *Brigitte,* « Dialogue socratique, l'éveil de l'âme », Acropolis. Socrate, l'actualité du dialogue, H-S, n° 2, Paris, Nouvelle Acropole, pp.44-45, www.revue-acropolis.fr< revues-digitales<hors-série-acropolis-n° 2.

Article numérique

- LALLOZ Jean-Pierre, *« Le reste n'est que littérature »,* [En ligne : 22/2/2014] URL : www.philosophie-en –ligne. Org. pp.1-14, [Consulté le : 16/5/2026].

Thèse en ligne

- MEZGUELDI, *Zohra,* Oralité et stratégies scripturales dans

Gallimard, coll. « Folio », 1988 ; 1ère éd.1980.

- MEDDEB, *Abdelwahab,* Phantasia, Paris, Seuil, 1985 ; Talismano, Paris, Sindbad, coll. « La Bibliothèque arabe / Littératures », 1987 ; L'Exil occidental, Paris, Albin Michel, 2005.

Ouvrages généraux :

- BONN, *Charles,* ROTHE, Arnold, « Littérature maghrébine et littérature mondiale », Würzburg [Allemagne], Königshausen et Neumann, 1995.
- BENVENISTE, *Émile,* Problèmes de linguistique générale, tome 2, Paris, Gallimard, coll. « Bibliothèque des sciences humaines », 1974.
- LIPOVETSKY, *Gilles,* L'ère du vide, Paris, Gallimard, coll. « Essais », n° 225, 1983.

Collectifs :

- ABÉCASSIS, *Armand,* « Que la lumière soit », La Lumière, Paris, Autrement, Série « Mutations », n° 125, Nov. 1991, pp.143-154.
- BEN JELLOUN, *Tahar,* « Mutations sahariennes », Désert : nomades, guerriers, chercheurs d'absolu, Autrement, coll. « Série Monde », H-S, Paris, nov.1983, p.244.
- BIVONA, *Rosalia,* « Tahar Djaout ou le désert des espaces croisés », Voix de la Francophonie : Belgique, Canada, Maghreb, Barcelone, éd. Universitat de Barcelona, 1999, pp.297-304, www Limag.com / textes/ Bivona / Barcell.htm
- FARÈS, *Nabile,* « Valeur bénéfique d'une maghrébinité », Annuaire de l'Afrique du Nord, Paris, C.N.R.S, 1984, pp.210-212.
- JABÈS, *Edmond,* COHEN, Marcel, « Invitation à une lecture nomade », Désert, Nomades, guerriers, chercheurs d'absolu, Paris,

l'ultime récompense dont parle Le Nouveau Testament : « A celui qui vaincra je donnerai à manger de l'arbre de vie. »[42]. A qui d'autres, sinon à ceux qui font apparaître le dessous des choses, « les hommes libres[43] », détenteurs du Secret de l'amer et du doux ?

Bibliographie :

Texte biblique

- Nouveau testament, *Genève,* La Nouvelle Édition de Genève, 1979.

Œuvres littéraires :

- BEN JELLOUN, *Tahar,* La prière de l'absent, Paris, Le Seuil, coll. « Points », 1982 ; L'Enfant de sable, Paris, Seuil, 1985.
- BERNANOS, *Georges,* L'imposture, Paris, Plon, 1927.
- DJAOUT, *Tahar,* L'Invention du désert, Paris, Seuil, 1987.
- FARÈS, *Nabile,* Le Champ des oliviers, Paris, Seuil, 1972.
- JABÈS, *Edmond,* Le Livre des questions (t. I), Paris, Gallimard, coll. « Blanche », 1963 ; Du désert au livre. Entretiens avec Marcel Cohen, Belfond, Paris, 1980.
- KHATIBI, *Abdelkébir,* La Mémoire tatouée, Paris, Denoël, 1971 ; Le Livre de sang, Paris, Gallimard, 1979 ; Maghreb pluriel, Paris / Rabat, Denoël / S.M.E.R., 1983.
- KHAIR-EDDINE, *Mohamed,* Agadir, Paris, Seuil, 1967 ; Histoire d'un Bon Dieu, Paris, Seuil, 1968 ; Moi, l'aigre, Paris, Seuil, 1970 ; Une Vie, un rêve, un peuple, errants, Paris, Seuil, 1978.
- LE CLÉZIO, *J.M.G,* L'Extase matérielle, Paris, Gallimard, coll. « Folio –essais », n° 212, 1993 ; 1ère éd.1967 ; Désert, Paris,

(42) - *Apocalypse*, *II, 7.*
(43) - J.M.G. Le Clézio, *Désert, op. cit.,* p.438.

Et Gilles Lipovetsky de confirmer : « Ici, le désert n'a plus de commencement ni de fin[36]. » Il s'agit de transversalité et non de mimétisme culturel. La polyphonie, le rythme et les échos de la langue française sont traduits par A. Khatibi qui explique dans Maghreb pluriel : « La langue française n'est pas la langue française : elle est plus ou moins toutes les langues internes ou externes qui la font ou la défont[37]», là où la réflexion de T. Ben Jelloun soutient les points de suspension : « Ô compagnons des mots et des chants, c'est une histoire interminée[38] », clame Yamna, l'un des personnages de La prière de l'absent[39].

L'âme continue son errance dans l'espace de la soif, du visible et de l'invisible, du profane et du sacré. Le désert est le lieu de la manne ou de la sagesse. Il devient le jardin de tous les fruits et de la fertilité. Du désert-manque, imperfection, douleur et mort, l'écrivain maghrébin conquiert le désert-Éden dans sa traversée, accompagné de ses personnages. C'est précisément ce renversement métaphorique qui exprime la floraison poétique des mots, car le texte est la lumière du Logos qui distingue l'écrivain-créateur. Le parcours se traduit ainsi par la déconstruction de l'imaginaire unidimensionnel de l'originéité pour garantir le passage vers le livre-monde qui installe l'être dans « l'œil du cœur », espace du sublime, réservé à l'être esthétique.

A l'influence des soufis nomades « porteurs de vérités qui ne cessent de se retirer du monde[40] », A. Meddeb relie la réceptivité des impressions et l'aptitude à percevoir les représentations. Il nous nomme le signe comme projet de déplacement dans l'espace de l'invitation et de la rencontre avec l'Homme et le mot dans l'expérience de l'éternité. Armand Abécassis signale que le « Verbe s'est fait chair (…) en tant que relation de sens, de lumière[41]. » A saisir, dirions-nous, dans un acte volontaire, pour

(36) - G. Lipovetsky, *L'Ère du vide, Paris,* Gallimard, coll. « Essais », n° 225, 1983. p.55.
(37) - A. Khatibi, *Maghreb pluriel, Paris / Rabat,* Denoël / S.M.E.R., 1983, p.188.
(38) - T. Ben Jelloun, *La Prière de l'absent, Paris,* Le Seuil, coll. « Points », 1982 p.130.
(39) - *Ibid.*
(40) - A. Meddeb, *L'Exil occidental, Paris,* Albin Michel, 2005, p.11.
(41) - A. Abécassis, *« Que la lumière soit », La Lumière,* Paris, Autrement, Série « Mutations », n° 125, Nov. 1991, P.21.

> La culture n'est rien ; c'est l'homme qui est tout. Dans sa vérité contradictoire, dans sa vérité multiforme et changeante. Ceux qui se croient cultivés parce qu'ils connaissent la mythologie grecque, la botanique ou la poésie portugaise, se dupent eux-mêmes. Méconnaissant le domaine infini de la culture, ils ne savent pas ce qu'ils portent de vraiment grand en eux : la vie(34).

Le « Je » de l'écrivain est donc la présence d'un « Soi » aux représentations dynamiques des références culturelles, intimement liées à la diversité. C'est aussi un regard posé sur la dialectique des cultures où « l'interdit » raconte le déplacement ou le va et vient entre le particulier et le général, le mythe et la réalité, le passé et le présent, et puis, le dit et le non-dit.

Interfèrent. Entre « Soi » et « l'Autre », « plusieurs » et « multiples », dans la mouvance évolutive se fait l'interaction aussi bien réelle que virtuelle. Dans la réciprocité et la communication exolingue se précise une démarche où la littérature maghrébine tend à l'universel et fait son passage de la langue française vers « l'impression française ». La francophonie exprime l'énonciation et l'articulation de textes élaborés à la mesure de l'humain, au-delà des frontières géographiques, au nom d'un « Je » intra-culturel véhiculé par une forme et un fond qui dépassent l'anthropologique. Habiter dans l'interculturel, c'est également effectuer son propre cheminement initiatique, en laissant une marge importante à la cyberculture qui façonne autrement les rapports civilisationnels.

La littérature d'un monde en transformation, explique Françoise Lionnet, ne peut être que désaxée :

> Artistes et écrivains s'insurgent contre le modèle hiérarchique du centre et de la périphérie, inventent de nouvelles façons de faire entendre non seulement les dissonances langagières et l'hétérogénéité de leur parole, mais aussi leur rapport ironique à la tradition dominante(35).

(34) - J.M.G. Le Clézio, *L'Extase matérielle, Paris,* Gallimard, coll. « Folio –essais », n° 212, 1993, p.44.

(35) - F. Lionnet, *« Littérature-monde, francophonie et ironie : modèles de violence et violence des modèles »,* Littératures francophones, Lyon, éd. E.N.S, 2015, p.120.

régénérescence. La liberté nécessite le détachement de tout, et de soi-même pour une éventuelle présence au monde. On rattache son sens à l'invitation dans un livre nouveau. Celle-ci annonce le livre comme « devenir », car l'écrivain, détenteur de ses propres règles et approche de la langue qu'il traduit, emmène le lecteur dans les méandres de son espace « dans » et « hors » langue.

Jeu de la créativité commune dans la liberté, pour une rencontre unique, à la mesure de la remise en question de l'exercice de la littérature. La critique littéraire en exprime le principe et fait valoir l'édification de nouvelles formes d'écriture. Echange, dialogue, rupture et invention désignés par l'emprunt du lieu de la confrontation et de la communication, comme une Re-naissance affirmée par M. Khaïr-Eddine comme un impératif : « Fallait pour traverser cette eau [dit-il], s'allumer soi !(32). » Autant dire, émerger de l'âtre au nom de la vie où la liberté est une forme de révélation annoncée dans Phantasia, de A. Meddeb, à travers l'écriture rythmée par la respiration du corps. Et il se tient parfois en apnée, pour mieux s'élancer, dans un mouvement que A. Khatibi définit ainsi dans Le livre du sang :

> [Celui] qui surélève le corps jusqu'au vertige de l'être, qui l'éprouverait sans intense hallucination […] nous saisissant au seuil du désert en un vol fulgurant, ni la terre, ni ses montagnes ne peuvent nous retenir […] Là où jaillit sa source, le chant même s'éveille et dicte la résonance de notre destin(33).

Les promesses de l'itinéraire se concentrent dans la voix de l'espoir, en dépit de l'ancrage dans la condition humaine faite de solitude, car la lucidité sous-tend la clairvoyance, et la conscience de soi accroche l'instant à la conciliation avec le cosmos et à la beauté de la lumière des mots qui emporte vers l'exaltation, douce, délicate. Ainsi, dans la transformation réside le « Je » de l'écrivain, avec sa subjectivité transcendante et son approche de la vie comme connaissance, au sens le plus large du terme. Nous puisons dans les propos de Le Clézio ce qui suit :

(32) - M. Khair-Eddine, *Une vie, un rêve,* un peuple, errants, op.cit., p. 45.
(33) - A. Khatibi, *Le Livre de sang, op.cit.,* p. 85.

Un livre infini

Aucune autre possibilité pour la genèse à travers chaque souffle créateur de l'écrivain. Le lieu du désir n'est jamais éternel, mais à reconquérir, même en « brouillant le sens[29] », nous dit Pierrette Renard, pour dépasser les frontières de la fiction. Le lien direct avec les lieux du désert participe à l'affranchissement de la matérialité pour atteindre l'essence symbolique en éternelle restructuration aussi bien au niveau narratif que syntaxique et de l'imaginaire au nom des mutations configurationnelles. Il faut lire le double sémantisme de l'être de sable.

Et quand les signes pérégrinent dans Talismano de A. Meddeb, ne deviennent-ils pas alors au cœur du désert où l'on peut se perdre en se remémorant des épisodes du vécu et de l'histoire ? Sortir des ruelles étroites de la ville ancienne, c'est déjà l'appel de l'horizon du livre ouvert car l'effacement ne signifie point perte de trace

Dans La Nuit sacrée, contre tous les efforts de Zahra pour oublier son passé, chasser les souvenirs et recommencer une nouvelle existence, elle doit se soumettre à l'impossibilité de l'oubli total qui lui apparaît dans toute sa nudité lors de ses rêves devenant cauchemars.

Et si les signes se brisent dans Le livre des questions, ils confirment alors les propos de leur créateur, E. Jabès ? qui partage l'écriture de l'errance en présentant sa réflexion : « Où est le chemin ? Le chemin est toujours à trouver, une feuille blanche est remplie de chemins[30]. » Le désert offre, permet et invite à prendre conscience, donc à s'initier au refus de l'imitation. D'abord, le sentiment de liberté et de légèreté, à défaut d'attaches, puis, le mouvement ascensionnel des grains de sables qui remontent par le vent dans une dynamique évolutive, à l'image des hommes bleus rapportée par Le Clézio dans Désert : « Ils s'en allaient comme dans un rêve[31] », exprimant la naissance des mots de la

(29) - P. Renard, *« Traversée du désert et quête initiatique », Recherches et Travaux. La littérature et le désert,* n° 35, Grenoble, ELLUG, 1988, p.10.
(30) - E. Jabès, *Le Livre des questions (t. I), Paris,* Gallimard, 1963, p.59.
(31) - Le Clézio, *Désert, Paris,* Gallimard, 1980, p.439.

salvateur : dans Agadir[22], il y a « la ville morte[23] » où tout est à reconstruire, à réinventer. De là, l'accomplissement est possible dans le discours inachevé, et qui est, aussi, véhiculé par N. Farès dans Le champ des oliviers[24]. C'est toujours une parole qui échappe et qui passe par les interstices pour la « transmutation » lui répond A. Meddeb, dans Phantasia, en affirmant : « Et ma tête s'érige maîtresse dans le désordre que procure la vision de mille arbres concurrents. Tant de mondes se pressent en moi, se dispersent [25]. » A l'intérieur de…devient au-delà de… La chute se mue en projection. Il en va de même pour T. Ben Jelloun, dont le personnage est « dans », et en dehors de la fiction. Sa position est parfois hétérodiégétique et parfois homodiégétique : présent / absent / dans la parole / dans le silence ; ce qui renvoie aux reflets de ses différents visages reliés dans la dimension intra-diégétique. L'écriture du songe, du flou, le fait disparaître autant que le récit, et le gouffre dont il est question, est celui de l'incertitude, du vacillement, et de L'Enfant de sable[26].

Sur le sable, on installe des semblants de « toits », on se déplace, mais on ne peut bâtir de demeures. D'ailleurs, « qui peut, sans trembler, habiter sur des racines de sable ?[27] », s'interroge A. Khatibi. Lorsque le personnage ramène vers la trace et l'amnésie, le signe devient mobile, « désertique », polysémique, en quête d'identité – son unité.

Errance sémantique d'un signe méhariste, en perpétuel départ, ponctué par des retours furtifs. Le nomadisme du sens équivaut alors au passage et au mirage, là où les marges sont absurdes, et où L'invention du désert, texte de Tahar Djaout, nous présente des « […] pistes [qui] se croisent ou s'effacent parfois à peine ébauchées[28] ».

(22) - *Ibid., Paris, Seuil,* 1967.
(23) - *Ibid.*, *op.cit., p. 126.*
(24) - N. Farès, *Le champ des oliviers Paris, Seuil,* 1972.
(25) - A. Meddeb, *dans Phantasia, Paris,* Seuil, 1985, p.13.
(26) - T. Ben Jelloun, *L'Enfant de sable, Paris,* Seuil, 1985.
(27) - A. Khatibi, *Le livre du sang, Paris,* Gallimard, 1979, p. 38.
(28) - T. Djaout, *L'Invention du désert, Paris,* Seuil, 1987, p. 47.

ni jambes, ni bras[15] », ainsi placés en dehors de l'avancée et de l'action, encore moins de l'aspiration verticale, lien entre la terre et le ciel. Monstruosité de l'image de la mutilation. Les mots amers sont alors retenus par le quadrillage de la rature, capturés derrière les barreaux, pour libérer le texte en le retournant à l'envers et à l'endroit, en le détournant de sa linéarité pour inscrire l'édification du sens et des paragraphes comme des entités dans leur autonomie.

Parler de fragmentation, c'est désigner le texte invisible ou L'histoire d'un Bon Dieu[16], un autre titre de M. Khaïr-Eddine, qui prend la forme du silence. Les blancs entre les paragraphes reflètent certes, le tragique de l'homme, mais nous rejoignons Zohra Mezgueldi dans sa réflexion sur la « dislocation » qui impose « une parole et une pensée affranchies[17] », et c'est, ajoute-t-elle, « l'essence même de l'expérience scripturale[18]. » La question de structure, avec ses bribes, ses « gravas », et ses « miettes » - trouvons-nous dans Moi, l'aigre, de M. Khaïr-Eddine[19] renforce la profondeur du trou car « L'écriture travaille dans la béance, l'inachèvement, le vide révélé entre l'absence définitive et une présence totale[20] . » C'est cette puissance du fragment et de l'appel diurne que la lutte se fait contre ce « dedans nocturne », expressions récurrentes dans Histoire d'un Bon Dieu pour désigner l'introspection et l'errance face à différentes formes de dépossession de l'auteur/narrateur : « Tes mots roulent dans le sable, t'expulsent, réintègrent tes débris et t'étudient[21] », explique encore une fois M. Khaïr-Eddine.

Si elle exprime le chaos, l'image biblique de L'Apocalypse ne fait pas moins allusion à la gestation, au changement fructueux et

(15) - M. Khaïr-Eddine *Une vie, un rêve, un peuple,* toujours errants, Pais, Seuil, 1978, p. 12.
(16) - *Ibid., L'Histoire d'un Bon Dieu, Paris,* Éditions du Seuil, 1968.
(17) - Zohra Mezgueldi, *Oralité et stratégies scripturales dans l'œuvre de Med Khaïr-Eddine, thèse de doctorat en Lettres modernes,* Université Lumière Lyon 2, 2000, sous la direction de Charles Bonn et Marc Gontard, p.563, via theses.univ-lyon2.fr.
(18) - *Ibid.*
(19) - M. Khair-Eddine, *Moi, l'aigre,* Paris, Seuil, 1970, pp. 18-19.
(20) - Z. Mezgueldi, *op.cit., p.560.*
(21) - M. Khaïr-Eddine, *Histoire d'un Bon Dieu, Paris,* Seuil, 1970 p.102.

» La disparition du sujet est en même temps l'émergence de la trace, celle qui donne concrètement corps au jeu réciproque sans fin du désir et du plaisir face à l'appropriation de la mort. En fait, la digression dans la créativité oriente vers l'infini de l'âme, ainsi défini par Jean-Pierre Lalloz :

> L'âme des choses rend poète, et c'est à cela qu'on la reconnaît – comme c'est à être poète qu'on a pu reconnaître que des choses avaient une âme […]. A donc une âme ce qui nous met au travail de la littérature – et ainsi sans le savoir nous donne la parole(11).

Espaces croisés

Il s'agit de la parole du vivant ; celui qui scrute et traduit le vrai, au-delà de la réalité, la vérité au-delà du savoir. Oscillant entre la douceur et l'amertume, A. Khatibi, N. Farès, M. Khaïr-Eddine, A. Meddeb, T. Ben Jelloun et T. Djaout, entre-autres, déplacent la question de l'exactitude vers les horizons de la vacuité : ce vide plein qui renie le paraître pour ne garder que l'être. Ils sont condamnés à la trahison, car le goût de la vérité ne peut se faire dans la platitude de la désignation : celle des territoires limités, figés et des remparts historiques, sociologiques, culturels ou autres. André Malraux dit à ce propos, en évoquant Paul Morand, qu'il renvoie « les traits essentiels du monde qu'il s'est […] efforcé de créer(12) », et Georges Bernanos qui, dans L'Imposture(13), « ne se soumet pas au réel communément reconnu, […] vit dans un monde particulier, créé par lui (14) », loin des certitudes, dans l'espace du désert. L'écriture de l'errance, là où la fiction et le réel s'enchevêtrent confronte à l'inconnu, au manque et au Laid.

Dans son œuvre, Une vie, un rêve, un peuple, toujours errants, M. Khaïr-Eddine affirme : « Ici, les hommes n'avaient ni pieds,

(11) - J-P. Lalloz, *« Le reste n'est que Littérature », [En ligne : 22/2/2014],* URL : www.philosophie-en –ligne. Org. pp.13, [Consulté le : 16/5/2026].
(12) - A. Malraux, *Nouvelle Revue Française, 1er Août 1929.*
(13) - G. Bernanos, *L'imposture, Paris,* Plon, 1927.
(14) - A. Malraux, *Nouvelle Revue Française, 1er Mars 1928.*

histoire métaphorique de cette même métaphore[5].

Le géographique est ce même tatouage du livre écrit ou à écrire et qui impose à T. Djaout cette question que nous rapportons : « est-ce le désert inventé ou est-ce le désert qui invente ?[6] », pour parvenir à une autre : le désert, serait-il notre terroir, notre patrimoine humain ? T. Djaout nous présente l'idée d'un livre écrit sur le sable avec ses silences et ses interrogations - seraient-ce ceux du doute et du goût de l'inachevé ?

L'idée de mouvement est omniprésente. Elle est clairement manifestée dans les pérégrinations des personnages Ibn Toumert et du personnage narrateur dans L'Invention du désert du même écrivain[7]. Et elle est présente en soubassement à travers la métaphore des oiseaux. L'oiseau est le maître du mouvement, et le mouvement régit le monde. Le désert reste pour Djaout un lieu hors du commun qui lui permet de se remettre en question, de se dire et de vivre. Un espace créé et créateur. Et il en est de même pour A. Khatibi car La Mémoire tatouée[8] traduit trois conséquences : la déconstruction continue du récit par divers registres, la transformation du texte produit en objet de discours dans la structure même du roman mais aussi à l'intérieur de son dernier chapitre «Double contre-Double», et enfin la quête de l'histoire se transforme en histoire de la quête, source d'altérité. Le Moi, ni le personnage de fiction, ne sont plus prisonniers de l'histoire. L'homme pluriel émane de la subjectivité sur quoi s'interroge A. Khatibi : « N'ai-je pas fait de mon corps une recréation inquiète et inépuisable ?[9]. » La réponse peut être associée au mode énonciatif lyrique qui invite au désir, appuyée par une autre de ses citations, tirée du Livre du sang : « Fais donc circuler parmi nous ton regard clair, si clair qu›il enflamme la coupe de vin [...]. Nous avons ouvert nos cinq sens à tes parures, à ton cil pareil à un trésor[10].

(5) - *Ibid.*
(6) - K.B, *« Tahar Djaout, ce vigile de l'écriture »,* Louis Beyler, Gérald Chatelain (Dirs.)**,** Djazâar. L'année de l'Algérie, Paris, éd. SACOM, 2003, p.22.
(7) - T. Djaout, *L'Invention du désert, Paris,* Seuil, 1987.
(8) - A. Khatibi, *La Mémoire tatouée, Paris,* Denoël, 1978.
(9) - *Ibid., p.202.*
(10) - *Ibid., Le Livre du sang, Paris,* Gallimard, 1979, pp. 15-16.

> lence du rêve dans le rêve […]. Le désert est le livre jamais écrit[1].

Il s'agit alors, selon E. Jabès, d'une « pratique du silence et de l'écoute […], ouverture de toute ouverture[2]. » C'est parce que l'écrivain maghrébin est nomade, sans nom, qu'il devient par là-même, temps et lieu dans la création littéraire, là où l'espace et l'écrit se configurent réciproquement. Le vide appelle le signe, il devient la source du texte et principe structurant de la page et l'espace où peut s'investir l'imaginaire, mais aussi l'espace de réflexion du lecteur et du redéploiement du texte. Synonymes de calligraphie les mots guident le regard hors des mots tout en demeurant un corps intrinsèque.

La quête de soi émane du désir de manque et celui d'un devenir qui fait naître la médiation esthétique nous permettant d'évoquer la « parole pleine », relevant de la façon de « penser le signifiant, dans le présent de l'être même, et son engagement dans ce présent[3]. » De là, point de fixité mais une expansion à travers la temporalité même de l'existence et la projection active vers l'avenir en assumant l'héritage du passé et l'actualisation dans le présent. Et c'est la transparence du langage et sa neutralité qui s'évanouissent, montrant la pluralité du Moi entre l'ici et l'ailleurs du signe ou son étrangeté. Cependant, ce lieu de l'absence est le Maghreb, ce que N. Farès saisit comme étant un « envers, point de départ et d'éloignement de l'origine, d'un Orient[4]. » En l'expliquant par l'absence à soi, il affirme :

> Le couple Maghreb-Machrek est lui aussi inclus dans cette métaphore du clair et de l'obscur, du proche et du lointain, du familier et de l'étrange, du connu et du non-connu… ce qui inclut l'histoire dite « maghrébine » comme une

(1) - *Ibid.*
(2) - E. Jabès, *Du Désert au livre. Entretiens avec Marcel Cohen, Belfond,* Paris, 1980, p.197.
(3) - Émile Benveniste*, Problèmes de linguistique générale, tome 2,* Paris, Gallimard, coll. « Bibliothèque des sciences humaines », 1974 p.84.
(4) - « Valeur bénéfique d'une maghrébinité », *Annuaire de l'Afrique du Nord, 1984 ; Éditions du CNRS,* 1986, p.212.

communication. Writing culminates in the inhabiting of a dislodged world, calling for the unity of time and the contemporary horizon in the metaphorical reversal of the literary text grasped as the light of the Logos.

Key words : Desert – Maghreb - Creativity – Digression – Book – Opening.

Quel serait le goût du désert ? Quelle serait la saveur de ses mots ? Le désert, serait-il notre terroir, notre patrimoine humain ? ... notre livre peut-être…celui écrit sur le sable. Ses silences et ses interrogations, seraient-ce ceux du doute et du goût de l'inachevé ?

L'amer pour la provocation et le doux pour les possibilités de vie. Investir le rêve pour se nourrir de mots. Pratiquer l'exploration pour donner la parole à l'âme, dans un concept sensoriel et interactif. Il y a des mots à la bouche, mots du banquet, puis, il y a leur arrière-goût. Il y a les mets de l'agrément et ceux du malaise. Lumière et ombre dans les mots. Alors le croisement et l'oxymore nous interpellent. D'où … l'âme erre dans les saveurs littéraires d'un espace nommé Maghreb – ou crépuscule. Il renvoie à l'envers et à l'endroit, car les mots tournent dans leur énergie ou leur force d'exister. Derrière les mots, il y a les écrivains et leurs capacités transformatrices du Verbe. On déguste leurs œuvres, on s'exile à chaque demande renouvelée de l'oasis.

Écrire l'errance

Il y a un sens perdu, enlisé dans les sables du désert, qui devient la forme même de l'écriture. Une question de désignation qui mène vers l'errance dans « l'espace introuvable » de « tous les déserts(1) », ce qui fait dire à T. Ben Jelloun :

> Le désert c'est d'abord une image, une demeure intérieure […]. Le désert, c'est ensuite un secret entouré d'un secret plus grand […]. Secret du secret dans le si-

(1) - T. Ben Jelloun, *« Mutations sahariennes », Désert : nomades,* guerriers, chercheurs d'absolu, Autrement, coll. « Série Monde », H-S, Paris, nov.1983, p.244.

L'ÉCRITURE DE L'ERRANCE: UN SIGNE DÉSERTIQUE ENTRE L'ICI ET L'AILLEURS

Ilhem SAÏDA
Université de la Manouba

Résumé

Lorsque la poétique du désert mène vers l'esthétique de l'inachevé, c'est une question d'abandon du dedans pour l'introduction d'un fragment du monde menant vers l'espace de l'entre-deux, entre l'ici et l'ailleurs. Le lieu renvoie ainsi au lien entre la parole et le silence, aussi entre la présence et l'absence qui porte les écrivains vers la transmutation associant la création à la digression. Les mots deviennent subversifs et la représentation du Moi présence dynamique de la diversité pour inscrire la mouvance évolutive de « l'inter-dit » et de la communication exolingue. L'écriture aboutit à l'habitation d'un monde désancré appelant l'unité de temps et l'horizon contemporain dans le renversement métaphorique du texte littéraire saisi comme lumière du Logos.

Mots-clés : Désert – Maghreb - Créativité – Digression – Livre – Ouverture.

Abstract :

When the poetics of the desert leads to the aesthetics of the unfinished, it is a question of abandoning the inner self to introduce a fragment of the world, leading to the space of in-betweenness, between here and elsewhere. Place thus refers to the link between speech and silence, also between presence and absence, which propels writers toward a transmutation of writing, associating creation with digression. Words become subversive, the representation of the self a dynamic presence of diversity, inscribing the evolving movement of the «forbidden» and of exolingual

SOMMAIRE

L'écriture de l'errance: un signe désertique entre l'ici et l'ailleurs **Ilhem SAÏDA** Université de la Manouba	5
Le lexique au service de la construction du consensus: approche lexicométrique et analyse discursive de la conférence de presse d'emmanuel macron à l'issue du sommet du g7 d'évian (17 juin 2026) **Mohamed Rayani** Université de la Manouba	21
"Something satisfying about being angry": negative affect and functional ambivalence in akhil sharma's family life **Mootez Aloui** University of Manouba	49

مخبر «المباحث الدلاليّة
واللّسانيات الحاسوبيّة»

أسّس سنة: 2018

Al-fikr al-lissanyî

Revue scientifique à comité de lecture et spécialisée

N° 10	Juin 2026

Faculté des Lettres des Arts et des Humanités
de la manouba, 2010 Tunis
Tél.: 216.71.600.700 (Bureau 1173)
e-mail: alfikr.alissani@gmail.com